المُهَذَّب
مِنْ إحياءِ عُلومِ الدِّين

إعداد

صالح أحمد الشّامي

الجزء الأوَّل

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت

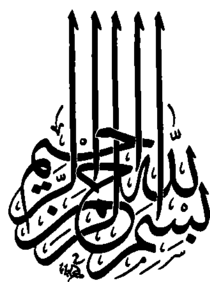
الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

المهذب

من إحياء علوم الدين


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الإعداد

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللَّهم لك الحمد، وبك المستعان ولا حول ولا قوة إلاَّ بك.

وبعد:

ليس من الصواب أن يكرر الإنسان أعمال الآخرين، فيشغل نفسه وغيره بما لا جديد فيه، فيكون عمله في تحصيل ما هو حاصل، وما لا طائل تحته، وهو بذلك يضيع وقته وأوقات الآخرين. وفي هذا ما فيه من المسؤولية أمام الله تعالى.

والعمل الذي نقدمه اليوم، ليس من هذا الباب، وليس هو مختصراً آخر يضاف إلى قائمة المختصرات الكثيرة التي وضعت لكتاب (إحياء علوم الدين) لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي.

ولكنه «الإحياء» نفسه في صورة مصغرة، لها ما للصورة الكبيرة. وفيها ما فيها من المعالم والظلال، بل قد بذل الجهد في تنقيتها من المشوهات، فزال بذلك الغبش الذي اكتنف بعض جوانبها، فبرزت فيها ملامح كانت متوارية وراء حجاب. فاستكملت بذلك معالمها، وبرز حسنها وجمالها واضحاً أخاذاً.

فنحن ــ إذن ــ لسنا أمام مختصر لكتاب الإحياء، ولذا لم تكن كلمة «مختصر» أو «منتقى» صالحة لتكون عنواناً له، إذ لا تعبِّر عن حقيقة العمل، التي هي التهذيب، فعملنا الذي نقدمه هو: ما بقي من الكتاب بعد التهذيب فكان «المهذب من إحياء علوم الدين».

وقبل الحديث عن عملي في الكتاب والدوافع له، لا بد من نبذة يسيرة عن كتاب إحياء علوم الدين وعن مؤلفه رحمه الله تعالى.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه نعم المسؤول، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة محرم الحرام ١٤١٢هـ
تموز (يوليو) ١٩٩١م

صالح أحمد الشامي

ترجمة الإمام الغزالي

هـو الإمام محمـد بن محمد بن أحمـد الطوسي الغـزالي، أبـو حـامـد حجـة الإسلام.

ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائـة، وبدأ حيـاته العلميـة فيها، ثم سـافر إلى جـرجان فـاستمع إلى أبـي نصـر الإسماعيلي، وبعـد عودتـه إلى طـوس سـافـر إلى نيسابور ولازم إمام الحرمين، وجد واجتهد وبرع في مذهب الإمام الشافعي ومسـائل الخلاف، وقرأ المنطق والجدل والحكمـة والفلسفة، وأحكم ذلـك كله، وصنف في كل فن من هذه الفنون كتباً أحسن تأليفها وأجاد وضعها.

كان شديد الذكاء، بعيد الغور، غواصاً على المعاني الدقيقة.

ولما مات إمام الحرمين، اتصل بالوزير نظام الملك، الذي أعجب بـه، فولاه التـدريس بمدرستـه ببغداد فقـدمها سنـة (٤٨٤)هـ وأعجب الخلق بحسن كـلامـه، وكمال فضله، وفصاحة ألفاظه، وإشاراته اللطيفة.

وأقام على التدريس مدة، عظيم الجاه، عالي الرتبة، مشهـور الاسم، تُضرب به الأمثال وتُشد إليه الرحال، ثم شرفت نفسه فعزفت عن الدنيا، فرفض مـا فيها من الجاه، وترك كل ذلك وراء ظهره، فقصد بيت الله الحرام، فحج ثم توجه إلى الشام سنـة (٤٨٨)هـ وجـاور في بيت المقـدس ثم عـاد إلى دمشق، واعتكف في زاويتـه بالجامع الأموي، المعروفة بـالغزاليـة نسبة إليـه، حيث لبس الثياب الخشنـة، وقلّل طعامه، وأخذ في تصنيف الإحياء.

ثم رجـع إلى بغداد وعقـد مجلساً بـالمدرسـة النظاميـة، ثم تابـع طريقـه إلى طـوس، واتخذ إلى جـانب داره مدرسـة للفقهاء، ووزع أوقـاتـه على وظـائف ختم القرآن والتدريس وإدامة الصلاة والعبـادة، إلى أن انتقل إلى رحمـة الله تعالى، يـوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة.

قال الحافظ ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية»: برع ـ الغزالي ـ في علوم كثيرة، وله مصنفات في فنون متعددة فكان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم به، وساد في شبيبته، حتى إنه درّس بالنظامية ببغداد وله أربع وثلاثون سنة، فحضر عنده رؤوس العلماء، وكان ممن حضره أبو الخطاب، وابن عقيل، وهما من رؤوس الحنابلة، فتعجبوا من فصاحته واطلاعه. قال ابن الجوزي: وكتبوا كلامه في مصنفاتهم[1].

و «لقد عاش الغزالي حياته أول الأمر كما يعيش جل علماء زمانه، وعلماء زماننا، أكبر همه الشهرة والجاه والمحمدة عند الناس، والتفوق على الأقران، والغلبة في المناظرة، وقد أدرك من ذلك حظاً عظيماً، ثم انقشعت الغشاوة عن عين بصيرته، فاكتشف أن هذا كله سراب بقيعة ﴿يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾، فصمم على أن ينسحب من هذه الحلبة الصاخبة، وينخلع من هذه الحياة الزائفة في اعتقاده، التي ظاهرها الدين، وباطنها الدنيا، وأن يعيش حياة أخرى، قوامها الزهد والتجرد والإخلاص لله، حياة يرى أن علمه وتعليمه، ومحياه ومماته فيها لله رب العالمين لا شريك له، وهكذا كما قال التاج السبكي: ترك الدنيا وراء ظهره، وأقبل على الله يعامله في سره وجهره»[2].

أما سعة علمه وثقافته فنترك الحديث عنها لشيخ الأزهر المرحوم محمد مصطفى المراغي إذ قال: «إذا ذكرت أسماء العلماء، اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم، وشعب المعرفة، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام، وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ، والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالي، فقد تشعبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد قدرته، وقيمته.. يخطر بالبال الغزالي

(١) البداية والنهاية (١٢/١٧٣).

(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، للدكتور يوسف القرضاوي، ص (١٠٦).

الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه الحر، والغزالي المتكلم، إمام السنّة وحامي حماها، والغزالي الاجتماعي، الخبير بأحوال العالم، وخفيات الضمائر، ومكنونات القلوب، والغزالي الفيلسوف، أو الذي ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره. رجل متعطش إلى معرفة كل شيء، نهم إلى فروع المعرفة»[1].

ومصنفات الغزالي كثيرة، منها:

في الفقه: البسيط، والوسيط، والوجيز، والخلاصة.

وفي الأصول: المنخول، والمستصفى الذي اختصره من كتابه: تهذيب الأصول.

وفي الفلسفة والمنطق والكلام: مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، والمنقذ من الضلال، والاقتصاد في الاعتقاد، وفيصل التفرقة، وقواعد العقائد، والمقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ومعيار العلم، ومحك النظر، وإلجام العوام عن علم الكلام، وجواهر القرآن.

وفي التصوف والتربية والأخلاق: إحياء علوم الدين، ومنهاج العابدين، وبداية الهداية، وميزان العمل، ومعراج السالكين، وأيها الولد.

وفي الفرق والأديان: فضائح الباطنية، وحجة الحق، ومفصل الخلاف.. وغير ذلك.

نكتفي بهذا القدر من الترجمة ومن أراد التوسع فليرجع إلى ذلك في مظانه[2].

***

(١) المصدر السابق ص (١٨).

(٢) من الكتب القيمة في ذلك الكتاب المذكور للدكتور القرضاوي، الطبعة الأولى (١٤٠٨)هـ، طبع دار الوفاء بالمنصورة.

كتاب «إحياء علوم الدّين»

يُعدُّ كتاب «إحياء علوم الدين» ــ وهو موضوع بحثنا ــ أعظم كتب الغزالي وأكثرها شهرة، وقد أخذ مكانته في المكتبة الإسلامية، وفرض وجوده على مر الأيام، مذ ألفه مصنفه وحتى وقتنا الحاضر، و (لا يعرف كتاب ــ بعد القرآن والصحاح ــ أثر في حياة المسلمين مثله) كما يقول الدكتور القرضاوي.

وقد اهتم به العلماء وغير العلماء، وكثر المادحون له. وانتشر ذكره في العالم الإسلامي كله، واعتبر مرجعاً في علوم الشريعة والأخلاق والتربية..

ومع هذه المكانة العظيمة التي تبوأها الكتاب، فقد كان فيه من الثغرات، ما جعله هدفاً لقدح القادحين وإنكار المنكرين.

والناقدون للكتاب فريقان:

فريق معتدل: أراد بنقده وجه الله تعالى في بيان الحق، والتوجيه إلى الصواب.

وفريق آخر: قد لا يخلو من النية الطيبة، ولكن ضيق أفقه، وانغلاقه على ما تمذهب به، جعله يخرج عن حدود الأدب الإسلامي في النقد، وعن هؤلاء صدرت كلمات الذم النابية في حق الكتاب والمؤلف، مما هو بعيد عن روح العلم ومنطقه.

ونستطيع إجمال أهم ما انتقد به الكتاب بالنقاط التالية:

١ ــ حشو الكتاب بالأحاديث الضعيفة بل والموضوعة.

٢ ــ ذكر أغاليط الصوفية وترهاتهم، وبعض كلماتهم وحكاياتهم المجانبة للصواب.

٣ ــ خلط الكتاب ببعض المعارف الفلسفية.

وقد ذكر شارح الكتاب «الزبيدي» كثيراً من هذه الانتقادات، وناقشها، أو نقل مناقشات غيره لها، كالعلاَّمة تاج الدين السبكي.

وليس من مهمة هذه المقدمة مناقشة ذلك وإطالة الكلام فيه.

ولا بد لي هنا من ذكر بعض خصائص الكتاب وميزاته وما أكثرها، ومن ذلك:

١ ـ فالكتاب ـ إضافة لمهمته الأصيلة ـ دراسة وافية لواقع المسلمين الاجتماعي من جوانبه المتعددة. نلمح ذلك من خلال حديث المصنف عن المنكرات وهو يتتبعها في كل مكان: في المساجد، والأسواق والشوارع والحمامات.. حتى أنه ليصف لنا سلوك بعض القصابين الذين يذبحون ذبائحهم في الطريق حذاء باب حانوتهم، مما يلوث الطريق ويسيء إلى المسلمين..

ونلمحه أيضاً ونحن نسمع حديثه عن العلماء المترسمين الذين همهم الدنيا، وعن المتصوفة الذين جعلوا من مظاهرهم وسيلة لكسب الدنيا..

ونلمحه أيضاً في حديثه عن الإسراف والتبذير وحديثه عن النقود وأثرها في عملية التبادل التجاري..

إنه بيان لواقع اجتماعي لتلك الفترة من الزمن قلَّما نجدها في كتاب آخر.

٢ ـ وفي الكتاب بيان لمنهج للتربية واضح المعالم يعطي للطفل مكانته فيه، نلاحظ ذلك عندما تحدث المؤلف عن ترتيب التدرج في الاعتقاد، فهناك معلومات أولية تقدم إلى الصبي كي يحفظها حفظاً، ثم لا يزال ينكشف له معناها في كبره شيئاً فشيئاً، فالابتداء الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق، وهو يذكر فصلاً كاملاً ليقدم للطفل وهو الفصل الأول في كتاب الاعتقاد.

كما يتحدث عن أسلوب تربية الطفل ومسؤولية والديه عن ذلك، ابتداء من رضاعه إلى سن التمييز، وكيف ينبغي أن يعلم الآداب في شأن الطعام واللباس والتعليم والرياضة والبعد عن الكسل.. وقد أفردت كلامه هذا في فصل خاص.. في نهاية كتاب رياضة النفس وفي ثنايا الكتاب الكثير الكثير من القواعد التربوية.

٣ ـ شغلت المصنف قضية الجهل المتفشي في أبناء المسلمين، وهو

بالتالي يحمل العلماء مسؤولية ذلك، ويرى أن من الأولويات تقديم تعليم جهال المسلمين على الاشتغال بالتفريعات التي لا طائل تحتها. . (انظر ٢/٣٤٢).

لقد عاش المصنف هموم المسلمين عملياً، وهو يصفها ويشخص الداء تشخيصاً دقيقاً ثم يضع الدواء المناسب.

٤ ـ وتنبه المصنف إلى سبب مهم من أسباب تخلف المسلمين، وهو عدم وضوح ترتيب الواجبات في أذهانهم وفق سلَّم يقدم الأهم على المهم والفرض على الواجب والواجب على المندوب إليه. وقد ترتب على ذلك شرّ كبير. . ومن أمثلة ذلك ما سبق ذكره في الفقرة السابقة من ترك العلماء الجهل المتفشي في صفوف الأمة واشتغالهم بتفريعات لا تطبيق لها في الواقع. ومن أمثلة ذلك الأغنياء الذين أمسكوا أيديهم عن الإنفاق واشتغلوا بالتقرب إلى الله بنوافل الصلاة والذكر، وإنما ميدان تنفلهم بذل الصدقات فقد قيل لبشر: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل من تجويع نفسه، ومن صلاته لنفسه. .

ولو ذهبنا نذكر ما في «الإحياء» من خصائص لطال بنا المقام، ولكنا نكتفي بما ذكرناه كمثال على ذلك.

ونختم حديثنا عن الكتاب بلفت النظر إلى ملاحظة مهمة تتعلق بطريقة المؤلف في تناوله لبعض الموضوعات.

فقد ذكر في مقدمة كتابه: أن كتاب الإحياء يتميز بخمسة أمور، منها: (الثاني: ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه)، ونتيجة لهذه الميزة التي التزم بها المؤلف، حسب ما وضع لمصنفه من مخطط للبحث، أن جمعت بعض الموضوعات من جانب ولكنها فرقت ووزعت من جانب آخر، ونضرب لذلك أمثلة:

فإنك لو ذهبت تبحث عن موضوع «النفاق» لم تجد لذكره أثراً في فهرس الكتاب، علماً بأن هذا الموضوع من صلب مادة الكتاب وموضوعه؟!

وكذلك لو ذهبت تبحث عن الجهاد لم تجد لذكره أثراً كذلك؟!

أما «النفاق» فقد ورد الحديث عنه في آخر كتاب «قواعد العقائد» (١/١٢٢ ـ ١٢٤) دون ذكر عنوان واضح، ولا شك أن بحث النفاق مرتبط بالعقيدة.

ثم ورد الحديث عنه مرة أخرى (٣/٣٠٢) عند ذكر المصنف لدرجات الرياء، فذكره في الدرجة الأولى وهي: الرياء بأصل الإيمان، واستشهد بقوله تعالى في الحديث عن المنافقين: ﴿يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلاَّ قليلا﴾.

ولا شك بأن النفاق من حيث ظاهره نوع من الرياء. وهكذا جزىء البحث..

وأما «الجهاد في سبيل الله» فقد قسم بحثه إلى أقسام: فهو بذل للنفس (استشهاد في سبيل الله) وهو إنفاق في سبيل الله، وهو مرابطة في سبيل الله.

أما الشهادة في سبيل الله فقد تحدث عنها المصنف في الأماكن التالية:

١/٢١٤ في بحث (آداب الزكاة الباطنة) إذ بيَّن أن أعظم أنواع البذل هو بذل المهج والأرواح. ويكون ذلك بالشهادة.

١/٣٠٢ في بحث التسبيح والتحميد، حيث في الاستشهاد التحقيق الكامل لقول «لا إلّه إلاَّ الله» فإنه لا مقصود له سوى الله.

٤/١٧٩ في بحث حسن الخاتمة، فالاستشهاد في سبيل الله ضمان لحسن الخاتمة، الأمر الذي يشغل بال كل مؤمن.

٤/٢٢٧ ـ ٢٢٨ عند حديثه عن الزهد، فبذل النفس في سبيل الله يمثل أعلى درجات الزهد الحقيقي.

٤/٤٩٦ عند البحث عن حقيقة الموت، حيث تحدث عن كمال نعيم الشهداء.

وأما إنفاق المال في الجهاد، فقد ورد الحديث عنه (٣/٢٣٦) عند الحديث عن فوائد المال، حيث ذكر أنه من أمهات القربات.

وأما المرابطة في سبيل الله، فقد ورد الحديث عنها عند بحث المصنف عن أفضل الأمكنة، فذكر المساجد الثلاثة وقال: (وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلاَّ «الثغور» فإن المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم) (١/٢٤٤).

ومثال ثالث نأخذه من كتاب آداب السفر (٢/٢٥٨ وما بعدها): فقصر الصلاة وجمعها لا نجده في باب الصلاة، ولكنه في كتاب السفر حيث الحاجة إليه، خلافاً لتصنيف الفقهاء، وكذلك التعرف على القبلة وأوقات الصلاة لا نجده في باب شروط الصلاة، حيث وضعه الفقهاء ولكنه في كتاب السفر، فالمقيم في نظره لا يحتاج إلى تعرف ذلك، ولكن المسافر هو صاحب الحاجة إليه.. وكذلك المسح على الخفّين...

وهكذا جزىء بحث الجهاد وكذا بحث النفاق، كما نقلت بعض أحكام الصلاة من مكانها لمراعاة نوع آخر من الجمع والترتيب[1].

***

(١) من الغريب أن المصنف انتُقِد لعدم ذكره لبحث الجهاد!.

شرح الإحياء وتخريج أحاديثه

وقد قام بتخريج أحاديث «الإحياء» الإمام الحافظ العراقي: زين الدين، أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين، حافظ عصره.

ولد بمنشاة المهراني بين مصر والقاهرة سنة (٧٢٥)هـ وعني بفن الحديث، وتقدم فيه بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة كالسبكي وغيره. وتوفي سنة (٨٠٦)هـ ورثاه تلميذه الحافظ ابن حجر.

وقد طبع هذا التخريج مع الكتاب مما سهل على القارىء مهمة الوقوف على درجة الحديث.

أما الشرح، فقد قام به العلاَّمة محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الملقب بمرتضى (١١٤٥ ــ ١٢٠٥)هـ وأصله من واسط في العراق، ومولده بالهند، وكانت نشأته في زبيد باليمن، علاَّمة باللغة والحديث والرجال والأنساب. رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر فاشتهر فضله، وكاتبه كثير من الملوك، وأتحفوه بالهدايا.

من كتبه «تاج العروس» بشرح القاموس في عشرة مجلدات، وأما شرحه للإحياء فيقع أيضاً في عشرة مجلدات، وهو شرح وافٍ، قدم له بمقدمة ضافية، قوامها واحد وعشرون فصلاً تناول فيها ترجمة الإمام الغزالي ترجمة واسعة، وتحدث عن مشايخه ومعاصريه، كما تحدث فيها عن النقد الذي وجه إلى كتاب الإحياء وناقش ذلك.

***

مختصرات «الإحياء»

كثيرة هي مختصرات كتاب الإحياء، وهذه الكثرة دليل آخر على قناعة علماء الأمة بمكانة هذا الكتاب، فبذلوا الجهد في إيصاله إلى أيدي الناس عن طريق تصغير حجمه.

وأول من اختصره أخو المصنف الشيخ أحمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة (٥٢٠)هـ وسماه «لباب الإحياء».

ثم اختصره أحمد بن موسى الموصلي المتوفى سنة (٦٣٢)هـ.

ثم محمد بن سعيد اليمني.

كما اختصره الشيخ محمد بن علي بن جعفر العجلوني، المشهور بالبلابلي المتوفى سنة (٨٢٠)هـ وهو في نحو عشر حجمه. قال الحافظ السخاوي: وهو أحسن المختصرات.

واختصره أحد علماء الهند وسماه (عين العلم) وقد شرح هذا المختصر ملّاعلي القاري المتوفى سنة (١٠١٤)هـ. وهو مطبوع في بيروت في مجلدين باسم (شرح عين العلم وزين الحلم) ويشتمل على عشرين باباً، وكان قد طبع قبلها في الآستانة سنة (١٢٩٢)هـ.

وقد اطلعت على نسخة مخطوطة لمختصر الشيخ أحمد الغزالي موجودة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية برقم (٤٦٦١) مصورة عن أصل لها في مكتبة تشستر بتي بالرقم نفسه، وتقع في (٢٠٣) أوراق مسطرة كتابتها (١٧,٨ و٢٦,٢ سم) كتبت بخط نسخي جيد، وقد اشتمل هذا المختصر على جميع الأبواب الموجودة في كتاب الإحياء، ولكن مصنفه ـ رحمه الله ـ لم يكن له منهج في الاختصار، وكل ما قاله في مقدمته بهذا الصدد: (وأختصر ـ بعون الله تعالى

وتوفيقه ــ على وجه يحرز جميع مقاصده، ويحوي عميم فوائده).

ومن المختصرات (منهاج القاصدين) وضعه الإمام ابن الجوزي، ثم جاء الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي المتوفى سنة (٨٤٢)هـ فاختصره باسم «مختصر منهاج القاصدين»، وهو مطبوع متداول.

ومن مختصراته مختصر باسم «موعظة المؤمنين» وضعه الشيخ جمال الدين القاسمي المتوفى سنة (١٣٣٢)هـ وهو مطبوع متداول.

وكلا هذين المختصرين لم يستوفيا كتب الإحياء، البالغة أربعين كتاباً، كما أنهما أوردا الأحاديث الضعيفة.

وقام باختصاره أيضاً عبد السلام هارون تحت عنوان «تهذيب إحياء علوم الدين» وخلاصة خطته كما يقول: (استخلاص اللباب، وفي أصل الإحياء أحاديث موضوعة فتجنبت أن يكون في التهذيب شيء منها) وهو مطبوع في جزءين.

ونعتقد أن الدافع لغالب المختصرين هو تصغير حجم الكتاب، وتقريبه ليكون في متناول الأيدي، ولم يكن هناك منهج يلتزمه المختصر ذو نقاط واضحة.

***

الغزالي وانحرافات المتصوّفة

إن الغزالي الذي ضرب الفلسفة تلك الضربة القاصمة، والذي كشف مخازي الباطنية وفضحهم، إنما فعل ذلك دفاعاً عن الإسلام، وإذا كانت انحرافات بعض المتصوفة لا تقل خطراً عن خطر الفلاسفة والباطنية، فقد وجد أن من الواجب عليه بيان هذه الانحرافات، والتحذير منها.

وكتاب «الإحياء» مليء ببيان انحرافاتهم، والتحذير منها، وبيان الطريق المستقيم، ونشير باختصار شديد إلى أشدّ هذه الانحرافات خطراً، والتي أكد الغزالي على التحذير منها:

(١) القول بوحدة الوجود.
(٢) القول بسقوط التكليف.
(٣) الشطحات.
(٤) التفريق بين الشريعة والحقيقة.
(٥) عدم التزام طريق السلف.
(٦) البعد عن العلم.
وغير ذلك. . .

ومما قاله في بيان هذه الانحرافات وهو يصف ما آل إليه وضع المتصوفة:

«وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية:

أحدهما: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات

من هذا الجنس. . فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره، وعظم ضرره، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة.

الثاني: من الشطح كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارة هائلة، وليس وراءها طائل. . ومنها صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، كدأب الباطنية في التأويلات، فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم، فإن الألفاظ إذا صُرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع. . اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب. . وذلك مثل قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أنه إشارة إلى قلبه. وقال: هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل إنسان. . وأمثال ذلك، حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره. . فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد الدين على الخلق. .»[1].

ويتحدث عن الفرق الضالة والمنحرفة فيذكر من فرق الصوفية:

«وفرقة أخرى ادّعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال. . وهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوامّ. .

وفرقة أخرى، وقعت في الإباحة، وطَوَوْا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسوَّوْا بين الحلال والحرام. . . وبعضهم يرفعون أنفسهم درجة على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. .»[2].

«وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة، حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٦ ــ ٣٧، طبعة دار المعرفة.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٤٠٥.

الـوسيلة والحيلة، فتركـوا السعي والعبادة وزعمـوا أنه ارتفـع محلُّهم في معرفـة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكليف على عوامّ الخلق. .»[1].

ويتحـدث الإمام الغـزالي عن الحقيقـة والشـريعـة، فينفي أن يكـون خـلاف بينهما، ويقول بكلام صريح لا لُبْس فيه:

«من قال: إن الحقيقة تخالف الشريعـة، أو الباطن ينـاقض الظاهـر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان. .»[2].

ويؤكد الإمام الغزالي على ضرورة التزام منهج السلف وطريقهم. وأنه وحـده هو طريق النجاة، فيقول بعد تعداد أنواع من الانحراف:

«وإنما الناجي منهـا فرقـة واحدة، وهي السـالكة مـا كان عليـه رسول الله ﷺ وأصحابه. .»[3].

ويقول بعد أن بيّن أنواع العلوم:

«وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتـدلّى بحبل الغـرور وتتشبّه بالخلف. .»[4].

ويقول في صدد حديثه عن علماء الآخرة، وأنهم لا يعتمـدون على التقليد. . «وإنما المقلَّد صاحب الشرع صلوات الله وسلامـه عليه، فيمـا أمر بـه وقالـه، وإنما يقلّد الصحـابـة رضي الله عنهم من حيث إن فعـلهم يـدل عـلى سمـاعـهم مـن رسول الله ﷺ. .»[5].

«وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم. .»[6].

---

(1) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٣٠.
(2) إحياء علوم الدين ١/ ١٠٠.
(3) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٣٠.
(4) إحياء علوم الدين ١/ ٣٨.
(5) إحياء علوم الدين ١/ ٧٨.
(6) إحياء علوم الدين ١/ ٧٩.

ويُرجع الإمام الغزالي هذه الانحرافات وغيرها إلى الجهل الـذي أصبح سمـة للمتصـوفة، وهـو يرى أن الصـوفي لا بد أن يسبق سلوكَـه الطـريق تعلّمُـه وتفقُّهُـه. فيقول بعد أن تحدث عن الفرق الصوفية المنحرفة:

«. . وكل ذلك بناءً على أغاليط ووسـاوس يخدعهم الشيـطان بها لاشتغـالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم. . »[1].

ولذا وضع كتابه «إحياء علوم الدين» لسالكي الطريق، حتى يتفقّهـوا ويتعلّموا قبل أن يسلكوا الطريق، ولهذا بدأ كتابه بربع العبادات. . وذكَّر بهذا عند حديثـه عن ضرورة العلم لسالك الطريق فقال:

«فيحتـاج إلى العلم: أعني الـعلـم بمعـرفـة كيفيــة سلوك الـطريق إلى الله، والعلم بما يُقربـه من الله وما يُبعـده عنه، والعلم بـآفات الطـريق وعقباتـه وغوائله، وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين:

فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها، وآفاتها فيتقيها.

ومن ربع العادات أسرار المعايش، وما هو مضطر إليه، فيأخذه بأدب الشرع، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه.

ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طـريق الله، من الصفات المذمومة في الخلق، ويعلم طريق علاجها.

ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمـودة، التي لا بد وأن تـوضع خَلَفـاً عن المذمومة بعد محوها. . »[2].

وليس من قبيل المصادفات أن يبدأ كتاب الإحياء بموضوع العلم.

ويقـدم الإمام الغـزالي رأي العالم على رأي الصـوفي إذا كـان هنـاك خـلاف بينهما فيقول:

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٤٠٥.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٤١١.

«والفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى هذا، وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله، فلا جرم تختلف أجوبتهم في المسائل، والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه، ولا ينظر إلى حال نفسه، فيكشف الحق فيه، وذلك مما لا يختلف فيه، فإن الحق واحد أبداً، والقاصر عنه كثير لا يحصى. ولذلك سئل الصوفية عن الفقر، فما من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر، وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله وليس بحق في نفسه..»[1].

ولم يكتف الغزالي بهذا الجانب من النقد، بل بيَّنَ انحرافاتهم في سلوكهم.. فتحدث عن غرورهم وريائهم وكسلهم وجهلهم وحبهم للدنيا، مما سيجده القارىء الكريم في ثنايا الكتاب..

تلك بعض انحرافات المتصوفة التي تناولها كتاب إحياء علوم الدين بالكشف والبيان وذكر العوامل والأسباب التي أدت إليها.

ومما لا شك فيه أن مسار التصوف بعد ظهور كتاب الإحياء قد مال نحو الاعتدال ذلك أن الذي يتحدث إلى المتصوفة هو إمام من أئمتهم غير متّهم عندهم.

ومما يدل على أثر الكتاب، ذلك الانتشار الذي لقيه الكتاب في حياة المؤلف، والذي لم يستطع كتاب آخر أن يحل مكانه، على الرغم من بعض المحاولات في هذا الصدد، ومنها محاولة الإمام ابن الجوزي رحمه الله.

***

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٤٢.

الإمامان: الغزالي وابن القيّم

تحدث الإمام ابن القيم في بعض كتبه عن انحرافات الصوفية، وقد التقى مع الإمام الغزالي في كل ما ذهب إليه من نقد.

والواقع أن اللقاء بين الإمامين ــ في صدد حديثهما عن التصوّف ــ لم يكن قاصراً على مجال بيان الانحرافات وحسب، بل تجاوز ذلك إلى مجالات أخرى

ــ ففي حديثهما عن ضرورة التزوّد بالعلم لسالك الطريق، يتفقان بأن من أراد سلوك هذا الطريق ينبغي أن تكون له قدم راسخة في هذا الميدان، وليس مجرد معلومات أولية.

يقول ابن القيم: «طريق آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه، ولكن يستدعي رسوخاً في العلم، ومعرفة تامة به. .»[1].

ويقول الغزالي: «ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم»[2].

ــ وإذا كان الغزالي يرى أن بعض المعاني لا قدرة للعبارة والكلمات على شرحها، وقد انتُقد على ذلك، فإنا نرى ابن القيم يسير في المسلك نفسه، مع علمه بما انتقد عليه الغزالي، فكثيراً ما نجده يتوقف ليقول:

«. . فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكلُّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه. .»[3].

---

(١) طريق الهجرتين للإمام ابن القيم، ص ٢١٥، طبعة دار المكتبة السلفية بالقاهرة.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٦.

(٣) طريق الهجرتين ص ٢١.

«.. لا يناله الوصف، ولا يدخل تحت الشرح..»[1].

وهذا ما يؤكد أن طبيعة الموضوع تقتضي أسلوباً خاصاً في الكتابة والتعبير.

ويذهب ابن القيم إلى أبعد من هذا. فيرى على من أراد سلوك هذا الطريق ومعرفة هذا العلم أن يمتلك شفافية النفس... فيقول:

«ومن غلظ حجابه، وكثف طبعه، وصلب عوده، فهو عن فهم هذا بمعزل..»[2].

«ومن كثف ذهنه، وغلظ طبعه عن فهم هذا، فليضرب عنه صفحاً إلى ما هو أَوْلى به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع»[3]

ـ وتلتقي نظرة الإمامين في أن سالكي هذا الطريق قلة، وإن كان ابن القيم أكثر تفاؤلاً من الغزالي.

يقول ابن القيم: «.. والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم، طريق سهل قريب موصل، طريق آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه..»[4].

ويقول الغزالي: «.. والأمور الدينية كلها فسدت وضعفت، إلا التصوف فإنه قد انمحق بالكلية وبطل، لأن العلوم لم تندرس بعد، والعالم ـ وإن كان عالم سوء ـ فإنما فساده في سيرته لا في علمه، فيبقى عالماً غير عامل بعلمه، والعمل غير العلم، أما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى، واستحقار ما سوى

---

(١) طريق الهجرتين ص ٤٦.

(٢) طريق الهجرتين ص ٢٠٨.

(٣) طريق الهجرتين ص ٢٣.

(٤) طريق الهجرتين ص ٢١٥.

الله، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح، ومهما فسد العمل فات الأصل..»[1].

ـ وإذا كان الإمام الغزالي يرى أن قتل القائلين ببعض الكلمات من الشطح أفضل في دين الله من إحياء عشرة[2]. فإن ابن القيم يعبر عن موقفه من الموضوع بأسلوب آخر، ومن زاوية نظر أخرى فيقول:

«فإن من لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له، وما يستحيل عليه، وإلا طرق باب الحلول إن لم يلجه، وسببه ضعف تمييزه، وقوة سلطان المحبة، واستيلاء المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه، وفي مثل هذه الحال يقول: سبحاني، أو: ما في الجبة إلا الله، ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له، ويعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال..»[3].

ـ ويلتقي الإمامان في الحضّ ونصح المريد بالبعد عن التقليد..

ـ كما يلتقيان ـ من حيث الأسلوب ـ بالاعتماد على ضرب الأمثلة في إيضاح الأفكار..

وإن من يقرأ كتاب (طريق الهجرتين) لابن القيم يبدو له كم هو اللقاء كبير بين الإمامين رحمهما الله تعالى.

***

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٥٠.

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٦.

(٣) طريق الهجرتين ص ٢٣، ومدارج السالكين ٣/ ٤٥ و ٤٦.

أمنيات

قال العلاَّمة أبو العباس القبَّاب (٧٧٩)هـ ضمن إجابته على سؤال وجه إليه عن التصوف وطرقه:

(وما زلت أتمنى أن لو قيَّض الله تعالى رجالاً لهم حظ من العلوم وعناية بهذه الطريقة إلى تلخيص كتاب «الإحياء» فإنه كتاب جمع من العلوم المحتاج إليها ما لا يوجد في غيره، لا سيما الدواخل والشواغل المفسدة للمعاملات، ومعرفة عيوب النفس، وكيفية مداواتها، فهو في غاية المطلوب. لكنه يشوبه من الاستشهاد بالأحاديث الواهية الإسناد ما يضر بالجاهل)[١].

وقال العلامة ابن كثير (٧٧٤)هـ:

(وصنف في هذه المدة كتابه «إحياء علوم الدين»، وهو كتاب عجيب، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف وأعمال القلوب، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب، ومنكرات وموضوعات)[٢].

وقال العلاَّمة الذهبي (٧٤٨)هـ :

(أما «الإحياء» ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير، لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد)[٣].

وقال الإمام ابن تيمية (٧٢٨)هـ :

(وفيه ــ الإحياء ــ أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من

---

(١) المعيار المعرب (١١/١٢٢) للونشريسي.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/١٧٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٣٩).

أغـاليط الصوفيـة وترهـاتهم، وفيه مـع ذلك من كـلام المشايـخ الصـوفيـة العـارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنّة، ومن غير ذلك من العبـادات والأدب ما هو مـوافق للكتاب والسنّـة، ما هـو أكثر ممـا يرد منـه، فلهذا اختلف فيـه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه)[1].

إن هؤلاء الأئمـة رحمهم الله تعالى كـانوا في واقـع أمـرهم يتمنـون مـا تمنـاه أبو العباس رحمه الله تعالى، ذلك أنهم جميعاً متفقون على وجود الخير الكثير الذي يحويه كتاب الإحياء، كما أنهم يرغبون لو كان خالياً من الأحاديث الضعيفة. .

يقـولون هـذا مع علمهم بـوجود كتـاب (منهـاج القـاصـدين) يـومئـذٍ لـلإمـام ابن الجوزي الذي كان يرغب أن يحل كتابه محل الإحياء. . ولكن هذا لم يحدث.

وفي وقتنا هذا تتجـدد أمنية أبـي العبـاس القباب على لســان الدكتـور يوسف القرضاوي في كتابه «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» الذي صدرت طبعته الأولى عام (١٤٠٨)هـ فيقول:

(وكم أتمنى أن يختصــر من الكتـاب ـ أعني الإحيــاء ـ (منتقى) يبقي على روحـه وحرارتـه، كما يبقي على فـوائده العلميـة والتربـوية ـ وهي كثيـرة ووفيـرة ـ ويحـذف التجاوزات والمبـالغات، والأحـاديث الضعيفة، أو الشـديدة الضعف على الأقل، وبهذا نقدم للثقافة الإسلامية خدمة جليلة)[2].

إن اقتراح الدكتور القرضـاوي، أخذ مكـانه من نفسي عنـدما قـرأته في كتـابه المذكور ووجـدت صدري منشـرحاً للقيـام بهذا العمـل، وإن كنت لست أهلاً لـه، ولكني استعنت الله تعالى وباشرت العمل:

إن المواصفات المطلوبة في العمل المقترح هي ما يأتي:

١ ـ حذف الأحاديث الضعيفة والموضوعة وما بني عليها من فكر.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥٥).

(٢) كتاب «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» ص (١٥٨).

٢ ــ حذف أغاليط الصوفية وترهاتهم.

٣ ــ حذف المبالغات والتجاوزات.

٤ ــ الإبقاء على روح الكتاب وحرارته.

٥ ــ الإبقاء على فوائده العلمية والتربوية.

تلك هي خلاصة المواصفات التي تستفاد من كلام الأئمة المذكورين ومن كلام الدكتور القرضاوي.

وأضفت بدوري أمراً سادساً وهو:

٦ ــ الحفاظ على شكل الكتاب وهيكله العام كما وضعه مصنفه، بحيث تبقى كتبه الأربعون، فلا يلغى منها شيء ولا يدخل منها كتاب في كتاب آخر، كما فعل بعض مختصري الإحياء.

وعلى هذه الأسس بدأ عملي بالكتاب، ولم يكن الاختصار غاية أسعى إليها، إلَّا في المجالات التالية:

(أ) كثيراً ما يكرر المصنف الفكرة أو القصة أو القول فأقتصر على ذكره في المكان الألصق به موضوعاً.

(ب) في الاستطرادات التي تخرج عن الموضوع قيدِ البحث.

(ج) الاقتصار على مثال واحد عندما يكثر المؤلف الأمثلة. وذلك بعد اختياره وانتقائه.

تلك هي الأسس العامة التي قام عليها العمل.

***

عمل المهذِّب في الكتاب

ليست صلتي بالكتاب جديدة، فقد سبق لي أن قرأته بعد تخرجي من الجامعة منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وكانت لي ـ بعد ذلك ـ إليه عودات. وخاصة عندما بدأت بإعداد دراسة عن الظاهرة الجمالية في الإسلام، فالإمام الغزالي واحد من الأئمة القلائل الذين اهتموا بهذا الجانب من الفكر.

وعدت إلى الكتاب ـ هذه المرة ـ لأتعامل معه على الأسس التي ذكرتها في الفقرة السابقة، وذلك بعد دراسة واستطلاع للنقد الذي وجِّه إلى كتاب «الإحياء»، وقد قدم شارحه الزبيدي قسطاً لا بأس به منه في الجزء الأول من شرحه.

كانت طريقة العمل: أن أتناول كل كتاب ـ من كتبه الأربعين ـ على حدة، على اعتباره وحدة موضوعية. فأبدأ بقراءته قراءة استطلاعية غايتها التعرف على معالم الموضوع البارزة، وعلى ما يجب حذفه، والبحث في الأحاديث وتخريجها.

ثم تكون ـ بعد ذلك ـ القراءة الثانية، حيث أخط تحت ما أريد إثباته من البحث.

ثم تكون الخطوة الثالثة، وهي نقل النص المنتقى والمهذب، وكتابته بعد سبكه دون تدخل في تغيير نص المصنف إلاَّ بحدود الضرورة كالحرف الذي يربط جملة بأخرى.

وهكذا تتابع العمل في الكتاب كله.

هذا هو الجانب الأول من العمل، أما الجانب الثاني فأستطيع تلخيصه بالأمور الآتية:

١ ـ عزو الآيات القرآنية الكريمة إلى سورها وذكر أرقامها.

٢ ـ أما مايتعلق بالأحاديث النبوية الشريفة، فقد بذلت جهدي في الاقتصار على ذكر الصحيح والحسن منها، والابتعاد عن ذكر الأحاديث الضعيفة، وقد وضعت تخريج الأحاديث في الحاشية، وما كان منها في الصحيحين أو أحدهما، لم أعول على ذكر مخرجيه من غيرهما، اكتفاء بكونه في أحد الصحيحين أو فيهما، وقد ذكرت أرقام الأحاديث فيهما بحسب ترقيم فؤاد عبد الباقي ـ رحمه الله ـ ورمزت إلى رقم البخاري بالحرف (خ) وإلى رقم مسلم بالحرف (م).

أما بقية الأحاديث، مما ليس في الصحيحين، فقد ذكرت مخرجيها، وكان جل اعتمادي على تخريج الحافظ العراقي، وغالباً ما كنت أستطلع رأي الشارح وتعقيبه على تخريج الحافظ العراقي، ورمزت بالحرف (ع) إلى ما كان من تخريج الحافظ العراقي، وبالحرف (ش) إلى ما كان من تخريج الشارح، وكذلك ما كان من التعليقات مأخوذاً عن الشرح أشير إليه بالحرف (ش).

٣ ـ ترجمت للأعلام من غير الصحابة، ترجمة موجزة، ووضعت فهرساً لهذه الأعلام في نهاية الكتاب للدلالة على مكان الترجمة فقط، ليرجع إليه القارىء إذا رغب في ذلك، ولم أترجم للصحابة رضي الله عنهم، حتى لا يتضخم الكتاب أولاً، ولأنه يكفي في تعريف الرجل أن تقول عنه صحابي، وذلك تعريف وأي تعريف.

٤ ـ وضعت بعض العناوين بين قوسين [] وهذا إشارة إلى أن العنوان ليس من وضع المؤلف، وقد لجأت إلى ذلك في حالتين:

(أ) عندما يكون البحث طويلاً، فإني أضع له العناوين الفرعية تسهيلاً على القارىء، وبياناً لعناصر الموضوع الرئيسة.

(ب) قد يذكر المصنف بعض الأفكار المهمة ضمن استطراداته، وما كان كذلك فإني أفرده في فقرة مستقلة وأضع لها عنواناً يميزها.

٥ ـ وضعت فهرساً هجائياً للموضوعات، يسهل الرجوع إلى الموضوع المطلوب في مكانه، أو أماكنه المتعددة من الكتاب.

هذا، وأسأل الله تعـالى أن يوفقنـا لما فيـه الخير، وأن يـرزقنا الإخـلاص في القول والعمل، إنه سميع مجيب.

*
**

المُهذَّب

مِن إحياء علوم الدِّين

إعداد

صالح أحمد الشّامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ المُصَنِّفِ

أحمد الله أولاً، حمداً كثيراً متوالياً، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله، حمد الحامدين. وأصلي وأسلم على رسله ثانياً، صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين. وأستخيره تعالى ثالثاً فيما انبعث عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين. وأنتدب لقطع تعجبك ـ رابعاً ـ أيها العاذل المتغالي في العذل من بين زمرة الجاحدين.. فلقد حلّ عن لساني عقدة الصمت.. ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل..

ولعمري إنه لا سبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عمَّ الجم الغفير، من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر، والجهل بأن الأمر جد، والآخرة مقبلة، والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد، والزاد طفيف، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردٌ، وسلوك طريق الآخرة ـ مع كثرة الغوائل ـ من غير دليل ولا رفيق متعب.

فأدلة الطريق هم العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان، ولم يبق إلا المترسمون، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان.. ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام، عند تهاوش الطغام..

فأما علم طريق الآخرة، وما درج عليه السلف الصالح ـ مما سماه الله سبحانه في كتابه: فقهاً، وحكمة، وعلماً، وضياء، ونوراً، وهداية ورشداً ـ فقد أصبح من بين الخلق مطوياً، وصار نسياً منسياً.

ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً، إحياءً لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين.

وقد أسسته على أربعة أرباع، وهي ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات.

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب. . أذكر فيه من خفايا آدابها، ودقائق سننها، وأسرار معانيها، ما يضطر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه، وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهيات.

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب. . أذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق، ودقائق سننها، وخفايا الورع في مجاريها، وهي مما لا يستغني عنه متدين.

وأما ربع المهلكات، فيشتمل على عشرة كتب. . أذكر فيه كل خلق مذموم، وردَ القرآن بتزكية النفس عنه، وتطهير القلب منه، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حدَّه وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد، ثم طرق المعالجة. .

وأما ربع المنجيات، فيشتمل على عشرة كتب. . فأذكر فيه كل خلق محمود، وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين، التي بها يتقرب العبد من رب العالمين، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها، وسببها. . وثمرتها. . وعلامتها.

ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور:

الأول: حل ما عقدوه، وكشف ما أجملوه.

الثاني: ترتيب ما بددوه، ونظم ما فرقوه.

الثالث: إيجاز ما طولوه، وضبط ما قرروه.

الرابع: حذف ما كرروه، وإثبات ما حرروه.

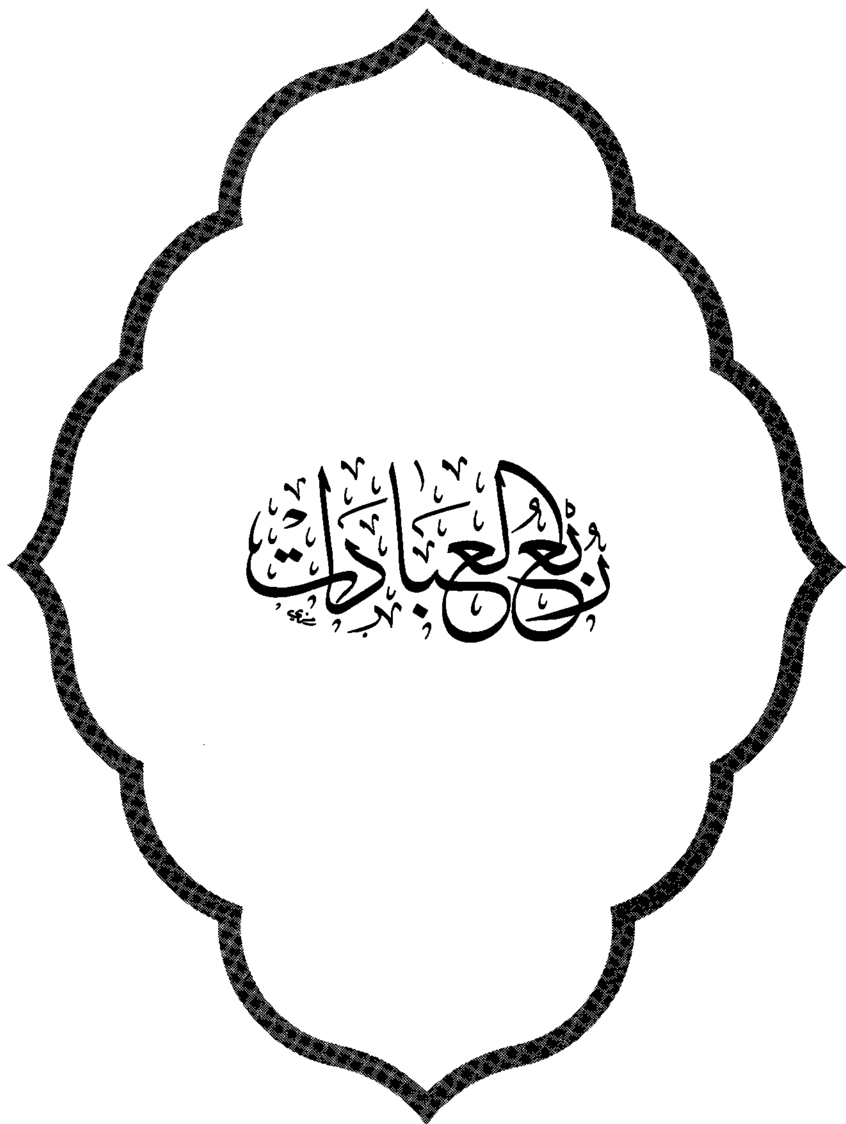
الخامس: تحقيق أمور غامضة، اعتاصت على الأفهام، لم يتعرض لها في الكتب أصلاً.

فهذه خواص هذا الكتاب، مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم. . فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد، إنه كريم جواد[١].

***

---

(١) هذا بعض خطبة المصنف، ذكرت منها ما يبين غرضه من تصنيف الكتاب، وبيان أقسامه.


ربع العبادات

الكِتَابُ ٱلأَوَّلُ

العِلْمْ

ربع العبادات

الباب الأول
في فضل العلم والتعليم والتعلم

فضيلة العلم:

شواهدها من القرآن قوله عزّ وجلّ:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾(1).

فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، وثنى بالملائكة، وثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً.

وقال الله تعالى:

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾(2).

وقال عزّ وجلّ:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(3).

وقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(4).

---

(1) سورة آل عمران: الآية (18).
(2) سورة المجادلة: الآية (11).
(3) سورة الزمر: الآية (9).
(4) سورة فاطر: الآية (28).

وقال تعالى:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[1].

ردَّ حكمه في الوقائع إلى استنباطهم، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله تعالى.

وأما الأخبار: فقال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[2]. وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[3]، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة. وقال ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[4]، وقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[5].

وأما الآثار[6]: فقد قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: (العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه)[7]، وقال بعض العلماء: ليت شعري، أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فاته من أدرك العلم. وقال الحسن[8] رحمه الله: (يوزن مداد العلماء بدم

---

(١) سورة النساء: الآية (٨٣).

(٢) متفق عليه (خ ٦٢، م ١٠٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء (ع). وقال السخاوي في المقاصد: رواه أحمد وأبو داود والترمذي وآخرون (ش).

(٤) متفق عليه (خ ٣٣٨٣، م ٢٥٢٦)، دون ذكر «كمعادن الذهب والفضة» وهي في المسند (٢/٥٢٩).

(٥) قال السخاوي في المقاصد: روي عن أبي الدرداء مرفوعاً عند أصحاب السنن الأربعة (ش).

(٦) الآثار: جمع أثر، وهو من اصطلاح الفقهاء، فإنهم يستعملونه في كلام السلف. وأما الأخبار فهي جمع: خبر، وهو مرادف للحديث عند الجمهور (ش ١/٦٢).

(٧) أخرجه الخطيب في تاريخه (ش).

(٨) الحسن بن يسار البصري (٢١ ــ ١١٠هـ)، تابعي جليل، ولد زمن عمر بن الخطاب، كانت له هيبة في القلوب، وكان كبير الشأن رفيع الذكر، رأساً في العلم، وصفه الغزالي

الشهداء، فيرجح مداد العلماء بدم الشهـداء)[1]، وقال ابن مسعـود: (عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رواته، فوالذي نفسي بيده ليودَّن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء، أن يبعثهم الله علماء، لما يرون من كـرامتهم، فإن أحـداً لم يولـد عالمـاً، وإنما العلم بالتعلم)[2]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (تذاكـر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها).

فضيلـة التعلـم:

أما الآيات، فقوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾[3].

وقوله عزَّ وجلّ:

﴿فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[4].

وأمـا الأخبار، فقـوله ﷺ: «من سلك طـريقاً يـطلب فيه علمـاً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة»[5].

وأما الآثار، فقـال ابن المبارك[6] رحمـه الله: (عجبت لمن لم يطلب العلم،

بقـوله: (كـان الحسن البصـري أشبـه النـاس كـلامـاً بكـلام الأنبيـاء، وأقـربهم هـديـاً من الصحابة).

(١) روي مرفوعـاً عن أبـي الدرداء، وأخـرجه الشيـرازي في الألقاب من حـديث أنس مرفـوعاً، فلعل الحسن سمعه من أنس (ش).

(٢) هكـذا أورده بتمامـه ابن القيم وغيره، والفقـرة الأخيرة منـه «إنما العلم بـالتعلم» في صحيح البخاري (ش).

(٣) سورة التوبة: الآية (١٢٢).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٧).

(٥) رواه مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٦) عبـد الله بن المبارك (١١٨ ــ ١٨١)هـ وصفـه الذهبـي بـ: الإمـام، شيـخ الإسـلام، علم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، قضى عمره في الأسفار تاجراً وحاجـاً ومجاهـداً وكانت وفـاته عند انصرافه من غزو الروم.

كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة؟).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، ولا تكن الرابع فتهلك).

وقال الشافعي[1] رحمه الله: (طلب العلم أفضل من النافلة)[2].

فضيلة التعليم:

أما الآيات، فقوله عزّ وجلّ:

﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[3].

والمراد هو التعليم والإرشاد. وقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾[4].

وهو إيجاب للتعليم.

وقوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[5].

وهو تحريم للكتمان.

وقال تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾[6].

---

(١) محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤)هـ صاحب المذهب المشهور وأحد الأئمة الأربعة.

(٢) أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (ش).

(٣) سورة التوبة: الآية (١٢٢).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٨٧).

(٥) سورة البقرة: الآية (١٤٦).

(٦) سورة النحل: الآية (١٢٥).

وأمـا الأخبـار: فقـولـه ﷺ لمـا بعث معـاذاً رضي الله عنـه إلى اليمن: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»[1].

وقال ﷺ: «إن الله عزَّ وجلّ لا ينتزع العلم انتـزاعاً من النـاس بعد أن يؤتيهم إيـاه، ولكن يذهب بـذهاب العلمـاء، فكلما ذهب عـالم ذهب بما معـه من العلم، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالاً إن سئلوا أفتوا بغير علم، فيضلون ويضلون»[2].

وقال ﷺ: «من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[3].

وقـال ﷺ: «إذا مـات ابن آدم انقـطع عمله إلا من ثـلاث: علم ينتفـع به..»[4]، الحديث.

وأمـا الآثار: قـال معاذ بن جبـل: (تعلموا العلم فـإن تعلمه لله خشيـة، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمـه من لا يعلمه صـدقة، وبـذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والـدليل على الـدين، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عنـد الغربـاء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقوامـاً فيجعلهم في الخير قـادة سادة هـداة، يقتدى بهـم، أدلة في الخير، تقتص آثارهم، وتُرمَق أفعالهم..).

الشواهـد العقليـة:

اعلم أن المـطلوب من هذا البـاب معـرفـة فضيلة العلم ونفـاستـه، والفضيلة مـأخوذة من الفضـل، وهي الزيـادة؛ فإذا تشـارك شيئان في أمـر واختص أحـدهمـا

---

(١) أخرجه أحمد من حديث معاذ، وهو في الصحيحين من حديث سهل بن سعـد أنه قـال ذلك لعلي بن أبي طالب (ع)، (البخاري برقم ٤٢١٠، ومسلم برقم ٢٤٠٦) بلفظ: «خيـر لك من أن يكون لك حمر النعم».

(٢) متفق عليه (خ ١٠٠، م ٢٦٧٣) بلفظ «فضلوا وأضلوا» وفي (ع) أخرجه الستة إلا أبا داود.

(٣) رواه أبـو داود والتـرمـذي ــ وقـال: حـديث حسن ــ وابن مـاجـه وابن حبـان والحـاكم وصححه (ع).

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٦٣١) وأبو داود والترمذي والنسائي (ش).

بمـزيد، يقـال: فضله، وله الفضـل عليه، مهمـا كانت زيـادته فيمـا هو كمـال ذلك الشيء.

فـإذا فهمت هذا، لم يخفَ عليـك أن العلم فضيلة ـ إن أخذتـه ـ بالإضـافة إلى سائر الأوصاف، والعلم فضيلة في ذاته، وعلى الإطـلاق من غير إضـافة، فـإنه وصف كمال الله سبحانه، وبه شرف الملائكة والأنبياء.

واعلم أن الشيء النفيس المـرغوب فيـه، ينقسم إلى: ما يـطلب لغيره، وإلى ما يطلب لذاته، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعاً.

فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره.

والمطلوب لغيره: الـدراهم والدنـانير، فـإنهما حجـران لا منفعة لهمـا، ولولا أن الله سبحانه يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة.

والذي يطلب لذاته: فالسعادة في الآخرة، ولذة النظر لوجه الله تعالى.

والذي يطلب لذاته ولغيره: فكسلامة البدن، فإن سلامة الرجـل مثلاً مـطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم، ومطلوبة للمشي بهـا، والتوصـل إلى المآرب والحاجات.

وبهذا الاعتبار، إذا نظرت إلى العلم، رأيته لـذيذاً في نفسـه، فيكون مـطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القـرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به.

وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي، السعادة الأبدية، وأفضـل الأشياء مـا هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمـل إلا بالعلم بكيفيـة العمل، فـأصـل السعـادة في الـدنيـا والآخـرة هـو العلم، فهـو إذن أفضـل الأعمال.

هذه فضيلة العلم مطلقاً، ثم تختلف العلوم وتتفاوت فضـائلها بتفـاوتها. وأمـا فضيلة التعليم والتعلم فـظاهرة ممـا ذكرنـاه، فإن العلم إذا كـان أفضل الأمـور كـان تعلمه طلباً للأفضل، فكان تعليمه إفادة للأفضل.

***

الباب الثاني

في العلم المحمود والمذموم

وفيه بيان ما هو فرض عين، وما هو فرض كفاية، وتفضيل علم الآخرة.

بيان العلم الذي هو فرض عين:

اختلف الناس في العلم الذي هو فرض عين على كل مسلم، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة، ولا نطيل بنقل التفصيل، ولكن حاصله: أن كل فريق نزَّل الوجوب على العلم الذي هو بصدده.

فقال المتكلمون: هو علم الكلام، وقال الفقهاء: هو علم الفقه، وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة..

والذي ينبغي أن يقطع به المحصِّل، ولا يستريب فيه، ما سنذكره: وهو أن العلم ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة، والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العلم بها ثلاثة: اعتقاد، وفعل، وترك.

فإذا بلغ الرجل العاقل ضحوة، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما. فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت الذي هو فرض عين عليه، فإن عاش إلى وقت الظهر، فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة.. وهكذا التدرج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين.

وأما التروك: فيجب تعلم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال. وذلك يختلف بحال الشخص، إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر.

وأما الاعتقادات: فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادتين، فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك..

وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين، ومعناه: العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب، ووقت وجوبه، فقد علم العلم الذي هو فرض عين.

بيان العلم الذي هو فرض كفاية:

العلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى: شرعية وغير شرعية.

وأعني بالشرعية: ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة.

والعلوم التي ليست بشرعية، تنقسم إلى ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح:

ـ فالمحمود: ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا، كالطب، والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة.

أما فرض الكفاية: فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى، وسقط الفرض عن الآخرين.

فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله.

وأما ما يعد فضيلة لا فريضة، فالتعمق في دقـائق الحساب، وحقـائق الطب، وغير ذلك مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة القدر المحتاج إليه.

ـ وأما المذموم: فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات.

ـ وأما المباح منه، فالعلم بـالأشعار التي لا سخف فيهـا، وتواريـخ الأخبار، وما يجري مجراه.

[العلـوم الشرعيـة]:

أما العلوم الشرعيـة، وهي المقصودة بـالبيان، فهي محمـودة كلها، ولكن قـد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة، فتنقسم إلى: المحمودة والمذمومة.

أما المحمودة، فلها أصول وفروع، ومقدمات ومتممات، وهي أربعة أضرب:

(الضـــرب الأول): الأصـول: وهي أربعـــة: كتـاب الله عـــزَّ وجـلّ، وسنـــة رسول الله ﷺ، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة.

والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة، فإنه أصل في الدرجة الثالثة.

وكـذا الأثر، فـإنه أيضـاً يدل على السنـة، لأن الصحابـة رضي الله عنهم قـد شـاهدوا الـوحي والتنزيـل وأدركوا بقـرائن الأحوال مـا غاب عن غيـرهم، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم.

(الضـرب الثـاني): الفـروع: وهـو مـا فهم من هـذه الأصـــول، لا بمـوجب ألفاظها، بل بمعان تنبهت لها العقول، فاتسع بسببها الفهم، كما فهم من قوله ﷺ: «لا يقضي القاضي وهو غضبان»(١)، أنه لا يقضي إذا كان خائفاً، أو جائعاً..

وهذا على ضربين:

أحدهما: يتعلق بمصالح الدنيا، وتحويه كتب الفقـه، والمتكفل بـه الفقهاء، وهم علماء الدنيا.

---

(١) متفق عليه (خ ٧١٥٨، م ١٧١٧).

والثاني: ما يتعلق بمصالح الآخرة، وهو علم أحوال القلب، وأخلاقه المحمودة والمذمومة.

* (الضرب الثالث): المقدمات: وهي التي تجري منه مجرى الآلات، كعلم اللغة والنحو، فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ. وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما.

(الضرب الرابع): المتممات: وذلك في علم القرآن، فإنه ينقسم:

- إلى ما يتعلق باللفظ، كتعلم القراءات ومخارج الحروف.

- إلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير، فإن اعتماده أيضاً على النقل.

- وإلى ما يتعلق بأحكامه، كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص.. وهو العلم الذي يسمى «أصول الفقه»، ويتناول السنة أيضاً.

وأما المتممات في الآثار والأخبار: فالعلم بالرجال، وأسمائهم وأنسابهم، وأسماء الصحابة وصفاتهم، والعلم بالعدالة في الرواة..

فهذه هي العلوم الشرعية، وكلها محمودة، بل كلها من فروض الكفايات.

[الفقه من علوم الدنيا؟!]:

فإن قلت: لمَ ألحقت الفقه بعلم الدنيا؟

فاعلم: أن الله خلق الدنيا زاداً للمعاد، ليتناول منها ما يصلح للتزود، فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات، وتعطل الفقهاء، ولكنهم تناولوها بالشهوات، فتولدت منها الخصومات، فمسَّت الحاجة إلى سلطان يسوسهم، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة، وطريق التوسط بين الخلق، إذا تنازعوا بحكم الشهوات. فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم، لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا.

ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين، لكن لا بنفسه، بل بواسطة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا.

فإن قلت: هذا إن استقام لك في الحدود والغرامات وفصل الخصومات، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات، من الصيام والصلاة..؟

فاعلم: أن ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة: الإسلام، والصلاة والزكاة، والحلال والحرام. فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها، علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة، وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر:

ـ أما الإسلام، فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد، وفي شروطه، وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان، أما القلب فخارج عن ولاية الفقيه، لعزل رسول الله ﷺ أرباب السيوف عنه، حيث قال: «هلا شققت عن قلبه؟»[1]

وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله، وذلك في الدنيا، ولذلك قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا «لا إله إلا الله»، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم»[2] جعل أثر ذلك في الدم والمال. وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال، بل أنوار القلوب وإخلاصها، وليس ذلك من الفقه.

ـ وأما الصلاة، فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال، مع ظاهر الشروط، وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أولها إلى آخرها، مشغولاً بالتفكير في حساب معاملاته في السوق، وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة.. فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة، وبه ينفع العمل الظاهر، فلا يتعرض له الفقيه.

ـ وأما الزكاة، فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان.

ـ وأما الحلال والحرام، فالورع عن الحرام من الدين، ولكن الورع له أربع مراتب:

الأولى: الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد برقم (٩٦).

(٢) أخرجه الستة وهذا لفظ الترمذي (ش).

الثانية: ورع الصالحين، وهو التوقي من الشبهات. قال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»(١).

الثالثة: ورع المتقين، وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام، قال ﷺ: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافةً مما به بأس»(٢).

الرابعة: ورع الصديقين، وهو الإعراض عما سوى الله تعالى، خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عزَّ وجلّ.

فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه، إلا الدرجة الأولى، وهي ورع الشهود والقضاة، وما يقدح في العدالة.

[علم طريق الآخرة]:

فإن قلت: فصِّل لي علم طريق الآخرة..

فاعلم أنه قسمان: علم مكاشفة، وعلم معاملة.

فالقسم الأول: علم المكاشفة، وهو علم الباطن، وذلك غاية العلوم، وهو علم الصديقين والمقربين..

وهو: عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، بالكف عن الشهوات، والاقتداء بالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، في جميع أحوالهم.

وأما القسم الثاني، وهو علم المعاملة، فهو علم أحوال القلب..

ـ أما ما يحمد منها فكالصبر، والخوف، والرجاء..، فمعرفة حقائق هذه الأحوال، وحدودها، وأسبابها التي بها تكتسب، وثمرتها وعلاماتها، ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى، وما زال حتى يعود، من علم الآخرة.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، قاله العراقي (ش).

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وصححه (ع)، وكذا البيهقي (ش).

ـ وأما ما يذم: فخوف الفقر، وسخط المقدور، والغـل، والحقد.. فـالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها، وأسبابها وثمراتهـا، وعلاجهـا، هو علم الآخـرة، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة.

[ترتيب فروض الكفاية]:

لو سُئل فقيه عن الإخلاص مثلاً، أو عن التوكل.. لتوقف فيه، مع أنـه فرض عينه الذي في إهمـاله هـلاكه في آخـرته، ولـو سألتـه عن اللعان والـظهار.. لسـرد عليك مجلدات..

وإذا روجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين، فرض الكفاية.

والفطن يعلم أنه لو كان غـرضه أداء حق الأمـر في فرض الكفـاية لقـدم عليه فرض العين، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات.

فكم من بلدة ليس فيهـا طبيب إلا من أهل الـذمة، ولا يجـوز قبول شهـادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون[1] على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجـدليات، والبلد مشحـون من الفقهاء بمن يشتغـل بالفتوى والجواب عن الوقائع.

فليت شعري؟! كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفـاية قـد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به[2]؟!

---

(١) أي يتنافسون، ويترامون بأنفسهم (ش).

(٢) انظر تفصيل ذلك في إحياء علوم الدين (٣/٤٠٣ ـ ٤٠٤).

البَابُ الثَالِثُ

فِيمَا يعدُّهُ العَامَّةُ مِنَ العُلُومِ المحمُودَة وَلَيْسَ مِنْهَا

بيان علة ذم العلم المذموم:

اعلم أن العلم لا يذم لعينه، وإنما يذم في حق العباد، لأحد أسباب ثلاثة:

(الأول): أن يكون مؤدياً إلى ضرر ما، إما لصاحبه أو لغيره، كما يذم علم السحر والطلسمات.

(الثاني): أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته، إذ هو قسمان:

قسم حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب، إذ قال عزَّ وجلّ:

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[1].

والثاني: الأحكام، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب، وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض، وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى وعادته في خلقه، ولكن قد ذمه الشرع وزجر عنه من ثلاثة أوجه:

ـ أحدها: أنه مضر بأكثر الخلق، فإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، ويعظم وقعها في

(١) سورة الرحمن: الآية (٥).

القلوب، وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب، فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط، والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى.

ــ ثانيها: أن أحكام النجوم تخمين محض، ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً، فالحكم به حكم بجهل.

ــ وثالثها: أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني، وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان في غير فائدة، وذلك غاية الخسران.

(السبب الثالث): الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم، فهو مذموم في حقه، كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها، وخفيها قبل جليها، وكالبحث عن الأسرار الإلهية. فيجب كف الناس عن البحث عنها، وردهم إلى ما نطق به الشرع، ففي ذلك مقنع للموفق.

بيان ما بدِّل من ألفاظ العلوم:

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة، وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة. فهذه أسام محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة.

(اللفظ الأول): الفقه:

فقد تصرفوا فيه بالتخصيص ــ لا بالنقل والتحويل ــ إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوي، والوقوف على دقائق عللها.. فمن كان أشد تعمقاً فيها، وأكثر اشتغالاً بها، يقال له: الأفقه.

ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفاق النفوس، ومفسدات الأعمال، ويدلك عليه قوله عزَّ وجلّ:

﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾[1].

وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق واللعان. . فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب، وتنزع الخشية منه، كما نشاهد الآن من المتجردين له. وقال تعالى:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[2].

وأراد به معاني الإيمان، دون الفتاوى.

وقد سأل فرقد السبخي[3] الحسنَ عن شيء، فأجابه، فقال: إن الفقهاء يخالفونك؛ فقال الحسن رحمه الله: (ثكلتك أمك فريقد، وهل رأيت فقيهاً بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكافُّ نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم)[4]. ولم يقل في جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى.

ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول، أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر.

(اللفظ الثاني): العلم:

وقد كان يطلق على العلم بالله تعالى، وبآياته، وبأفعاله في عباده، وخلقه،

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٧٩).

(٣) فرقد بن يعقوب السبخي، نسبة إلى السبخة، موضع بالبصرة، وهو البصري الحافظ الزاهد، روى عن أنس، وضعفوه، وثقه ابن معين، يقال: شغله التعبد عن حفظ الحديث. مات بالبصرة سنة (١٣١)هـ (ش).

(٤) أورد هذه القصة هكذا صاحب القوت، وقال: جمعنا قوله هذا من روايات مختلفة عنه (ش).

حتى إنه لما مات عمر ــ رضي الله عنه ــ قال ابن مسعود رحمه الله: (لقد مات تسعة أعشار العلم)[1]، فعرفه بالألف واللام، ثم فسره: العلم بالله سبحانه وتعالى.

وقد تصرفوا فيه ــ أيضاً ــ بالتخصيص، حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها. ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء، ولا يعدونه في زمرة أهل العلم.

(اللفظ الثالث): التوحيد:

وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والقدرة على التشدق فيها، بتكثير الأسئلة، وإثارة الشبهات. حتى لقب طوائف منهم أنفسهم: بأهل العدل والتوحيد، وسمي المتكلمون: العلماء بالتوحيد.

مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باباً في الجدل والمماراة. فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة، التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع، فلقد كان ذلك معلوماً للكل، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله.

وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر، لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو: أن يرى الأمور كلها من الله عزَّ وجلّ، رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جلّ جلاله.. وأن يعبده عبادة يفرده بها، فلا يعبد غيره.

ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[2].

---

(١) أخرجه أبو خيثمة في كتاب العلم فقال: حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم، قال: قال عبد الله.

(٢) سورة الجاثية: الآية (٢٣).

(اللفظ الرابع): الذكر والتذكير:

فقد قال الله تعالى:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة، كقوله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»[2]، وفي الحديث: «إن لله تعالى ملائكة سياحين في الدنيا سوى ملائكة الخلق، إذا رأوا مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً: ألا هلموا إلى بغيتكم، فيأتونهم، ويحفون بهم ويستمعون. ألا فاذكروا الله. وذكروا أنفسكم»[3] فنقل ذلك إلى ما نرى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه، وهو: القصص والأشعار والشطح والطامات.

أما القصص فهي بدعة، وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصاص، وقالوا: لم يكن ذلك في زمن رسول الله ﷺ[4] ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما، حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص.

وأما الأشعار، فتكثيرها في المواعظ مذموم، وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف في العشق، وجمال المعشوق، وروح الوصال، وألم الفراق، والمجلس لا يحوي إلا أجلاف العوام، وبواطنهم مشحونة بالشهوات.. وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد.

وأما الشطح، فنعني به من الكلام ما أحدثه بعض الصوفية، من الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه (ع)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي في الشعب عن أنس (ش).

(٣) متفق عليه، دون قوله «في الدنيا» مع اختلاف يسير في اللفظ (خ ٦٤٠٨، م ٢٦٨٩).

(٤) رواه ابن ماجه من حديث عمر بإسناد حسن.

والمشافهة بالخطاب، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج[1]، الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس.. فهذا مما قد استطار في البلاد شره.. حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة.

وأما الطامات، فيدخلها ما ذكرناه في الشطح، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، فهذا أيضاً حرام، وضرره عظيم، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها، بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وهذا أيضاً من البدع الشائعة، العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له. وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها، وتنزيلها على رأيهم.

ومثال تأويل أهل الطامات: قول بعضهم في تأويل قوله تعالى:

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾[2].

أنه إشارة إلى قلبه، وقال: هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل إنسان.

وفي قوله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة»[3]، أراد به الاستغفار في الأسحار..

فكل ذلك حرام وضلالة، وإفساد للدين على الخلق، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين.

---

(١) الحسين بن منصور الحلاج. صحب الجنيد والنوري وغيرهما، اختلف الناس في شأنه وأفتى كثير من العلماء بإباحة دمه، وذلك بسبب ادعاء حلول الإلٓهية فيه، فسجن زمن المقتدر وقتل عام (٣٠٩)هـ.

(٢) سورة طٰه: الآية (٢٤).

(٣) متفق عليه (خ ١٩٢٣، م ١٠٩٥).

(اللفظ الخامس): وهو الحكمة:

فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم، والحكمة هي التي أثنى الله عزَّ وجلّ عليها فقال:

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا ﴾[1].

* * *

فقد عرفت العلم المحمود والمذموم، ومثار الالتباس، وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث. وقد صح قول رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، فقيل: ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتي، والذين يحيون ما أماتوه من سنتي»[2].

القدر المحمود من العلوم:

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام: قسم هو مذموم قليله وكثيره، وقسم هو محمود قليله وكثيره، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية، ولا يحمد الفاضل عليه ولا الاستقصاء فيه.

فالقسم المذموم منه قليله وكثيره، هو ما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا، إذ فيه ضرر يغلب نفعه، كعلم السحر والطلسمات والنجوم.

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء، فهو العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا العلم مطلوب لذاته، وللتوصل به إلى سعادة الآخرة.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٩).

(٢) القسم الأول أخرجه مسلم برقم (١٤٥)، وهو بتمامه عند الترمذي.

وأمـا العلوم التي لا يحمد منهـا إلا مقـدار مخصـوص، فهي العلوم التي أوردناها في فروض الكفايات، فإن في كل علم منها اقتصاراً، وهو الأقل، واقتصاداً وهو الوسط، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مرد له إلى آخر العمر.

فكن أحـد رجلين: إما مشغـولاً بنفسك، وإمـا متفرغـاً لغيرك بعـد الفراغ من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك.

فـإن كنت المشغول بنفسـك فلا تشتغـل إلا بـالعلم الـذي هـو فـرض عليـك بحسب مـا يقتضيه حـالك، ومـا يتعلق منـه بـالأعمـال الـظاهـرة، من تعلم الصـلاة والـطهارة.. وإنمـا الأهم الذي أهمله الكـل، علم صفات القلب ومـا يحمـد منهـا وما يذم.

فلا تشتغل بفـروض الكفايـة، لاسيما وفي زمـرة الخلق من قد قـام بها، فـإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه، وإن تفـرغت من نفسك وتـطهيرهـا، وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنـه ــ وما أبعـد ذلك منـك ــ فاشتغـل بفروض الكفـايات وراع التدريج فيها.

***

البَابُ الرَّابِع

سَبَبُ الإِقْبَالِ عَلَى عِلْمِ الخِلَاف

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله ﷺ تولاها الخلفاء الراشدون، وكانوا أئمة علماء بالله تعالى، فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتوى، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء، إلَّا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا، وأقبلوا على الله تعالى..

فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء، وإلى استصحابهم. وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول، فكانوا إذا طُلبوا هربوا وأعرضوا، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء.

فرأى أهل تلك الأعصار عزَّ العلماء، وإقبال الولاة عليهم، فاشرأبوا لطلب العلم توصلاً إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة، فأكبوا على علم الفتاوى، وعرضوا أنفسهم على الولاة، فأصبح الفقهاء ــ بعد أن كانوا مطلوبين ــ طالبين، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم.

وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات. ثم ظهر بعدهم من الأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها، فعُلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام، وأكثروا فيه التصانيف.

ثم ظهر بعد ذلك ــ من الصدور ــ من لم يستصوب الخوض في الكلام.. لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة، ومالت نفسه إلى المناظرة في

الفقه، وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، فترك الناس الكلام، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى.

فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم.

[نصيحة]:

أما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف، فإياك أن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل، فإنها الداء العضال، الذي رد الفقهاء إلى طلب المنافسة والمباهاة.

وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال: الناس أعداء ما جهلوا.

فلا تظن ذلك، فعلى الخبير سقطت، فاقبل هذه النصيحة ممن ضيّع العمر فيه زماناً، وزاد فيه على الأولين تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً، ثم ألهمه الله رشده، وأطلعه على عيبه، فهجره واشتغل بنفسه. وفي الحديث: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلَّا أوتوا الجدل»[1]. والله أعلم[2].

***

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح (ع).

(٢) هذه الفقرة وردت في نهاية الباب الثالث، ووضعتها هنا لمناسبتها للموضوع.

الباب الخامس
في آداب المتعلم والمعلم

آداب المتعلم:

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة:

الوظيفة الأولى: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف، إذ العلم عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى؛ وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلَّا بتطهير الظاهر، عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن، وعمارة القلب بالعلم إلَّا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق.

الوظيفة الثانية: أن يقلل علاقته من الاشتغال بالدنيا، فإن العلائق شاغلة وصارفة، قال تعالى:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[1].

ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة، كجدول تفرق ماؤه، فنشفت الأرض بعضه، واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزروع.

الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبر على العلم، ولا يتأمر على معلم، بل يلقي إليه زمام أمره، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب الحاذق، وينبغي أن

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٤).

يتواضع لمعلمه، ويطلب الثواب والشرف بخدمته. قال الشعبي[1]: صَلَّى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: (هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء)[2]..

فلا ينال العلم إلاَّ بالتواضع وإلقاء السمع، قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[3].

ومعنى كونه ذا قلب: أن يكون قابلاً للعلم فهماً، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل ما ألقي إليه بحسن الإصغاء.

الوظيفة الرابعة: أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه، ويفتر رأيه.. بل ينبغي أن يتقن الطريق الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب..

الوظيفة الخامسة: أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة، بل يراعي الترتيب، ويبتدىء بالأهم، فإن العمر لا يتّسع لجميع العلوم، فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه، ويصرف قوته إلى استكمال أشرف العلوم، وهو علم الآخرة.

الوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج.

---

(١) الشعبي: عامر بن شراحيل، تابعي جليل، يضرب المثل بحفظه وقوة ذاكرته. قال مكحول: ما رأيت أفقه منه، أخرج حديثه الجماعة، توفي سنة (١٠٣)هـ.

(٢) أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل، إلاَّ أنهم قالوا: (هكذا نفعل)، قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم (ع).

(٣) سورة ق: الآية (٣٧).

الوظيفة السابعة: أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم، وأن ذلك يراد به شيئان: أحدهما: شرف الثمرة، والثاني: وثاقة الدليل وقوته.

وذلك: كعلم الدين، وعلم الطب، فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية، وثمرة الآخر الحياة الفانية، فيكون علم الدين أشرف. ومثل علم الحساب، وعلم النجوم، فإن علم الحساب أشرف، لوثاقة أدلته وقوتها. وإن نسب الحساب إلى الطب، كان الطب أشرف باعتبار ثمرته، والحساب أشرف باعتبار أدلته، وملاحظة الثمرة أولى، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين.

وبهذا تبين أن أشرف العلوم، العلم بالله عزَّ وجلَّ وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم.

الوظيفة الثامنة: أن يكون قصد المتعلم في الحال: تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل: القرب من الله سبحانه، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه، ومماراة السفهاء، ومباهاة الأقران.

الوظيفة التاسعة: أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد، كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد، والمهم على غيره.

ومعنى المهم: ما يهمك، ولا يهمك إلاَّ شأنك في الدنيا والآخرة. وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة، فالأهم ما يبقى أبد الآباد، وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً، والبدن مركباً، والأعمال سعياً إلى المقصد، ولا مقصد إلاَّ لقاء الله تعالى، ففيه النعيم كله.

* * *

فتأمل هذا، واقبل النصيحة مجاناً، ممن قام عليه ذلك غالياً، ولم يصل إليه إلاَّ بعد جهد جهيد، وجراءة تامة على مباينة الخلق ــ العامة والخاصة ــ في النزوع عن تقليدهم بمجرد الشهوة، فهذا القدر كاف في وظائف المتعلم.

وظائف المعلم:

من اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فليحفظ آدابه ووظائفه:

الوظيفة الأولى: الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين.

الوظيفة الثانية: أن يقتدي بصاحب الشرع ﷺ فلا يطلب على إفادة العلم أجراً، ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً، بل يعلم لوجه الله تعالى، وطلباً للتقرب إليه، ولا يرى لنفسه منة عليهم، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها.

الوظيفة الثالثة: أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً، بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى، دون الرياسة والمباهاة.

الوظيفة الرابعة: وهي من دقائق صناعة التعليم: أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق، بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار.

الوظيفة الخامسة: أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه، كمعلم اللغة إذ من عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث.. بل ينبغي للمتكفل بعلم واحد أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره.

الوظيفة السادسة: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره. قال ابن مسعود: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلاَّ كان لبعضهم فتنة)[1].

الوظيفة السابعة: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه، فلا يكذب قوله فعلُه، لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، وسخر الناس به، قال تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[2].

***

(١) أخرجه مسلم في المقدمة برقم (٥).

(٢) سورة البقرة: الآية (٤٤).

البَابُ السَّادِسُ

عَلَامَاتُ عُلَمَاءِ الآخِرَةِ وَعُلَمَاءِ السُّوءِ

[علامات علماء الدنيا]:

قد وردت في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة. فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة. ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء، الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها.

قال ﷺ: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو في النار»[1]. وقال ﷺ: «لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال، فقيل: وما ذلك؟ فقال: من الأئمة المضلين»[2].

وقال عيسى عليه السلام: (إلى متى تصفون الطريق للمدلجين، وأنتم مقيمون مع المتحيّرين؟!).

وقال الحسن: (لا تكن ممن يجمع علم العلماء، وطرائف الحكماء، ويجري في العمل مجرى السفهاء).

وقال ابن المبارك: (لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل).

---

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح (ع)، وأخرجه كذلك الحاكم وابن حبان والضياء المقدسي في المختارة (ش).

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بإسناد جيد (ع)، وأخرج مسلم وأصحاب السنن عن النواس بن سمعان وفيه: «غير الدجال أخوفني عليكم» (ش).

وقال أسامة بن زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالعالم يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه[1]، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيطيف به أهل النار فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشر وآتيه»[2].

فهذه الأخبار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخس حالاً وأشد عذاباً من الجاهل.

[علامات علماء الآخرة]:

إن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة. ولهم علامات: .

● **فمنها**: أن لا يطلب الدنيا بعلمه، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها، وكدورتها وانصرامها، وعظمَ الآخرة ودوامها، وصفاء نعيمها، وجلالة ملكها، ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين، مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان، مهما رجحت إحداهما خفَّت الأخرى.

ومن علم هذا ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان، قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته، فكيف يعدُّ من حزب العلماء من هذه درجته؟! ولذلك قال الحسن رحمه الله: (عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة)، وقال عمر رضي الله عنه: (إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم، فإن كل محب يخوض فيما أحب).

وكان يحيى بن معاذ الرازي[3] رحمه الله يقول لعلماء الدنيا: (يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأثوابكم طاهرية[4]، وأخفافكم

---

(١) أي أمعاؤه.
(٢) متفق عليه بلفظ (الرجل) بدل (العالم). (خ ٣٢٦٧، م ٢٩٨٩).
(٣) أبو زكريا يحيى بن معاذ، من أهل الري، واعظ زاهد، كان أوحد وقته في زمانه، أقام ببلخ مدة ثم عاد إلى نيسابور، وتوفي بها سنة (٢٥٨)هـ .
(٤) منسوبة إلى عبد الله بن طاهر بن الحسين الوزير، وكان يتغالى في الثياب (ش).

جالوتية[1]، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآتمكم[2] جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين الشريعة المحمدية؟!).

قال الشاعر:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟

وقال سهل[3] رحمه الله: العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به، والعمل كله هباء إلَّا الإخلاص. وقال: الناس كلهم موتى إلَّا العلماء، والعلماء سكارى إلَّا العاملين، والعاملون كلهم مغرورون إلَّا المخلصين، والمخلص على وجل حتى يدري ماذا يختم له به.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[4].

● **ومنها**: أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة، المرغب في الطاعات، مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها، ويكثر فيها الجدال والقيل والقال.

وينبغي أن يكون المتعلم من جنس ما روي عن حاتم الأصم[5] ـ تلميذ شقيق البَلْخي[6] ـ أنه قال له شقيق: منذ كم صحبتني؟

قال حاتم: منذ ثلاث وثلاثين سنة.

---

(١) أي مزينة كأخفاف جالوت، وكان جباراً من الجبابرة (ش).

(٢) أي من أفعال الجاهلية، وفي بعض النسخ: موائدكم (ش).

(٣) أبو محمد سهل بن عبد الله التستري، سكن البصرة، صحب ذا النون المصري بمكة سنة خروجه للحج، وهو أحد أئمة الصوفية، وله كلام كثير في الإخلاص والرياضات، توفي سنة (٢٨٣)هـ.

(٤) أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد (ع).

(٥) حاتم بن علوان، زاهد اشتهر بالورع والتقشف، اجتمع بأحمد بن حنبل في بغداد وشهد بعض الفتوح، قيل فيه: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة، توفي سنة (٢٣٧)هـ.

(٦) شقيق بن إبراهيم البلخي، أبو علي، الزاهد، شيخ خراسان، صحب إبراهيم بن أدهم، وهو شيخ حاتم الأصم، كان من رؤوس الغزاة، قتل في غزاة كولان سنة (١٩٤)هـ.

قال: فما تعلمت مني في هذه المدة؟

قال: ثماني مسائل.

قال شقيق له: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب عمري معك، ولم تتعلم إلاَّ ثماني مسائل؟

قال: يا أستاذ، لم أتعلم غيرها، وإني لا أحب أن أكذب.

قال: هات هذه الثماني مسائل حتى أسمعها.

قال حاتم:

أما الأولى: فإني نظرت إلى الخلق، فرأيت كل واحد يحب محبوباً، فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وصل إليه فارقه، فجعلت الحسنات محبوبي، فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي.

وأما الثانية: فإني نظرت في قول الله عزَّ وجلّ:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى، حتى استقرت على طاعة الله تعالى.

وأما الثالثة: فإني نظرت إلى الخلق، فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت إلى قول الله عزَّ وجلّ:

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[2].

فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظاً.

وأما الرابعة: فإني نظرت إلى هذا الخلق، فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال، وإلى الحسب والشرف، فنظرت فيها فإذا هي لا شيء، ثم نظرت إلى قول الله تعالى:

---

(١) سورة النازعات: الآية (٤٠).

(٢) سورة النحل: الآية (٩٦).

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1].

فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً.

وأما الخامسة: فإني نظرت إلى الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلى قول الله تعالى:

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2].

فتركت الحسد، واجتنبت الخلق، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه، فتركت عداوة الخلق.

وأما السادسة: فإني نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضاً، فرجعت إلى قول الله عزَّ وجلّ:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[3].

فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حذري منه، لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لي، فتركت عداوة الخلق غيره.

وأما السابعة: فإني نظرت إلى هذا الخلق، فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه، ويدخل فيما لا يحل له، ثم نظرت إلى قوله تعالى:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[4].

فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها، فاشتغلت بما لله عليَّ، وتركت ما لي عنده.

وأما الثامنة: فإني نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٢) سورة الزخرف: الآية (٣٣).

(٣) سورة فاطر: الآية (٦).

(٤) سورة هود: الآية (٦).

مخلوق: هذا على ضيعته، وهذا على تجارته، وهذا على صناعته، وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله، فرجعت إلى قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[1].

فتوكلت على الله عزَّ وجلّ فهو حسبي.

● **ومنها**: أن يكون غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشرب، والتنعم في الملبس، والتجمل في الأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك، ويتشبَّه فيه بالسلف ـ رحمهم الله تعالى ـ ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك.

والتحقيق فيه: أن التزين بالمباح ليس بحرام، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه.

● **ومنها**: أن يكون مستقصياً عن السلاطين، فلا يدخل عليهم ألبتة، ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاؤوا إليه، فإن الدنيا حلوة خضرة، وزمامها بأيدي السلاطين، والمخالط لا يخلو عن تكلف في طيب مرضاتهم، واستمالة قلوبهم، مع أنهم ظلمة.

وعلى الجملة: فمخالطتهم مفتاح للشرور، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول فيه ما ليس فيه)[2].

وكتب عمر بن عبد العزيز[3] رحمه الله إلى الحسن: أما بعد، فأشر عليَّ

---

(١) سورة الطلاق: الآية (٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (ش).

(٣) أمير المؤمنين، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ذكره ابن سعد في الطبقة الثالثة من تابعي أهل المدينة. كان ثقة، له فقه وعلم وورع، وكان إماماً عادلاً رحمه الله، مات سنة (١٠١)هـ بدير سمعان.

بأقوام أستعين بهم على أمر الله تعالى. فكتب إليه: (أما أهل الدين فلا يريدونك، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم، ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة). هذا في عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وكان أزهد أهل زمانه؟!

● **ومنها**: أن لا يكون مسارعاً إلى الفتيا، بل يكون متوقفاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً أفتى، وإن سئل عما يشك فيه قال: لا أدري.

قال الشعبي: (لا أدري)، نصف العلم.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى[1]: أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم أحد يسأل عن حديث أو فُتْيا إلاَّ ودَّ أن أخاه كفاه ذلك.

● **ومنها**: أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن، ومراقبة القلب، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه، وصدق الرجاء.

● **ومنها**: أن يكون حزيناً منكسراً صامتاً، يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته، وسيرته وحركته، وسكوته ونطقه.. وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والتواضع.

وأما التهافت في الكلام، والتشدق، والاستغراق في الضحك، والحدة في الحركة والنطق، فكل ذلك من آثار البطر، والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به.

● **ومنها**: أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال، وعما يفسدها، ويشوش

---

(١) عبد الرحمن بن أبي ليلى، من ثقات التابعين، ولد لست بقين من خلافة عمر، ومات بوقعة الجماجم غريقاً.

القلوب، ويهيج الوسواس، فإن أصل الدين التوقي من الشر.

ولقد كان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأقربهم هدياً من الصحابة رضي الله عنهم، اتفقت الكلمة في حقه على ذلك، وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب، وفساد الأعمال، ووساوس النفوس، والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس. وقد قيل له: يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك، فمن أين أخذته؟ قال: من حذيفة بن اليمان.

وقيل لحذيفة بن اليمان: نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة، فمن أين أخذته؟ قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه)[1].

● ومنها: أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته، وإدراكه بصفاء قلبه، لا على تقليد ما يسمعه من غيره.

وإنما المقلَّد صاحب الشرع ﷺ فيما أمر به وقاله.

وإنما يقلد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من حيث إنّ فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ[2].

ثم إذا قلد صاحب الشرع ﷺ في تلقي أقواله وأفعاله، فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره، وفعله ﷺ لا بد وأن يكون لسرّ فيه، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال، فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالماً.

---

(١) متفق عليه (خ ٧٠٨٤، م ١٨٤٧)، ونصه فيهما: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني..).

(٢) قال المصنف (١/٢٣): واعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال. فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق. وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى من اشتهر بدرجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة.

● **ومنها**: أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور، فلا يغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم، وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوالهم، وسيرتهم وأعمالهم.

واعلم تحقيقاً: أن أعلم أهل الزمان، وأقربهم إلى الحق؛ أشبههم بالصحابة، وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أخذ الدين، ولذلك قال علي رضي الله عنه: (خيرنا أتبعنا لهذا الدين)، لما قيل له: خالفت فلاناً.

***

الباب السابع
في العقل وشرفه

اعلم أن بيان شرف العقل مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره، لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قِبَل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة.

وقد اختلف الناس في حد العقل وحقيقته، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة، فصار ذلك سبب اختلافهم.

والحق الكاشف للغطاء فيه: أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معانٍ:

فالأول: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي[1] حيث قال في حد العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء.

الثاني: هو العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز، بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حنكته

---

(١) أبو عبد الله، الحارث بن أسد، البصري المولد، البغدادي المنزل والوفاة، الإمام العارف، عديم النظير في زمانه ورعاً وعلماً، أحد الزهاد المتكلمين في العبادة والزهد. وكانت وفاته بعد سنة (٢٤٣)هـ رحمه الله.

التجارب وهذبته المذاهب، يقال: إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال: إنه غبي.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها: عاقلاً، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان، التي بها يتميز عن سائر الحيوان.

فالأولان بالطبع، والأخيران بالاكتساب.

* * *

وقد اختلف الناس في تفاوت العقل.

والحق الصريح فيه أن يقال: إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة، سوى القسم الثاني، وهو العلم الضروري بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات.

أما القسم الرابع ــ وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات ــ فلا يخفى تفاوت الناس فيه، بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه. وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة، وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعرِّف لغائلة تلك الشهوة.

وأما القسم الثالث ــ وهو علوم التجارب ــ فتفاوت الناس فيها لا ينكر، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة، وسرعة الإدراك، ويكون سببه: إما تفاوتاً في الغريزة، وإما تفاوتاً في الممارسة.

* * *

فإن قلت فما بال أقوام يذمون العقل والمعقول؟

فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات. وهو صنعة الكلام، فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم: إنكم أخطأتم في التسمية، إذ كان لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة

به، ورسوخه في القلوب. فذموا العقل والمعقول، وهو المسمى به عندهم.

فأما نور البصيرة التي يعرف بها الله تعالى، ويعرف صدق رسله، فكيف يتصور ذمه؟!

وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ. فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ. فهذا القدر كافٍ في بيان العقل، والله أعلم.

***

الكِتَابُ الثَّانِي

قَوَاعِدُ العَقَائِد

ربع العبادات

الفَصْلُ الأَوَّل[1]

عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّة

الحمد الله الذي ميَّز عصابة السنة بأنوار اليقين، ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين، حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين، فجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول «لا إلّه إلاَّ الله محمد رسول الله» ليس له طائل، إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة. وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إيجازها تتضمن: إثبات ذات الإلّه، وإثبات صفاته، وإثبات أفعاله، وإثبات صدق الرسول.

وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان، وهي أربعة، ويدور على كل ركن منها أصول:

الركن الأول من أركان الإيمان:

وهو في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى، وأن الله تعالى واحد، ومداره على أصول:

(الأصل الأول): معرفة وجوده تعالى، وأول ما يستضاء به من الأنوار،

---

(١) ذكر المصنف في هذا الكتاب ــ كتاب العقائد ــ أربعة فصول:
تناول في الفصل الأول أصول العقيدة بإيجاز، لتكون سهلة حتى يحفظها الأطفال الصغار، وتناول في الثاني التدرج إلى ترتيب درجات الاعتقاد، وتناول في الثالث أصول العقيدة مع أدلتها. . وبما أن الفصل الأول يدخل جملة وتفصيلاً ضمن ما جاء في الفصل الثالث فقد اكتفيت به ووضعته في الترتيب: الأول وسيبقى الثاني في ترتيبه، ويصبح الرابع ثالثاً.

ويسلك من طريق الاعتبار، ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان، وقد قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[3].

فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل، إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات، وأدار نظره في عجائب خلق الله في الأرض والسماوات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، أن هذا الأمر العجيب، والترتيب المحكم، لا يستغني عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره، ومصرفة بمقتضى تدبيره.

ولذلك قال الله تعالى:

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٦٤).
(٢) سورة نوح: الآية (١٥ ــ ١٨).
(٣) سورة الواقعة: الآية (٥٩).

﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(١).

ولهذا بعث الأنبياء ــ صلوات الله عليهم ــ لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا: «لا إله إلاّ الله».

فإذن: في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان.

(الأصل الثاني): العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل، أزلي ليس لوجوده أول. بل هو أول كل شيء، وقبل كل ميت وحي.

(الأصل الثالث): العلم بأنه تعالى ــ مع كونه أزلياً ــ أبدي، ليس لوجوده آخر، فـ: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾(٢).

(الأصل الرابع): العلم بأنه تعالى مستوٍ على عرشه، بالمعنى الذي أراده الله تعالى بالاستواء، وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء، ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء.

(الأصل الخامس): العلم بأنه تعالى مرئي بالأعين والأبصار في الدار الآخرة، دار القرار، لقوله تعالى:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣).

ولا يرى في الدنيا تصديقاً لقوله عزَّ وجلّ:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾(٤).

ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام:

﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾(٥).

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (١٠).

(٢) سورة الحديد: الآية (٣).

(٣) سورة القيامة: الآية (٢٢ ــ ٢٣).

(٤) سورة الأنعام: الآية (١٠٣).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٤٣).

(الأصل السادس): العلم بأن الله عزَّ وجلّ واحد لا شريك له، فرد لا نـدَّ له، انفرد بالخلق والإبداع، واستبدَّ بالإيجاد والاختراع، وبرهانه قوله تعالى:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1].

الركن الثاني: الصفات:

العلم بصفات الله تعالى، ومداره على أصول:

(الأصل الأول): العلم بأن صانع العالم قادر، وأنه تعالى في قوله:

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾[2]

صادق، لأن العالم محكم في صنعته، مرتب في خلقته، ومن رأى ثوباً من ديباج، حسن النسيج والتأليف، متناسب التطريز والتطريف، ثم توهم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له، أو عن إنسان لا قدرة له، كان منخلعاً عن غريزة العقل ومنخرطاً في سلك أهل الغباوة والجهل.

(الأصل الثاني): العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات، ومحيط بكل المخلوقات.

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[3].

صادق في قوله:

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[4].

(الأصل الثالث): العلم بكونه عزَّ وجلّ حياً، فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٢).

(٢) سورة المائدة: الآية (١٢٠).

(٣) سورة يونس: الآية (٦١).

(٤) سورة الحديد: الآية (٣).

(الأصل الرابع): العلم بكونه تعالى مريداً لأفعاله، فلا موجود إلاَّ وهو مستند إلى مشيئته، وصادر عن إرادته، فهو المبدئ المعيد، والفعال لما يريد.

(الأصل الخامس): العلم بأنه تعالى سميع بصير، لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء.

(الأصل السادس): أنه سبحانه وتعالى متكلم، ولا يشبه كلامه كلام غيره، كما لا يشبه وجوده وجود غيره.

(الأصل السابع): أن كلامه قديم، وكذا جميع صفاته، إذ يستحيل أن يكون محلاً للحوادث، داخلاً تحت التغير.

(الأصل الثامن): أن علمه قديم، فلم يزل عالماً بذاته وصفاته، وما يحدثه في مخلوقاته.

(الأصل التاسع): أن إرادته قديمة، وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها، على وفق سبق العلم الأزلي، إذ لو كانت حادثة، لصار محل الحوادث[1].

الركن الثالث: الأفعال:

العلم بأفعال الله تعالى، ومداره على أصول:

(الأصل الأول): العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه، لا خالق له سواه، ولا محدث له إلاَّ إياه. خلق الخلق وصنعهم، وأوجد قدرتهم وحركتهم، فجميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته، تصديقاً له في قوله تعالى:

(١) قال أهل السلف: ينبغي الإيمان بصفاته سبحانه التي وصف بها نفسه في كتابه أو وصفه بها رسوله في سنته. وذلك بأن نثبتها له كما جاءت في الكتاب والسنة بألفاظها ومعانيها اللائقة بكماله سبحانه وتعالى.

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[1].

وفي قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ ﴾[2].

وفي قوله تعالى:

﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤ ﴾[3].

(الأصل الثاني): أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد، على سبيل الاكتساب، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً. وخلق الاختيار والمختار جميعاً.

(الأصل الثالث): أن فعل العبد، وإن كان كسباً للعبد، فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه، فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين، ولا لفتة خاطر، ولا فلتة ناظر إلاَّ بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته. ومنه الشر والخير، والنفع والضر، والإسلام والكفر، والعرفان والنكر، والغواية والرشد، والشرك والإيمان، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء:

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣ ﴾[4].

(الأصل الرابع): أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع، ومتطوِّل بتكليف العباد، ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه.

(الأصل الخامس): أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء، فلا يجب عليه رعاية

---

(١) سورة الزمر: الآية (٦٢).

(٢) سورة الصافات: الآية (٩٦).

(٣) سورة الملك: الآية (١٤).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٢٣).

الأصلح لعباده، لأنه لا يجب عليه سبحانه شيء، بل لا يعقل في حقه الوجوب: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

(الأصل السادس): أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل.

(الأصل السابع): أن الله سبحانه قد أرسل محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، وناسخاً لما قبله من شرائع اليهود والنصارى، وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة.

الركن الرابع: السمعيات:

الركن الرابع في السمعيات، وتصديقه ﷺ فيما أخبر عنه، ومداره على أصول:

(الأصل الأول): الحشر والنشر، وقد ورد بهما الشرع، والتصديق بهما واجب، ومعناه الإعادة بعد الإفناء، وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء، قال الله تعالى:

﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾[2].

فاستدل بالابتداء على الإعادة[3].

(الأصل الثاني): سؤال منكر ونكير[4] وقد وردت به الأخبار، فيجب التصديق به.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٣).

(٢) سورة يس: الآية (٧٨).

(٣) حديث الحشر والنشر أخرجه الشيخان: (إنكم تحشرون إلى الله حفاة..) (خ ٤٦٢٥، م ٢٨٦٠ والذي بعده).

(٤) حديث سؤال منكر ونكير، أخرجه الترمذي وصححه ابن حبان (إذا قبر الميت أتاه ملكان

(**الأصل الثالث**): عذاب القبر(١)، وقد ورد الشرع به، قال الله تعالى:

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾(٢).

واشتهر عن رسول الله ﷺ والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر(٣).

(**الأصل الرابع**): الميزان. قال الله تعالى:

﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾(٤).

وقال تعالى:

﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ ﴾(٥).

(**الأصل الخامس**): الصراط(٦)، وهو جسر ممدود على متن جهنم، أدق من الشعرة، وأحد من السيف، قال الله تعالى:

أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير)، وفي الصحيحين: (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ــ وإنه ليسمع قرع نعالهم ــ أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله..) (ع)، رقمه في مسلم [خ ١٣٧٤، م ٢٨٧٠].

(١) حديث عذاب القبر أخرجاه من حديث عائشة (إنكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم...) الحديث (ع) (م ٥٨٤).

(٢) سورة غافر: الآية (٤٦).

(٣) استعاذته ﷺ من عذاب القبر، أخرجاه من حديث أبي هريرة وعائشة (خ ٦٣٦٥، م ٥٨٥).

(٤) سورة الأنبياء: الآية (٤٧).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٨).

(٦) حديث (الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة)، أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة (ع).

﴿ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤ ﴾[1].

(الأصل السادس): أن الجنة والنار مخلوقتان. قال الله تعالى:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ﴾[2].

فقوله: ﴿أعدت﴾ دليل على أنها مخلوقة.

(الأصل السابع): أن الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم.

(الأصل الثامن): أن فضل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على ترتيبهم في الخلافة.

(الأصل التاسع): أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة: الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة قريش، لقوله ﷺ: «الأئمة من قريش»[3].

***

---

(١) سورة الصافات: الآية (٢٤).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٣٣).

(٣) أخرجه النسائي من حديث أنس والحاكم (ع).

الفصل الثاني

التدرج إلى الإرشاد
ترتيب درجات الاعتقاد

اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوئه ليحفظه حفظاً، ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً، فابتداؤه الحفظ، ثم الفهم، ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به.

وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان، فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوئه للإيمان، من غير حاجة إلى حجة وبرهان، وكيف ينكر ذلك، وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد، والتقليد المحض؟

نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خالٍ من نوع من الضعف في الابتداء، على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقي إليه. فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي، حتى يترسخ ولا يتزلزل.

وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يُعَلَّم صنعة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره، وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً: بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يَرِدُ عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم، وسيماهم وسماعهم، وهيئاتهم في الخضوع لله عزَّ وجلّ، والخوف منه، والاستكانة له.

فيكون أول التلقين كإلقاء بذر في الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له، حتى ينمو ذلك البذر، ويرتفع شجرة طيبة راسخة، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة، فإن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده، وما يفسده أكثر مما يصلحه، والمشاهدة تكفيك برهاناً.

فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس، بعقيدة المتكلمين والمجادلين، فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهي، وعقيد المتكلم ـ الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل ـ كخيط مرسل في الهواء، تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا.

والصبي إذا وقع نشوؤه على هذه العقيدة، واشتغل بكسب الدنيا، يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق. إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد. أما البحث وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً.

***

الفصل الثالث
في الإيمان والإسلام

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى

اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره؟

فقيل: إنهما شيء واحد.

وقيل: إنهما شيئان لا يتواصلان.

وقيل: إنهما شيئان، ولكن يرتبط أحدهما بالآخر.

فنقول: في هذا ثلاثة مباحث:

الأول: بحث عن موجب اللفظين في اللغة، وهو بحث لغوي.

والثاني: تفسيري، وهو بحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع.

والثالث: فقهي، وهو بحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة.

[البحث الأول]:

في موجب اللغة، والحق فيه أن:

الإيمان عبارة عن التصديق، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾(1).

أي: بمصدق. والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد، وترك التمرد والإباء والعناد.

---

(1) سورة يوسف: الآية (17).

وللتصديق محل خاص وهو القلب، واللسان ترجمان.

وأما التسليم فإنه عام: في القلب واللسان والجوارح. فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم.

فموجب اللغة: أن الإسلام أعم، والإيمان أخص، فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام. فإذن: كل تصديق تسليم، وليس كل تسليم تصديقاً.

[البحث الثاني]:

عن إطلاق الشرع؛ والحق فيه: أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف، وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل.

أما الترادف: ففي قوله تعالى:

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد. وقال تعالى:

﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[2].

وأما الاختلاف: فقوله تعالى:

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾[3].

ومعناه: استسلمنا في الظاهر، فأراد بالإيمان هنا التصديق بالقلب فقط، وبالإسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح. وفي حديث جبريل لما سأله عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت، وبالحساب، وبالقدر خيره وشره»، فقال: فما الإسلام؟ فأجاب بذكر

(١) سورة الذاريات: الآية (٣٦).
(٢) سورة يونس: الآية (٨٤).
(٣) سورة الحجرات: الآية (١٤).

الخصال الخمس[1]. فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل.

وأما التداخل: فما روي أنه سئل: فقيل: «أي الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ: الإسلام، فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال ﷺ: الإيمان»[2]. وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل.

[البحث الثالث]:

عن الحكم الشرعي، وللإسلام والإيمان حكمان: أخروي ودنيوي.

أما الأخروي: فهو الإخراج من النار، ومنع التخليد، إذ قال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار من كان قلبه مثقال ذرة من إيمان»[3].

وقد اختلفوا في أن هذا الحكم على ماذا يترتب؟ وعبروا عنه بأن الإيمان ماذا هو:

فمن قائل إنه مجرد العقد..

ومن قائل يقول: إنه عقد بالقلب، وشهادة باللسان.

ومن قائل يزيد ثالثاً: وهو العمل بالأركان.

ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول:

ـ من جمع بين هذه الثلاثة، فلا خلاف في أن مستقره الجنة، وهذه درجة.

ـ الدرجة الثانية: أن يوجد اثنان وبعض الثالث ـ وهو القول والعقد وبعض الأعمال ـ ولكن ارتكب صاحبه كبيرة، فقالت المعتزلة: خرج بهذا من الإيمان ولم يدخل في الكفر، بل اسمه «فاسق» وهو على منزلة بين المنزلتين. وهو مخلد في النار. وهذا باطل.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة (خ ٥٠، م ٩ و ١٠). ومقصوده بالخصال الخمس: أركان الإسلام التي هي: الشهادتان، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج.

(٢) أخرج أحمد والطبراني الشطر الأخير، وإسناده صحيح (ع).

(٣) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري (خ ٢٢، م ١٨٣، ١٨٤).

ـ الدرجة الثالثة: أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان، دون الأعمال بالجوارح. وقد اختلفوا في حكمه.

ـ الدرجة الرابعة: أن يقول باللسان: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولكن لم يصدق بقلبه، فلا نشك في أن هـذا في حكم الآخرة من الكفـار، وأنه مخلد في النار، ولا نشك في أنه في حكم الدنيا الذي يتعلق بالأئمة والـولاة: من المسلمين، لأن قلبه لا يطلع عليه. ولذلك كان حذيفة رضي الله عنه لا يحضر جنـازة من يموت من المنافقين، وعمر رضي الله عنه كان يـراعي ذلك منـه، فلا يحضـر إذا لم يحضر حذيفة رضي الله عنه.

المسألـة الثانيـة

اتفق السَّلف على أن الإيمـان يـزيـد وينقص، يـزيـد بـالـطاعـة، وينقص بالمعصية. فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان!!

فأقول: السلف هم الشهود العدول، وما لأحد عن قـولهم عدول، فمـا ذكروه حق، وإنما الشأن في فهمه. وإذا تركنا المداهنة، وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال.

فنقول: «الإيمان» اسم مشترك يطلق على ثلاثة أوجه:

الأول: أنـه يطلق للتصـديق بالقلب على سبيـل الاعتقاد والتقليـد ـ من غيـر كشف وانشراح صدر ـ وهو إيمان الخلق كلهم إلا الخـواصّ. وهذا الاعتقـاد عقدة عن القلب تارة تشتد وتقـوى، وتارة تضعف وتسترخي، كالعقـدة على الخيط مثلاً، وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضاً، فالتفاوت في شدة التصميم.

والعمـل يؤثر في نمـاء هذا التصميم وزيـادته، كمـا يؤثر سقي المـاء في نماء الأشجار ولذلك قال تعالى:

﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾(١).

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٧٣).

وقال تعالى:

﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ ﴾[1].

قال علي ـ كرَّم الله وجهه ـ: إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء، فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت، حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء، فإذا انتهكت الحرمات نمت وزادت، حتى يسودَّ القلب كله، فيطبع عليه، فذلك هو الختم، وتلا قوله تعالى:

﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤ ﴾[2].

الثاني: أن يراد به التصديق والعمل جميعاً، كما قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون باباً»[3]، وقال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[4]. وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخفَ زيادته ونقصانه. وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذي هو مجرد التصديق؟ هذا فيه نظر، وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه.

الثالث: أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشراح الصدر، والمشاهدة بنور البصيرة. وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة.

ولكني أقول: إن اليقينيّات تختلف في درجات الإيضاح، ودرجات طمأنينة النفس إليها. فطمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد، ليست كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث، وإن كان لا شك في واحد منهما.

فظهر في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق، وكيف وفي الخبر أنه: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[5].

---

(١) سورة الفتح: الآية (٤).

(٢) سورة المطففين: الآية (١٤).

(٣) متفق عليه بلفظ «الإيمان بضع وسبعون شعبة»، وفي البخاري «وستون» (خ ٩، م ٣٥).

(٤) متفق عليه (خ ٢٤٧٥، م ٥٧).

(٥) متفق عليه (خ ٢٢، م ١٨٣، ١٨٤).

المسألة الثالثة

ما وجه قول السلف: (أنا مؤمن إن شاء الله) والاستثناء شك، والشك في الإيمان كفر؟ وقد كانوا يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه.

قال سفيان الثوري[1]: (من قال: أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين، ومن قال: أنا مؤمن حقاً فهو بدعة). قيل له: فماذا نقول؟ قال: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا).

وقيل للحسن: أمؤمن أنت؟ فقال: إن شاء الله، فقيل له: لمَ تستثني يا أبا سعيد في الإيمان؟ فقال: أخاف أن أقول نعم، فيقول الله سبحانه: كذبت يا حسن، فتحق عَلَيّ الكلمة.

الجواب:

إنّ هذا الاستثناء صحيح، وله أربعة أوجه:

الوجه الأول: الاحتراز من الجزم، خيفة ما فيه من تزكية النفس، قال الله تعالى:

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ ﴾[3].

وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. وهو كما يقال

---

(١) سفيان بن سعيد الثوري، أبو عبد الله، أحد زهاد الكوفة الأعلام، ساد الناس بالورع والعلم، لقب بأمير المؤمنين في الحديث، أراده المنصور على الحكم فرفض وغادر الكوفة إلى مكة والمدينة، فطلبه المهدي، فهرب إلى البصرة، ومات فيها مستخفياً عام (١٦١)هـ.

(٢) سورة النجم: الآية (٣٢).

(٣) سورة النساء: الآية (٤٩).

لـلإنسان: أنت فقيـه؟ فيقـول: نعم إن شـاء الله، لا في معـرض التشكيـك، ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه.

الوجه الثاني: التأدب بذكر الله تعالى في كل حـال، وإحالـة الأمور كلهـا إلى مشيئة الله سبحانه، فقد أدب الله سبحانه نبيه ﷺ فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1].

ثم لم يقتصر على ذلك فيما يشك فيه، بل قال تعالى:

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[2].

وكان الله سبحانه عالمـاً بأنهم يـدخلون لا محالـة، وأنه شـاءه ولكن المقصود تعليمه ذلك. فتأدب رسول الله ﷺ في ما كان يخبـر عنه، معلومـاً كان أو مشكـوكاً، حتى قال ﷺ لما دخـل المقابـر: «السلام عليكم دار قـوم مؤمنين، وإنا إن شـاء الله بكم لاحقـون»[3]، واللحوق بهم غيـر مشكـوك فيـه، ولكن مقتضى الأدب ذكـر الله تعالى، وربط الأمور به.

الـوجه الثـالث: مستنده الشـك، ويرجـع هذا إلى الشـك في كمال الإيمـان لا في أصله، وكل إنسان شاك في كمال إيمانه، وذلك ليس بكفر.

والشك في كمال الإيمان حق من وجهين:

- أحدهما: من حيث إن النفـاق يزيـل كمال الإيمـان، وهو خفي لا تتحقّق البراءة منه.

- والثاني: أنه يكمل بأعمال الطاعات، ولا يدرى وجودها على الكمال.

الوجه الرابع: وهو أيضاً مستند إلى الشك، وذلـك من خوف الخـاتمة، فـإنه

---

(١) سورة الكهف: الآية (٢٣).

(٢) سورة الفتح: الآية (٢٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩).

لا يدري أيسلم له الإيمان عند الموت أم لا؟ فإن ختم له بالكفر حبط عمله السابق، لأنه موقوف على سلامة الآخر.

ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه، فقال: أنا صائم قطعاً، فلو أفطر في أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه، إذ كانت الصحة موقوفة على التمام إلى غروب الشمس من آخر النهار، وكما أن النهار ميقات تمام الصوم، فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان، ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب، وهو مشكوك فيه، والعاقبة مخوفة، ولأجلها كان بكاء أكثر الخائفين، فمن الذي يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى؟

[ومسألة رابعة][1]

في بيان النفاق:

قال ﷺ: «أربع من كن فيه فهو منافق خالص، وإن صام وصلّى وزعم أنه مؤمن، من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر» وفي بعض الروايات: «وإذا عاهد غدر»[2]

وقال حذيفة رضي الله عنه: (المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي ﷺ، فكانوا إذ ذاك يخفونه، وهم اليوم يظهرونه)[3].

وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله، وهو خفي، وأبعد الناس منه من يتخوفه، وأقربهم منه من يرى أنه بريء منه، فقد قيل للحسن البصري: يقولون أن لا نفاق اليوم؟ فقال: يا أخي، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق.

وقيل للحسن: إن قوماً يقولون إنا لا نخاف النفاق، فقال: والله لأن أكون

---

(١) هذه المسألة لم يفردها المصنف، وإنما ذكرها ضمن شرحه للمسألة الثالثة ـ السابقة ـ ولأهميتها أفردتها في هذه المسألة.

(٢) متفق عليه (خ ٣٤، م ٥٨)، وقوله: «وإن صام..» في مسلم برقم (٥٩).

(٣) أخرجه البخاري، إلا أنه قال: (شر) بدل (أكثر) برقم (٧١١٣).

أعلم أني بريء من النفاق، أحب إليّ من تلاع[1] الأرض ذهباً. وقال: إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب، والسر والعلانية، والمدخل والمخرج.

وقال ابن أبي مليكة[2]: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخافون النفاق[3].

وقال ﷺ: «اللهم إني أستغفرك لما علمت، ولما لم أعلم»[4].

فهذه الأخبار والآثار، تعرفك خطر الأمر، بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي، وأنه لا يؤمن منه. حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه، وأنه هل ذكر في المنافقين[5].

وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان، وصدقه، وكماله، وصفاءه، لا أصله.

فالنفاق نفاقان:

ـ أحدهما: يخرج من الدين، ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار.

ـ والثاني: يفضي بصاحبه إلى النار مدة، أو ينقص من درجات عليين، ويحط من رتبة الصديقين.

***

(١) تلاع: جمع تلعة، وهي ما ارتفع من الأرض، ومسيل الماء، وما اتسع من فوهة الوادي.

(٢) ابن أبي مليكة: اسمه: زهير بن عبد الله بن جدعان، سمع من عائشة وابن عباس، وقال: بعثني ابن الزبير على قضاء الطائف، فكنت أسأل ابن عباس، توفي سنة (١١٨)هـ، (ش ١/١٠١).

(٣) أخرجه البخاري معلقاً في مقدمة الحديث (٤٨).

(٤) أخرجه مسلم من حديث عائشة (ع).

(٥) وذلك لأن حذيفة كان اختصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين، ولذلك كان عمر لا يصلي على جنازة حتى يحضرها حذيفة، فإذا لم يحضرها، قال: صلوا على صاحبكم (ش).

الكِتَابُ الثَّالِثُ

أَسْرَارُ الطَّهَارَةِ

رُبْعُ العِبَادَاتِ

[تمهيد في مراتب الطهارة]

قال الله تعالى:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[1].

وقال الله تعالى:

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»[3].

فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر، إذ يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان» عمارةَ الظاهر بالتنظيف، بإفاضة الماء وإلقائه، وتخريبَ الباطن، وإبقاءَه مشحوناً بالأخباث والأقذار. هيهات هيهات..

والطهارة لها أربع مراتب:

المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث، وعن الأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

المرتبة الرابعة: تطهير السرِّ عما سوى الله تعالى. وهي طهارة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والصديقين.

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٠٨).

(٢) سورة المائدة: الآية (٦).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣).

والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها.

فعمل القلب، غايته القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة، ولن يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها من العقائد الفاسدة، فتطهيره أحد الشطرين، وهو الشطر الأول، الذي هو شرط في الثاني. فكان الطهور شطر الإيمان بهذا المعنى.

وكذلك تطهير الجوارح هو الشطر الأول، وعمارتها بالطاعات هو الشطر الثاني.

فهذه مقامات الإيمان، ولكل مقام طبقة، ولن ينال العبد الطبقة العالية، إلاَّ أن يجاوز الطبقة السافلة. فلا يصل إلى طهارة السرِّ عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم.. ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح..



إذا عرفت هذه المقدمة، واستبنت أن الطهارة لها أربع مراتب، فاعلم أنّا في هذا الكتاب ـ كتاب أسرار الطهارة ـ لسنا نتكلم إلاَّ في المرتبة الرابعة، وهي نظافة الظاهر، لأنّا في الشطر الأول من الكتاب لا نتعرض قصداً إلاَّ للظواهر.

فنقول: طهارة الظاهر ثلاثة أقسام:

ـ طهارة عن الخبث[1].

ـ وطهارة عن الحدث.

ـ وطهارة عن فضلات البدن.

(١) الخبث: النجس.

القسم الأول

في طهارة الخبث

والنظر فيه يتعلق: بالمزال، والمزال به، والإزالة.

الطرف الأول: في المزال:

وهي النجاسة، والأعيان ثلاثة: جمادات، وحيوانات، وأجزاء حيوانات.

أما الجمادات: فطاهرة كلها، إلَّا الخمر وكل منتبذ مسكر.

والحيوانات: طاهرة كلها، إلَّا الكلب والخنزير، وما تولد منهما أو من أحدهما، فإذا ماتت فكلها نجسة إلَّا خمسة: الآدمي، والسمك، والجراد، ودود التفاح ـ وفي معناه كل ما يستحيل من الأطعمة ـ، وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب، فلا ينجس الماء بوقوع شيء منها فيه.

وأما أجزاء الحيوانات فقسمان:

ـ أحدهما: ما يقطع منه، وحكمه حكم الميت. والشعر لا ينجس بالجزّ والموت، والعظم ينجس.

ـ الثاني: الرطوبات الخارجة من باطنه، فكل ما ليس مستحيلاً[1]، ولا له مقر فهو طاهر، كالدمع والعرق واللعاب والمخاط، وما له مقر وهو مستحيل فنجس، إلَّا ما هو مادة الحيوان كالمني والبيض.

والقيح والدم والروث والبول نجس من الحيوانات كلها، ولا يعفى عن شيء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلَّا عن خمسة: الأثر بعد الاستجمار يعفى عنه ما لم يعْدُ المخرج، وطين الشوارع، وغبار الروث في الطريق يعفى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الاحتراز عنه. وما على أسفل الخف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها، ودم البراغيث، ودم البثرات. ومسامحة الشرع في هذه النجاسات تعرفك أن أمر الطهارة على التساهل. وما ابتدع من وسوسة لا أصل لها.

---

(١) أي متحولاً من شيء إلى شيء آخر.

الطرف الثاني: المزال به:

وهو إما جامد، وإما مائع.

أما الجامد، فحجر الاستنجاء، وهو مطهر تطهير تخفيف، بشرط أن يكون صلباً طاهراً، غير محترم.

وأما المائعات، فلا تُزال النجاسات بشيء منها إلاَّ الماء الطاهر، الذي لم يتفاحش تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه.

ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير ــ بملاقاة النجاسة ــ طعمه أو لونه أو ريحه. فإن لم يتغير وكان قريباً من قلتين لم ينجس لقوله ﷺ: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً»[1].

الطرف الثالث: في كيفية الإزالة:

النجاسة إن كانت حكمية ــ وهي التي ليس لها جرم محسوس ــ فيكفي إجراء الماء على جميع مواردها.

وإن كانت عينية فلا بد من إزالة العين، وبقاء الطعم يدل على بقاء العين، وكذا بقاء اللون، إلاَّ فيما يلتصق فهو معفو عنه بعد الحت والقرص. وأما الرائحة فلا يعفى عنها إلاَّ إذا عسر إزالتها.

والمزيل للوسواس: أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين، فما لا يشاهد عليه نجاسة، ولا يعلمها يقيناً يصلي معه.

---

(١) أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه (ع).

القسم الثاني
في طهارة الأحداث

ومنها: الوضوء، والغسل، والتيمم، ويتقدمها الاستنجاء.

آداب قضاء الحاجة:

ينبغي أن يبعد عن أعين الناظرين في الصحراء، وأن يستتر بشيء إن وجده، وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس، وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها إلاَّ إذا كان في بناء، وأن يتقي الجلوس في متحدث الناس، وأن لا يبول في الماء الراكد، ولا تحت الشجرة المثمرة، ولا في الجحر، وأن يتقي الموضع الصلب ومهاب الريح في البول، استنزاهاً من رشاشه، وأن يتكىء في جلوسه على الرجل اليسرى.

وإن كان في بنيان يقدم الرجل اليسرى في الدخول، واليمنى في الخروج، ولا يستصحب شيئاً عليه اسم الله تعالى أو رسوله ﷺ، ويقول عند الدخول: باسم الله، أعوذ بالله من الخبث والخبائث، وعند الخروج: الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني.

كيفية الوضوء:

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء، ويبتدىء بالسواك، قال ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[1] ثم يجلس للوضوء مستقبل القبلة، ويسمي، ثم يغسل يديه ثلاثاً، قبل أن يدخلهما الإناء، ثم يأخذ غرفة فيتمضمض بها ثلاثاً، ثم يأخذ غرفة ويستنشق ثلاثاً، ثم يغسل وجهه ثلاثاً من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول، ومن الأذن إلى الأذن في

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة (خ ٨٨٧، م ٢٥٢).

العرض، ثم يغسل يديه إلى مرفقيه ثلاثاً، ويحرك الخاتم، ويبدأ باليمين، ثم يستوعب رأسه بالمسح، ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد، ثم يغسل رجليه إلى الكعبين ويخلل أصابعهما.

ويكره في الوضوء أن يزيد على الثلاث، وأن يسرف في الماء.

وفروض الوضوء: النية، وغسل الوجه، واليدين إلى المرفقين، ومسح بعض الرأس، وغسل الرجلين إلى الكعبين، والترتيب.

فضيلة الوضوء:

قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء وصلّى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[١].

وقال ﷺ: «ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا، ويرفع الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، ونقل الأقدام إلى الصلاة، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط ـ ثلاث مرات ـ»[٢].

وقال ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم رفع طرفه إلى السماء، فقال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[٣].

كيفية الغسل:

يغسل يديه ثلاثاً، ثم يستنجي، ويزيل ما على بدنه من نجاسة، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة، إلاَّ غسل القدمين فإنه يؤخرهما، ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً، ثم على شقه الأيمن ثلاثاً، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً، ثم يدلك ما أقبل من بدنه، ويخلل شعر الرأس واللحية، ويوصل الماء إلى منابته.

---

(١) متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله: (بشيء من الدنيا) (م ٢٣٤).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٥١).

(٣) أخرجه أبو داود، وهو عند مسلم (م ٢٣٤) دون قوله: «ثم رفع» (ع).

وليس على المرأة نقض الضفائر إلاَّ إذا علمت أن الماء لا يصل إلى خلال الشعر.

ويتعهد معاطف البدن وليتق أن يمسَّ ذكره في أثناء ذلك، فإن فعل ذلك فليعد الوضوء.

والواجب من جملة ما ذكرناه في الغسل أمران: النية، واستيعاب البدن بالغسل.

والغسل واجبٌ بأربعة: بخروج المني، والتقاء الختانين، والحيض، والنفاس.

وما عداه سنَّة: كغسل العيدين، والجمعة، والإحرام والوقوف بعرفة، وبقية أغسال الحج، والمجنون إذا أفاق.

كيفية التيمم:

من تعذر عليه استعمال الماء ــ لفقده، أو بمانع من الوصول إليه، أو خاف من استعماله بسبب مرض. . ــ فينبغي أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة، ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر خالص يثور منه غبار، ويضرب عليه كفيه ضاماً بين أصابعه، ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة، وينوي استباحة الصلاة، ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرج فيها بين أصابعه، ثم يلصق ظهور يده اليمنى ببطون أصابع يده اليسرى، ثم يمر يده اليسرى على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق، ثم يقلب بطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويمرها إلى الكوع، ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى، ثم يفعل باليسرى كذلك، ثم يمسح كفيه ويخلل بين أصابعه، وإذا صلَّى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء، ويعيد التيمم لفرض ثانٍ.

القسم الثالث
التنظيف عن الفضلات

الفضلات الظاهرة نوعان:

ـ أوساخ.

ـ أجزاء.

النوع الأول: الأوساخ:

وهي ثمانية:

(الأول): ما يجتمع في شعر الرأس، فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين، وقد دخل على رسول الله ﷺ رجل ثائر الرأس، أشعث اللحية، فقال: «أما كان لهذا دهن يسكِّن به شعره»، ثم قال: «يدخل أحدكم كأنه شيطان»(١).

(الثاني): ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن، والمسح يزيل ما يظهر منه، وما يجتمع في قعر الصماخ فينبغي أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام.

(الثالث): ما يجتمع داخل الأنف، ويزيله بالاستنشاق والاستنثار.

(الرابع): ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان، فيزيله بالسواك والمضمضة.

(الخامس): ما يجتمع في اللحية من الوسخ إذا لم يتعهد، ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط.

وهذا واجب على كل عالم تصدّى لدعوة الخلق إلى الله عزَّ وجلّ، وهو أن يراعي من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه، والاعتماد في مثل هذه الأمور على النية، فالتزين على هذا القصد محبوب، وترك الشعث باللحية إظهاراً للزهد وقلة

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان من حديث جابر بإسناد جيد.

المبالاة بالنفس محذور، وتركه شغلاً بما هو أهم منه محبوب، وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عزَّ وجلّ، والناقد بصير.

(السادس): وسخ البراجم ـ وهي معاطف ظهور الأنامل ـ فقد أمر رسول الله ﷺ بغسل البراجم[1].

(السابع): تنظيف الرواجب، أمر رسول الله ﷺ العرب بتنظيفها، وهي رؤوس الأنامل، وما تحت الأظافر من الوسخ، لأنها كانت لا يحضرها المقراض في كل وقت فتجتمع فيها أوساخ، فوقت لهم رسول الله ﷺ قلم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة أربعين يوماً[2].

(الثامن): الدرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق، وذلك يزيله الحمام، ولا بأس بدخول الحمام، وقد دخل بعض أصحاب رسول الله ﷺ حمامات الشام، وقال بعضهم: نعم البيت بيت الحمام يطهر البدن ويذكر النار[3]، وقال بعضهم: بئس البيت بيت الحمام يبدي العورة ويذهب الحياء[4]. فهذا تعرض لآفته، وذاك تعرض لفائدته، ولا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته.

النوع الثاني: فيما يحدث في البدن من الأجزاء:

وهي ثمانية:

(الأول): شعر الرأس، ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف، ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجِّله.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عائشة: «عشر من الفطرة.. وفيه غسل البراجم» برقم (٢٦١). والبراجم جمع بُرجُمة: وهي عقد الأصابع ومفاصلها كلها.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أنس برقم (٢٥٨).

(٣) روي ذلك عن أبي هريرة بلفظ (يذهب الوسخ ويذكر الآخرة)، أخرجه ابن منيع في مسنده، وابن عساكر في التاريخ (ش).

(٤) روي عن ابن عباس: (بئس البيت الحمام ترفع فيه الأصوات وتكشف فيه العورات)، أخرجه ابن عدي في الكامل (ش).

(الثاني): شعر الشارب، وقد قال ﷺ: «حفوا الشوارب واعفوا اللحى»[1]، أي اجعلوها حفاف الشفة، أي حولها، وفي لفظ آخر (احفوا) وهذا يشعر بالاستئصال، وقوله: «حفوا» يدل على ما دون ذلك. وأما الحلق فلم يرد والإحفاء القريب من الحلق نقل عن الصحابة.

(الثالث): شعر الإبط، ويستحب نتفه كل أربعين يوماً، وذلك سهل عن من تعوده، ومن تعود الحلق فيكفيه.

(الرابع): شعر العانة، ويستحب إزالته، إما بالحلق أو بالنورة في المدة المتقدمة.

(الخامس): الأظافر، وتقليمها مستحب، لشناعة صورتها إذا طالت، ولما يجتمع فيها من الوسخ.

(السادس والسابع): زيادة السرة، وقلفة الحشفة، أما السرة فتقطع في أول الولادة، وأما التطهير بالختان، فعادة اليهود في اليوم السابع من الولادة، ومخالفتهم بالتأخير إلى أن يثغر[2] الولد أحب وأبعد عن الخطر.

(الثامن): ما طال من اللحية[3]. وقد اختلفوا فيما طال منها:

فقيل: إن قبض الرجل على لحيته، وأخذ ما فضل عن القبضة فلا بأس، فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين، واستحسنه الشعبي، وابن سيرين[4].

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر بلفظ (احفوا)، وفي البخاري (وفروا اللحى) (خ ٥٨٩٢، م ٢٥٩)، وفي لفظ لمسلم (جزوا الشوارب) (م ٢٦٠).

(٢) أي: يقوى.

(٣) قال المصنف: إنه أخر البحث فيها، لما يريده من الحديث عن السنن والبدع فيها.

(٤) محمد بن سيرين، من التابعين، وكان إماماً في علوم الدين، روى عن أبي هريرة وعمران بن حصين. كان شديد الورع، توفي سنة (١١٠)هـ.

وكـرهه: الحسن، وقتـادة[1] وقالا: تـركها عـافيـة أحب لقـولـه ﷺ: «اعفـوا اللحى».

والأمر في هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجـوانب، فإن الطول المفرط قد يشوه الخلقة، ويطلق ألسنة المغتابين، فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية.

وقال النخعي[2]: عجبت لرجل عاقل طويل اللحية، كيف لا يأخذ من لحيتـه ويجعلها بين لحيتين، فإن التوسط في كل شيء حسن.

وفي اللحية خصال مكروهة، وبعضها أشد كراهة من بعض:

ـ الخضاب بالسواد، فهو منهي عنه[3].

ـ الخضـاب بالصفـرة والحمرة، وهـو جائـز تلبيسـاً للشيب على الكفـار في الغزو والجهاد. فإن لم يكن على هذه النية فهو مذموم.

ـ تبييضها بالكبريت استعجالاً لإظهار علو السن، وتوصـلاً إلى التوقيـر، ظناً بأن كثرة الأيام تعطيه فضلاً، وهيهات..

ـ نتف بياضها استنكافاً من الشيب، وهو في معنى الخضاب بالسواد.

ـ تسريحها لأجل الناس.

* * *

كان غرض هذا الكتاب التعرض للطهارة الظاهرة دون البـاطنة. وإن فضـلات الباطن وأوساخه التي يجب التنظف منهـا أكثر من أن تحصى، وسيـأتي تفصيلها في ربع المهلكات.. إن شاء الله عزَّ وجلّ.

***

(١) قتادة بن دعامة السدوسي، أبو الخطاب، البصـري الأكمه. أحـد الأئمة الأعـلام توفي عـام (١١٧)هـ.

(٢) إبراهيم بن يزيد النخعي، من كبار التابعين صلاحاً وروايةً وصدقاً، فقيه الكوفة، توفي سنـة (٩٦)هـ، ورأى السيدة عائشة رضي الله عنها وهو صغير.

(٣) جاء في صحيح مسلم في شـأن شعر أبـي قحـافة: «غيـروا هذا بشيء، واجتنبـوا السواد»، (م ٢١٠٢).

الكِتَابُ ٱلرَّابِعُ

أَسْرَارُ ٱلصَّلَاةِ وَمُهِمَّاتِهَا

رُبْعُ العِبَادَاتِ

الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، ورأس القربات، وغرة الطاعات، ونقتصر في هذا الكتاب على ما لا بد للمريد منه، من أعمالها الظاهرة، وأسرارها الباطنة.

الباب الأول

في فضائل الصلاة

فضيلة الأذان:

قال ﷺ: «لا يسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»[1].

وقال ﷺ: «إذا سمعتم النداء، فقولوا مثل ما يقول المؤذن»[2] وذلك مستحب، إلا في الحيعلتين[3] فإنه يقول فيهما: لا حول ولا قوة إلا بالله. وفي قوله: «قد قامت الصلاة»: أقامها الله وأدامها ما دامت السماوات والأرض. وفي «التثويب»[4]: صدقت وبررت ونصحت.

وعند الفراغ يقول: «اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد»[5].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٩).

(٢) متفق عليه (خ ٦١١، م ٣٨٣).

(٣) متفق عليه (خ ٦١٣، م ٣٨٥). والحيعلتان: قول المؤذن: حي على الصلاة، حي على الفلاح.

(٤) هو قول المؤذن في صلاة الفجر «الصلاة خير من النوم».

(٥) رواه البخاري برقم (٦١٤) إلى قوله: «.. الذي وعدته» وبعده: «حلت له شفاعتي يوم =

فضيلة المكتوبة:

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾[1].

وقال ﷺ: «مثل الصلوات الخمس، كمثل نهر جارٍ غَمرٍ[2] على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات»[3].

وقال ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن، ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة»[4]

وقال ﷺ: «إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»[5].

وسئل ﷺ: أي الأعمال أفضل فقال: «الصلاة على مواقيتها»[6].

وقال ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد برىء من ذمة محمد عليه السلام»[7].

= القيامة» وأوله: «من قال حين يسمع النداء» وأشار إليه حديث عمرو بن العاص عند مسلم برقم (٣٨٤).

(١) سورة النساء: الآية (١٠٣).

(٢) الغمر: هو الكثير.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٦٦٨)، ولهما من حديث أبي هريرة وفيه: (هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا).

(٤) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان، وصححه ابن عبد البر (ع).

(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٣٣).

(٦) متفق عليه، ورقمه عند مسلم (٨٥)، وعند البخاري (٥٢٧).

(٧) أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أم أيمن بنحوه، ورجاله ثقات (ع).

فضيلة إتمام الأركان:

قال ﷺ: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد، لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده»[1]، وقال ﷺ: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته»[2].

وقال ابن مسعود وسلمان رضي الله عنهما: الصلاة مكيال، فمن أوفى استوفى، ومن طفف فقد علم ما قال الله في المطففين.

فضيلة الجماعة:

قال ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[3]. وروى أبو هريرة أنه ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات فقال: «لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم»[4].

وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعاً: «من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة، ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة»[5].

وقال حاتم الأصم: فاتتني الصلاة في الجماعة، فعزاني أبو إسحاق البخاري[6] وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف، لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا.

---

(١) أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح (ع).
(٢) أخرجه أحمد والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي قتادة (ع).
(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر (خ ٦٤٥، م ٦٥٠).
(٤) متفق عليه (خ ٦٤٤، م ٦٥١).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٦٥٦).
(٦) هو أحمد بن إسحاق السلمي، أحد فرسان الإسلام، وكان زاهداً ثقة، روى عنه البخاري.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سمع المنادي فلم يجب، لم يرد خيراً، ولم يرد به خير.

فضيلـة السجـود:

روي أن رجلاً قال لـرسول الله ﷺ: ادع الله أن يجعلني من أهـل شفاعتـك، وأن يرزقني مرافقتك في الجنة، فقال ﷺ: «أعني بكثرة السجود»[١].

وقال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾[٢].

فقيـل هو مـا يلتصق بـوجـوههم من الأرض عنـد السجـود، وقيـل: هـو نـور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر.

وعن أبـي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[٣].

فضيلـة الخشـوع:

قـال النبـي ﷺ: «من صلى ركعتين، لم يحـدث نفســه فيهمـا ـ بشيء من الدنيا ـ غفر له ما تقدم من ذنبه»[٤].

وقال ﷺ للذي أوصاه: «وإذا صليت فصل صلاة مودع»[٥] أي مودع لنفســه، مودع لهواه، مودع لعمره سائر إلى مولاه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب، وهو الذي سأله ذلك.

(٢) سورة الفتح: الآية (٢٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٤٨٢).

(٤) متفق عليه دون قوله «بشيء من الدنيا» (خ ١٣٤، م ٢٢٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه من حديث أبـي أيوب، والحاكم من حديث سعد، وقال صحيـح الإسناد، والبيهقي في الزهد.

والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة؟

ويروى عن علي بن الحسين[1]: أنه كان إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه.

فضيلة المسجد وموضع الصلاة:

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾[2].

وقال ﷺ: «من بنى مسجداً ــ ولو كمفحص قطاة ــ بنى الله له قصراً في الجنة»[3]، وقال ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس»[4].

وقال ﷺ: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي يصلي فيه، تقول: اللهم صلِّ عليه، اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، ما لم يحدث أو يخرج من المسجد»[5].

---

(١) هو الإمام زين العابدين، علي بن الحسين بن علي رضي الله عنه، العابد الوفي، الجواد، مناقبه كثيرة.

(٢) سورة التوبة: الآية (١٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه بسند صحيح. وهو متفق عليه من حديث عثمان، دون قوله «ولو كمفحص قطاة» ومفحص القطاة: مكان وضع بيضها. (خ ٤٥٠، م ٥٣٣).

(٤) متفق عليه (خ ٤٤٤، م ٧١٤) وأحمد والترمذي وأبو داود والنسائي من حديث أبي قتادة (ش).

(٥) متفق عليه (خ ٦٥٩، م ٦٤٩).

وقال علي كرم الله وجهه: إذا مات العبد، يبكي عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء، ثم قرأ:

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

***

(١) سورة الدخان: الآية (٢٩).

الباب الثاني

كيفية الأعمال الظاهرة

[القيام]:

ينبغي للمصلي إذا فرغ من الوضوء والطهارة، وستر العورة، أن ينتصب قائماً متوجهاً إلى القبلة، وليكن رأسه على استواء القيام، وإن شاء أطرق، والإطراق أقرب للخشوع، وأغض للبصر، وليكن بصره محصوراً على مصلاه الذي يصلي عليه.

وليقرب من جدار الحائط، فإن ذلك يقصر مسافة البصر، ويمنع تفرق الفكر، وليدم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات. **هذا أدب القيام.**

ثم ليحضر النية بقلبه، ثم ليرفع يديه إلى حذو منكبيه، وإذا استقرت اليدان في مقرهما ابتدأ التكبير، مع إرسالهما وإحضار النية، ثم ليضع اليدين على ما فوق السرة وتحت الصدر، ويضع اليمنى على اليسرى.

القراءة:

ثم يبتدىء بدعاء الاستفتاح، وحسن أن يقول: «الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا»[1] أو «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين..»[2] أو يقول: «سبحانك

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٦٠١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧١).

اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، وجل ثناؤك، ولا إله غيرك»[1].

ثم يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم يقرأ الفاتحة، يبتدىء فيها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» بتمام تشديداتها وحروفها.

ويجهر بالقراءة في: الصبح والمغرب والعشاء، إلا أن يكون مأموماً، ويجهر بالتأمين، ثم يقرأ السورة، أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها.

ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوي، بل يفصل بينهما بقدر قوله: «سبحان الله».

الركوع ولواحقه:

ثم يركع ويراعي فيه أموراً: وهو أن يكبر للركوع، وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع، وأن يمد التكبير مداً إلى الانتهاء إلى الركوع، وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشورة على طول الساق..

وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما، وأن يمد ظهره مستوياً، وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره، لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع، وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه. وتضم المرأة مرفقيها إلى جنبيها.

وأن يقول: «سبحان ربي العظيم» ثلاثاً.

ثم يرتفع من الركوع إلى القيام، ويرفع يديه، ويقول: «سمع الله لمن حمده»، ويطمئن في الاعتدال ويقول: «ربنا لك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد».

السجود:

ثم يهوي إلى السجود مكبراً، فيضع ركبتيه على الأرض، ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة، ويكبر عند الهوي، ولا يرفع يديه في غير الركوع.

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه، ورواه مسلم موقوفاً على عمر. (ع).

ويكون أول ما يقع منه على الأرض ركبتاه، ثم يداه، ثم وجهه.

ويجافي مرفقيه عن جنبيه، ولا تفعل المرأة ذلك. ويفرج بين رجليه، ولا تفعل المرأة ذلك.

ويضع يديه على الأرض حذاء منكبيه، ولا يفرج بين أصابعهما، بل يضمهما ويضم الإبهام إليهما، ولا يفترش ذراعيه على الأرض فإنه منهيّ عنه[1].

ويقول: «سبحان ربي الأعلى» ثلاثاً. ثم يرفع من السجود، فيطمئن جالساً معتدلاً، فيرفع رأسه مكبراً، ويجلس على رجله اليسرى، وينصب قدمه اليمنى، ويضع يديه على فخذيه والأصابع منشورة، ويقول: «رب اغفر لي، وارحمني، وارزقني واهدني، واجبرني وعافني واعف عني». ويأتي بالسجدة الثانية كذلك.

التشهُّد:

ثم يتشهد في الركعة الثانية التشهد الأول، ثم يصلي على رسول الله ﷺ، ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، ويقبض أصابعه اليمنى إلا المسبحة، ويشير بها وحدها عند قوله: «إلا الله» لا عند قوله «لا إله» ويجلس في هذا التشهد كما بين السجدتين.

وفي التشهد الأخير، يستكمل الدعاء المأثور بعد الصلاة على النبي ﷺ.

وسننه كسنن التشهد الأول، لكن يجلس في الأخير على وركه الأيسر، ويضجع رجله اليسرى خارجة من تحته، وينصب اليمنى.

ثم يقول: «السلام عليكم ورحمة الله» ويلتفت يميناً بحيث يرى خده الأيمن من ورائه من الجانب الأيمن، ويلتفت شمالاً كذلك، ويسلم تسليمة ثانية. وينوي بالسلام: الملائكة والمسلمين. ويرفع صوته بالتكبيرات بقدر ما يسمع نفسه.

---

(١) «النهي عن أن يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب» متفق عليه من حديث أنس (ع).

[الإمـام]:

وينـوي الإمام الإمـامة، ويسـر بدعـاء الاستفتاح والتعـوذ كـالمنفـرد، ويجهـر بالفاتحة والسورة في جميع الصبح، وأوليـي العشاء والمغرب، ويجهر بقوله «آمين» في الصلاة الجهرية، وكذلك المأموم، ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً..

ويسكت الإمـام سكتة عقيب الفـاتحة، يقـرأ فيها المـأموم الفـاتحة، ولا يقـرأ المأموم السور في الجهرية.

ويقول الإمام: «سمع الله لمن حمده» عنـد رفع رأسـه من الركـوع. ولا يزيـد الإمام على ثلاث تسبيحات في الركوع والسجود. ولا يطول على القوم.

وعنـد السلام يثبت الإمـام حتى يفرغ النـاس من السلام، ويقبـل على الناس بوجهه.

المنهـيّات:

نهى رسول الله ﷺ عن صلاة الحاقن والحاقب والحازق، وعن صلاة الجـائع والمتلثم، وهو ستر الوجه[1].

أما الحاقن: فمن البول، والحاقب: من الغـائط، والحازق: صـاحب الخف الضيق، فـإن كل ذلـك يمنع الخشـوع، وفي معناه الجـائع، وفهم نهي الجـائع من قوله ﷺ: «إذا حضر العَشاء وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعَشاء»[2].

قال الحسن: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع.

تمييز الفرائض والسنن:

جملة ما ذكر يشتمل على: فرائض وسنن وآداب وهيئـات، مما ينبغي لمـريد

---

(١) حديث النهي عن ستر الوجه. أخـرجه أبـو داود، وابن ماجـه والحاكم وصححـه من حديث أبـي هريرة (ع).

(٢) متفق عليه (خ ٦٧١، م ٥٥٧).

طريق الآخرة أن يراعي جميعها:

فالفرض من جملتها اثنتا عشرة خصلة: النية، والتكبير، والقيام، والفاتحة، والركوع، والاعتدال عنه قائماً، والسجود، والاعتدال عنه قاعداً، والجلوس للتشهد الأخير، والتشهد الأخير، والصلاة على النبي ﷺ، والسلام الأول.

أما السنن، فمن الأفعال أربعة: رفع اليدين في تكبيرة الإحرام، وعند الهوي إلى الركوع، وعند الارتفاع إلى القيام منه، والجلسة للتشهد الأول.

وأما السنن من الأذكار: فدعاء الاستفتاح، ثم التعوذ، ثم قوله «آمين» ثم قراءة السورة، ثم تكبيرات الانتقالات، ثم الذكر في الركوع والسجود والاعتدال عنهما، ثم التشهد الأول، والصلاة فيه على النبي ﷺ. ثم الدعاء في آخر التشهد الأخير، ثم التسليمة الثانية.

وتمييز السنن عن الفرائض معقول، إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة، ويتوجه العقاب به دونها.

* * *

والصلاة صورة صورها الشرع وتعبدنا باكتسابها، فروحها الخشوع والنية وحضور القلب، وهي قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك، وهذه التحفة تعرض على الله عزَّ وجلّ، ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر. فإليك الخيرة في تحسين صورتها أو تقبيحها، فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها.

ولا ينبغي أن يكون حظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرض، فلا يعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها فتتركها، فإن من اقتصر على أقل ما يجزي من الصلاة، كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك عبداً حياً مقطوع الأطراف.

فكل صلاة لم يتم الإنسان ركوعها وسجودها، فهي الخصم الأول على صاحبها تقول: ضيعك الله كما ضيعتني.

***

الباب الثالث

الشروط الباطنة من أعمال القلب

شرط الخشوع وحضور القلب:

اعلم أن الأدلة على اشتراط ذلك كثيرة:

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾[1].

وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل في جميع صلاته، كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره؟

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾[2].

نهي، وظاهره التحريم.

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[3].

تعليل لنهي السكران، وهو مطرد مع الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا.

---

(١) سورة طه: الآية (١٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٠٥).

(٣) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾، سورة النساء: الآية (٤٣).

والتحقيق: أن المصلي مناجٍ ربه عزَّ وجلّ، كما ورد في الخبر[1]، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة.

ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار: الحمد والثناء والتضرع والدعاء، والمخاطَب هو الله عزَّ وجلّ، وقلب الغافل محجوب بحجاب الغفلة عنه، فلا يراه، ولسانه يتحرك بحكم العادة، فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب، وتجديد ذكر الله عزَّ وجلّ، ورسوخ عقد الإيمان به.

فإن قلت: إن حكمت ببطلان الصلاة، وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها، خالفت إجماع الفقهاء، فإنهم لم يشترطوا ذلك، إلَّا عند التكبير.

فاعلم: أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن، ولا يشقون عن القلوب، بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح، وهذا كافٍ لسقوط القتل وتعزير السلطان، أما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه.

كما أنه لا يمكن أن يدعى الإجماع، فقد روي عن سفيان الثوري أنه قال: (من لم يخشع فسدت صلاته)، وقال ﷺ: «إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»[2]. وهذا لو نقل عن غيره ﷺ لجعل مذهباً، فكيف لا يتمسك به؟! وما نقل من هذا الجنس عن الفقهاء المتورعين، وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى.

والحق: الرجوع إلى أدلة الشرع، والأخبار والآثار ظاهرة في هذا الشرط، إلَّا أن مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق. فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب في جميع الصلاة، فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلَّا الأقلين، وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة، فلا مردَّ له إلَّا أن يشترط منه

---

(١) «المصلي يناجي ربه» متفق عليه (خ ٥٣١، م ٥٥١).

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان، من حديث عمار بن ياسر بنحوه (ع) قلت: وأحمد أيضاً، ولفظهم جميعاً: (إن الرجل لينصرف، وما كتب له إلَّا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها). (ش).

مـا يطلق عليـه الاسم ولو في لحـظة واحـدة، وأولى اللحـظات بـه لحـظة التكبيـر، فاقتصرنا على التكليف بذلك.

وحاصل الكلام: أن حضور القلب هو روح الصلاة، وأن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير.. وكم من حي لا حـراك به قـريب من ميت؟ نسأل الله حسن العون.

المعاني التي بها حياة الصلاة:

اعلم أن هذه المعاني تكثـر العبارات عنهـا، ولكن يجمعها ست جمـل هي: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء، فلنذكر تفـاصيلها، ثم أسبابها، ثم العلاج في اكتسابها. أما التفاصيل:

ـ فحضـور القلب: ونعني به: أن يفـرِّغ القلب عن غير مـا هـو مـلابس لـه ومتكلم به، فيكون العلم بـالقول والفعـل مقرونـاً بهما. ولا يكـون الفكر جـائلاً في غيرهما.

ـ والتفهم لمعنى الكـلام: أمـر وراء حضـور القلب، فـربمـا يكـون القلب حاضراً مع اللفظ، ولا يكون حـاضراً مـع معنى اللفظ. فاشتمـال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم، وهذا مقام يتفاوت الناس فيـه، إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات. وكم من معانٍ لطيفـة يفهمها المصلي أثناء الصلاة تكون ناهية له عن الفحشاء والمنكر.

ـ والتعظيم: أمر وراء حضور القلب والفهم، زائد عليهما.

ـ والهيبة: زائدة على التعظيم. بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم، لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً. والخوف من العقـرب، ومن سوء خلق العبـد لا يسمى مهابة، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة.

ـ والرجاء: أمر زائد، فكم من معظم ملكاً يهابه ولكنه لا يرجو مثوبته.

ـ والحياء: زائد على الجملة، لأن مستنـده استشعار تقصيـر، وتوهم ذنب،

ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون التقصير والذنب.

وأما أسباب هذه المعاني الستة، فاعلم:

● إن حضور القلب سببه الهمة، فإن قلبك تابع لهمتك، فلا يحضر إلَّا فيما يهمك، ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى، فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه.

والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً، بل جائلاً فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلَّا بصرف الهمة إلى الصلاة. والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى، وأن الصلاة وسيلة إليها.

فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا، حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة.

● وأما التفهم، فسببه ـ بعد حضور القلب ـ إدمان الفكر، وصرف الذهن إلى إدراك المعنى.

وعلاجه: علاج إحضار القلب، مع الإقبال على الفكر، والتشمر لدفع الخواطر، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة، قطع موادها، أعني: تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها.

● وأما التعظيم، فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين:

إحداهما: معرفة جلال الله عزَّ وجلّ وعظمته، وهو من أصول الإيمان.

الثانية: معرفة حقارة النفس وخستها، وكونها عبداً مسخراً مربوباً.

حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه، فيعبر عنه: بالتعظيم.

● وأما الهيبة والخوف، فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته، ونفوذ مشيئته فيه، مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة. وبالجملة: كلما زاد العلم بالله، زادت الخشية والهيبة.

● وأما الرجاء، فسببه معرفة لطف الله عزَّ وجلّ وكرمه، وعميم إنعامه، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقين بوعده، والمعرفة بلطفه، انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة.

● وأما الحياء، فباستشعاره التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عزَّ وجلّ، ويقوّي ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها، وقلة إخلاصها، مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عزَّ وجلّ، والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت. وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعثت منها بالضرورة حالة تسمّى الحياء.

فهذه أسباب هذه الصفات، وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه، ففي معرفة السبب معرفة العلاج، ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان.

وباختلاف المعاني التي ذكرناها، انقسم الناس إلى عاقل يتمم صلاته، ولم يحضر قلبه في لحظة منها، وإلى من يتمم ولم يغب قلبه في لحظة:

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾(١).

فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه، فإن موقع نظر الله سبحانه: القلوب، دون ظاهر الحركات.

الدواء النافع في حضور القلب:

اعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظماً لله عزَّ وجلّ، وخائفاً منه، وراجياً له، ومستحيياً من تقصيره، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه، وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه.

فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلَّا تفرق الفكر، وتقسيم الخاطر، وغيبة القلب عن المناجاة، والغفلة عن الصلاة.

---

(١) سورة الأحقاف: الآية (١٩).

ولا يلهي عن الصلاة إلَّا الخواطر الواردة الشاغلة.

فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر، ولا يدفع الشيء إلَّا بدفع سببه، فلتعلم سببه، وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً، أو أمراً باطناً.

أما الخارج، فما يقرع السمع، أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهمَّ حتى يتبعه، ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلل، ويكون الإبصار سبباً للافتكار، ثم تصير بعض الأفكار سبباً للبعض. ومن قويت نيته، وعلت همته، لم يلهه ما جرى على حواسه، ولكن الضعيف لا بد أن يتفرق به فكره.

وعلاجه: قطع هذه الأسباب، بأن يغض بصره، أو يصلي في بيت مظلم، أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسَّه، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره. ويحترز من الصلاة في المواضع المنقوشة، وعلى الفرش المصبوغة. ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم، سعته قدر السجود، ليكون ذلك أجمع للهم.

وأما الأسباب الباطنة فهي أشد، فإن من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا، لا ينحصر فكره في فن واحد، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب، وغض البصر لا يغنيه.

فهذا طريقه أن يردَّ النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة، ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك: أن يستعد له قبل التحريم، بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة، وموقف المناجاة، وخطر المقام بين يدي الله سبحانه، وهول المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره.

فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكِّن، فلا ينجيه إلَّا المسهل، الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق، وهو أن ينظر إلى الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات، وقطع تلك العلائق، فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضدّ دينه، فإمساكه أضرُّ عليه من إخراجه، فيتخلص منه بإخراجه.

فقد روي أنه ﷺ: لما لبس الخميصة(١) التي أتاه بها أبو جهم، وعليها علم، وصلى بها، نزعها بعد صلاته، وقال ﷺ: «اذهبوا بها إلى أبي جهم، فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي، وائتوني بأبنجانية أبي جهم»(٢).

وروي أن أبا طلحة صلى في حائط، فأعجبه دبسي طار في الشجر يلتمس مخرجاً، فأتبعه بصره ساعة، ثم لم يدر كم صلى؟ فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفتنة ثم قال: يا رسول الله: هو صدقة فضعه حيث شئت(٣).

هذا هو الدواء القاطع لمادة العلة، ولا يغني غيره، فأما ما ذكرناه من التلطف بالتسكين، فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة، فأما الشهوة القوية فلا ينفع فيها التسكين.

حضور القلب عند كل عمل من الصلاة:

إذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر.

أما الطهارة: فإذا أتيت بها في مكانك، وهو ظرفك(٤) الأبعد، ثم في ثيابك، وهي غلافك الأقرب، ثم في بشرتك، وهي قشرك الأدنى، فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك، وهو قلبك، فاجتهد له تطهيراً بالتوبة والندم على ما فرطت، وتصميم العزم على الترك في المستقبل. فطهِّر باطنك فإنه موضع نظر معبودك.

---

(١) الخميصة: كساء مربع.

(٢) متفق عليه (خ ٣٧٣، م ٥٥٦). والأبنجانية: كساء غليظ لا علم له.
وخلاصة القصة: أن أبا جهم أهدى إلى رسول الله ﷺ خميصة، فلما لبسها في الصلاة شغلته، فطلب إعادتها إلى أبي جهم والإتيان بثوبه عوضاً عنها تطييباً لخاطره، حتى لا يتألم من رد الهدية.

(٣) أخرجه مالك عن عبد الله بن أبي بكر (ع).

(٤) جعل المكان ظرفاً، إذ الصلاة عليه. والمعنى: أنه طهر المكان الذي يريد أن يصلي فيه.

وأما ستر العورة: فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق. فإن ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق، فما بالك في عورات باطنك، وفضائح سرائرك التي لا يطلع عليها إلاّ ربك عزَّ وجلّ؟

فأحضر تلك الفضائح ببالك، وطالب نفسك بسترها، وتحقق أنه لا يسترها عن عين الله سبحانه ساتر، وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف، فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما، فتذل بها نفسك، ويستكين تحت الخجلة قلبك، وتقوم بين يدي الله عزَّ وجلّ قيام العبد المسيء الذي ندم، فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف.

وأما الاستقبال: فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عزَّ وجلّ ليس مطلوباً منك؟ هيهات، فلا مطلوب سواه.

وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن، وضبط للجوارح، وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة، حتى لا تبغي على القلب، فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب، وانقلبت به عن وجه الله عزَّ وجلّ. فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك.

واعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلاّ بالانصراف عن غيرها، فلا ينصرف القلب إلى الله عزَّ وجلّ إلاّ بالتفرغ عما سواه.

وأما الاعتدال قائماً: فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عزَّ وجلّ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مستكيناً، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل، والتبري عن التكبر. وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله عزَّ وجلّ في هول المطلع عند العرض على السؤال.

واعلم ــ في الحال ــ أنك قائم بين يدي الله عزَّ وجلّ، وهو مطلع عليك، فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان، إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين رجل صالح

من أهلك، أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك، وتخشع جوارحك.

وأما النية: فاعزم على إجابة الله عزَّ وجلّ في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها، والكف عن نواقضها، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه، رجاء لثوابه، وخوفاً من عقابه، وطلباً للقربة منه، متقلداً للمنة منه بإذنه إياك في المناجاة، مع سوء أدبك، وكثرة عصيانك.

وعظم في نفسك قدر مناجاته، وانظر من تناجي، وكيف تناجي، وبماذا تناجي؟ وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل، وترتعد فرائصك من الهيبة، ويصفر وجهك من الخوف.

وأما التكبير: فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك، فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه، فالله يشهد إنك لكاذب، وإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عزَّ وجلّ، فقد اتخذته إلّهك وكبرته، فيوشك أن يكون قولك: (الله أكبر) كلاماً باللسان المجرد، وقد تخلف قلبك عن مساعدته، وما أعظم الخطر في ذلك، لولا التوبة والاستغفار، وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه.

وأما دعاء الاستفتاح: فأول كلماته قولك: (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر، فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة، والله سبحانه يتقدس عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه، وإنما وجه القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض. فانظر إليه: أمتوجه إلى أمانيه وهمِّه في البيت والسوق، متبع للشهوات، أو مقبل على فاطر السموات؟ وإياك أن تكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق. ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلَّا بانصرافه عما سواه، فاجتهد في صرفه إليه، وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقاً.

وإذا قلت: (حنيفاً مسلماً) فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً، فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال وتندم على ما سبق.

وإذا قلت: (وما أنا من المشركين) فأخطر ببالك الشرك الخفي، وكن حذراً مشفقاً منه، واستشعر الخجلة في قلبك، إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين، فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه.

وإذا قلت: (محياي ومماتي لله) فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه، موجود لسيده، وأنه إن صدر ممن قيامه وقعوده.. لأمور الدنيا لم يكن ملائماً للحال.

وأما القراءة: فإذا قلت: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فاعلم أنه عدوك، ومترصد لصرف قلبك عن الله عزَّ وجلّ، حسداً لك على مناجاتك مع الله عزَّ وجلّ وسجودك له، مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها، وإن استعاذتك بالله سبحانه منه: بترك ما يحبه، وتبديله بما يحب الله عزَّ وجلّ، لا بمجرد قولك.

فإن من قصده سبع ليفترسه فقال: أعوذ منك بذلك الحصن، وهو ثابت على مكانه، فإن ذلك لا ينفعه، بل لا يعيذه إلَّا بتبديل المكان. فكذلك من يتبع الشهوات ــ التي هي محاب الشيطان ــ فلا يغنيه مجرد القول، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله تعالى من شر الشيطان.

واعلم أن من مكايده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة، وتدبر فعل الخيرات، ليمنعك عن فهم ما تقرأ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس، فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها.

وإذا قلت: (بسم الله الرحمن الرحيم) فانوِ به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه. وافهم أن الأمور كلها بالله سبحانه، وأن المراد بالاسم ههنا هو المسمى. وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان (الحمد لله). ومعناه: أن الشكر لله، إذ النعم من الله، ومن يرى من غير الله نعمة، أو يقصد غير الله سبحانه بشكر ــ لا من حيث إنه مسخر من الله عزَّ وجلّ ــ ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى.

فإذا قلت: (الرحمن الرحيم) فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه، لتتضح لك رحمته، فينبعث بها رجاؤك.

ثم استشر من قلبك التعظيم والخوف بقولك (مالك يوم الدين). أما العظمة فلأنه لا مُلْكَ إلاَّ لَه. وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب، الذي هو مالكه.

ثم جدد الإخلاص بقولك (إياك نعبد)، وجدد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك (وإياك نستعين)، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلاَّ بإعانته، وأن له المنة إذ وفَّقك لطاعته، وجعلك أهلاً لمناجاته.

ثم عيِّن سؤالك، ولا تطلب إلاَّ أهم حاجاتك وقل: (اهدنا الصراط المستقيم)، الذي يسوقنا إلى جوارك، ويفضي بنا إلى مرضاتك. وزده شرحاً وتفصيلاً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والصالحين، دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى. ثم التمس الإجابة وقل: (آمين).

فإذا تلوت الفاتحة كذلك، فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم، فيما أخبر عنه النبي ﷺ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. يقول العبد: (الحمد لله رب العالمين)، فيقول الله عزَّ وجلّ: حمدني وأثنى علي..»[1].

فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته، فناهيك بذلك غنيمة، فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله؟

وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأه من السور، فلا تغفل عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه وأخبار أنبيائه، وذكر مننه وإحسانه.

وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم، ويكون الفهم بحسب وفور العلم

---

(١) رواه مسلم برقم (٣٩٥). وتتمته: «وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجّدني عبدي. فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل.

وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر. والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات.

فهذا حق القراءة، وهو حق الأذكار والتسبيحات.

وأما دوام القيام: فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عزَّ وجلّ على نعت واحد من الحضور، قال ﷺ: «إن الله عزَّ وجلّ يقبل على المصلي ما لم يلتفت»(١)، وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات، فكذلك تجب حراسة السرِّ عن الالتفات إلى غير الصلاة.

وألزم الخشوع للقلب، فإن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً، ثمرة الخشوع، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر.

وأما الركوع والسجود: فينبغي أن تجدد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه، وترفع يديك مستجيراً بعفوه عزَّ وجلّ من عقابه، ثم تستأنف له ذلاً وتواضعاً بركوعك، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة، وأنه أعظم من كل عظيم، ثم ترتفع من ركوعك، راجياً أنه راحم لك، ومؤكداً للرجاء في نفسك بقولك: (سمع الله لمن حمده) أي أجاب لمن شكره. ثم تردف ذلك الشكر المتقاضي للمزيد فتقول: (ربنا ولك الحمد).

ثم تهوي إلى السجود، وهو أعلى درجات الاستكانة، فتمكن أعز أعضائك ــ وهو الوجه ــ من أذل الأشياء، وهو التراب.

وإذا وضعت نفسك موضع الذل، فاعلم أنك وضعتها موضعها، ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خلقت، وإليه تعود، فعند هذا جدِّد على قلبك عظمة الله وقل: (سبحان ربي الأعلى) وأكده بالتكرار.

وأما التشهد: فإذا جلست له فاجلس متأدباً، وصرح بأن جميع ما تدلي به من

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصحح إسناده عن أبي ذر.

الصلوات والطيبات ــ أي من الأخلاق الطاهرة ــ لله، وكذلك الملك لله، وهو معنى (التحيات).

وأحضر في قلبك النبي ﷺ، وشخصه الكريم، وقل: (سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) وليصدق أملك في أنه يبلغه، ويرد عليك ما هو أوفى منه ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين، ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاماً وافياً بعدد عباده الصالحين.

ثم تشهد له تعالى بالوحدانية، ولمحمد نبيه ﷺ بالرسالة، مجدداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة.

ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور، مع التواضع والخشوع والضراعة وصدق الرجاء بالإجابة. وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين. واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين، وانوِ ختم الصلاة به.

واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة، وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه، وأنك ربما لا تعيش لمثلها.

* * *

هذا تفصيل صلاة الخاشعين:

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[2].

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ ﴾[3].

والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية، فليعرض الإنسان

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٢).

(٢) سورة المعارج: الآية (٣٤).

(٣) سورة المعارج: الآية (٢٣).

نفسه على هذه الصلاة، فبالقدر الذي تيسر له منها ينبغي أن يفرح، وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر، وفي مداومته على ذلك ينبغي أن يجتهد.

وأما صلاة الغافلين فهي مخطرة إلَّا أن يتغمدهم الله برحمته، والرحمة واسعة والكرم فائض، فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته.

* * *

واعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عزَّ وجلّ، ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعاً في الصلاة، وفي غير الصلاة، بل في خلوته، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد، ومعرفة جلاله، ومعرفة تقصير العبد، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع، وليست مختصة بالصلاة.

واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض، كما دلت الأخبار عليه، إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل[1].. نسأل الله حسن التوفيق.

* * *

(١) أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة: (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته.. وفيه: فإن انتقص من فريضته شيئاً، قال الرب عزَّ وجلّ: انظروا لعبدي هل من تطوع، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة). (ع).

البَابُ الرَّابِعُ

فِي ٱلإِمَامَةِ وَٱلقُدْوَة

وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة، وفي القراءة، وفي أركان الصلاة، وبعد السلام.

[الوظائف التي قبل الصلاة]:

أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فست:

(أولها): أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه، فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين. وكما ينهى عن تقدمه مع كراهيتهم، فكذلك ينهى عن التقدم إن كان وراءه من هو أفقه منه، إلاَّ إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم، ويكره عند ذلك المدافعة.

(الثانية): إذا خيِّر المرء بين الأذان والإمامة، فينبغي أن يختار الإمامة، فإن لكل واحدة فضلاً. والإمامة أفضل إذ واظب عليها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر.. والأئمة بعدهم.

(الثالثة): أن يراعي الإمام أوقات الصلوات، فيصلي في أوائلها، ليدرك رضوان الله سبحانه، ولا ينبغي أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة، بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت، فهي أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة.

وقد تأخر رسول الله ﷺ في صلاة الفجر، وكانوا في سفر، وإنما تأخّر للطهارة فلم يُنتظر، وقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول الله ﷺ ركعة فقام يقضيها، قال: فأشفقنا من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «قد

أحسنتم، هكذا فافعلوا»[1].

(الرابعة): أن يؤم مخلصاً لله عزَّ وجلّ، ومؤدياً أمانة الله تعالى في طهارته وجميع شروط صلاته.

أما الإخلاص، فبأن لا يأخذ عليها أجرة، فقد أمر رسول الله ﷺ عثمان بن أبي العاص الثقفي وقال: «اتخذ مؤذناً لا يأخذ على الأذان أجراً»[2]، فالأذان طريق إلى الصلاة، فهي أولى بأن لا يؤخذ عليها أجر، فإن أخذ رزقاً من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته، أو من السلطان، أو آحاد الناس، فلا يحكم بتحريمه، ولكنه مكروه.

وأما الأمانة: فهي الطهارة باطناً عن الفسق والكبائر والإصرار على الصغائر، فإنه كالوفد والشفيع للقوم فينبغي أن يكون خير القوم. وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث، فإنه لا يطلع عليه سواه.

(الخامسة): أن لا يكبر حتى تستوي الصفوف، فليلتفت يميناً وشمالاً، فإن رأى خللاً أمر بالتسوية.

(السادسة): أن يرفع صوته بتكبيرة الإحرام، وسائر التكبيرات. ولا يرفع المأموم صوته إلَّا بقدر ما يسمع نفسه، وليؤخر تكبيره عن تكبيرة الإمام، فيبتدىء بعد فراغه.

[وظائف القراءة]:

وأما وظائف القراءة فثلاث:

(أولها): أن يسرَّ بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد، ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها، في جميع الصبح، وأوليي العشاء والمغرب، وكذلك المنفرد، ويجهر

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٤) وهو من أفراده كما قال الشارح، تصحيحاً لقول العراقي: متفق عليه.

(٢) أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث عثمان بن أبي العاص. (ع).

بقوله (آمين) في الصلاة الجهرية، وكذا المأموم، ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً.

(الثانية): أن يكون للإمام في القيام ثلاث سكتات:

- أولاهن: إذا كبر، وهي الطولى منهنّ.
- الثانية: إذا فرغ من الفاتحة.
- الثالثة: إذا فرغ من السورة، قبل أن يركع، وهي أخفها.

ولا يقرأ المأموم وراء الإمام إلاَّ الفاتحة.

(الثالثة): الإطالة في قراءة الفجر، والتغليس بها، سنة. وبالجملة: فالتخفيف أولى، لا سيما إذا كثر الجمع، قال ﷺ: «إذا صلَّى أحدكم بالناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والكبير، وذا الحاجة، وإذا صلّى لنفسه فليطول ما شاء»[1].

وقد كان معاذ بن جبل يصلي بقوم العشاء، فقرأ البقرة، فخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه، فقالوا: نافق الرجل، فتشاكيا إلى رسول الله ﷺ، فزجر رسول الله ﷺ معاذاً فقال: «أفتان أنت يا معاذ، اقرأ سورة سبح، والسماء والطارق، والشمس وضحاها»[2].

[وظائف الأركان]:

وأما وظائف الأركان فثلاث:

(أولها): أن يخفف الركوع والسجود، فلا يزيد في التسبيحات على ثلاث. فقد روي عن أنس أنه قال: (ما رأيت أخف صلاة من رسول الله ﷺ في تمام)[3]. وينبغي أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع: (سمع الله لمن حمده).

---

(١) متفق عليه (خ ٧٠٣، م ٤٦٧).

(٢) متفق عليه (خ ٧٠٥، م ٤٦٥)، وليس فيه ذكر: ﴿والسماء والطارق﴾.

(٣) متفق عليه (ع).

(الثانية): في المأموم، ينبغي أن لا يساوي الإمام في الركوع والسجود، بل يتأخر، فلا يهوي للسجود إلاَّ إذا وصلت جبهة الإمام إلى المسجد[1]، هكذا كان اقتداء الصحابة برسول الله ﷺ[2]، ولا يهوي للركوع حتى يستوي الإمام راكعاً.

(الثالثة): لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد، حذراً من التطويل، ولا يخص نفسه في الدعاء، بل يأتي بصيغة الجمع فيقول: «اللَّهم اغفر لنا».

[وظائف التحلل]:

وأما وظائف التحلل فثلاث:

(أولها): أن ينوي بالتسليمتين: السلام على القوم والملائكة.

(الثانية): أن يثبت عقيب السلام، كذلك فعل رسول الله ﷺ، فإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن[3].

وفي الخبر المشهور، أنه ﷺ لم يكن يقعد إلاَّ قدر قوله: «اللَّهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[4].

(الثالثة): إذا وثب فينبغي أن يقبل بوجهه على الناس. ويكره للمأموم القيام قبل انفتال الإمام.

***

(١) أي مكان السجود وهو الأرض.

(٢) متفق عليه من حديث البراء بن عازب: (كان الصحابة لا يهوون للسجود إلاَّ إذا وصلت جبهة النبي ﷺ إلى الأرض). (ع).

(٣) أخرجه البخاري من حديث أم سلمة قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا سلم قام النساء حين يقضي تسليمه، ومكث يسيراً قبل أن يقوم). قال الزهري: فأرى ــ والله أعلم ــ أن مكثه لكي ينفذ النساء قبل أن يدركهن من انصرف من القوم. (ش).

(٤) أخرجه مسلم بلفظ: (كان يقعد مقدار ما يقول: اللَّهم أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، ثم يقوم إلى السنَّة). (ش).

الباب الخامس

صلاة الجمعة

فضيلة الجمعة:

اعلم أن هذا يوم عظيم، عظم الله به الإسلام، وخص به المسلمين، قال الله تعالى:

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾[1].

فحرم الاشتغال بأمور الدنيا، وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة.

وقال ﷺ: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه»[2].

وفي الخبر: إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة، فاختلفوا فيه، فصرفوا عنه، وهدانا الله تعالى له، وأخره لهذه الأمة، وجعله عيداً لهم، فهم أول الناس به سبقاً وأهل الكتابين لهم تبع[3].

وقال ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة..»[4].

شروط الجمعة:

اعلم أنها تشارك جميع الصلوات في الشروط، وتتميز عنها بستة شروط:

---

(١) سورة الجمعة: الآية (٩).
(٢) أخرجه أحمد ـ واللفظ له ـ وأصحاب السنن، ورواه الحاكم وصححه (ع).
(٣) متفق عليه (خ ٨٧٦، م ٨٥٥)، وأوله «نحن الآخرون السابقون..».
(٤) أخرجه مسلم برقم (٨٥٤).

(الأول) الوقت: فإن وقعت تسليمة الإمام في وقت العصر فاتت الجمعة وعليه أن يتمها ظهراً أربعاً.

(الثاني) المكان: فلا تصح في الصحاري.. بل لا بد من بقعة جامعة لأبنية، ويجتمع فيها أربعون ممن تلزمهم الجمعة.

(الثالث) العدد، فلا تنعقد بأقل من أربعين ذكوراً مكلفين مقيمين.

(الرابع) الجماعة، فلو صلوا متفرقين لم تصح جمعتهم، والمسبوق إذا أدرك الركعة الثانية جاز له الانفراد بالركعة الثانية، وإن لم يدرك ركوع الثانية، اقتدى ونوى الظهر، وإذا سلّم الإمام تممها ظهراً.

(الخامس): إن تعذر اجتماع الناس في جامع واحد جاز في جامعين أو ثلاثة بقدر الحاجة، وإن لم تكن حاجة فالجمعة الصحيحة هي التي يقع فيها التحريم أولاً.

(السادس): الخطبتان، وبينهما جلسة خفيفة.

آداب الجمعة:

● يستحب **الغسل** يومها استحباباً مؤكداً. وذهب بعض العلماء إلى وجوبه، قال ﷺ: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم»[1].

وقال عمر لعثمان ــ رضي الله عنهما ــ لما دخل وهو يخطب: أهذه الساعة؟ ــ منكراً عليه ترك البكور ــ فقال: ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت، فقال: والوضوء أيضاً؟ وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل[2].

وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضي الله عنه.

● **الزينة**: وهي مستحبة في هذا اليوم، وهي ثلاثة: الكسوة والنظافة وتطييب الرائحة.

---

(١) متفق عليه (خ ٨٧٩، م ٨٤٦).

(٢) متفق عليه (خ ٨٧٨، م ٨٤٥) ولم يسم البخاري عثمان.

أما النظافة: فبالسواك، وحلق الشعر، وقلم الظفر، وقص الشارب، وليتطيب في هذا اليوم بأطيب طيب عنده، ويوصل الرائحة إلى مشام الحاضرين في جواره، وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه.

وأما الكسوة: فأحبها البياض من الثياب، ولا يلبس ما فيه شهرة، ولبس السواد ليس من السنة ولا فيه فضل.

● **البكور إلى الجامع**: وينبغي أن يكون في سعيه إليها خاشعاً متواضعاً، قاصداً للمبادرة إلى جواب نداء الله عزَّ وجلّ إلى الجمعة.

قال ﷺ: «من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما أهدى دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما أهدى بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»[(١)].

ودخل ابن مسعود رضي الله عنه إلى الجمعة، فوجد ثلاثة نفر سبقوه فقال: (رابع أربعة، وما رابع أربعة من البكور ببعيد)[(٢)] فكأنه اغتمَّ لذلك وجعل يقول معاتباً نفسه: وما رابع أربعة من البكور ببعيد.

● **هيئة الدخول**: ينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس، ولا يمر بين أيديهم، والبكور يسهل ذلك عليه. ويجلس إلى أقرب أسطوانة أو حائط. قال ﷺ: «لو يعلم المارّ بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه» قال أبو النضر: لا أدري قال: أربعين يوماً أو شهراً أو سنة[(٣)].

● أن يطلب **الصف الأول** فإن فضله كبير، كما رويناه في الخبر[(٤)].

---

(١) متفق عليه (خ ٨٨١، م ٨٥٠). وأوله: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح..».
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (ش).
(٣) متفق عليه (خ ٥١٠، م ٥٠٧) لم يذكره المصنف بنصه ونقلناه منهما.
(٤) أخرج أحمد والشيخان والنسائي وغيرهم من حديث أبي هريرة «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا» (ش).

● أن **يقطع الكلام** عند خروج الإمام، بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة، قال ﷺ: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت ــ والإمام يخطب ــ فقد لغوت»(١).

● ولا ينبغي أن يخلو المريد في جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات. قال أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾(٢).

أما إنه ليس بطلب دنيا، لكن عيادة مريض، وشهود جنازة، وتعلم علم، وزيارة أخ في الله عزَّ وجلّ(٣).

● أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة، ففي الخبر المشهور: «إن في الجمعة ساعة، لا يوافقها عبد مسلم ــ وهو يصلي ــ يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه»(٤).

*
**

---

(١) متفق عليه (خ ٩٣٤، م ٨٥١).

(٢) سورة الجمعة: الآية (١٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن أنس مرفوعاً، ولم يذكر «وتعلم علم»، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: «لم يؤمروا بشيء من طلب الدنيا..» (ش).

(٤) متفق عليه (خ ٩٣٥، م ٨٥٢) وقد اختلف في وقت هذه الساعة، وقد ورد في صحيح مسلم برقم (٨٥٣) قال رسول الله ﷺ: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة».

البَابُ السَّادِسُ

فِي مَسَائِلَ مُتَفَرِّقَةٍ

مسـألـة:

الفعل القليل، وإن كـان لا يبطل الصـلاة فهو مكـروه إلا لحاجـة، وذلك في دفع المار، وقتل العقرب التي تخاف ويمكن قتلها بضربة أو ضـربتين، فإذا صـارت ثلاثاً فقد كثرت وبطلت الصلاة.

ومهمـا تثاءب فـلا بـأس أن يضـع يـده على فيـه، وهـو الأولى، وإن عـطس حمد الله عزَّ وجلّ في نفسه ولا يحرك لسانه، وإن سقط رداؤه فلا ينبغي أن يسـوِّيه، وكذلك أطراف عمامته، فكل ذلك مكروه إلا لضرورة.

مسـألـة:

الصـلاة في النعلين جـائـزة، وإن كـان نـزع النعلين سهـلاً، فقـد صلَّى رسول الله ﷺ في نعليه، كما أنه ﷺ خلع نعليه[1]، فإذن: قد فعل كليهما.

مسـألـة:

يقف الواحد عن يمين الإمام متأخـراً عنه قليـلاً، والمرأة الـواحدة تقف خلف الإمام، فإن وقفت بجنب الإمام لم يضر ولكن خالفت السنة، فإن كان معهـا رجل، وقف الرجل عن يمين الإمام وهي خلف الرجل.

---

(١) أخـرج حديث الصـلاة في النعل الإمـام أحمد وابن مـاجه وأبـو داود والحاكم وصححـه من حديث أبـي سعيد، وأخرج حديث خلع النعل الإمام مسلم (ع).

ولا يقف أحد خلف الصف منفرداً، بل يدخل في الصف أو يجرُّ إلى نفسه واحداً من الصف، فإن وقف منفرداً صحت صلاته مع الكراهية.

مسألة:

المسبوق، إذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أول صلاته، فليوافق الإمام، وليبنِ عليه، فإن أدرك مع الإمام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء، وليبدأ بالفاتحة وليخففها. وإن ركع الإمام وهو في السورة فليقطعها.

وإن أدرك الإمام في السجود أو التشهد، كبر للإحرام ثم جلس ولم يكبر، بخلاف ما إذا أدركه في الركوع فإنه يكبر ثانياً في الهوي لأن ذلك انتقال محسوب له، والتكبيرات للانتقالات الأصلية في الصلاة لا للعوارض بسبب القدوة.

ولا يكون مدركاً للركعة ما لم يطمئن راكعاً في الركوع والإمام بعد في حد الراكعين.

مسألة:

من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أولاً ثم العصر، فإن ابتدأ بالعصر أجزأه ولكن ترك الأولى واقتحم شبهة الخلاف، فإن وجد إماماً فليصل العصر، ثم ليصل الظهر بعده، فإن الجماعة بالأداء أولى.

مسألة:

من صلى، ثم رأى على ثوبه نجاسة، فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه، ولو رأى النجاسة في أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتم، والأحب الاستئناف.

مسألة:

من ترك التشهد الأول، أو القنوت، أو ترك الصلاة على رسول الله ﷺ في التشهد الأول، أو شكَّ فلم يدر أصلى ثلاثاً أو أربعاً: أخذ باليقين، وسجد سجدتي السهو قبل السلام، فإن نسي فبعد السلام مهما تذكر على القرب.

مسـألـة:

الوسوسة في نية الصلاة سببها خبل في العقل، أو جهل بالشـرع، لأن امتثال أمر الله عزَّ وجلّ مثل امتثال أمر غيره، وتعظيمـه كتعظيم غيـره في حق القصد، ومن دخـل عليه عـالم فقام لـه، فلو قال: نـويت أن أنتصب قائمـاً تعظيمـاً لدخـول زيـد الفاضل لأجل فضله مقبلاً عليه بوجهي، كان سفهاً في عقله. بل عندمـا يراه ويعلم فضله تنبعث داعية التعظيم فتقيمه ويكون معظماً.

فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنـه لم يفهم النية، فليس فيـه إلا أنك دعيت إلى أن تصلي في وقت فأجبت وقمت، فالوسوسة محض الجهل.

فكيفما تيسرت النيـة للموسـوس ينبغي أن يقنع بهـا حتى يتعود ذلـك وتفارقـه الوسوسة.

مسـألـة:

ينبغي أن لا يتقدم المأمـوم على الإمام في الـركوع والسجـود والرفـع منهما، ولا في سـائر الأعمـال، ولا ينبغي أن يساويـه، بل يتبعـه، ويقفو أثـره، فهـذا معنى الاقتداء..

وقد شدد رسول الله ﷺ النكير فيـه فقال: «أمـا يخشى الذي يـرفع رأسـه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار»(١).

مسـألـة:

حق على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة في صلاته أن ينكـر عليه، وإن صدر من جاهل رفق بالجـاهل وعلمـه، فمن ذلك: الأمـر بتسويـة الصفوف.. والإنكار على من يرفع رأسه قبـل الإمام إلى غيـر ذلك من الأمـور. قال ابن مسعـود رضي الله عنه: من رأى من يسيء صلاته فلم ينهه فهو شريكه في وزرها.

***

---

(١) متفق عليه، من حديث أبـي هريرة (خ ٦٩١، م ٤٢٧).

الباب السابع

في النوافل من الصلوات

اعلم أن ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام: سنن ومستحبات وتطوعات.

ونعني بالسنن: ما نقل عن رسول الله ﷺ المواظبة عليه كالرواتب عقب الصلوات، وصلاة الضحى، والوتر، والتهجد، وغيرها.

ونعني بالمستحبات: ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه، كالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه.

ونعني بالتطوعات: ما وراء ذلك مما لم يرد في عينه أثر، ولكنه تطوع به العبد من حيث رغب في مناجاة الله عزَّ وجلّ بالصلاة التي ورد الشرع بفضلها مطلقاً.

وسميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة، وجملتها زائد على الفرائض.

واعلم أن النوافل باعتبار الإضافة إلى متعلقاتها ثلاثة أقسام[١]:

القسم الأول

ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي، وهي ثمانية، خمسة هي رواتب الصلوات الخمس، وصلاة الضحى، وإحياء ما بين العشاءين والتهجد.

---

(١) ذكر المصنف في هذا الباب أربعة أقسام. والقسم الثاني منها ذكر فيه صلاة أيام الأسبوع ولياليه. لكل يوم ولكل ليلة، وهي صلوات لا دليل لها من الشرع، ولذلك لم نذكرها.

(الأولى): راتبة الصبح: وهي ركعتان، قال رسول الله ﷺ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[1].

والسنة أداؤهما قبل الفرض، فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة. ثم إذا فرغ قام إليهما وصلاهما.

والمستحب أن يصليهما في المنزل، ثم يدخل المسجد ويصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يجلس ولا يصلي إلى أن يصلي المكتوبة.

(الثانية): راتبة الظهر: وهي ست ركعات: ركعتان بعدها وهي سنة مؤكدة وأربع قبلها، وهي أيضاً سنة، وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين.

(الثالثة): راتبة العصر، وهي أربع ركعات قبل العصر.

(الرابعة): راتبة المغرب، وهما ركعتان بعد الفريضة.

(الخامسة): راتبة العشاء، أربع ركعات بعد الفريضة.

(السادسة): **الوتر**: قال أنس بن مالك: (كان رسول الله ﷺ يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات، يقرأ في الأولى ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ وفي الثانية ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ وفي الثالثة ﴿قل هو الله أحد﴾)[2].

ويجوز الوتر مفصولاً، وموصولاً بتسليمة واحدة، وقد أوتر رسول الله ﷺ بركعة، وثلاث، وخمس، وهكذا بالأوتار إلى إحدى عشرة ركعة[3] والرواية مترددة في ثلاث عشرة[4].

(السابعة): **صلاة الضحى**: فالمواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٢٥).
(٢) رواه الترمذي وابن ماجه. من حديث ابن عباس بسند صحيح (ع).
(٣) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح، ولمسلم من حديث عائشة (ع).
(٤) أخرجه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي حسن، وأخرجه مسلم من حديث عائشة (ع).

ووقتها: إذا أشرقت الشمس وارتفعت، وكانت في ربع السماء.

(الثامنة): إحياء ما بين العشاءين.

القسم الثاني

ما يتكرر بتكرر السنين، وهي: صلاة العيدين، والتراويح.

صلاة العيدين:

وهي سنة مؤكدة، وشعار من شعائر الدين وينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور.

الأول: التكبير ثلاثاً نسقاً، فيقول: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلا، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون».

يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد.

وفي العيد الثاني يفتتح التكبير عقيب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار من يوم الثالث عشر، ويكبر عقب الصلوات المفروضة.

الثاني: إذا أصبح يوم العيد يغتسل ويتزين ويتطيب، كما ذكرناه في الجمعة.

الثالث: أن يخرج من طريق ويرجع من آخر، هكذا فعل رسول الله ﷺ[1]، وكان يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور[2].

الرابع: المستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وبيت المقدس، فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة في المسجد.

الخامس: يراعي الوقت، فوقت صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٩٨٦).

(٢) متفق عليه (خ ٨٩٠، م ٩٨١).

السادس: في كيفية الصلاة: فليخرج الناس مكبرين في الطريق، وإذا بلغ الإمام المصلى لم يجلس ولم يتنفل، ثم ينادي مناد: الصلاة جامعة، ويصلي بهم الإمام ركعتين، يكبر في الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع: سبع تكبيرات، يقول بين كل تكبيرتين: «سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، والتكبيرات الزائدة في الثانية: خمس سوى تكبيرتي القيام والركوع.

ثم يخطب خطبتين بينهما جلسة.

السابع: أن يضحي بكبش. وقال ﷺ: «من رأى هلال ذي الحجة، وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئاً»[1].

التراويح:

وهي عشرون ركعة، وكيفيتها مشهورة، وهي سنة مؤكدة، وإن كانت دون العيدين. واختلفوا في أن الجماعة فيها أفضل أم الانفراد؟

وقد خرج رسول الله ﷺ فيها ليلتين أو ثلاثاً للجماعة، ثم لم يخرج وقال: «أخاف أن توجب عليكم»[2].

وجمع عمر رضي الله عنه الناس عليها في الجماعة، حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحي.

القسم الثالث

ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت. وهي:

صلاة الخسوف:

قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٧٧).

(٢) متفق عليه (خ ٢٠١٢، م ٧٦١) بلفظ «خشيت أن تفرض عليكم».

لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة»[1]، قال ذلك لما مات إبراهيم ولده ﷺ، وكسفت الشمس، فقال الناس: إنما كسفت لموته، [وكيفيتها مذكورة في كتب الفقه].

صلاة الاستسقاء:

إذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار.. يستحب للإمام أن يأمر الناس أولاً بصيام ثلاثة أيام، وما أطاقوا من الصدقة، والخروج من المظالم، والتوبة من المعاصي، ثم يخرج بهم في اليوم الرابع، وبالعجائز والصبيان، متنظفين في ثياب بذلة، متواضعين. وقيل يستحب إخراج الدواب.

فإذا اجتمعوا في المصلى، نودي: الصلاة جامعة، فصلى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد ـ بغير تكبير ـ، ثم يخطب خطبتين، وبينهما جلسة خفيفة. وليكن الاستغفار معظم الخطبتين. وينبغي في وسط الخطبة الثانية، أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة، ويحول رداءه في هذه الساعة تفاؤلاً بتحويل الحال، هكذا فعل رسول الله ﷺ[2]، فيجعل أعلاه أسفله، وما على اليمين على الشمال، وما على الشمال على اليمين، وكذلك يفعل الناس، ويدعون في هذه الساعة سراً، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة، ويدعون أرديتهم محولة كما هي حتى ينزعوها متى نزعوا الثياب.

صلاة الجنائز:

وكيفيتها مشهورة[3]. وأجمع دعاء مأثور ما روي في الصحيح عن عوف بن مالك قال: (رأيت رسول الله ﷺ صلى على جنازة، فحفظت من دعائه: «اللهم

---

(١) متفق عليه (خ ١٠٤٠ ـ ١٠٤٣، م ٩١٥).

(٢) متفق عليه (خ ١٠١٢، م ٨٩٤).

(٣) وصفتها: أن ينوي ثم يكبر، ويقرأ الفاتحة، ثم يكبر ويصلي على النبي ﷺ كما في التشهد، ثم يكبر ويدعو للميت، ثم يكبر ويقف قليلاً ويسلم.

اغفر له، وارحمه وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقّه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار». حتى قال عوف: تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت[1].

والأخبار الواردة في فضل صلاة الجنازة وتشييعها مشهورة، فلا نطيل بإيرادها، وكيف لا يعظم فضلها وهي من فرائض الكفايات.

ويستحب طلب كثرة الجمع، تبركاً بكثرة الأدعية، واشتماله على ذي دعوة مستجابة، لما روى كريب عن ابن عباس: أنه مات له ابن فقال: .يا كريب، انظر ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له، فأخبرته. فقال: تقول هم أربعون، قلت: نعم، قال: أخرجوه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله عزَّ وجلّ فيه»[2].

وإذا شيع الجنازة فوصل المقابر، أو دخلها، قال: «السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»[3].

تحية المسجد:

هي ركعتان، وهي سنة مؤكدة، حتى إنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة، وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية، وحصل الفضل، إذ المقصود أن لا يخلو ابتداء دخوله عن العبادة، قياماً بحق المسجد.

ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غير وضوء.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٦٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٩٤٨).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٩٧٤).

ومـذهب الشافعي ــ رحمـه الله ــ أنه لا تكـره التحية في أوقـات الكـراهيـة، وهي: بعد العصر، وبعد الصبح، ووقت الزوال، ووقت الطلوع والغروب.

ركعتان بعد الوضوء:

مستحبتـان، وعرف ذلـك بحديث بـلال، إذ قال ﷺ: «دخلت الجنـة فـرأيت بلالاً فيها، فقلت لبلال: بم سبقتني إلى الجنة؟ فقال بلال: لا أعرف شيئاً، إلا أني لا أحدث وضوءاً إلا أصلي عقبه ركعتين»[1].

صـلاة الاستخارة:

من همَّ بـأمر، وكـان لا يدري عـاقبته، فقـد أمـره رسـول الله ﷺ بـأن يصلي ركعتين، فإذا فرغ دعا وقال: «اللهم إني أستخيـرك بعلمك، وأستقـدرك بقدرتـك، وأسـألك من فضلك العـظيم، فإنـك تقدر ولا أقـدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت عـلام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فـاقدره لي ويسـره لي، ثم بارك لي فيـه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمـر شـر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به»، قال: ويسمي حاجته[2].

قال جابر: كان ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السـورة من القرآن[3].

*
**

(١) متفق عليه (خ ١١٤٩، م ٢٤٥٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١١٦٢)، قال (ش) رواه الجماعة إلا مسلماً.

(٣) هو جزء من الحديث قبله.

الكِتَابُ الخَامِسُ

أَسْرَارُ الزَّكَاةِ

رُبْعُ العِبَادَاتِ

[مكانة الزكاة]:

جعل الله تعالى الزكاة إحدى مباني الإسلام، وأردف بذكرها الصلاة، التي هي أعلى الأعلام، فقال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[1].

وقال ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلّه إلَّا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة..»[2]. وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ ﴾[3].

ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج حق الزكاة.

قال أبو ذر: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: «هم الأخسرون وربِّ الكعبة» فقلت: ومن هم؟ قال: «الأكثرون أموالاً إلَّا من قال هكذا وهكذا وهكذا ــ من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ــ وقليل ما هم، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلَّا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما نفدت أخراها عادت

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٣) وفي مواضع أخرى..

(٢) متفق عليه (خ ٨، م ١٦).

(٣) سورة التوبة: الآية (٣٤).

عليه أولاها، حتى يقضى بين الناس»[1].



وفي الكتاب أربعة فصول:

الأول: في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها.

الثاني: أداؤها وشروطها الباطنة والظاهرة.

الثالث: في القابض وشروط استحقاقه وآداب قبضه.

الرابع: في صدقة التطوع وفضلها.

*
**

(١) متفق عليه (خ ٦٦٣٨، م ٩٩٠).

الفَصلُ الأوَّل

في أنواع الزكاة

النوع الأول: زكاة النعم:

لا تجب هذه الزكاة وغيرها إلاَّ على حر مسلم، ولا يشترط البلوغ، بل تجب في مال الصبي والمجنون. أما زكاة النعم فشروطها:

الأول: كونها نعماً، فلا زكاة إلاَّ في الإبل والبقر والغنم، أما الخيل والبغال والحمير فلا زكاة فيها.

الثاني: السوم، فلا زكاة في معلوفة.

الثالث: الحول، ويستثنى من هذا نتاج الحول.

الرابع: كمال الملك والتصرف، فلا تجب في الضال والمغصوب إلاَّ إذا عاد بجميع نمائه.

الخامس: كمال النصاب.

النوع الثاني: زكاة المعشرات:

فيجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ النصاب، ولا شيء فيما دونه، ولا في الفواكه والقطن، ولكن في الحبوب التي تقتات، وفي التمر والزبيب، والمعتبر التمر أو الزبيب، ويخرج ذلك بعد التجفيف.

النوع الثالث: زكاة النقدين:

فإذا تم الحول على وزن مائتي درهم خالصة، ففيها خمسة دراهم، وهو ربع العشر، وما زاد فبحسابه ولو درهماً. ونصاب الذهب عشرون مثقالاً، وفيها ربع

العشر، وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة.

النوع الرابع: زكاة التجارة:

وهي كزكاة النقدين، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذي اشترى به البضاعة، إن كان النقد نصاباً. وتؤدى الزكاة من نقد البلد، وبه يقوَّم، وما كان من ربح في السلعة في آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال، ولم يستأنف له حولاً، كما في النتاج.

النوع الخامس: الركاز والمعدن:

الركاز: مال دفن في الجاهلية، ووجد في أرض لم يجرِ عليها في الإسلام ملك، فعلى واجده في الذهب والفضة منها الخمس، والحول غير معتبر، والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضاً، لأن إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغنيمة.

وأما المعادن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة، ففيها ربع العشر، والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير.

النوع السادس: صدقة الفطر:

وهي واجبة ـ على لسان رسول الله ﷺ[1] ـ على كل مسلم فَضَل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته، صاع مما يقتات.

فإن اقتات بالحنطة لم يجزِ الشعير.

ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته وأولاده، وكل قريب هو في نفقته، أعني: من تجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد.

***

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر (خ ١٥١١، م ٩٨٤). ولفظه: «فرض النبي ﷺ صدقة الفطر على الذكر والأنثى والحر والمملوك صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير..».

الفَصلُ الثاني

فِي الأَدَاءِ وَشُرُوطِهِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَة

الشروط الظاهرة:

اعلم أنه يجب على مؤدي الزكاة خمسة أمور:

(الأول): النية: وهو أن ينوي بقلبه زكاة الفرض، ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي.

(الثاني): البدار عقب الحول، وفي زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر.

وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب، وانعقاد الحول. ويجوز تعجيل زكاة حولين.

(الثالث): أن لا يخرج بدلاً باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه. إذ ليس سد الخلة هو كل المقصود[1].

---

(١) قال المصنف: إن سدَّ الخلة مقصود وليس هو كل المقصود، بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام:

ـ قسم هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه، وذلك كرمي الجمرات. فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد عبوديته.

ـ القسم الثاني: ما المقصود منه حظ معقول، وليس يقصد منه التعبد، كقضاء دَيْن الآدميِّين.

ـ القسم الثالث: الذي يقصد منه الأمران: حظ العباد، وامتحان المكلف، فيجتمع فيه تعبد رمي الجمار، وحظ رد الحقوق. فهذا قسم في نفسه معقول، فإن ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين، ولا ينبغي أن ينسى أدقهما وهو التعبد، ولعل الأدق هو الأهم، والزكاة من هذا القبيل.

(الرابع): أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر، فإن فعل ذلك أجزأه في قول.

(الخامس): أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين في بلده.

الآداب الباطنة في الزكاة:

اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف:

(الأولى): **فهم وجوب الزكاة**، وأنها من مباني الإسلام.

وفيه ثلاث معان:

المعنى الأول: أنّ التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد، وشهادة بإفراد المعبود، وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد، فإن المحبة لا تقبل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب.

والأموال محبوبة عند الخلائق، لأنها آلة تمتعهم بالدنيا، وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب، واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم، ولذلك قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾[1].

وذلك بالجهاد، وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عزَّ وجلّ، والمسامحة بالمال أهون.

ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال، انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

- قسم صدقوا التوحيد، ووفوا بعهدهم، نزلوا عن جميع أموالهم، فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً، فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم، ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله، وعمر رضي الله عنه بشطر ماله.

---

(١) سورة التوبة: الآية (١١١).

ـ القسم الثـاني: درجتهم دون درجة هـذا، وهم الممسكـون أمـوالهم، المـراقبون لمـواقيت الحاجـات، ومواسم الخيـرات، فيكـون قصـدهم في الادخـار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم، وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البـر، مهما ظهر وجوهها، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة.

وقـد ذهب جمـاعـة من التـابعين إلى أن في المـال حقـوقـاً سـوى الـزكـاة، كالنخعي، والشعبي، وعطاء[1]، ومجاهد[2]، قـال الشعبـي بعد أن قيـل له: هـل في المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم، أما سمعت قوله عزَّ وجلّ:

﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[3] الآية.

واستدلوا بقوله عزَّ وجلّ:

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[4].

وزعموا أن ذلك داخل في حق المسلم على المسلم، ومعناه: أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة[5].

ـ القسم الثـالث: الذين يقتصـرون على أداء الواجب، فـلا يزيـدون عليه، ولا ينقصون عنه، وهي أقل الرتب، وقد اقتصر جميع العوام عليـه لبخلهم بالمـال، وميلهم إليه، وضعف حبهم للآخرة.

فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال.

---

(١) عطاء بن أبـي رباح، أبو محمد، أحد الأعلام من التـابعين، روى عن عائشـة وأبـي هريـرة توفي بمكة سنة (١١٥)هـ عن ثمان وثمانين.

(٢) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج، تابعي جليـل، أخذ التفسيـر عن ابن عباس، قـال الذهبـي: شيخ القراء والمفسرين، استقر بالكوفة، توفي سنة (١٠٤)هـ.

(٣) سورة البقرة: الآية (١٧٧).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣) وفي مواضع أخرى.

(٥) **يـلاحظ أن ما ذكـره المصنف في القسم الأول، هو من القسم الثـاني، فأبـو بكـر رضي الله عنه، لو لم يدخر في بعض الأوقات لما وجد ما ينفق حينما يطلب منه.**

المعنى الثاني: التطهير من صفة البخل، فإنه من المهلكات. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ ﴾[1].

وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال، فحب الشيء لا ينقطع إلاَّ بقهر النفس على مفارقته، حتى يصير ذلك اعتياداً، فالزكاة بهذا المعنى طهرة، أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله.

المعنى الثالث: شكر النعمة، فإن لله عزَّ وجلّ على عبده نعمة في نفسه، وفي ماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال. وما أخسَّ من ينظر إلى الفقير ــ وقد ضيق عليه الرزق، وأحوج إليه ــ ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال، وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله.

(الوظيفة الثانية): في وقت الأداء:

ومن آداب ذوي الدين التعجيل عن وقت الوجوب، إظهاراً للرغبة في الامتثال، بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء، ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات، وليعين لزكاته ــ إن كان يؤديها جميعاً ــ شهراً معلوماً، وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات، ليكون ذلك سبباً لنماء قربته وتضاعف زكاته، وذلك كشهر المحرم، أو رمضان.

(الوظيفة الثالثة): الإسرار والإظهار:

فإن الإسرار أبعد عن الرياء والسمعة، قال تعالى: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[2].

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلاَّ ظله: «ورجل تصدق

---

(١) سورة الحشر: الآية (٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٧١).

بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه»[1]، وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة.

وإذا لم يتمكن إلاَّ بأن يعرفه شخص واحد، فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين ــ والمسكين لا يعرف ــ أولى، إذ في معرفة المسكين الرياء والمنة جميعاً، وليس في معرفة الوكيل إلاَّ الرياء.

ويظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء، ويحرس سره من داعية الرياء، قال تعالى:

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾[2].

وذلك حيث يقتضي الحال الإبداء، إما للاقتداء، وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس.

وقد قال الله تعالى:

﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾[3].

ندب إلى العلانية أيضاً لما فيها من فائدة الترغيب، فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيها فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص.

(الوظيفة الرابعة): [عدم المن]:

أن لايفسد صدقته بالمن والأذى، قال الله تعالى:

﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾[4].

قيل: المن أن يستخدمه بالعطاء، والأذى أن يعيره بالفقر.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٦٠، م ١٠٣١).
(٢) سورة البقرة: الآية (٢٧١).
(٣) سورة الرعد: الآية (٢٢).
(٤) سورة البقرة: الآية (٢٦٤).

وعندي أن أصل المنِّ: أن يرى نفسه محسناً إليه، ومنعماً عليه، وحقه: أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله عزَّ وجلّ منه، الذي هو طهرته ونجاته من النار، وأنه لو لم يقبله لبقي مرتهناً به، فحقه أن يتقلد منَّة الفقير.

ومهما عرف المعاني الثلاثة التي ذكرناها في فهم وجوب الزكاة، أو أحدها، لم يرَ نفسه محسناً إلاَّ إلى نفسه، إما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى، أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل، أو شكراً على نعمة المال طلباً للمزيد.

وأما الأذى: فمنبعه أمران: كراهيته لرفع اليد عن المال.. ورؤيته أنه خير من الفقير.. وكلاهما منشؤه الجهل.

(الوظيفة الخامسة): أن يستصغر العطية:

فإنه إن استعظمها أعجب بها، والعجب من المهلكات، وهو محبط للأعمال. ودواؤه علم وعمل:

أما العلم: فهو أن يعلم أن العُشْر، أو ربع العشر، قليل من كثير، وأنه قد قنع لنفسه بأخسِّ درجات البذل. فهو جدير بأن يستحيي منه، فكيف يستعظمه؟

وأما العمل: فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله.

(الوظيفة السادسة): [أجود المال]:

أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلاَّ طيباً، وإذا لم يكن المخرَج من جيد المال فهو من سوء الأدب، فقد آثر على الله عزَّ وجلّ غيره، ولو فعل هذا بضيفه، وقدم إليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره، هذا إذا كان نظره إلى الله عزَّ وجلّ، وإن كان نظره إلى نفسه، وثوابه في الآخرة، فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه، وليس له من ماله إلاَّ ما تصدق به فأبقى، أو أكل فأفنى.

قال الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ

﴿ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ﴾[1].

أي: إنكم لا تأخذونه إلَّا مع كراهية وحياء، وهو معنى الإغماض.

(الوظيفة السابعة):

أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة، فليراع هذه الصفات:

الأولى: أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا، المتجردين لتجارة الآخرة.

الثانية: أن يكون من أهل العلم، فإن ذلك إعانة له على العلم.

الثالثة: أن يكون صادقاً في تقواه وعلمه. فإذا أخذ العطاء حمد الله عزَّ وجلّ، ورأى أن النعمة منه، ولم ينظر إلى الواسطة.

الرابعة: أن يكون مستتراً، مخفياً حاجته، لا يكثر الشكوى، أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته، فهو يتعيش في جلباب التجمل، قال الله تعالى:

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ﴾[2].

أي: لا يلحون في السؤال. وهذا ينبغي أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كل محلة، ويستكشف عن بواطن أهل الخير والتجمل، فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال.

الخامسة: أن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو بسبب من الأسباب، فيوجد فيه معنى قوله عزَّ وجلّ:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٧).

(٢) و (٣) سورة البقرة: الآية (٢٧٣).

أي: حبسوا.

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1].

لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف.

السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام، فتكون صدقة وصلة رحم، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى. قال علي رضي الله عنه: لأن أصل أخاً من إخواني بدرهم أحب إليَّ من أن أتصدق بعشرين درهماً.

فليراع هذه الدقائق، فهذه هي الصفات المطلوبة، وفي كل صفة درجات، فينبغي أن يطلب أعلاها.

***

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٧٣).

الفَصل الثالث

في القابض وأسباب استحقاقه

أصنـاف المستحقيـن:

اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلَّا حر مسلم، ليس بهاشمي ولا مطلبي، اتصف بصفة من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله عزَّ وجلّ، ولا تصرف زكاة إلى كافر، أما الصبي والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما، فلنذكر الأصناف الثمانية:

(الصنف الأول): الفقراء، والفقير هو الذي ليس له مال، ولا قدرة له على الكسب، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير، ولكنه مسكين، وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير.

ولا يخرجه عن الفقر كونه معتاداً للسؤال، فلا يجعل السؤال كسباً، بخلاف ما لو قدر على كسب فإن ذلك يخرجه عن الفقر، فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير، ويجوز أن يشترى له آلة.

وإن كان متعبداً، يمنعه الكسب من وظائف العبادات. . فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك.

(الصنف الثاني): المساكين، والمسكين هو الذي لا يفي دخله بخرجه، فقد يملك ألف درهم وهو مسكين، وقد لا يملك إلَّا فأساً وحبلاً وهو غني. ولا يخرجه عن المسكنة: الدويرة التي يسكنها، والثوب الذي يستره، وأثاث البيت مما يليق به، وكذا الكتب.

(الصنف الثالث): العاملون، وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات، سوى الخليفة والقاضي، ولا يزاد واحد منهم عن أجرة المثل.

(الصنف الرابع): المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون في قومهم، وفي إعطائهم تقريرهم على الإسلام، وترغيب نظائرهم وأتباعهم.

(الصنف الخامس): المكاتبون، فيدفع إلى السيد سهم المكاتب، وإن دفع إلى المكاتب جاز.

(الصنف السادس): الغارمون، والغارم هو الذي استقرض في طاعة، أو مباح وهو فقير، فإن استقرض في معصية فلا يعطى إلَّا إذا تاب. وإن كان غنياً لم يقض دينه إلَّا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنة.

(الصنف السابع): الغزاة الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة.

(الصنف الثامن): ابن السبيل، وهو الذي شخصَ من بلده، ليسافر في غير معصية، فيعطى إن كان فقيراً، وإن كان له مال ببلد آخر أعطي بقدر بلغته.

وظائف القابض:

(الأولى): أن يعلم أن الله عزَّ وجلّ أوجب صرف الزكاة إليه ليكفى همه، فليأخذ ما يأخذه من الله سبحانه رزقاً له، وعوناً له على الطاعة، ولتكن نيته فيه أن يتقوّى به على طاعة الله تعالى.

(الثانية): أن يشكر المعطي، ويدعو له، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة، فقد قال ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[1]. وقال ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه»[2].

(الثالثة): أن ينظر فيما يأخذه، فإن لم يكن من حل تورع عنه:

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه، وله لأبي داود نحوه وقال: حسن صحيح (ع).

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح بلفظ: «من صنع». (ع).

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1].

ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحاً من الحلال.

(الرابعة): أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه، فلا يأخذ إلاَّ المقدار المباح، ولا يأخذ إلاَّ إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق، فإن كان يأخذه بالغرامة فلا يزيد على مقدار الدين، وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل، وإن كان مسافراً لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده.

وإن أخذ بالمسكنة، فلينظر أولاً إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه، هل فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته، فيمكن أن يبدل بما يكفي ويفضل بعض قيمته؟ وكل ذلك إلى اجتهاده.

ثم إذا تحققت حاجته، فلا يأخذن مالاً كثيراً بل ما يتمم كفايته من وقت أخذه إلى سنة، فهذا أقصى ما يرخص فيه، من حيث إن السنَّة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل، وإن اقتصر على حاجة شهره، أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى.

ومذاهب العلماء في قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة، فمن مبالغ في التقليل إلى حد أوجب الاقتصار على قدر قوت يومه وليلته، وقال آخرون: يأخذ إلى حد الغنى، وحد الغنى نصاب الزكاة، إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلاَّ على الأغنياء.

فإذا وجد القابض في نفسه شيئاً مما يأخذه فليتق الله فيه، ولا يترخص تعللاً بالفتوى من علماء الظاهر، فإن لفتواهم قيوداً ومطلقات من الضرورات، وفيها تخمينات واقتحام شبهات، وتوقي الشبهات من شيم السالكين لطريق الآخرة.

***

(١) سورة الطلاق: الآيتان (٢ ــ ٣).

الفصل الرابع
في صدقة التطوع

فضيلة الصدقة:

من الأخبار: قوله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»(١)، وقال ﷺ: «ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلاَّ طيباً ـ إلاَّ كان الله آخذها بيمينه فيربيها، كما يربي أحدكم فصيله، حتى تبلغ التمرة مثل أحد»(٢). وقال ﷺ: «كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس»(٣).

وسئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان»(٤).

وقال ﷺ: «لا تحل الصدقة لآل محمد إنما هي أوساخ الناس»(٥).

وقال ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، إنما المسكين المتعفف، اقرؤوا إن شئتم ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾(٦)».

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٢٣، م ١٠١٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠١٤)، وكذلك أخرجه البخاري معلقاً، والترمذي والنسائي (ع).
(٣) أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم من حديث عقبة بن عامر (ع).
(٤) متفق عليه (خ ١٤١٩، م ١٠٣٢).
(٥) أخرجه مسلم برقم (١٠٧٢).
(٦) متفق عليه (خ ١٤٧٦، م ١٠٣٩).

الآثار: قال عروة بن الزبير[1]: (لقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بخمسين ألفاً وإن درعها لمرقع). وقال يحيى بن معاذ: (ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلاَّ الحبة من الصدقة). وقال النخعي: (إذا كان الشيء لله عزَّ وجلّ لا يسرني أن يكون فيه عيب). وقال الحسن: (لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض). وقال الشعبي: (من لم يرَ نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه).

إخفاء الصدقة وإظهارها:

اختلف طريق طلاب الإخلاص في ذلك، فمال قوم إلى أن الإخفاء أفضل، ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل، ونحن نشير إلى ما في كل واحد من المعاني والآفات. ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه.

أما الإخفاء: ففيه معانٍ:

(الأول): أنه أبقى للستر على الآخذ، فإن أخذه ظاهراً هتك لستر المروءة، وكشف عن الحاجة، وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب، الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف.

(الثاني): أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم، فإنهم ربما يحسدون، أو ينكرون عليه أخذه، ويظنون أنه أخذ مع الاستغناء.

(الثالث): إعانة المعطي على إسرار العمل، فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر. وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئاً في الملأ، فرده، فقال له: لم ترد على الله عزَّ وجلّ ما أعطاك؟ فقال: إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى، فرددت عليك شركك.

(الرابع): إن في إظهار الأخذ ذلاً وامتهاناً، وليس للمؤمن أن يذل نفسه.

---

(١) عروة بن الزبير، أبو عبد الله، أخو عبد الله بن الزبير، أحد فقهاء المدينة من التابعين ومن أوائل الذين دونوا سيرة رسول الله ﷺ، توفي سنة (٩٣)هـ .

وأما **الإظهار** ففيه معانٍ:

(الأول): الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والمراءاة.

(الثاني): إسقاط الجاه والمنزلة، وإظهار العبودية والمسكنة، والتبري عن الكبرياء، ودعوى الاستغناء، وإسقاط النفس من أعين الخلق.

(الثالث): هو أن العارف لا نظر له إلاَّ إلى الله عزَّ وجلّ والسر والعلانية في حقه واحد، والالتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان في الحال.

(الرابع): أن الإظهار إقامة لسنَّة الشكر، وقد قال تعالى:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝ ﴾[1].

فالآن: إذا عرفت هذه المعاني، فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه، ليس اختلافاً في المسألة، بل هو اختلاف حال، فكشف الغطاء في هذا: أنّا لا نحكم حكماً بتاً بأن الإخفاء أفضل في كل حال، أو الإظهار أفضل، بل يختلف ذلك باختلاف النيات، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص، فينبغي أن يكون المخلص مراقباً لنفسه حتى لا يتدلّى بحبل الغرور، ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان.

***

(١) سورة الضحى: الآية (١١).

الكتاب السادس

أسرار الصوم

ربع العبادات

[فضيلـة الصـوم]:

الصوم متميز بخاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سـائر الأركـان، إذ قال الله تعالى فيما حكاه عنه نبيـه ﷺ: «كل حسنـة بعشر أمثـالها إلى سبعمـائة ضعف، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به»(١)، وناهيك في معرفة فضله قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسـك. يقول الله عـزَّ وجلّ: إنمـا يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلي، فالصوم لي وأنا أجزي به»(٢).

وقـال ﷺ: «للجنة بـاب يقال لـه: الـريـان، لا يـدخله إلا الصـائمـون»(٣). وقال ﷺ: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربـه»(٤)، وقال ﷺ: «إذا دخـل شهـر رمضـان، فتحت أبـواب الجنـة وغلقت أبـواب النـار، وصفـدت الشياطين»(٥).

جـزاء الصائم لا يـدخل تحت وهم وتقـدير، وجـدير بـأن يكون كـذلك، لأن الصوم إنما كان له [تعالى]، ومشرَّفاً بالنسبة إليه، وإن كانت العبادات كلها له ــ كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه، والأرض كلها له ــ لمعنيين:

أحدهما: أن الصوم كفٌّ وترك، وهـو في نفسه سـر ليس فيه عمـل يشاهـد،

---

(١) متفق عليه (خ ١٨٩٤، م ١١٥١).
(٢) متفق عليه (خ ١٨٩٤، م ١١٥١).
(٣) متفق عليه (خ ١٨٩٦، م ١١٥٢).
(٤) متفق عليه (خ ١٩٠٤، م ١١٥١).
(٥) متفق عليه (خ ١٨٩٩، م ١٠٧٩).

وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى، والصوم لا يراه إلا الله عزَّ وجلّ، فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرد.

والثاني: أنه قهر لعدو الله عزَّ وجلّ، فإن وسيلة الشيطان ـ لعنه الله ـ الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب.

فلما كان الصوم ـ على الخصوص ـ قمعاً للشيطان، وسدّاً لمسالكه، وتضييقاً لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عزَّ وجلّ، ففي قمع عدو الله نصرة لله سبحانه.

فمن هذا الوجه صار الصوم جنة، وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة، وذلك بثلاثة فصول:

*
**

الفصل الأول

في الواجبات والسنن واللوازم بإفساده

الواجبات الظاهرة:

(الأول): مراقبة أول شهر رمضان، وذلك برؤية الهلال، فإن غم فاستكمال ثلاثين يوماً من شعبان. ونعني بالرؤية: العلم، ويحصل ذلك بقول عدل واحد، ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطاً للعبادة.

(الثاني): النية، ولا بد لكل ليلة من نية مبيتة معينة، فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه، وهو الذي عنينا بقولنا: «كل ليلة».

(الثالث): الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمداً مع ذكر الصوم، فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة، ولا يفسد بالفصد والحجامة، والاكتحال وإدخال الميل في الأذن.

فأما «ذكر الصوم» فأردنا به الاحتراز عن الناسي، فإنه لا يفطر، أما من أكل عامداً في طرفي النهار ثم ظهر له أنه أكل نهاراً بالتحقيق فعليه القضاء.

(الرابع): الإمساك عن الجماع، وإن جامع ناسياً لم يفطر، وإن جامع ليلاً أو احتلم فأصبح جنباً لم يفطر.

(الخامس): الإمساك عن الاستمناء، ولا يفطر بقبلة زوجته، ولا بمضاجعتها ما لم ينزل، لكن يكره ذلك، إلا أن يكون شيخاً أو مالكاً لإربه[1]، فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى.

---

(١) الإرب: الحاجة.

(السادس): الإمساك عن إخراج القيء، فالاستقاء يفسد الصوم، وإن ذرعه[1] القيء لم يفسد صومه.

لوازم الإفطار:

وأما لوازم الإفطار فأربعة: القضاء، والكفارة، والفدية، وإمساك بقية النهار تشبيهاً بالصائمين.

أما القضاء: فوجوبه عام على كل مسلم ترك الصوم بعذر أو بغير عذر، فالحائض تقضي الصوم، وكذا المرتد، وأما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم.

ولا يشترط التتابع في قضاء رمضان، ولكن يقضي كيف شاء، متفرقاً ومجموعاً.

وأما الكفارة: فلا تجب إلا بالجماع، وما عداه فلا تجب به كفارة..

والكفارة: عتق رقبة، فإن أعسر فصوم شهرين متتابعين، وإن عجز فإطعام ستين مسكيناً، مدّاً، مدّاً.

وأما إمساك بقية النهار: فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه، ولا يجب على الحائض إذا طهرت إمساك بقية نهارها، وعلى المسافر إذا قدم مفطراً من سفر بلغ مرحلتين، ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك.

وأما الفدية: فتجب على الحامل والمرضع، إذا أفطرتا خوفاً على ولديهما، لكل يوم مدّ حنطة، لمسكين واحد، مع القضاء.

والشيخ الهرم إذا لم يصم، تصدق عن كل يوم مدّاً.

سنن الصيام:

وأما السنن فست: تأخير السحور، وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة،

---

(١) ذرعه: سبقه وغلبه.

وترك السواك بعد الزوال، والجود في شهر رمضـان، ومدارسـة القرآن، والاعتكـاف في المسجد، لا سيما في العشر الأخير، فهـو عادة رسـول الله ﷺ: «كان إذا دخـل العشـر الأواخر أحيـا ليله، وأيقظ أهله وشد المئـزر»[1] أي أدام النصب في العبـادة إذ فيها ليلة القدر، والأغلب أنها في أوتارها.

***

(١) متفق عليه (خ ٢٠٢٤، م ١١٧٤).

الفصل الثاني

أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

أما صوم العموم: فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله.

وأما صوم الخصوص: فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام.

وأما صوم خصوص الخصوص: فصوم القلب عن الهمم الدنية، والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله عزَّ وجلّ بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عزَّ وجلّ واليوم الآخر، وبالفكر في الدنيا، إلا دنيا تُراد للدين، فإن ذلك من زاد الآخرة، وليس من الدنيا. وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين.

وأما صوم الخصوص، وهو صوم الصالحين، فهو كف الجوارح عن الآثام، وتمامه بستة أمور:

الأول: غض البصر، وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عزَّ وجلّ.

الثاني: حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة، والفحش والجفاء والخصومة والمراء، وإلزامه السكوت، وشغله بذكر الله سبحانه، وتلاوة القرآن، فهذا صوم اللسان.

عن مجاهد قال: (خصلتان تفسدان الصيام: الغيبة والكذب).

وقال ﷺ: «إنما الصوم جنة، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم»[1].

الثالث: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه، لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه، ولذلك سوى الله عزَّ وجلّ بين المستمع وآكل السحت، فقال تعالى:

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[2].

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾[3].

فالسكوت على الغيبة حرام.

الرابع: كف بقية الجوارح عن الآثام، من اليد والرجل عن المكاره، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار، فلا معنى للصوم ـ وهو الكف عن الطعام الحلال ـ ثم الإفطار على الحرام. فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصراً ويهدم مصراً. وقد قال ﷺ: «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش»[4] فقيل هو الفطر على الحرام، وقيل: هو الذي يفطر على لحوم الناس بالغيبة.

الخامس: أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار، بحيث يمتلىء جوفه، فما من وعاء أبغض إلى الله عزَّ وجلّ من بطن ملىء من حلال، وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره؟! وربما يزيد عليه من ألوان الطعام!! حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان، فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة شهور.

---

(١) متفق عليه (خ ١٨٩٤، م ١١٥١).

(٢) سورة المائدة: الآية (٤٢).

(٣) سورة المائدة: الآية (٦٢).

(٤) أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة (ع) قال الشارح وفي رواية: (كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش).

ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء، وكسر الهوى، لتقوى النفس على التقوى.

فروح الصوم وسرّه تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل، وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم، فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً، فلم ينتفع بصومه.

ومن الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحسَّ بالجوع والعطش، ويستشعر ضعف القوى، فيصفو عند ذلك قلبه، ويخف عليه تهجده وأوراده. فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه.

السادس: أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً، بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين، أو يردّ عليه فهو من الممقوتين؟ وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها.

روي عن الحسن البصري أنه مرَّ بقوم وهم يضحكون فقال: (إن الله عزَّ وجلّ جعل شهر رمضان مضماراً[1] لخلقه يستبقون فيه لطاعته، فسبق قوم ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون، وخاب فيه المبطلون، أما والله، لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته). أي: كان سرور المقبول يشغله عن اللعب، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك.

[صحة الصوم عند الفقهاء]:

فإن قلت: فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني، فقد قال الفقهاء: صومه صحيح. فما معناه؟

فاعلم أن فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة التي أوردناها في هذه الشروط الباطنة، لا سيما الغيبة وأمثالها. ولكن ليس إلى

---

(١) هو الميدان الذي يجري فيه سباق الخيل.

فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته.

فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة: القبول، وبالقبول: الوصول إلى المقصود، ويفهمون أن المقصود من الصوم الاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان، فإنهم منزهون عن الشهوات.

والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم، لقدرته بنور العقل على كسر شهوته، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه، وكونه مبتلى بمجاهدتها، فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين، والتحق بغمار البهائم، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة.

والملائكة مقربون من الله عزَّ وجلّ، والذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عزَّ وجلّ كقربهم، وليس القرب ثَمَّ بالمكان بل بالصفات.

وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الألباب، وأصحاب القلوب، فأي جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء، مع الانهماك في الشهوات الأُخر طول النهار؟! ولو كان لمثله جدوى، فأي معنى لقوله ﷺ: «كم من صائم ليس من صومه إلا الجوع والعطش»[1].

***

(١) سبق تخريجه في الفقرة السابقة.

الفصل الثالث

التَّطَوُّعُ بالصِّيَام

اعلم أن استحباب الصيام يتأكد في الأيام الفاضلة، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة، وبعضها يوجد في كل شهر، وبعضها في كل أسبوع.

أما في السنة: ـ فبعد أيام رمضان ـ يوم عرفة، ويوم عاشوراء، والعشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأول من المحرم(١).

وجميع الأشهر الحرم مظان الصوم، وهي أوقات فاضلة. وكان رسول الله ﷺ يكثر صوم شعبان حتى كان يظن أنه في رمضان(٢)، وفي الخبر: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم»(٣).

والأشهر الفاضلة: ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان.

والأشهر الحرم: ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم ورجب. وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام والمعلومات والمعدودات(٤).

وفي الخبر: «ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله عزَّ وجلّ من أيام عشر ذي الحجة»(٥).

---

(١) لم يذكر المصنف أيام شوال وقد وردت في صحيح مسلم برقم (١١٦٤): «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر».

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٩٦٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١١٦٣).

(٤) الأيام المعلومات هي أيام عشر ذي الحجة. والمعدودات أيام التشريق، كما قال ابن عباس (رواه البخاري معلقاً في مقدمة الحديث ٩٦٩).

(٥) رواه البخاري برقم (٩٦٩).

وأما ما يتكرر في الشهر: فأول الشهر وأوسطه وآخره. ووسطه الأيام البيض، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

وأما في الأسبوع: فالاثنين والخميس.

فهذه هي الأيام الفاضلة، فيستحب الصيام فيها.

*
**

الكتاب السابع

أسرار الحجّ

ربع العبادات

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ .

[سورة المائدة، الآية (٣)]

فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال.



ونصرف العناية إلى شرحها في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في فضائلها، وفضائل مكة وجمل أركانها.

الباب الثاني: في أعمالها الظاهرة على الترتيب.

الباب الثالث: في آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية.

الباب الأول

في الفضائل والأحكام

وفيه فصلان:

الفصل الأول

الفضائل

فضيلة الحج:

قال الله تعالى:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

قال قتادة: لما أمر الله عزَّ وجلّ إبراهيم ﷺ أن يؤذن في الناس بالحج نادى: (يا أيها الناس، إن الله عزَّ وجلّ بنى بيتاً فحجّوه).

---

(١) سورة الحج: الآية (٢٧).

وقال ﷺ: «من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»(١)، وقال ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنة»(٢).

وقال ﷺ: «الحجاج والعمار وفد الله عزَّ وجلّ، إن استغفروه غفر لهم، وإن دعوه استجاب لهم»(٣).

فضيلة المقام بمكة المشرفة:

كره الخائفون المحتاطون من العلماء المقام بمكة لمعانٍ ثلاثة:

الأول: خوف الأنس بالبيت، فإن ذلك ربما يؤثر في تسكين حرقة القلب في الاحترام. لذلك قال عمر رضي الله عنه: خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت.

الثاني: تهييج الشوق بالمفارقة، لتنبعث داعية العودة، فإن الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمناً، أي: يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى، ولا يقضون منه وطراً.

قال بعضهم: تكون في بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك في بلد آخر.

الثالث: الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها، فإن ذلك يورث مقت الله عزَّ وجلّ لشرف الموضع.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما من بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلاَّ مكة، وتلا قوله تعالى:

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾(٤).

---

(١) متفق عليه (خ ١٥٢١، م ١٣٥٠).

(٢) متفق عليه (خ ١٧٧٣، م ١٣٤٩).

(٣) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٤) سورة الحج: الآية (٢٥).

أي: أنه على مجرد الإرادة.

ولا تظنن أن كراهة المقام يناقض فضل البقعة، لأن هذه كراهة علتها ضعف الخلق، وقصورهم عن القيام بحق الموضع. فمعنى قولنا: إن ترك المقام به أفضل، أي: بالإضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم، أما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيهات!! وكيف لا، ولما عاد رسول الله ﷺ إلى مكة استقبل الكعبة وقال: «إنك لخير أرض الله عزَّ وجلّ، وأحب بلاد الله تعالى إليَّ، ولولا أني أخرجت منك لما خرجت»[1]، وكيف لا، والنظر إلى البيت عبادة، والحسنات فيها مضاعفة.

فضيلة المدينة الشريفة:

ما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله ﷺ، فالأعمال فيها أيضاً مضاعفة. قال ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلاَّ المسجد الحرام»[2]. وكذلك كل عمل بالمدينة بألف.

وقال ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت، فإنه لن يموت بها أحد إلاَّ كنت له شفيعاً يوم القيامة»[3].

وبعد مدينته ﷺ الأرض المقدسة، فإن الصلاة فيها بخمسمائة صلاة فيما سواها إلاَّ المسجد الحرام، وكذلك سائر الأعمال.

وما بعد هذه البقاع الثلاث، فالمواضع فيها متساوية إلاَّ الثغور فإن المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم، ولذلك قال ﷺ: «لا تشد الرحال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه النسائي في الكبرى، وابن ماجه وابن حبان (ع).

(٢) متفق عليه (خ ١١٩٠، م ١٣٩٤).

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن صحيح (ع)، وكذا أحمد بسند رجاله رجال الصحيح، خلا عبد الله بن عكرمة ولم يتكلم فيه أحد بسوء. (ش).

(٤) متفق عليه (خ ١١٨٩، م ١٣٩٧).

الفَصلُ الثاني
في أحكام الحجّ

الشـروط:

أما الشرائط، فشرط صحة الحج اثنان: الوقت والإسلام، فيصح حج الصبي، ويُحْرِم بنفسه إن كان مميزاً، ويحرم عنه وليه إن كان صغيراً، ويفعل به ما يفعل في الحج من الطواف والسعي وغيره. وأما الوقت فهو: شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر، فمن أحرم بالحج في غير هذه المدة فهي عمرة، وجميع السنة وقت العمرة.

وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام فخمسة: الإسلام، والحرية، والبلوغ، والعقل، والوقت.

وأما شروط لزوم الحج فخمسة: البلوغ والإسلام والعقل والحرية والاستطاعة. ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة.

والاستطاعة نوعان:

أحدهما: المباشرة وذلك له أسباب: أما في نفسه فبالصحة، وأما في الطريق فبأن تكون آمنة، وأما في المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته في هذه المدة.

والثاني: استطاعة المعضوب[1] بماله، وهو أن يستأجر من يحج عنه، بعد

---

(١) المعضوب: الزَّمِن الذي لا حراك به.

فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه.

ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير، ولكنه فيه على خطر، فإن تيسر له ولو في آخر عمره سقط عنه، وإن مات قبل الحج لقي الله عزَّ وجلّ عاصياً بترك الحج، وكان الحج في تركته يحج عنه وإن لم يوص، كسائر ديونه.

ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى، قال عمر رضي الله عنه: (لقد هممت أن أكتب في الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلاً).

الأركان:

وأما الأركان التي لا يصح الحج بدونها فخمسة: الإحرام، والطواف، والسعي بعده، والوقوف بعرفة، والحلق بعده على قول.

وأركان العمرة كذلك إلَّا الوقوف.

الواجبات:

والواجبات المجبورة بالدم ست:

الإحرام من الميقات، والرمي، ومن تركهما ففيه الدم قولاً واحداً.

والصبر بعرفة إلى غروب الشمس، والمبيت بمزدلفة، والمبيت بمنى، وطواف الوداع، فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين، والقول الثاني: فيها دم على وجه الاستحباب.

وجوه أداء الحج:

وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة:

الأول: الإفراد، وذلك أن يقدم الحج وحده، فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر.

الثاني: القران، وهو أن يجمع فيقول: (لبيك بحجة وعمرة معاً)، فيصير

محرماً بهما، ويكفيه أعمال الحج، وتندرج العمرة تحت الحج، كما يندرج الوضوء تحت الغسل. وعلى القارن دم شاة إلَّا أن يكون مكياً.

الثالث: التمتع، وهو أن يجاوز الميقات محرماً بعمرة، ويتحلل بمكة، ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج، ثم يحرم بالحج.

ولا يكون متمتعاً إلَّا بخمس شرائط: أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام، وأن يقدم العمرة على الحج، وأن تكون عمرته في أشهر الحج، وأن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج، وأن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد.

فإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعاً ولزمه دم شاة، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر ـ متفرقة أو متتابعة ـ وسبعة إذا رجع إلى الوطن.

محظورات الحج والعمرة:

وأما محظورات الحج والعمرة فستة:

الأول: لبس القميص والسراويل والخف والعمامة، بل ينبغي أن يلبس إزاراً ورداءً ونعلين. وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها في وجهها.

الثاني: الطيب، فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيباً، فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة.

الثالث: الحلق والقلم[1]، وفيهما دم شاة، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام وترجيل الشعر.

الرابع: الجماع، وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه: بدنة أو بقرة أو سبع شياه، وإن كان بعد التحلل الأول، لزمه البدنة ولم يفسد حجه.

---

(١) أي تقليم الأظافر، وهو قصها.

الخامس: مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التي تنقض الطهر فهو محرم وفيه شاة. ويحرم النكاح[٢] ولا دم فيه لأنه لا ينعقد.

السادس: قتل صيد البر، أعني ما يؤكل، فإن قتل صيداً فعليه مثله من النعم، يراعى فيه التقارب في الخلقة. وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه.

*
**

---

(١) أي عقد النكاح.

البَابُ الثَّانِي

تَرْتِيبُ الأَعْمَالِ الظَّاهِرَة مِنْ أَوَّلِ السَّفَرِ إِلَى الرُّجُوع

وفيه عشر جمل:

الجملة الأولى: من أول الخروج إلى الإحرام:

وفيها مسائل:

(الأولى): في المال، فينبغي أن يبدأ بالتوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع، ويرد ما عنده من الودائع، ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير تقتير، بل على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء، ويتصدق بشيء قبل خروجه.

(الثانية): في الرفيق، ينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً، محباً للخير معيناً عليه، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن جبن شجعه، وإن عجز قواه، وإن ضاق صدره صبره.

ويودع رفقاءه المقيمين، وإخوانه وجيرانه، ويلتمس أدعيتهم، فإن الله تعالى جاعل في أدعيتهم خيراً، والسنَّة في الوداع أن يقول: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك[1]، وكان ﷺ يقول لمن أراد السفر: «زودك الله التقوى، وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما كنت»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي.

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه.

(**الثالثة**): في الخروج من الدار، ينبغي إذا همَّ بالخروج أن يصلي ركعتين، فإذا فرغ، رفع يديه ودعا الله سبحانه، عن إخلاص صافٍ ونية صادقة وقال:

اللَّهم أنت الصاحب في السفر، وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد، اللَّهم إنّا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللَّهم إنّا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد.

(**الرابعة**): إذا وصل على باب الدار قال: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلَّا بالله، اللَّهم إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك، واتباع سنَّة نبيك.

(**الخامسة**): في الركوب، فإذا ركب الراحلة يقول:
﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[1].

(**السادسة**): مهما علا نشزاً من الأرض في الطريق فيستحب أن يكبِّر ثلاثاً.

الجملة الثانية: في آداب الإحرام:

وهي خمسة:

(**الأول**): أن يغتسل، وينوي به غسل الإحرام، أعني إذا انتهى إلى الميقات الذي يحرم الناس منه، ويتمم غسله بالتنظيف، ويسرح لحيته ورأسه ويقلم أظفاره، ويقص شاربه، ويستكمل النظافة.

(**الثاني**): أن يفارق الثياب المخيطة، ويلبس ثوبي الإحرام، فيرتدي ويتَّزر بثوبين أبيضين، فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله تعالى، ويتطيب في ثيابه وبدنه، ولا بأس بطيب يبقى جرمه بعد الإحرام.

(**الثالث**): أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث راحلته[2]، فعند ذلك ينوي

---

(١) سورة الزخرف: الآية (١٤).

(٢) **لم يشر المصنف** إلى أن من السنن صلاة ركعتين قبل الإحرام، فقد ورد في الصحيحين من حديث ابن عمر: أنه ﷺ صلَّى بذي الحليفة ركعتين ثم أحرم. (ش).

الإحـرام بالحـج أو بالعمـرة، ويكفي مجرد النيـة لانعقاد الإحـرام، ولكن السنَّـة أن يقرن بالنية لفظ التلبية، فيقول: لبيك اللَّهم لبيـك، لبيك لا شـريك لـك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

(الرابع): إذا انعقد إحرامه بالتلبية فيستحب أن يقول: اللَّهم إني أريـد الحج فيسره لي، وأعنّي على أداء فرضه وتقبله مني[1].

(الخامس): يستحب تجديد التلبية في دوام الإحرام، خصوصاً عند اصـطدام الرفاق وعند اجتماع الناس، وعند كل صعود وهبوط، وعند كل ركوب ونزول، رافعاً بها صوته بحيث لا يبحّ حلقه فإنه لا ينادي أصم ولا غائباً، كما ورد في الخبر[2].

الجملة الثالثة: في آداب دخول مكة:

(الأول): أن يغتسل بذي طوى لدخول مكة.

والاغتسـالات المستحبـة المسنـونـة في الحـــج تسعـة: الأول لـــلإحـرام من الميقـات، ثم لدخـول مكة، ثم لـطواف القدوم، ثم للوقـوف بعـرفـة، ثم للوقـوف بمزدلفة، ثم ثلاثة أغسال لرمي الجمـار، ولا غسل لـرمي جمرة العقبـة، ثم لطواف الوداع.

(الثاني): أن يقول عند الدخول في أول الحرم، وهو خارج مكـة: اللَّهم هذا حرمك وأمنك، فحرم لحمي ودمي وشعري وبشري على النـار، وآمنّي من عذابـك يوم تبعث عبادك.

(الثالث): أن يدخل مكة من جانب الأبطح، وهو ثنية كـدا ــ بفتح الكـاف ــ

---

(١) لم يشر المصنف إلى ضرورة الاشتراط في نية الحج، فقد ورد في الحديث المتفق عليه أن النبـي ﷺ قال لضباعة بنت الزبيـر: «حجي واشترطي وقـولي: اللَّهم محلي حيث حبستني» (خ ٥٠٨٩، م ١٢٠٧)، ولذا يقول الحاج بعد نيتـه المذكـورة: وإن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني.

(٢) متفق عليه (خ ٤٢٠٥، م ٢٧٠٤).

وهي العليا، وإذا خرج خرج من ثنية كدى ـ بضم الكاف ـ وهي السفلى.

(الرابع): إذا دخل مكة ووقع بصره على البيت فليقل: لا إلّـه إلَّا الله، والله أكبر، اللَّهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللَّهم إن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته، اللَّهم فزده تعظيماً وتشريفاً وتكريماً.

(الخامس): إذا دخل المسجد الحرام، فليدخل من باب بني شيبة.

(السادس): أن تقصد الحجر الأسود ـ بعد ذلك ـ وتمسَّه بيدك اليمنى وتقبله. ثم لا يعرج على شيء دون الطواف ـ وهو طواف القدوم ـ إلَّا أن يجد الناس في المكتوبة فيصلي معهم ثم يطوف.

الجملة الرابعة: الطواف:

فإذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغي أن يراعي أموراً ستة:

(الأول): أن يراعي شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث في الثوب والبدن والمكان، وستر العورة. فالطواف بالبيت صلاة، ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام.

وليضطبع قبل ابتداء الطواف، وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر، فيرخي طرفاً وراء ظهره، وطرفاً على صدره.

ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف، ويشتغل بالأدعية.

(الثاني): إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره، وليقف عند الحجر الأسود وليتنحّ عنه قليلاً، ليكون الحجر قدامه، فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه في ابتداء طوافه. وليجعل بينه وبين البيت ثلاث خطوات ليكون قريباً من البيت فإنه أفضل. ثم من هذا الموقف يبتدىء الطواف.

(الثالث): أن يقول قبل مجاوزة الحجر في ابتداء الطواف: بسم الله، والله أكبر، اللَّهم زدني إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعاً لسنَّة نبيك ﷺ، ويطوف.

فأول ما يجاوز الحجر يقول: اللَّهم هذا البيت بيتك، وهذا الحرم حرمك، وهذا الأمن أمنك، وهذا مقام العائذ بك من النار.

ويقول بين الركنين ـ اليماني والحجر الأسود ـ : اللَّهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار.

فيطوف سبعة أشواط، يدعو بهذه الأدعية في كل شوط.

(الرابع): أن يرمل في ثلاثة أشواط، ويمشي في الأربعة الأخر، ومعنى الرمل: الإسراع في المشي، مع تقارب الخطا، وهو دون العَدْوِ، وفوق المشي المعتاد.

وإن أمكنه استلام الحجر في كل شوط فهو الأحب، وإن منعته الزحمة أشار باليد وقبل يده، وكذلك استلام الركن اليماني، وروي أنه ﷺ كان يستلم الركن اليماني[1].

(الخامس): إذا أتم الطواف سبعاً، فليأت الملتزم، وهو بين الحجر والباب، وهو موضع استجابة الدعوة، وليلتزق بالبيت وليتعلق بالأستار وليقل: اللَّهم يا رب البيت العتيق أعتق رقبتي من النار.

(السادس): إذا فرغ من ذلك، ينبغي أن يصلي خلف المقام ركعتين، يقرأ في الأولى (قل يا أيها الكافرون)، وفي الثانية (الإخلاص)، وهما ركعتا الطواف. قال الزهري: (مضت السنة أن يصلي لكل سبع ركعتين)[2]. وليدع بعدهما.

هذه كيفية الطواف.

والواجب من جملته بعد شروط الصلاة: أن يستكمل عدد الطواف سبعاً بجميع البيت، وأن يبتدىء بالحجر الأسود، ويجعل البيت على يساره، وأن يطوف

---

(١) متفق عليه. (ع).

(٢) حديث الزهري، ذكره البخاري تعليقاً، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر (قدم رسول الله ﷺ وطاف بالبيت سبعاً، وصلّى خلف المقام ركعتين). (ع).

داخل المسجد وخارج البيت، لا على الشاذروان ولا في الحِجر، وأن يوالي بين الأشواط، ولا يفرقها تفريقاً خارجاً عن المعتاد.

الجملة الخامسة: السعي:

فإذا فرغ من الطواف، فليخرج من باب الصفا، وهو جبل فيرقى فيه درجات، وابتداء السعي من أصل الجبل كاف، وهذه الزيادة مستحبة.

وإذا ابتدأ سعى بينه وبين المروة سبع مرات، وعند رقيه في الصفا ينبغي أن يستقبل البيت، ثم يمشي على هينة حتى ينتهي إلى الميل الأخضر فيأخذ في السير السريع، وهو الرمل، حتى ينتهي إلى الميلين الأخضرين، ثم يعود إلى الهينة، فإذا انتهى إلى المروة صعدها كما صعد الصفا، وأقبل بوجهه على الصفا، وقد حصل السعي مرة واحدة، فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان.

يفعل ذلك سبعاً، ويرمل في موضع الرمل في كل مرة، ويسكن في موضع السكون. فإذا فعل ذلك، فقد فرغ من طواف القدوم والسعي، وهما سنتان، والطهارة مستحبة للسعي وليست بواجبة، بخلاف الطواف.

وإذا سعى فينبغي أن لا يعيد السعي بعد الوقوف ويكتفي بهذا ركناً، فإنه ليس من شروط السعي أن يتأخر عن الوقوف، وإنما ذلك شرط في طواف الركن.

الجملة السادسة: الوقوف وما قبله:

إذا انتهى الحاج يوم عرفة إلى عرفات فلا[1] يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف.

وإذا وصل قبل ذلك بأيام، وطاف طواف القدوم، فيمكث محرماً إلى اليوم السابع من ذي الحجة، فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة، ويأمر

---

(١) سقطت من بعض الطبعات كلمة «فلا» وهي موجودة في طبعة الشرح، ويفسد المعنى بدونها.

الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية[1] والمبيت بها. وبالغدوّ منها إلى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال: إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر.

فينبغي أن يخرج إلى منى ملبياً، ويستحب له المشي من مكة في المناسك إلى انقضاء حجته إن قدر عليه. وليمكث هذه الليلة بمنى ـ وهو مبيت منزل لا يتعلق به نسك ـ فإذا أصبح يوم عرفة صلّى الصبح، فإذا طلعت الشمس سار إلى عرفات.

وليغتسل للوقوف، فإذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة، ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين، وقصر الصلاة، وراح إلى الموقف، فليقف بعرفة ولا يقفنَّ في وادي عرنة.

وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عزَّ وجلّ والدعاء والتوبة، ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على المواظبة في الدعاء، ولا يقطع التلبية يوم عرفة، بل الأحب أن يلبّي تارة، ويكب على الدعاء أخرى.

ومن فاته الوقوف، حتى طلع الفجر يوم النحر، فقد فاته الحج، فعليه أن يتحلل عن إحرامه بأعمال العمرة، ثم يريق دماً لأجل الفوات، ثم يقضي العام الآتي.

وليكن أهم اشتغاله في هذا اليوم الدعاء، ففي مثل تلك البقعة، ومثل ذلك الجمع تُرجى إجابة الدعوات. وليلحَّ في الدعاء، وليعظِّم المسألة فإن الله لا يتعاظمه شيء.

الجملة السابعة: بقية أعمال الحج:

فإذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس، فينبغي أن يكون على السكينة

(١) يوم التروية هو اليوم الثامن من ذي الحجة، سمي به لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء لما بعده.

والوقار، فإذا بلغ المزدلفة اغتسل لها لأنها من الحرم فليدخله بغسل، ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة في وقت العشاء قاصراً له، بأذان وإقامتين ليس بينهما نافلة.

ثم يمكث تلك الليلة بمزدلفة وهو مبيت نسك، ثم إذا انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل، ويتزود الحصى منها، فليأخذ سبعين حصاة فإنها قدر الحاجة، ولتكن الحصى خفافاً.

ثم ليغلس بصلاة الصبح، وليأخذ في المسير، حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة، فيقف ويدعو إلى الإسفار.

ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس، حتى ينتهي إلى موضع يقال له «وادي محسر» فيستحب له أن يسرع المشي فيه..

ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير، فيلبي تارة ويكبِّر أخرى. فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات، وهي ثلاثة، فيتجاوز الأولى والثانية، فلا شغل له معهما يوم النحر، حتى ينتهي إلى جمرة العقبة.

ويرمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح، وكيفيته: أن يقف مستقبلاً القبلة، وإن استقبل الجمرة فلا بأس، ويرمي سبع حصيات، رافعاً يده، ويقول مع كل حصاة: الله أكبر، على طاعة الرحمن ورغم الشيطان.

فإذا رمى قطع التلبية والتكبير، إلا التكبير عقب فرائض الصلوات.

ثم ليذبح الهدي إن كان معه، والأولى أن يذبح بنفسه، وليقل: باسم الله، والله أكبر ، اللهم منك وبك وإليك، تقبل مني كما تقبلت من خليلك إبراهيم.

والتضحية بالبُدن أفضل، ثم البقر، ثم بالشاة، والشاة أفضل من مشاركة ستة في البدنة أو البقرة، والضأن أفضل من المعز، وليأكل منه إن كان من هدي التطوع.

ثم ليحلق بعد ذلك، والمرأة تقصر شعرها، ومهما حلق بعد رمي الجمرة فقد حصل له التحلل الأول، وحلَّ له كل المحذورات إلا النساء والصيد.

ثم يفيض إلى مكة، ويطوف كما وصفنا، وهذا الطواف طواف الركن في الحج، ويسمى «طواف الزيارة» وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر، وأفضل وقته يوم النحر، ولا آخر لوقته، ولكن لا تحل له النساء إلى أن يطوف، فإذا طاف تم التحلل، وحلَّ الجماع، وارتفع الإحرام بالكلية، ولم يبق إلا رمي أيام التشريق والمبيت بمنى وهي واجبات بعد زوال الإحرام.

فإذا طاف فليسعَ كما وصفنا، إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم، وإن كان قد سعى فلا يعيد السعي.

وأسباب التحلل ثلاثة: الرمي والحلق والطواف الذي هو الركن، ومهما أتي باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين، ولا حرج عليه في التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح، ولكن الأحسن: أن يرمي ثم يذبح، ثم يحلق، ثم يطوف.

والسنة للإمام في هذا اليوم أن يخطب بعد الزوال، وهي خطبة وداع رسول الله ﷺ، ففي الحج أربع خطب: خطبة يوم السابع، وخطبة يوم عرفة، وخطبة يوم النحر، وخطبة يوم النفر الأول. وكلها عقب الزوال، وكلها إفراد إلا خطبة يوم عرفة فإنها خطبتان بينهما جلسة.

ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمي، فيبيت تلك الليلة بمنى، فإذا أصبح اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي، وقصد الجمرة الأولى، التي تلي عرفة، ويرمي إليها بسبع حصيات، فإذا تعداها انحرف قليلاً واستقبل القبلة، وحمد الله تعالى، وهلل وكبر ودعا. ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى، ويرمي كما رمى الأولى، ويقف كما وقف للأولى، ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمي سبعاً.

ويرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة، فإذا أصبح صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق، ورمى في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة، كاليوم الذي قبله. ثم هو مخيَّر بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة.

فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه، وإن صبر إلى الليل

فلا يجوز له الخروج، بل لزمه المبيت حتى يرمي في يوم النفر الثاني إحدى وعشرين كما سبق.

وفي ترك المبيت والرمي إراقة دم، وليتصدق باللحم.

الجملة الثامنة: صفة العمرة:

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده فليغتسل، ويلبس ثياب الإحرام ــ كما سبق في الحج ــ ويحرم بالعمرة من ميقاتها. وينوي العمرة ويلبي، ويصلي ركعتين، ثم يعود إلى مكة وهو يلبي، حتى يدخل المسجد الحرام.

فإذا دخل المسجد ترك التلبية، وطاف سبعاً، كما وصفنا، فإذا فرغ حلق رأسه وتمت عمرته. وليكثر شرب ماء زمزم.

الجملة التاسعة: طواف الوداع:

مهما عنَّ له الرجوع إلى الوطن، بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة، فلينجز أولاً أشغاله، وليشد رحاله، وليجعل آخر أشغاله وداع البيت.

ووداعه: بأن يطوف به سبعاً كما سبق، ولكن من غير رمل واضطباع، فإذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام، وشرب من ماء زمزم، ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع، ويقول: (اللهم أصحبني العافية في بدني، والعصمة في ديني، وأحسن منقلبي، وارزقني طاعتك ما أبقيتني). والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه.

الجملة العاشرة: زيارة المدينة:

من قصد زيارة المدينة، فليصل على رسول الله ﷺ في طريقه كثيراً. وليغتسل قبل الدخول، وليتطيب وليلبس أنظف ثيابه، فإذا دخلها فليدخلها متواضعاً معظماً.

ثم يقصد المسجد، ويدخله ويصلي بجنب المنبر ركعتين، وليجتهد أن يصلي في المسجد الأول قبل أن يزاد فيه.

ثم يأتي قبر النبي ﷺ فيقف عند وجهه، وذلك بأن يستدبر القبلة، ويستقبل جدار القبر على أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر. وليس من السنة أن يمس الجدار، ولا أن يقبله، بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام.

فيقف ويقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا أكرم ولد آدم، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا رسول رب العالمين، السلام عليك يا نبي الرحمة، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيراً. السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين، وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين، جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه، ورسولاً عن أمته، وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون، وصلى عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكمل ما صلى على أحد من خلقه. وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وجاهدت عدوك، وهديت أمتك، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم.

وإن كان قد أوصي بتبليغ سلام، فيقول: السلام عليك من فلان، السلام عليك من فلان.

ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، لأن رأسه عند منكب رسول الله ﷺ، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه. ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق رضي الله عنه.

ثم يأتي الروضة، فيصلي فيها ركعتين، ويكثر من الدعاء ما استطاع لقوله ﷺ: «ما بين قبري ومنبري روضه من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»[1].

ويستحب له أن يأتي أُحُداً، ويزور قبور الشهداء، ويستحب أن يخرج إلى

---

(١) متفق عليه بلفظ «ما بين بيتي ومنبري» (خ ١١٩٦، م ١٣٩٠).

البقيع بعد السلام على رسول الله ﷺ ويزور قبر عثمان رضي الله عنه . .

ويستحب لـه أن يأتي مسجـد قباء ويصلي فيـه، لمـا روي أن رسـول الله ﷺ قال: «من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلي فيه كان لـه عدل عمـرة»[1]، وكذا يأتي سائر المساجد والمشاهد.

ثم إذا فرغ من أشغاله، وعزم على الخروج من المدينة، فالمستحب أن يأتي القبر الشريف، ويعيد دعاء الزيارة، ويـودع رسول الله ﷺ، ويسـأل الله عزَّ وجـلّ أن يرزقه العودة إليه، ويسأل السلامـة في سفره، ثم يصلي ركعتين في الـروضة. فـإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولاً، ثم اليمنى.

فصل: في سنن الرجوع من السفر:

كان رسول الله ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون سـاجدون لـربنا حـامدون، صدق الله وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده[2].

ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه، كي لا يقدم عليهم بغتـة، ولا ينبغي أن يـطرق أهله ليلاً، فـإذا دخل البلد فليقصـد المسجد أولاً، وليصـل ركعتين فهـو السنة.

فإذا استقر في منـزله، فـلا ينبغي أن ينسى ما أنعم الله بـه عليه من زيـارة بيته وحـرمه وقبـر نبيه ﷺ فيكفـر تلك النعمة بـأن يعود إلى الغفلة واللهـو والخـوض في المعاصي، فما ذلك علامة الحج المبـرور، بل عـلامته أن يعـود زاهداً في الـدنيا، راغباً في الآخرة، متأهباً للقاء رب البيت بعد لقاء البيت.

***

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بإسناد صحيح (ع).

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر.

الباب الثالث

الآداب والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب:

(الأول): أن تكون النفقة حلالاً، وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم، حتى يكون الهم مجرداً لله تعالى، والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره.

(الثاني): التوسع في الزاد، وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف، بل على الاقتصاد. وأعني بالإسراف: التنعم بأطيب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترفين، فأما كثرة البذل فلا سرف فيه، وبذل الزاد في طريق الحج نفقة في سبيل الله عزَّ وجلّ، والدرهم بسبعمائة درهم.

(الثالث): ترك الرفث والفسوق والجدال، كما نطق به القرآن. والرفث اسم جامع لكل لغو وخنى وفحش من الكلام، ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن، والتحدث بشأن الجماع ومقدماته، فإن ذلك محظور.

والفسق: اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله تعالى.

والجدال: هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويناقض حسن الخلق.

فينبغي أن يلزم حسن الخلق، وليس حسن الخلق كف الأذى، بل احتمال الأذى، وقيل: سمي السفر سفراً، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

(الرابع): استحباب المشي في المناسك، والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى، وقال بعض العلماء: الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق، ولأنه أبعد عن ضجر

النفس، وأقرب إلى سلامته وتمام حجه.

(الخامس): اجتناب زي المترفين المتكبرين. كان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من الزي والمحامل يقول: الحاج قليل والركب كثير، ثم نظر إلى رجل مسكين فقال: هذا، نعم من الحجاج.

(السادس): أن يتقرب بإراقة دم، وإن لم يكن واجباً عليه، ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه. وليأكل منه. وليس المقصود اللحم، إنما المقصود تزكية النفس، وتطهيرها عن صفة البخل، وتزيينها بجمال التعظيم لله عزَّ وجلّ، قال تعالى:

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[1].

(السابع): أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة، وبما أصابه من خسران في مال أو بدن إن أصابه ذلك. فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب، فلا يضيع منه شيء عند الله عزَّ وجلّ.

بيان الأعمال الباطنة:

اعلم أن أول الحج الفهم، أعني: فهم موقع الحج من الدين، ثم الشوق إليه، ثم العزم عليه، ثم قطع العلائق المانعة منه.. وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر.

أما الفهم: اعلم أنه لا وصول له إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات، والكف عن اللذات، والاقتصار على الضروريات فيها، والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات.

وقد أنعم الله عزَّ وجلّ على هذه الأمة بأن شرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه ليقصده الزوار من

---

(١) سورة الحج: الآية (٣٧).

كل فج عميق متواضعين لرب البيت، مستكينين لعزته، مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت، أو يكتنفه بلد، ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم.

ولذلك وظف عليهم أعمالاً لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقول، كرمي الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة. وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية.

فإن الزكاة إرفاق، ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل، والصوم كسر للشهوة وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل.. فأما ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال، فلا حظّ للنفوس ولا أنس فيها، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون في الإقدام عليها باعث، إلا الأمر المجرد، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط، وفيه عزل للعقل عن تصرفه، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه. فإن كل ما أدرك العقل معناه؛ مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر، وباعثاً معه على الفعل، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد، ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: «لبيك بحجة حقاً، تعبداً ورقاً»(١)، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها.

وأما الشوق: فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عزَّ وجلّ، فقاصده قاصد إلى الله عزَّ وجلّ.

وأما العزم: فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقه الأهل والوطن، ومهاجرة الشهوات واللذات، متوجهاً إلى زيارة بيت الله عزَّ وجلّ. وليعظم في نفسه قدر البيت، وقدر رب البيت، وليجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة.

---

(١) أخرجه البزار والدارقطني في العلل من حديث أنس (ع) ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديثه أيضاً (ش) أقول: قال الأعظمي في تعليقه على المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: إسناده جيد. قال البوصيري: رواته ثقات.

وأما قطع العلائق: فمعناه رد المظالم، والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، فكل مظلمة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر، ينادي عليه ويقول: إلى أين تتوجه؟ أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره في منزلك ومستهين به ومهمل له؟ أو لا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك؟ فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فنفذ أوامره ورد المظالم، وتب إليه أولاً من جميع المعاصي، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجهاً إليه بوجه قلبك، كما أنت متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك.

وليكتب وصيته لأولاده وأهله، فإن المسافر على خطر إلا من وقى الله سبحانه، وليتذكر عند قطع العلائق لسفر الحج، قطع العلائق لسفر الآخرة، فإن ذلك بين يديه على القرب.

وأما الزاد: فليطلبه من موضع حلال، وليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر، وأن زاده التقوى، وأن ما عداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه.

وأما الراحلة: فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عزَّ وجلّ له الدواب لتحمل عنه، وتخفف عنه المشقة، وليتذكر المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة.

وأما الخروج من البلد: فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن، متوجهاً إلى الله عزَّ وجلّ، في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا فليحضر في قلبه: ماذا يريد، وأين يتوجه، وزيارة من يقصد؟ وليحضر في قلبه رجاء الوصول ثقة بفضل الله عزَّ وجلّ.

وأما الإحرام، والتلبية من الميقات: فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عزَّ وجلّ، فارج أن تكون مقبولاً، واخش أن يقال لك: لا لبيك ولا سعديك. فكن بين الرجاء والخوف متردداً، وعن حولك وقوتك متبرئاً، وعلى فضل الله وكرمه متكلاً.

وأما دخول مكة: فليتذكر عنده أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً، وليرج أن يأمن بدخوله من عقاب الله تعالى. وليكن رجاؤه في جميع الأوقات، فالكرم عميم، والرب رحيم، وشرف البيت عظيم، وحق الزائر مرعي، وذمام المستجير اللائذ غير مضيع.

وأما وقوع البصر على البيت: فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب، واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه المرتبة، وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه.

وأما الطواف بالبيت: فاعلم أنه صلاة، فأحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في الصلاة. واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين، الحافّين حول العرش والطائفين حوله. ولا تظن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت.

وأما السعي: فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائياً وذاهباً، مرة بعد أخرى، إظهاراً للخلوص في الخدمة، ورجاءً للملاحظة بعين الرحمة.

وأما الوقوف بعرفة: فاذكر ــ بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر، اقتفاء لهم، وسيراً بسيرهم ــ عرصات القيامة، واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل أمة نبيها، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عزَّ وجلّ، فتحشر في زمرة الفائزين المرحومين، وحقق رجاءك بالإجابة فالموقف شريف، والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق.

وأما رمي الجمار: فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية، وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه. واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة. وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان، وتقصم به ظهره، إذ لايحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى.

وأما زيارة المدينة: فإذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عزَّ وجلّ لنبيه ﷺ، وجعل إليها هجرته، وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه وسنته، وجاهد عدوه، وأظهر بها دينه، إلى أن توفاه الله تعالى. ثم جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضي الله عنهما.

ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله ﷺ، وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا

وهو موضع أقدامه العزيزة، فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل، وتذكر مشيه وتخطيه في سككها، وتصور خشوعه وسكينته في المشي..

فإذا بلغت المسجد، فاذكر أنها العرصة التي اختارها الله سبحانه لنبيه ﷺ، ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة، وأن فرائض الله أول ما أقيمت في تلك العرصة، وأنها جمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً، فليعظم أملك في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه، فادخله خاشعاً معظماً، وما أجدر هذا المكان بأن يستدعي الخشوع في قلب كل مؤمن.

وأما زيارة رسول الله ﷺ: فينبغي أن تقف بين يديه، ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حياً، وكما كنت ترى الحرمة[1] في أن لا تمسَّ شخصه ولا تقبله، بل تقف من بعد، ماثلاً بين يديه، فكذلك فافعل، فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود.

ثم ائت منبر الرسول ﷺ، وتوهم صعود النبي ﷺ المنبر، ومثل في قلبك طلعته البهية، كأنها على المنبر، وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، وهو ﷺ يحثهم على طاعة الله عزَّ وجلّ بخطبته. وسل الله عزَّ وجلّ أن لا يفرق في القيامة بينك وبينه.

*
**

---

(١) أي الاحترام.

الكِتَابُ ٱلثَّامِنُ

آدابُ تِلاوةِ ٱلقُرآنِ

رُبعُ العِبادات

[تمهيد]:

الحمد لله الذي امتنَّ على عباده بنبيه المرسل ﷺ، وكتابه المنزل، الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.

[سورة فصلت: الآية (٤٢)].

حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار، واتضح به سلوك المنهج القويم، والصراط المستقيم، بما فصَّل فيه من الأحكام، وفرَّق بين الحلال والحرام. فهو الضياء والنور، وبه النجاة من الغرور، وفيه شفاء لما في الصدور.

هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والعروة الوثقى، لا تنقضي عجائبه، ولا تتناهى غرائبه، فكل من آمن به فقد وفِّق، ومن قال به فقد صدق، ومن تمسك به فقد هدي، ومن عمل به فقد فاز.

قال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾. [سورة الحجر، الآية (٩)].

ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف استدامة تلاوته، والمواظبة على دراسته، مع القيام بآدابه وشروطه، والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة.

وتفصيل ذلك في أربعة أبواب:

الباب الأول: في فضل القرآن وأهله.

الباب الثاني: في آداب التلاوة في الظاهر.

الباب الثالث: في الأعمال الباطنة عند التلاوة.

الباب الرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي وغيره.

***

الباب الأول

فضل القرآن
وذم المقصرين في تلاوته

فضيلة القرآن:

قال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1].

وقال ﷺ: «أهل القرآن، أهل الله وخاصته»[2].

قال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: (اقرؤوا القرآن، ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة، فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن).

وقال ابن مسعود: (اقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حرف منه عشر حسنات، أما إني لا أقول: الحرف الم، ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف)[3].

وقال الفضيل بن عياض: (حامل القرآن، حامل راية الإسلام، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن).

وقال الحسن: (والله ما دون القرآن من غنى، ولا بعده من فاقة).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠٢٧).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم من حديث أنس بإسناد حسن (ع). وكذا أخرجه الإمام أحمد (ش).

(٣) عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»، رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ذم تلاوة الغافلين:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (ربَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه).

وقال أبو سليمان الداراني[1]: (الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عزَّ وجلّ منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن).

وقال ابن مسعود: (ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون).

وقال بعض العلماء: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، يقول: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝١٨﴾[2].

وهو ظالم نفسه.

ألا لعنة الله على الكاذبين[3]، وهو منهم.

وقال الحسن: (إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم: رأوه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار).

وقال ابن مسعود: (أنزل القرآن عليهم ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به).

***

(١) أبو سليمان الداراني: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، الإمام الزاهد، منسوب إلى داريا، قرية بغوطة دمشق، سكن دمشق، مات سنة (٢١٥)هـ.

(٢) سورة هود: الآية (١٨).

(٣) ليس في القرآن: ألا لعنة الله على الكاذبين، وجاء ذكر اللعنة على الكاذبين في قوله تعالى: ﴿ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾، سورة آل عمران: الآية (٦١)، وقوله تعالى: ﴿والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾، سورة النور: الآية (٧).

الباب الثاني

في ظاهر آداب التلاوة

(الأول): في حال القارئ: وهو أن يكون على وضوء، واقعاً على هيئة الأدب والسكون، إما قائماً، وإما جالساً، مستقبل القبلة، مطرقاً رأسه، غير متربع ولا متكىء، ولا جالس على هيئة التكبر. وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائماً، وأن يكون في المسجد، فذلك من أفضل الأعمال.

فإن قرأ على غير وضوء، وكان مضطجعاً في الفراش فله أيضاً فضل، ولكنه دون ذلك. قال الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

فأثنى على الكل، ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود، ثم الذكر مضطجعاً.

(الثاني): في مقدار القراءة: وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار، وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه»[2]، وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل، وأمر النبي ﷺ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يختم القرآن في كل سبع[3]، وكذلك كان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يختمون القرآن في كل جمعة،

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٩١).

(٢) أخرجه أصحاب السنن، وصححه الترمذي (ع).

(٣) متفق عليه من حديثه (ع).

كعثمان، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبـي بن كعب رضي الله عنهم.

(**الثالث**): **الترتيل**، هو المستحب في هيئة القرآن، لأن المقصود من القراءة التفكر والترتيل معينٌ عليه، ولذلك نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله ﷺ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: لأن أقرأ البقرة وآل عمران، وأرتلهما وأتدبرهما أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن هذرمة(٢).

وسئل مجاهد: عن رجلين دخلا في الصلاة، فكان قيامهما واحداً، إلاَّ أن أحدهما قرأ البقرة فقط، والآخر القرآن كله؟ فقال: هما في الأجر سواء.

واعلم أن الترتيل مستحب، لا لمجرد التدبر والتؤدة، بل لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيراً في القلب من الاستعجال.

(**الرابع**): **البكاء**، البكاء مستحب مع القراءة، وإنما طريق البكاء أن يحضر قلبه الحزن، فمن الحزن ينشأ البكاء، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزن وبكاء، فليبكِ على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب.

(**الخامس**): **أن يراعي حق الآيات**، فإذا مرَّ بآية سجدة سجد، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالي، ولا يسجد إلاَّ إذا كان على طهارة، وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض، وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها. ويشترط في هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة والطهارة.

(**السادس**): **أن يقول في مبتدأ قراءته**: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح (ع).

(٢) الهذرمة: السرعة في الكلام.

الرجيم، وفي أثناء القراءة إذا مرَّ بآية تسبيح سبَّح وكبَّر، وإذا مرَّ بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر، وإذا مرَّ بمرجو سأل، وإن مرَّ بمخوف استعاذ، ويفعل ذلك بلسانه أو بقلبه، فيقول: سبحان الله، نعوذ بالله، اللَّهم ارزقنا، اللَّهم ارحمنا.

قال حذيفة رضي الله عنه: صليت مع رسول الله ﷺ، فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمر بآية رحمة إلاَّ سأل، ولا بآية عذاب إلاَّ استعاذ، ولا بآية تنزيه إلاَّ سبَّح(١).

(السابع): **في الجهر بالقراءة**، ولا شك في أنه لا بد أن يجهر به إلى حد يسمع نفسه، فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته.

فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر.

فقد سمع سعيد بن المسيب(٢) ذات ليلة في مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته ــ وكان حسن الصوت ــ فقال لغلامه: اذهب إلى هذا المصلي، فمره أن يخفض صوته، فقال الغلام: إن المسجد ليس لنا، وللرجل فيه نصيب، فرفع سعيد صوته وقال: يا أيها المصلي، إن كنت تريد الله عزَّ وجلَّ بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً. فسكت عمر بن عبد العزيز، وخفف ركعته، فلما سلم أخذ نعليه وانصرف، وهو يومئذٍ أمير المدينة.

ويدل على استحباب الجهر ما روي أن النبي ﷺ سمع جماعة من أصحابه يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك(٣).

---

(١) أخرجه مسلم مع اختلاف في اللفظ (ع).

(٢) سعيد بن المسيب، المخزومي القرشي، أحد الأعلام، وسيد التابعين، ثقة حجة، رفيع الذكر. قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، توفي سنة (٩٤)هـ، وناهز الثمانين.

(٣) ورد ذلك في الصحيحين من حديث عائشة: أن رجلاً قام من الليل يقرأ، فرفع صوته بالقرآن، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله فلاناً..» الحديث. وكذلك حديث استماعه ﷺ لأبي موسى.

والجمع بين الأمرين: أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه، فإن لم يخف، ولم يكن في الجهر ما يشوش على مصلٍّ آخر، فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر، ولأنه يوقظ قلب القارىء، ويجمع همه إلى الفكر فيه، ويصرف إليه سمعه.

(الثامن): تحسين القراءة وترتيلها، بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغيِّر النظم فذلك سنَّة، قال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»(١)، وقال ﷺ: «ما أذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن»(٢)، وقال ﷺ: «ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن»(٣).

واستمع ﷺ إلى قراءة أبي موسى فقال: «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود»(٤)، فبلغ ذلك أبا موسى، فقال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً.

وقد كان عمر يقول لأبي موسى ـ رضي الله عنهما ـ: ذكرنا ربنا، فيقرأ عنده.

***

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء (ع).

(٢) متفق عليه (خ ٥٠٢٣، م ٧٩٢) بلفظ: «.. ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن».

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة برقم (٧٥٢٧).

(٤) متفق عليه (خ ٥٠٤٨، م ٧٩٣).

الباب الثالث

أعمال الباطن في التلاوة

وهي عشرة: فهم أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التخصيص، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبري.

(الأول): فهم عظمة الكلام وعلوّه، وفضل الله سبحانه وتعالى، ولطفه بخلقه، في إيصال معاني كلامه إلى أفهام خلقه.

(الثاني): التعظيم للمتكلم، فالقارىء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، وأن في تلاوة كلام الله عزَّ وجلّ غاية الخطر، فإنه تعالى قال:

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾[١].

وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلاَّ إذا كان متطهراً، فباطن معناه أيضاً بحكم عزّه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس، ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير، وكما لا يصلح للمس جلد المصحف كل يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب.

فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم، ولن تحضر عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله.

(الثالث): حضور القلب، وترك حديث النفس. قيل في تفسير:

---

(١) سورة الواقعة: الآية (٧٩).

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾[1].

أي: بجد واجتهاد، وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته، منصرف الهمة عن غيره. وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهذه صفة تتولد عما قبلها من التعظيم.

(الرابع): التدبر: وهو وراء حضور القلب، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن، ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره، والمقصود من القراءة التدبر. ولذلك سنَّ فيه الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن. قال علي رضي الله عنه: (لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها)، وإذا لم يتمكن من التدبر إلَّا بترديد فليردد إلَّا أن يكون خلف إمام.

وعن أبي ذر قال: «قام رسول الله ﷺ بنا ليلة، فقام بآية يرددها وهي:

﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[2]»[3].

(الخامس): التفهم، وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عزَّ وجلّ، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين لهم، وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

أما صفات الله عزَّ وجلّ، فكقوله تعالى:

﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[4].

وكقوله تعالى:

﴿ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ ﴾[5].

---

(١) سورة مريم: الآية (١٢).

(٢) سورة المائدة: الآية (١١٨).

(٣) أخرجه النسائي وابن ماجه بسند صحيح.

(٤) سورة الشورى: الآية (١١).

(٥) سورة الحشر: الآية (٢٣).

فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها، فتحتها معانٍ لا تنكشف إلَّا للموفقين، وإليه أشار علي رضي الله عنه بقوله: (ما أسرَّ إليَّ رسول الله ﷺ شيئاً كتمه عن الناس إلَّا أن يؤتي الله عزَّ وجلّ عبداً فهماً في كتابه)[1]. فليكن حريصاً على طلب ذلك الفهم.

وأما أفعاله تعالى، فكذكره خلق السماوات والأرض وغيرها، فليفهم التالي منها صفات الله عزَّ وجلّ، وجلاله، إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته، فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل.

لهذا ينبغي إذا قرأ قوله تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾[2].

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[3].

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[4].

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[5].

أن لا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمني، بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها، وما ظهر فيها من السمع والبصر والعقل.. ثم ما يظهر فيها من الغضب والشهوة والكبر والمجادلة، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه النسائي، وهو عند البخاري برقم (٣٠٤٧) عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلَّا ما في كتاب الله؟ قال: (لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه، إلَّا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن..).

(٢) سورة الواقعة: الآية (٦٣).

(٣) سورة الواقعة: الآية (٥٨).

(٤) سورة الواقعة: الآية (٦٨).

(٥) سورة الواقعة: الآية (٧١).

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

فليتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب، فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع.

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام فإذا سمع منها كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم، فليفهم منه صفة الاستغناء لله عزَّ وجلّ عن الرسل والمرسل إليهم، وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عزَّ وجلّ وإرادته لنصرة الحق.

وأما أحوال المكذبين، كعاد وثمود وما جرى عليهم، فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه.

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار.. وسائر ما في القرآن.

فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه، لأن ذلك لا نهاية له، وإنما لكل عبد بقدر رزقه.

فالغرض مما ذكرناه: التنبيه على طريق التفهيم، لينفتح بابه، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه، ومن لم يكن له فهم ما، في القرآن، ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[2].

والطابع هي الموانع التي سنذكرها في موانع الفهم.

(السادس): التخلي عن موانع الفهم، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن، وحجب الفهم أربعة:

---

(١) سورة يسٓ: الآية (٧٧).

(٢) سورة محمد: الآية (١٦).

أولها: أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فلا تنكشف له المعاني.

ثانيها: أن يكون مقلداً لمذهب، وجمد عليه، وثبت في نفسه التعصب له، من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة، فهذا شخص لا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق على بعد، وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه، حمل عليه شيطان التقليد.. فيتباعد منه.

ثالثها: أن يكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر.. فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة يمنع جلية الحق.. وكلما كانت الشهوات أشد تراكماً، كانت معاني الكلام أشد احتجاباً.

وقد شرط الله عزَّ وجلَّ «الإنابة» في الفهم فقال:

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾[1].

فالذي آثر غرور الدنيا لا تنكشف له أسرار الكتاب.

رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وسنبين معنى التفسير بالرأي في الباب الرابع، وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلف الناس فيه.

(السابع): **التخصيص**، وهو أن يقدر: أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قدَّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به.

قال محمد بن كعب القرظي[2]: (من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله)، وإذا قدر

---

(١) سورة ق: الآية (٨).

(٢) محمد بن كعب القرظي، تابعي مشهور، كان من أعلم الناس بكتاب الله تعالى، ولد عام (٤٠)هـ، وتوفي عام (١٠٨)هـ.

ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه.

وقال قتادة: لم يجالس أحد هذا القرآن، إلا قام بزيادة أو نقصان، قال تعالى:

﴿ هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[1].

(الثامن): التأثر: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة، بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره. ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فإن التضييق غالب على آيات القرآن، فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها، كقوله عزَّ وجلّ:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾.

ثم أتبع ذلك بأربعة شروط:

﴿ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[3]...

وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره، ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن.

قال الحسن: والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن، يؤمن به، إلا كثر حزنه

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٢)، وأولها: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء..﴾.

(٢) سورة طه: الآية (٨٢).

(٣) سورة العصر.

وقل فرحه، وكثر بكاؤه وقل ضحكه، وكثر نصبه وشغله وقلّت راحته وبطالته.

فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة.. فعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها.

فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكياً في كلامه، فإذا قال:

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[1].

ولم يكن خائفاً كان حاكياً، وإذا قال:

﴿ عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[2].

ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً.. فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات، كان حظه من التلاوة حركة اللسان.

قال بعض القراء: قرأت القرآن على شيخ لي، ثم رجعت لأقرأ ثانياً، فانتهرني وقال: جعلت القرآن علي عملاً، اذهب فاقرأ على الله عزَّ وجلّ، فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك.

وتلاوة القرآن حق تلاوته: هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ.

(التاسع): الترقي: وأعني به: أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عزَّ وجلّ لا من نفسه، فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عزَّ وجلّ واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه. فيكون حاله عند هذا التقدير: السؤال والتضرع والابتهال.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عزَّ وجلّ يراه ويخاطبه، فمقامه: الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

---

(١) سورة يونس: الآية (١٥).

(٢) سورة الممتحنة: الآية (٤).

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، فلا ينظر إلى نفسه، بل يكون مقصور الهم على المتكلم، وهذه درجة المقربين.

وعن الدرجة العليا قال جعفر بن محمد الصادق(١): والله لقد تجلى الله عزَّ وجلّ لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون.

(العاشر): **التبري**، وأعني به: أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية، فإذا تلا آيات المدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الصديقين فيها، ويتشوَّف إلى أن يلحقه الله عزَّ وجلّ بهم، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة، شهد على نفسه هناك وقدَّر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً.

فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه، ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا صار محجوباً بنفسه.

***

---

(١) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. لقِّب بالصادق لأنه لم يجرب عليه كذب قط، من أجلاء التابعين وأفصحهم وأكثرهم صدعاً بالحق، توفي بالمدينة عام (١٤٨)هـ.

الباب الرابع

في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل

لعلك تقول: عظمت الأمر فيما سبق، في فهم أسرار القرآن، وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه. فكيف يستحب ذلك وقد قال ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[1]؟

وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المفسرين المنسوبين إلى أهل التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين، وذهبوا إلى أنه كفر:

فإن صح ما قاله أهل التفسير، فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره.

وإن لم يصح ذلك، فما معنى قوله ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»؟

فاعلم: أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير، فهو مخبر عن حدِّ نفسه، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطىء في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده..

بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم، قال علي رضي الله عنه: (إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن)[2] فإن لم يكن سوى

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه، وهو عند أبي داود، وعند النسائي في الكبرى (ع).

(٢) أخرجه البخاري بلفظ قريب برقم (٣٠٤٧).

الترجمة المنقولة، فما ذلك الفهم؟

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن» وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

وقال علي كرَّم الله وجهه: (من فهم القرآن فسَّر به جُمَلَ العلم) أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1].

يعني الفهم في القرآن.

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[2].

سمى ما آتاهما علماً وحكماً، وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له، باسم: الفهم، وجعله مقدماً على الحكم والعلم.

فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه.

* * *

فأما قوله ﷺ: «من فسر القرآن برأيه..»، وقول أبي بكر رضي الله عنه: (أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي) إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي:

فلا يخلو: إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع، وترك الاستنباط، والاستقلال بالفهم، أو المراد به أمراً آخر.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٩).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٧٩).

وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه لوجوه:

(أحدها): أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله ﷺ، وذلك مما لا يصادف إلا في بعض القرآن.

فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل ويقال: هو تفسير بالرأي، لأنهم لم يسمعوه من رسول الله ﷺ، وكذا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

(الثاني): أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات، فقالوا فيها أقاويل مختلفة، لا يمكن الجمع بينها، وسماع جميعها من رسول الله ﷺ محال، ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقي، فتبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه.

(الثالث): أنه ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنه وقال: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)[1]، فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ومحفوظاً مثله، فما معنى تخصيصه بذلك؟

(الرابع): أنه قال عزَّ وجلّ:

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[2].

فأثبت لأهل العلم استنباطاً، ومعلوم أنه وراء السماع.

وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال، فبطل أن يشترط السماع في التأويل.

* * *

(١) رواه البخاري من حديث ابن عباس، دون قوله (وعلمه التأويل)، وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد (ع).

(٢) سورة النساء: الآية (٨٣).

وأما النهي: فإنه ينزل على أحد وجهين:

(أحدهما): أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه بتأويل القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج على تصحيح غرضه، ولولم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى. كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك، ولكن يلبِّس به على خصمه.

(الثاني): أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل، فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار، والتقديم والتأخير. فمن لم يحكم بظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية، كثر غلطه، ودخل في زمرة من يفسر بالرأي.

فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط.

وما لا بد فيه من السماع فنون كثيرة: منها الإيجاز والحذف والإضمار. كقوله تعالى:

﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ ﴾[1].

معناه: آية مبصرة، فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به: أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء.

وقوله تعالى:

﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ ﴾[2].

أي: حب العجل، فحذف الحب.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٥٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (٩٣).

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ ﴾[1].

أراد الشمس وما سبق لها ذكر.

ومنها المبهم: وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف: فـ «الأمة» تطلق على ثمانية أوجه:

ـ الأمة: الجماعة كقوله تعالى:

﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾[2].

ـ وأتباع الأنبياء كقولك: أمة محمد ﷺ.

ـ ورجل جامع للخير يقتدى به كقوله تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾[3].

ـ والأمة: الدين كقوله عزَّ وجلّ:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾[4].

ـ والأمة: الحين والزمان كقوله عزَّ وجلّ:

﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾[5].

ـ والأمة: القامة؛ يقال فلان حسن الأمة، أي القامة.

ـ وأمة: رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد، قال ﷺ: «يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده»[6].

---

(١) سورة ص: الآية (٣٢).

(٢) سورة القصص: الآية (٢٣).

(٣) سورة النحل: الآية (١٢٠).

(٤) سورة الزخرف: الآية (٢٢).

(٥) سورة هود: الآية (٨).

(٦) أخرجه النسائي في الكبرى بإسنادين جيدين (ع).

ـ ويقال: هذه أمة زيد، أي: أم زيد.

فهذا وأمثاله مما لا يغني فيه إلا النقل والسماع، فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس، لأنه أنزل بلغة العرب، فكان مشتملاً على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار.. ليكون ذلك مفحماً لهم، ومعجزاً في حقهم.

فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية، وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل في هذه الأمور فهو داخل فيمن فسَّر القرآن برأيه. مثل أن يفهم من «الأمة» المعنى الأشهر، فإذا سمعه في موضع مال برأيه إليه، وترك تتبع النقل في كثير معانيه، فهذا ما يمكن أن يكون منهياً عنه، دون التفهم لأسرار المعاني.

ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال، وهو أن الله عزَّ وجلَّ قال:

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾(1).

فظاهره تفسير واضح، وحقيقة معناه غامض، فإنه إثبات للرمي ونفي له، وهما متضادان في الظاهر، ما لم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه. ومن الوجه الذي لم يرم رماه الله عزَّ وجلَّ.

فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم، بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير، وظاهر التفسير لا يغني عنه. وهو ليس مناقضاً لظاهر التفسير بل هو استكمال له، ووصول إلى لبابه عن ظاهره، فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر والله أعلم.

***

(1) سورة الأنفال: الآية (17).

الكِتَابُ ٱلتَّاسِعُ

الأذكارُ والدَّعوات

ربع العبادات

ليس بعد تلاوة كتاب الله تعالى عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إليه، فلا بد من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل.. وذلك بذكر أبواب:

الباب الأول: في فضيلة الذكر وفائدته.
الباب الثاني: في فضيلة الدعاء وآدابه.
الباب الثالث: في أدعية مأثورة.

البَابُ الأوَّل

فَضِيلَةُ الذِّكر

فضيلـة الذكـر:

يدل على فضيلة الذكر على الجملة:

من الآيات: قوله سبحانه وتعالى:

﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٥٢).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٤١).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٩١).

وقال تعالى:

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾[1].

قال ابن عباس: أي بالليل والنهار، في البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية.

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[3].

قال ابن عباس: له وجهان: أحدهما، أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه، والآخر: أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه.

وأما الأخبار: فقد قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بي»[4].

وقال ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير من ملئه، وإذا تقرب مني شبراً؛ تقربت منه ذراعاً، وإذا تقرب مني ذراعاً، تقربت منه باعاً، وإذا مشى إليَّ، هرولت إليه»[5] يعني بالهرولة سرعة الإجابة.

---

(١) سورة النساء: الآية (١٠٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٠٥).

(٣) سورة العنكبوت: الآية (٤٥).

(٤) أخرجه البيهقي وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد (ع).

(٥) متفق عليه (خ ٧٤٠٥، م ٢٦٧٥).

وقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله عزَّ وجلّ في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ ومن جملتهم ـ: رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[1].

وقال ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الورق والذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عزَّ وجلّ دائماً»[2].

وأما الآثار: فقد قال الحسن: الذكر ذكران: ذكر الله عزَّ وجلّ بين نفسك وبين الله عزَّ وجلّ، ما أحسنه وأعظم أجره. وأفضل من ذلك: ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله عزَّ وجلّ.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها.

فضيلة مجالس الذكر:

قال ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً، يذكرون الله عزَّ وجلّ، إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده»[3].

وقال ﷺ: «إن لله عزَّ وجلّ ملائكة سياحين في الأرض، فضلاً عن كتاب الناس[4]، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عزَّ وجلّ تنادوا: هلموا إلى بغيتكم، فيجيئون فيحفون بهم إلى السماء، فيقول الله تبارك وتعالى: أي شيء، تركتم عبادي يصنعونه؟ فيقولون: تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويسبحونك، فيقول الله تبارك وتعالى: وهل رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول جلّ جلاله: كيف لو رأوني؟

---

(١) متفق عليه (خ ٦٦٠، م ١٠٣١).
(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده.
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩).
(٤) أي أنهم ملائكة زائدون على الحفظة.

فيقولون: لو رأوك لكانوا أشد تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً. فيقول لهم: من أي شيء يتعوذون؟ فيقولون: من النار، فيقول تعالى: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول الله عزَّ وجلّ: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد هرباً منها وأشد نفوراً. فيقول الله عزَّ وجلّ: وأي شيء يطلبون؟ فيقولون: الجنة، فيقول تعالى: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول تعالى: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً. فيقول جلّ جلاله: إني أشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقولون: كان فيهم فلان، لم يردهم، إنما جاء لحاجة، فيقول الله عزَّ وجلّ: هم القوم لا يشقى جليسهم»[1].

فضيلة التهليل:

قال ﷺ: «من قال: لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كل يوم مائة مرة، كانت له عِدْلَ عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان، يومه ذلك، حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك»[2].

وقال ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، عشر مرات، كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل»[3].

وقال ﷺ: «من تعارَّ[4] من الليل فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قال: اللهم اغفر

(١) متفق عليه (خ ٦٤٠٨، م ٢٦٨٩).
(٢) متفق عليه (خ ٣٢٩٣، م ٢٦٩١).
(٣) متفق عليه (خ ٦٤٠٤، م ٢٦٩٣) إلا أنه قال في البخاري «كمن أعتق رقبة..».
(٤) أي استيقظ (ش).

لي، غفر له، أو دعا، استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»[1].

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار:

قال ﷺ: «من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد ثلاثاً وثلاثين، وكبر ثلاثاً وثلاثين، وختم المائة بـ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»[2].

قال رفاعة الزرقي: كنا يوماً نصلي وراء رسول الله ﷺ. فلما رفع رأسه من الركوع وقال: سمع الله لمن حمده، قال رجل وراءه: ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف رسول الله ﷺ عن صلاته قال: «من المتكلم آنفاً؟» قال: أنا يا رسول الله فقال ﷺ: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً»[3].

وعن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»[4].

وقال ﷺ: «أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت»[5].

وقال ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله أكبر يملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٥٤)، وكذا أصحاب السنن والإمام أحمد وغيرهم كما في (ش).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٥٩٧).
(٣) متفق عليه (خ ٧٩٩، م ٦٠٠).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٥).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢١٣٧).

ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها، أو مشتر نفسه فمعتقها»[1].

وقال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[2].

وقال ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟ فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ فقال: يسبح الله مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف سيئة»[3].

وقال ﷺ: «يا عبد بن قيس ـ أو يا أبا موسى ـ أو لا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قال: بلى، قال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله»[4].

فإن قلت: فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان، وقلة التعب فيه، صار أفضل وأنفع من جملة العبادات، مع كثرة المشقات فيها؟

فاعلم: أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام، مع حضور القلب، فأما الذكر باللسان، والقلب لاهٍ، فهو قليل الجدوى. وفي الأخبار ما يدل عليه[5].

وحضور القلب في لحظة بالذكر، والذهول عن الله عزَّ وجلَّ مع الاشتغال بالدنيا أيضاً قليل الجدوى. بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام ـ أو في أكثر الأوقات ـ هو المقدم على العبادات، بل به تشرف سائر العبادات، وهو غاية ثمرة العبادات العملية.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣).
(٢) متفق عليه (خ ٦٤٠٦، م ٢٦٩٤).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٨).
(٤) متفق عليه (خ ٤٢٠٥، م ٢٧٠٤).
(٥) فمن ذلك: في حديث أبي هريرة: «واعلموا أن الله لا يقبل الدعاء من قلب لاه» رواه الترمذي وقال حسن، والحاكم وقال: حديث مستقيم الإسناد، والمراد بالدعاء الذكر (ش).

[الشهادة أعلى درجات الذكر]:

قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[1].

ولأجل شرف ذكر الله عزَّ وجلّ عظمت رتبة الشهادة، لأن المطلوب الخاتمة، ونعني بالخاتمة: وداع الدنيا، والقدوم على الله، والقلب مستغرق بالله عزَّ وجلّ، منقطع العلائق عن غيره.

فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقاً بالله عزَّ وجلّ فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال. فإنه قطع الطمع عن مهجته، وأهله، وماله، وولده، بل من الدنيا كلها، فإنه يريدها لحياته، وقد هوَّن على قلبه حياته في حبِّ الله عزَّ وجلّ وطلب مرضاته، فلا تجرد لله أعظم من ذلك.

ولذلك عظم أمر الشهادة، وورد فيه من الفضائل ما لا يحصى، فمن ذلك: أنه لما استشهد عبد الله بن عمرو الأنصاري، يوم أحد، قال رسول الله ﷺ لجابر: «ألا أبشرك يا جابر!!»، قال: بلى، بشرك الله بالخير، قال: «إن الله عزَّ وجلّ أحيا أباك فأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر، فقال تعالى: تَمَنَّ عليَّ يا عبدي ما شئت، أعطيكه. فقال: يا رب أن تردني إلى الدنيا حتى أقتل فيك وفي نبيك مرة أخرى، فقال عزَّ وجلّ: سبق القضاء مني بأنهم إليها لا يرجعون»[2].

فالقتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة، فإنه لو لم يقتل وبقي مدة، ربما عادت شهوات الدنيا إليه، وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عزَّ وجلّ. ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة، فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث جابر (ع).

الشهادة إذا لم يكن قصد الشهيد نيل مال، أو أن يقال: شجاع أو غير ذلك، كما ورد في الخبر[1]، بل حب الله عزَّ وجلّ، وإعلاء كلمته، فهذه الحالة هي التي عبر عنها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[2].

ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة.

وحالة الشهيد توافق معنى (لاإله إلا الله) فإنه لا مقصود له سوى الله عزَّ وجلّ، وكل مقصود معبود، وكل معبود إله، فهذا الشهيد قائل بلسان حاله (لا إله إلا الله) إذ لا مقصود له سواه[3].

***

(١) جاء ذلك في الحديث المتفق عليه: عن أبي موسى رضي الله عنه: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله، قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله».

(٢) سورة التوبة: الآية (١١١).

(٣) هذا الموضوع [الشهادة أعلى درجات الذكر] لم يفرده المصنف تحت هذا العنوان وإنما ورد ضمن الإجابة على السؤال الذي طرحه المصنف في آخر بحث (فضيلة التسبيح)، ولأنه يعالج فكرة واحدة خاصة وجدت من الضرورة إفراده بعنوان خاص به.

الباب الثاني

آداب الدعاء وفضله

فضيلة الدعاء:

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[3].

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٨٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٥).

(٣) سورة غافر: الآية (٦٠).

(٤) سورة الإسراء: الآية (١١٠).

وروى النعمان بن بشير، عن النبـي ﷺ أنه قال: «إن الدعاء هو العبـادة، ثم قرأ: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾»[1].

آداب الدعـاء:

وهي عشرة:

(الأول): أن يترصد لدعائه **الأوقات الشريفة**، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهـر، ويوم الجمعـة من الأسبوع، ووقت السحـر من سـاعـات الليـل. قـال تعالى:

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

وقـال ﷺ: «ينزل الله تعـالى كل ليلة إلى سمـاء الدنيـا حين يبقى ثلث الليل الأخيـر، فيقول عـزَّ وجلّ: من يـدعوني فـأستجيب له، من يسـألني فـأعـطيـه، من يستغفرني فأغفر له»[3].

(الثاني): أن يغتنم **الأحوال الشريفة**، قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عنـد زحف الصفوف في سبيـل الله تعالى، وعنـد نزول الغيث، وعنـد إقامة الصلوات المكتوبة، فاغتنموا الدعاء فيها.

وقال مجاهد: إن الصلاة جعلت في خيـر الساعـات، فعليكم بالـدعاء خلف الصلوات.

وبالحقيقة: يرجع شـرف الأوقات إلى شـرف الحالات أيضـاً، إذ وقت السحر وقت صفاء القلب، وإخلاصه وفراغـه من المشوشـات. وحالـة السجود أيضـاً أجدر بالإجابة، قال أبو هريرة: قال النبـي ﷺ: «أقـرب ما يكـون العبد من ربـه عزَّ وجـلّ

---

(١) أخـرجه أصحـاب السنن والحاكم وقـال: صحيح الإسنـاد، وقال التـرمذي: حسن صحيح (ع).

(٢) سورة الذاريات: الآية (١١٨).

(٣) متفق عليه (خ ١١٤٥، م ٧٥٨).

وهو ساجد فأكثروا من الدعاء»[1].

(الثالث): أن يدعو **مستقبل القبلة**، ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه. قال سلمان: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفراً[2]»[3]. ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه..

ولا يرفع بصره إلى السماء قال ﷺ: «لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم»[4].

(الرابع): **خفض الصوت**، بين المخافتة والجهر. قالت عائشة رضي الله عنها في قوله عزَّ وجلّ:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾[5].

أي: بدعائك[6].

وقد أثنى الله عزَّ وجلّ على نبيه زكريا حيث قال:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾[7].

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[8].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٨٢). وفي (ش) وأبو داود والنسائي.

(٢) أي: خالية، ولفظ الترمذي: خائبتين.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه، والحاكم وقال: إسناده صحيح على شرطهما (ع).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٤٢٩) لكنه قال: «عند الدعاء في الصلاة». وفي (ش) أخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والنسائي.

(٥) سورة الإسراء: الآية (١١٠).

(٦) متفق عليه (خ ٤٧٢٣، م ٤٤٧).

(٧) سورة مريم: الآية (٣).

(٨) سورة الأعراف: الآية (٥٥).

(الخامس): أن لا يتكلف السجع في الدعاء، فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع، والتكلف لا يناسبه. والأولى: أن لا يجاوز الدعوات المأثورة.

مر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له: أعلى الله تبالغ؟

واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام، وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة.

(السادس): **التضرع والخشوع**، والرغبة والرهبة قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1].

(السابع): **أن يجزم الدعاء**، ويوقن بالإجابة، ويصدق رجاءه فيه، قال رسول الله ﷺ: «لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له»[2]. وقال ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء»[3].

(الثامن): **أن يلح في الدعاء**، ويكرره ثلاثاً، قال ابن مسعود: (كان ﷺ إذا دعا، دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً)[4] وينبغي أن لا يستبطىء الإجابة، لقوله ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي، فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً. فإنك تدعو كريماً»[5].

(التاسع): أن يفتتح الدعاء بذكر الله عزَّ وجلّ، فلا يبدأ بالسؤال. قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ثم

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٩٠).

(٢) متفق عليه (خ ٦٣٣٨، م ٢٦٧٨ و ٢٦٧٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٩).

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٧٩٤).

(٥) متفق عليه (خ ٦٣٤٠، م ٢٧٣٥) إلى قوله «فلم يستجب لي» وفي (ش) ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

يسأله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبـي ﷺ، فإن الله عزَّ وجلّ يقبل الصـلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما.

(العـاشـر): وهـو **الأدب البـاطن**، وهـو الأصـل في الإجـابـة: التـوبـة، ورد المـظالم، والإقبال على الله عـزَّ وجلّ بكنـه الهمة، فـذلك هـو السبب القـريب في الإجابة.

ويـروى أن عمـر بن الخــطاب رضي الله عنـه استسقى بــالعبـاس رضي الله عنه[1]، فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد تـوجه بـي القـوم إليك، لمكـاني من نبيك ﷺ، وهذه أيدينـا إليك بـالذنـوب، ونواصينـا بالتـوبة، وأنت الـراعي، لا تهمل الضـالة، ولا تدع الكبير بدار مضيعة، فقـد ضرع الصغيـر، ورق الكبير، وارتفعت الأصـوات بالشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكـوا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

فضيلة الصلاة على النبـي ﷺ:

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[2].

وجاء ﷺ ذات يوم، والبشرى ترى في وجهه فقال: «إنه جاءني جبـريل عليـه السلام فقال: أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك صلاة واحدة إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً»[3].

وقال ﷺ: «من قال حين يسمع الأذان والإقامة: اللهم رب هذه الدعوة التـامة

---

(١) استسقاء عمر بالعباس أخرجه البخاري برقم (٣٧١٠).
(٢) سورة الأحزاب: الآية (٥٦).
(٣) أخرجه النسائي وابن حبان من حديث أبـي طلحة بإسناد جيد.

والصلاة القائمة، صلِّ على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، حلت له شفاعتي»[1].

فضيلـة الاستغفـار:

قال الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾[2].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: في كتاب الله عزَّ وجلّ آيتان، ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما واستغفر الله عزَّ وجلّ إلا غفر له:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾.

وقوله تعالى:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[3].

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾[4].

وقال تعالى:

---

(١) متفق عليه في أصله (خ ٦١٤، م ٣٨٤) ولفظ البخاري: (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة).
ولفظ مسلم: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلَّى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة..).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٣٥).

(٣) سورة النساء: الآية (١١٠).

(٤) سورة النصر: الآية (٣).

﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وقال ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[2] هذا مع أنه ﷺ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وقال ﷺ: «إنه ليُغانُ[3] على قلبي. وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[4].

وقال ﷺ: «إذا أذنب العبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي، فيقول الله عزَّ وجلّ: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يأخذ بالذنب، ويغفر الذنب. عبدي اعمل ما شئت فقد غفرت لك»[5].

وروي «إن أفضل الاستغفار: اللهم أنت ربي وأنا عبدك خلقتني، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء على نفسي بذنبي فقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[6].

قال قتادة رحمه الله: القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، أما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٧).

(٣) المراد: ما يتغشى القلب.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢).

(٥) متفق عليه (خ ٧٥٠٨، م ٢٧٥٨) وقد ورد فيهما مطولاً.

(٦) أصل الحديث في البخاري برقم (٦٣٢٣) وفي (ش) وأخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان وغيرهم قال: ولفظ الجماعة: قال ﷺ: «سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. إذا قال حين يمسي فمات دخل الجنة ـ أو كان من أهل الجنة ـ وإذا قال حين يصبح فمات من يومه مثله» أقول: وهو نص البخاري.

وقـال علي رضي الله عنه: العجب ممن يهلك ومعـه النجاة، قيـل: وما هي؟ قال: الاستغفار.

وقال الفضيل[1]: الاستغفار بلا إقلاع[2] توبة الكذابين.

وقالت رابعة العدوية[3]: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير[4].

***

---

(١) الفضيل بن عياض بن منصور التميمي، من العلماء العباد أدرك الإمام مـالك بن أنس، ولـد في سمرقند وانتهى به المطاف إلى مكة فأقام بها وتوفي عام (١٨٧)هـ قال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب: ثقة عابد إمام (ش).

(٢) أي إقلاع عن المعصية.

(٣) رابعـة العدويـة: صالحـة مشهورة من أهـل البصرة، اشتهـرت بـالعبـادة والمنـاجـاة تـوفيت بالقدس، واختلف في سنة وفاتها فقيل (١٣٥)هـ وقيل (١٨٥)هـ.

(٤) أي إن الاستغفار ما لم يصحبه توبـة وصدق في العـودة إلى الله تعالى، فهـو ذنب يحتاج أن يستغفر منه.

الباب الثالث

في أدعية مأثورة (١)

أدعية معزاة إلى أصحابها:

دعاء عائشة(٢) رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ لعائشة: «عليك بالجوامع الكوامل، قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه، وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله، عاجله وآجله، ما علمت وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل، وأسألك من الخير، ما سألك عبدك ورسولك محمد ﷺ، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ. وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين»(٣).

دعاء فاطمة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة، ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي: يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله»(٤).

* * *

---

(١) أورد المصنف ثلاثة أبواب في الأدعية المأثورة فجمعتها في باب واحد، وجعلتها فقرات فيه. وفصلت بين كل باب والذي يليه بفاصل واضح.

(٢) إنما نسب إليها لكون النبي ﷺ علمها إياه. وكذا دعاء فاطمة رضي الله عنها.

(٣) رواه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها (ع)، قلت: وكذلك رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد في المسند، وابن عساكر في التاريخ (ش).

(٤) قال العراقي: رواه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين. قلت: ورواه البيهقي في السنن وغيره (ش).

أدعية مأثورة عنه ﷺ :

● «اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه»(١).

● «اللهم اغفر لي ما قدَّمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، فإنك أنت المقدِّم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»(٢).

● «اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأسألك حبك، وحب من أحبك، وحب كل عمل يقرب إلى حبك، وأن تتوب علي، وتغفر لي، وترحمني، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»(٣).

● «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة»(٤).

● «اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي»(٥).



أنواع الاستعاذة المأثورة:

● «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»(٦).

---

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي وصححه، وابن حبان، والحاكم وصححه (ع).
(٢) متفق عليه (خ ٧٤٩٩، م ٧٧١).
(٣) أخرجه الترمذي من حديث معاذ وقال: حسن صحيح.
(٤) أخرجه النسائي في اليوم والليلة، والترمذي وقال: حسن، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري (ع).
(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (ع).
(٦) أخرجه البخاري برقم (٦٣٦٥).

● «اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»[1].

● «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحول عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن جميع سخطك»[2].

● «اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار، وفتنة النار، وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى، وشر فتنة الفقر، وشر فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من المغرم والمأثم»[3].

* * *

الأدعية المأثورة عند الحوادث:

إذا أصبحت وسمعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن.

فإذا خرجت إلى المسجد فقل: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل خلفي نوراً وأمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً، اللهم أعطني نوراً»[4].

فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله فقل: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم، اللهم اغفر لي جميع ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»[5].

فإذا رأيت من ينشد ضالة في المسجد فقل: «لا ردها الله عليك» أمر بذلك رسول الله ﷺ[6].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٣٤٧، م ٢٧٠٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٩).

(٣) متفق عليه من حديث عائشة (خ ٦٣٧٧، م ٥٨٩).

(٤) متفق عليه من حديث ابن عباس (خ ٦٣١٦، م ١٩١/٧٦٣).

(٥) رواه الترمذي وابن ماجه وليس بمتصل ولمسلم: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» وزاد أبو داود في أوله: «فليسلم على النبي ﷺ» (ع).

(٦) أخرجه مسلم برقم (٥٦٨).

فإذا ركعت فقل: «اللهم لك ركعت، ولك خشعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، وعليك توكلت، أنت ربي، خشع سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي، وما استقلت به قدمي لله رب العالمين»[(١)].

وإذا رفعت رأسك من الركوع فقل«سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد ــ وكلنا لك عبد ــ : لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لها منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[(٢)].

وإذا سجدت فقل: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»[(٣)].

فإذا فرغت من الصلاة فقل: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[(٤)].

فإذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس فقل: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[(٥)].

وإذا وجدت وجعاً في جسدك، فضع يدك على الذي يتألم من جسدك وقل: «بسم الله ــ ثلاثاً ــ وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[(٦)].

فإذا أصابك كرب فقل: لا إله إلا الله العلي الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات السبع ورب العرش الكريم»[(٧)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٧١) إلى قوله (وعصبي). وقال (ش) هذا السياق للطبراني.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٧٦، ٤٧٧).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٧٧١).
(٤) أخرجه مسلم من حديث ثوبان برقم (٥٩١).
(٥) أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وابن حبان والنسائي (ش).
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٢).
(٧) متفق عليه (خ ٦٣٤٦، م ٢٧٣٠).

فإذا أردت النوم فقل: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت»[1].

فإذا استيقظت من نومك عند الصباح فقل: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[2].

* * *

[الدعاء والقضاء]:

فإن قلت: فما فائدة الدعاء، والقضاء لا مرد له؟

فاعلم: أن من القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء، واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان.

وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال الله تعالى:

﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾[3].

وأن لا يسقي الأرض بعد بث البذر، فيقال: إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر، وإن لم يسبق لم ينبت؟! بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول، الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب. وترتيب المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر. والذي قدر الخير قدره بسبب، والذي قدر الشر قدر لدفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور، عند من انفتحت بصيرته.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٣١٥، م ٢٧١٠).
(٢) متفق عليه (خ ٦٣١٤، م ٢٧١١).
(٣) سورة النساء: الآية (٧١).

ثم في الدعاء من الفائدة ما ذكرناه في الذكر، فإنه يستدعي حضور القلب مع الله تعالى، وهو منتهى العبادات، والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عزَّ وجلّ إلا عند إلمام حاجة، وإرهاق ملمة، فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض . .

فالحاجة تحوج إلى الدعاء، والدعاء يرد القلب إلى الله عزَّ وجلّ بالتضرع والاستكانة، فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات.

***

الكِتَابُ ٱلعَاشِرُ

تَرتِيْبُ الأَوْرَادِ وَإِحْيَاءُ ٱللَّيْل

رُبْعُ العِبَادَات

[تمهيد]:

إن الله تعالى جعل الأرض ذلولاً لعباده، لا ليستقروا في مناكبها، بل ليتخذوها منزلاً، فيتزودوا منها زاداً يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم.

فالناس في هذا العالم سفر، وأول منازلهم المهد، وآخرها اللحد، والوطن هو الجنة أو النار، والعمر مسافة السفر، فسِنوه مراحله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته، وأوقاته رؤوس أمواله، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام، مع الملك الكبير، والنعيم المقيم. وخسرانه البعد من الله تعالى.

فالغافل في نفس من أنفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تقربه إلى الله زلفى، متعرض في يوم التغابن لحسرة ما لها منتهى. ولهذا الخطر العظيم، والخطب الهائل، شمر الموفقون عن ساق الجد، وودعوا بالكلية ملاذ النفس، واغتنموا بقايا العمر، ورتبوا بحسب تكرار الأوقات وظائف الأوراد، حرصاً على إحياء الليل والنهار، في طلب القرب من الملك الجبار، والسعي إلى دار القرار.

ويتضح هذا بذكر بابين:

الباب الأول: في فضيلة الأوراد وترتيبها في الليل والنهار.

الباب الثاني: في كيفية إحياء الليل وفضيلته وما يتعلق به.

***

البَابُ الأوَّل

فَضِيلَةُ الأَوْرَادِ وَتَرْتِيبُهَا وَأَحْكَامُهَا

فضيلة الأوراد:

اعلم أن الناظرين بنور البصيرة، علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى، بأن يموت العبد محباً لله تعالى وعارفاً به سبحانه، وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه، وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه، وفي صفاته وأفعاله.

والنفس لما جُبلت عليه من السآمة والملال، لا تصبر على فنّ واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر، فمن ضرورة اللطف بها؛ أن تروَّح بالتنقل من فن إلى فن. فلذلك تقسم الأوراد.

فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة، فإن لم تكن من أهله، فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله، واقتبسه بنور الإيمان، فقد قال تعالى لأقرب عباده إليه، وأرفعهم درجة لديه:

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾[2].

---

(١) سورة المزمل: الآية (٨).

(٢) سورة الإنسان: الآية (٢٥).

وقال تعالى:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ۝٤٠﴾[1].

ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده، وبماذا وصفهم، فقال تعالى:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[2].

وقال عزّ وجلّ:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[3].

فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى الله هو مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد[4] على سبيل الدوام.

أوراد النهار:

الورد الأول:

ما بين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس، وهو وقت شريف، ويدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال:

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾[5].

فأما ترتيبه: فإذا انتبه من النوم فينبغي أن يبتدىء بذكر الله تعالى فيقول: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور. فإذا فرغ من الصلاة مع الجماعة قعد في المسجد إلى طلوع الشمس في ذكر الله تعالى.

---

(١) سورة قٓ: الآية (٤٠).

(٢) سورة السجدة: الآية (١٦).

(٣) سورة الذاريات: الآية (١٨).

(٤) سيأتي بعد قليل قول المصنف: إن هذه الأوراد لمن لا شغل له غيرها أصلاً ولو ترك العبادة لجلس بطالاً.

(٥) سورة التكوير: الآية (١٨).

وينبغي أن تكـون وظيفته إلى الـطلوع أربعـة أنـواع: أدعيـة وأذكـار، وقـراءة قرآن، وتفكر.

الورد الثاني:

مـا بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهـار، وأعني بالضحـوة: منتصف مـا بين طلوع الشمس إلى الزوال. وفي هذا الربع من النهار وظيفتان:

إحداهما: صلاة الضحى.

الثانية: في هذا الوقت: الخيـرات المتعلقة بـالناس التي جـرت بها العـادات بكرة: من عيادة مريض، وتشييع جنـازة، ومعاونـة على بر وتقـوى، وحضور مجلس علم، وما يجري مجراه من قضاء حاجة لمسلم..

الورد الثالث:

من ضحوة النهار إلى الزوال، وفي هذا الوقت أمران:

أحدهما: الاشتغال بالكسب، وتدبير المعيشـة، وحضور السـوق.. ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله.

الثاني: القيلولة، وهي سنة يستعان بها على قيام الليل، كما أن التسحـر سنة يستعان بها على صيام النهار. وينبغي أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة.

الورد الرابع:

مـا بين الزوال إلى الفـراغ من صلاة الـظهر وراتبتـه، وهو أقصـر أوراد النهار وأفضلها، فإذا فرغ من جواب المؤذن فليقم إلى إحياء ما بين الأذان والإقـامة، فهـو وقت الإظهار الذي أراده الله تعالى بقوله:

﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

وليصل في هذا الوقت أربع ركعات، وليطول هـذه الركعـات، ثم ليصل بعـد الظهر ركعتين.

---

(١) سورة الروم: الآية (١٨).

الورد الخامس:

ما بعد ذلك إلى العصر، ويستحب فيه العكوف في المسجد مشتغلاً بالذكر والصلاة أو فنون الخير، ويكون في انتظار الصلاة معتكفاً فمن فضائل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة. فإن كان بيته أسلم لدينه وأجمع لهمه فالبيت أفضل في حقه.

الورد السادس:

إذا دخل وقت العصر. وهو الذي أقسم الله تعالى به فقال:

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾[1].

هذا أحد معنيي الآية وهو العشي المذكور في قوله:

﴿ وَعَشِيًّا ﴾[2].

وليس في هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة.

الورد السابع:

إذا اصفرت الشمس، بأن تقرب من الأرض، وهو مثل الورد الأول، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، لأنه قبل الغروب، كما أن ذلك قبل الطلوع، وهو المراد بقوله تعالى:

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ ﴾[3].

ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار، فإذا سمع الأذان قال: اللهم هذا إقبال ليلك، وإدبار نهارك وأصوات دعاتك.. ثم يجيب المؤذن ويشتغل بصلاة المغرب، وبالغروب قد انتهت أوراد النهار.

---

(١) سورة العصر: الآية (١).

(٢) سورة الروم: الآية (١٨).

(٣) سورة الروم: الآية (١٧).

أوراد الليل:

الورد الأول:

إذا غربت الشمس، صلى المغرب، واشتغل بإحياء ما بين العشاءين، فآخر هذا الورد عند غيبوبة الشفق. وقد أقسم الله تعالى به فقال:

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

والصلاة فيه هي ناشئة الليل، لأنه أول نشوء ساعاته، وهي صلاة الأوابين، وهي المراد بقوله تعالى:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾[2].

الورد الثاني:

يدخل بدخول العشاء الآخرة، إلى حد نومة الناس، وقد أقسم الله تعالى به إذ قال:

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾[3].

أي: وما جمع من ظلمته. وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور:

الأول: أن يصلي أربعاً قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين.

والثاني: أن يصلي ثلاث عشر ركعة آخرهن الوتر، فإنه أكثر ما روي أن النبي ﷺ صلى بها من الليل.

الثالث: الوتر، وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام. قال أبو هريرة: أوصاني رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر[5].

---

(١) سورة الانشقاق: الآية (١٦).

(٢) سورة السجدة: الآية (١٦).

(٣) سورة الانشقاق: الآية (١٧).

(٤) أخرجه البخاري برقم (١٩٨١).

الورد الثالث:

النوم. ولا بأس أن يعد ذلك في الأوراد فإنه إذا روعيت آدابه احتسب عبادة. وآداب النوم:

(الأول): الطهارة والسواك.

(الثاني): أن ينوي القيام للعبادة عند التيقظ.

(الثالث): أن لا يبيت إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه. فإنه لا يأمن القبض في النوم.

(الرابع): أن ينام تائباً من كل ذنب، سليم القلب لجميع المسلمين، لا يحدث نفسه بظلم أحد، ولا يعزم على معصية إن استيقظ.

(الخامس): أن لا يتنعم بتمهيد الفرش الناعمة، يل يترك ذلك أو يقتصد فيه.

(السادس): أن لا ينام ما لم يغلبه النوم، ولا يتكلف استجلابه، إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل.

(السابع): أن ينام مستقبل القبلة، وهو أن ينام على جنب، بأن يكون وجهه إليها، مع قبالة بدنه إذا نام على شقه الأيمن.

(الثامن): الدعاء عند النوم بالدعوات المأثورة. ويستحب أن يقرأ: آية الكرسي، وآخرة البقرة وغيرهما.

(التاسع): أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة، والتيقظ نوع بعث. قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾[1].

---

(١) سورة الزمر: الآية (٤٢).

وقال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾[1].

(العاشر): الدعاء عند التنبه.

الورد الرابع:

يدخل بمضي النصف الأول من الليل، إلى أن يبقى من الليل سدسه، وعند ذلك يقوم العبد للتهجد. فاسم التهجد يختص بما بعد الهجود والهجوع وهو النوم. قال ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة»[2].

الورد الخامس:

السدس الأخير من الليل. وهو وقت السحر، فإن الله تعالى قال:

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[3].

قيل يصلون، لما فيها من الاستغفار، وهو مقارب للفجر الذي هو وقت انصراف ملائكة الليل، وإقبال ملائكة النهار.

وقد أمر بهذا الورد سلمان أخاه أبا الدرداء ــ رضي الله عنهما ــ لما زاره، في حديث طويل قال في آخره: فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم، فقال له سلمان: نم، فنام، ثم ذهب ليقوم، فقال له: نم، فنام، فلما كان عند الصبح قال له سلمان: قم الآن، فقاما فصليا. . وذلك أن امرأة أبي الدرداء أخبرت سلمان أنه لا ينام الليل. قال: فأتيا النبي ﷺ فذكرا ذلك له، فقال: (صدق سلمان)[4].

وفيه يستحب السحور. فإذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ودخلت أوراد

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٦٠).

(٢) متفق عليه (خ ٩٩٠، م ٧٤٩).

(٣) سورة الذاريات: الآية (١٨).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي جحيفة (ع).

النهار. فيقوم ويصلي ركعتي الفجر، وهو المراد بقوله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾[1].

فهذا ترتيب الأوراد للعباد، وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك في كل يوم أربعة أمور: صوم، وصدقة وإن قلّت، وعيادة مريض، وشهود جنازة، ففي الخبر: «من جمع بين هذه الأربع في يوم دخل الجنة»[2].

اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال:

اعلم أن المريد لحرث الآخرة لا يخلو عن ستة أحوال: فإنه إما عابد، وإما عالم، وإما متعلم، وإما وال، وإما محترف، وإما موحد مستغرق بالواحد عن غيره.

(الأول): العابد: وهو المتجرد للعبادة، الذي لا شغل له غيرها أصلاً، ولو ترك العبادة لجلس بطالاً، فترتيب أوراده ما ذكرناه.

(الثاني): العالم: الذي ينفع الناس بعلمه، في فتوى أو تدريس أو تصنيف، فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد، فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب، وإلى التصنيف والإفادة، ويحتاج إلى مدة لها لا محالة، فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات ورواتبها.

ويدل على ذلك، جميع ما ذكرناه في فضيلة التعليم والتعلم ـ في كتاب العلم ـ، وكيف لا يكون كذلك، وفي العلم المواظبة على ذكر الله تعالى؟ وتأمل ما قال الله تعالى وما قال رسوله ﷺ، وفيه منفعة الخلق، وهدايتهم إلى طريق الآخرة، ورب مسألة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره..

(الثالث): المتعلم: والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل فحكمه حكم العالم.

بل إن كان من العوام فحضوره مجالس العلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التي

---

(١) سورة الطور: الآية (٤٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٢٨).

ذكرناها. قال عمر بن الخطاب: إن الرجل ليخرج من منزله، وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة، فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه، وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء.

وعلى الجملة: فما ينحلّ عن القلب من حب الدنيا بقول واعظ ــ حسن الكلام، زكي السيرة ــ أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتمال القلب على حبها.

(الرابع): المحترف: الذي يحتاج إلى الكسب لعياله، فليس له أن يضيع العيال، ويستغرق الأوقات في العبادات، بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب، ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى.

وإن داوم على الكسب، وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد التي ذكرناها، لأن العبادات المتعدية فائدتها أنفع من اللازمة، والكسب على هذه النية عبادة له في نفسه تقربه إلى الله تعالى، وتجذب إليه بركات دعوات المسلمين، ويتضاعف به الأجر.

(الخامس): الوالي، مثل الإمام والقاضي والمتولي في أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع، وقصد الإخلاص، أفضل من الأوراد المذكورة، فحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهاراً، ويقتصر على المكتوبة، ويقيم الأوراد المذكورة بالليل، كما كان عمر رضي الله عنه يفعله، إذ قال: ما لي وللنوم، فلو نمت بالنهار ضيعت المسلمين، ولو نمت بالليل ضيعت نفسي.

(السادس): الموحد، الذي أصبح وهمومه همّ واحد، فلا يحب إلا الله تعالى، ولا يخاف إلا منه، ولا يتوقع الرزق من غيره، فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة، لم يفتقر إلى تنويع الأوراد واختلافها، بل كان ورده بعد المكتوبات واحد، وهو حضور القلب مع الله تعالى في كل حال.

[الحكمة من الأوراد]:

والأصل في الأوراد في حق كل صنف من الناس المداومة، فإن المراد منه تغيير الصفات الباطنة، وآحاد الأعمال يقل آثارها، بل لا يحس بآثارها، وإنما يترتب الأثر على المجموع، فإذا لم يعقب العمل الواحد أثراً محسوساً، ولم يُردفه بثانٍ وثالث على القرب انمحى الأثر الأول. وكان كالفقيه: يريد أن يكون فقيه النفس، فإنه لا يصير كذلك إلا بتكرار كثير، فلو بالغ ليلة في التكرار، وترك شهراً أو أسبوعاً، ثم عاد وبالغ ليلة، لم يؤثر هذا فيه، ولو وزع ذلك القدر على الليالي المتواصلة لأثر فيه.

ولهذا السر قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»[1]. وسئلت عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ؟ فقالت: (كان عمله ديمة)[2]، (وكان إذا عمل عملاً أثبته)[3].

وهذا كان السبب في صلاته بعد العصر تداركاً لما فاته ﷺ من ركعتين شغله عنهما الوفد، ثم لم يزل بعد ذلك يصليهما بعد العصر ولكن في منزله، لا في المسجد كيلا يقتدى به. روته عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما[4].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٦٤، م ٧٨٢).

(٢) متفق عليه (خ ١٩٨٧، م ٧٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين برقم (١٤١) ورقمه العام (٧٤٦).

(٤) متفق عليه من حديث أم سلمة: (أنه صلى بعد العصر ركعتين، وقال: شغلني ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر) ولهما من حديث عائشة: (ما تركهما حتى لقي الله وكان النبي ﷺ يصليهما، ولا يصليهما في المسجد مخافة أن يثقل على أمته) (ع).

الباب الثاني

الأسباب الميسرة لقيام الليل

فضيلة قيام الليل:

من الآيات: قال تعالى:

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾[3].

ومن الأخبار: قال ﷺ: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على مكان كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[4].

وفي الخبر أنه ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح، قال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه»[5].

---

(١) سورة المزمل: الآية (٦).
(٢) سورة السجدة: الآية (١٦).
(٣) سورة الفرقان: الآية (٦٤).
(٤) متفق عليه (خ ١١٤٢، م ٧٧٦).
(٥) متفق عليه (خ ٣٢٧٠، م ٧٧٤).

وفي الصحيح عن جابر أن النبي ﷺ قال: «إن من الليل ساعة، لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه» وفي رواية «يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة»(١).

وقال ﷺ: «من استيقظ من الليل، وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»(٢).

وقال ﷺ: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل»(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «من نام عن حزبه، أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتِبَ له كأنما قرأه من الليل»(٤).

الآثار: روي أن عمر رضي الله عنه، كان يمر بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياماً، كما يعاد المريض.

وقال الحسن: ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل، ونفقة هذا المال.

وقال أيضاً: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل.

وكان صلة بن أشيم(٥) رحمه الله يصلي الليل كله، فإذا كان في السحر قال: إلهي، ليس مثلي يطلب الجنة، ولكن أجرني برحمتك من النار.

الأسباب الميسّرة لقيام الليل:

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق، إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهراً وباطناً.

---

(١) أخرجهما مسلم برقم (٧٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد، بسند صحيح (ع).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١١٦٣) بلفظ «.. صلاة الليل» و«الصلاة في جوف الليل».

(٤) أخرجه مسلم برقم (٧٤٧).

(٥) صلة بن أشيم، أبو الصهباء، العدوي، تابعي جليل، روى عن عدة من الصحابة منهم ابن عباس (ش).

فأما الظاهرة فأربعة أمور:

(الأول): أن لا يكثر الأكل، فيكثر الشرب، فيغلبه النوم، ويثقل عليه القيام.

(الثاني): أن لا يتعب نفسه بالنهار، في الأعمال التي تعيا بها الجوارح، وتضعف بها الأعصاب، فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم.

(الثالث): أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل.

(الرابع): أن لا يحتقب[1] الأوزار بالنهار، فإن ذلك مما يقسي القلب، ويحول بينه وبين أسباب الرحمة. فالذنوب كلها تورث قساوة القلب، وتمنع من قيام الليل، وأخصها بالتأثير تناول الحرام.

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور:

(الأول): سلامة القلب عن الحقد على المسلمين، وعن البدع، وعن فضول هموم الدنيا، فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام، وإن قام فلا يتفكر في صلاته، بل في مهماته.

(الثاني): خوف غالب، يلزم القلب، مع قصر الأمل، فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة، ودركات جهنم طار نومه، وعظم حذره. كما قال طاووس[2]: إن ذكر جهنم طيَّر نوم العابدين.

(الثالث): أن يعرف فضل قيام الليل، بسماع الآيات والأخبار والآثار، حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه.

(الرابع): وهو أشرف البواعث؛ الحب لله، وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناجٍ ربه.

---

(١) في القاموس، احتقبه: ادخره. والمقصود أن لا يجمع الأوزار.

(٢) طاووس بن كيسان اليماني، أدرك عصر الصحابة، ويعد أكبر أصحاب ابن عباس ترجمان القرآن، ولذا كان من أكابر التابعين تفقهاً في الدين، وروايةً للحديث، وكان متقشفاً في عيشه. أصله فارسي، ولد ونشأ باليمن، توفي حاجاً سنة (١٠٦)هـ.

[حلاوة المناجاة]:

إن لذة المناجاة تحمل على طول القيام، ولا ينبغي أن تستبعد هذه اللذة، إذ يشهد لها العقل والنقل.

فأما العقل: فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله، كيف يتلذذ به في الخلوة، وبمناجاته، حتى لا يأتيه النوم طول ليله.

فإن قلت: إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه، وإن الله تعالى لا يرى؟

فاعلم: أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر، أو كان في بيت مظلم، لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة، دون النظر، ودون الطمع في أمر آخر سواه. وكان يتنعم بإظهار حبه إليه، وذكره بلسانه بمسمع منه.

وأما النقل: فيشهد له أحوال قوام الليل، في تلذذهم بقيام الليل، واستقصارهم له، كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب.

قال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشمس فرحت بالظلام، لخلوتي بربي، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس علي.

وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

وقال بعضهم: لذة المناجاة ليست من الدنيا، إنما هي من الجنة، أظهرها الله تعالى لأوليائه، لا يجدها سواهم.

وقال ابن المنكدر[1]: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في الجماعة.

طرق القسمة لأجزاء الليل:

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب:

(١) محمد بن المنكدر القرشي، زاهد، أدرك بعض الصحابة، وروى عنهم، وهو من رجال الحديث. قال ابن عيينة: ابن المنكدر من معادن الصدق.

الأولى: إحياء كل الليل، وهذا شأن الأقوياء، الذين تجردوا للعبادة، وتلذذوا بمناجاته تعالى، وصار ذلك غذاء لهم، وحياة لقلوبهم، فلم يتعبوا بطول القيام، وردوا المنام إلى النهار، في وقت اشتغال الناس، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف، كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء.

الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف، وأحسن فيه: أن ينام الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه، حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه، فهو الأفضل.

الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير.

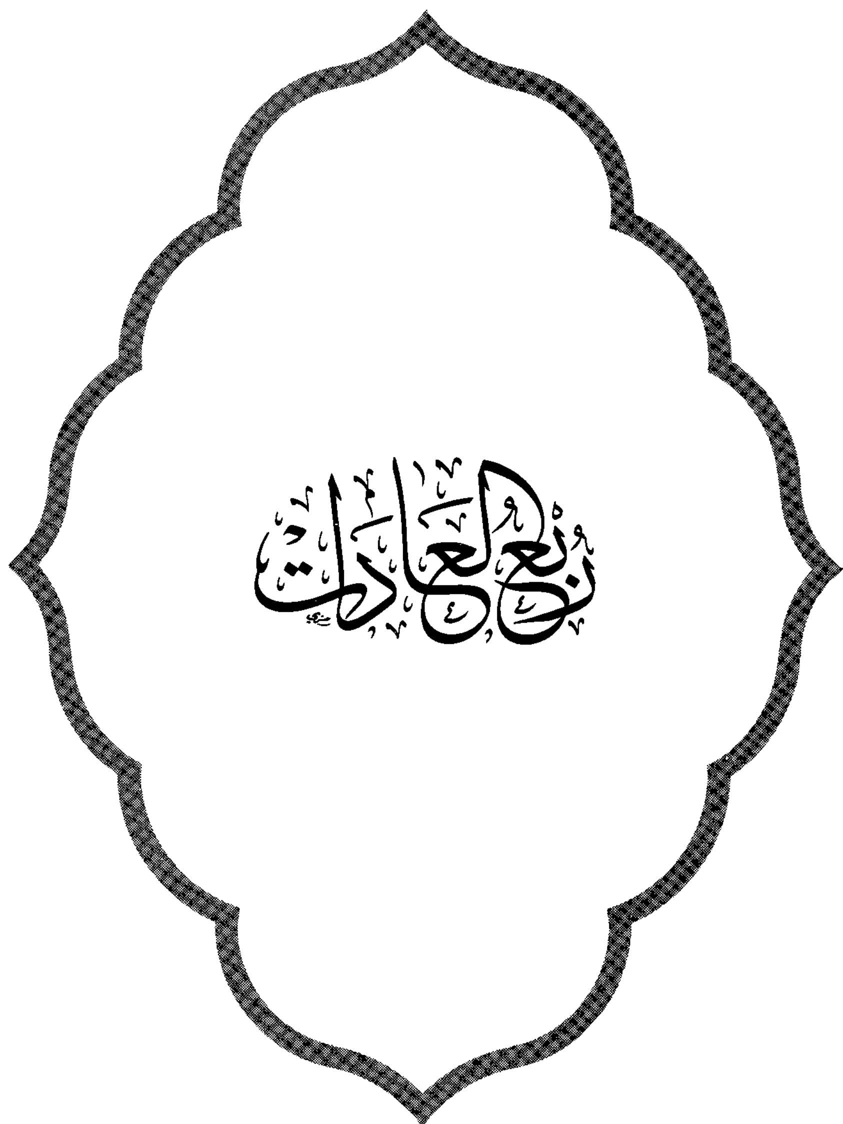
الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خمسه، وأفضله أن يكون في النصف الأخير، وقبل السدس الأخير منه.

الخامسة: أن لا يراعي التقدير، فيقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم، فإذا انتبه قام.. فيكون له في الليل نومتان وقومتان.

السادسة: أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين.

فهذه طرق القسمة، فليختر المريد لنفسه ما يراه أيسر عليه، وحيث يتعذر عليه القيام في وسط الليل فلا ينبغي أن يهمل إحياء ما بين العشاءين، ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر، فلا يدركه الصبح نائماً. وهذه هي المرتبة السابعة.

تم بعونه تعالى الربع الأول من الكتاب
وهو ربع العبادات


ربع العادات

الكِتَابُ ٱلأَوَّلُ

آدابُ ٱلأَكْل

ربع العادات

[المحافظة على سلامة البدن]:

إن مقصد ذوي الألباب لقاء الله تعالى، في دار الثواب، ولا طريق إلى الوصول للقاء الله إلَّا بالعلم والعمل، ولا تمكن المواظبة عليهما إلَّا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن إلَّا بالأطعمة والأقوات. والتناول منها بقدر الحاجة على تكرار الأوقات.

فمن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين: إن الأكل من الدين. وعليه نبَّه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين:

﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾(١).

فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل، ويقوى به على التقوى، فلا ينبغي أن يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى. بل يزن بميزان الشرع شهوة الطعام في إقدامها وإحجامها.



وهنا نحن نرشد إلى وظائف الدين في الأكل في أربعة أبواب:

الباب الأول: فيما لا بد للآكل من مراعاته وإن انفرد بالأكل.

الباب الثاني: فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع على الأكل.

الباب الثالث: فيما يخص تقديم الطعام إلى الإخوان.

الباب الرابع: فيما يخص الدعوة والضيافة.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٥١).

البَابُ الأوَّل

آدَابُ المنْفَــرِد

وهي ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه:

القسم الأول: آداب ما قبل الأكل:

الأول: أن يكون الطعام ـ بعد كونه حلالاً في نفسه ـ طيباً من جهة مكسبه، موافقاً للسنَّة والورع، لم يُكتسَب بسببٍ مكروه في الشرع، ولا بحكم هوى ومداهنة في دين. وقد أمر الله تعالى بأكل الطيِّب، وهو الحلال، وقدَّم النهي عن الأكل بالباطل على القتل، تفخيماً لأمر الحرام، وتعظيماً لبركة الحلال. فقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾.

إلى قوله:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾[1].

فالأصل في الطعام كونه طيباً، وهو من الفرائض وأصول الدين.

الثاني: غسل اليد، لأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال، فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة.

الثالث: أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، فهو أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ من رفعه على المائدة. قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

---

(١) سورة النساء: الآية (٢٩).

(ما أكل رسول الله ﷺ على خوان[1] ولا في سُكرُّجه[2]، قيل: فعلى ماذا كنتم تأكلون؟ قال: على السفرة[3]).

واعلم أنّا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى، فلسنا نقول: الأكل على المائدة منهي عنه نهي كراهة أو تحريم، إذ لم يثبت فيه نهي، وما يقال: إنه أبدع بعد رسول الله ﷺ، فليس كل ما أبدع منهياً. بل المنهي بدعة تضاد سنَّة ثابتة، وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته. وليس في المائدة إلاَّ رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل، وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه.

الرابع: أن يحسن الجلسة على السفرة في أول جلوسه ويستديمها كذلك.

ويكره الأكل نائماً ومتكئاً. قال ﷺ: «لا آكل متكئاً»[4].

الخامس: أن ينوي بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى، ليكون مطيعاً بالأكل، ولا تصدق نيته إلاَّ بأكل ما دون الشبع، فإن الشبع يمنع من العبادة. قال ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شرّاً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يفعل، فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث للنفس»[5].

ومن ضرورة هذه النية: أن لا يمد اليد إلى الطعام إلاَّ وهو جائع، ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع. ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب.

السادس: أن يرضى بالموجود من الرزق، والحاضر من الطعام، ولا يجتهد في التنعم وطلب الزيادة.

---

(١) الخوان: المائدة ما لم يكن عليها طعام.

(٢) السكرجة قال ابن مكي: وهي صحاف صغار يؤكل فيها، وقيل: كانت تعد لوضع الأشياء التي تعين على الهضم، ولم يكونوا غالباً يشبعون، فلم يكن لهم حاجة بالهضم [فتح الباري: ٩/٥٣٢].

(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٣٨٦).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٥٣٩٨).

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي، وابن ماجه (ع)، وأحمد وابن حبان والحاكم، وقال: هو صحيح. (ش).

السابع: أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام، ولو من أهله وولده. قال ﷺ: «اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه»(١).

القسم الثاني: آداب حالة الأكل:

وهو أن يبدأ بـ «بسم الله» في أوله، وبـ «الحمد لله» في آخره، ويجهر به ليذكر غيره، ويأكل باليمنى، ويصغر اللقمة، ويجوِّد مضغها، وما لم يبتلعها لم يمد اليد إلى الأخرى.

وأن لا يذم مأكولاً (كان ﷺ لا يعيب مأكولاً. كان إذا أعجبه أكله وإلاَّ تركه)(٢)، وأن يأكل مما يليه، قال ﷺ: «كل مما يليك»(٣). ولا ينفخ في الطعام الحار فهو منهي عنه، بل يصبر إلى أن يسهل أكله.

ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق، وكذا كل ما له عجم أو ثفل.

وأما الشرب: فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول: «بسم الله» ويشربه مصاً لا عبّاً، ولا يشرب قائماً ولا مضطجعاً، فإنه ﷺ نهى عن الشرب قائماً(٤) وروي أنه شرب قائماً(٥). وينظر في الكوز قبل الشرب، ولا يتجشأ ولا يتنفس في الكوز بل ينحيه عن فمه بالحمد، ويرده بالتسمية.

والكوز، وكل ما يدار على القوم، يدار يمنة. وقد شرب رسول الله ﷺ لبناً، وأبو بكر عن شماله وأعرابي عن يمينه، وعمر ناحيته، فقال عمر: أعطِ أبا بكر، فناول الأعرابي وقال: «الأيمن فالأيمن»(٦).

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن (ع)، وأحمد وابن حبان والحاكم (ش).
(٢) متفق عليه (خ ٣٥٦٣، م ٢٠٦٤).
(٣) متفق عليه (خ ٥٣٧٦، م ٢٠٢٢).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٠٢٤).
(٥) متفق عليه من حديث ابن عباس: (وذلك من ماء زمزم) (خ ١٦٣٧، م ٢٠٢٧).
(٦) متفق عليه (خ ٢٥٧١، م ٢٠٢٩).

ويشرب في ثلاثة أنفاس[1]، يحمد الله في أواخرها.

القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام:

وهو أن يمسك قبل الشبع، ثم يغسل يده، ويتخلل ولا يبتلع ما يخرج من بين أسنانه بالخلال، بل يرميه، وليتمضمض بعد الخلال. وأن يشكر الله بقلبه على ما أطعمه. قال تعالى:

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾[2].

فإن أكل طعام الغير فليدعُ له، وليقل: اللَّهم أكثر خيره، وبارك له فيما رزقته. وإن أفطر عند قوم فليقل: (أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلَّت عليكم الملائكة)[3].

ويستحب عقب الطعام أن يقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا.

***

(١) متفق عليه (خ ٥٦٣١، م ٢٠٢٨).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٧٢).

(٣) رواه الطبراني في الكبير بسند حسن، ورواه أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي من حديث أنس. قال العراقي: إسناده صحيح. ونازعه تلميذه الحافظ وقال: فيه معمر وهو وإن احتج به الشيخان فإن روايته عن ثابت بخصوصه مقدوح فيها. (ش).

الباب الثاني

آداب المشاركة في الأكل

الأول: أن لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم، بكبر سن، أو زيادة فضل، إلاَّ أن يكون هو المتبوع والمقتدى به.

الثاني: أن لا يسكتوا على الطعام، فإن ذلك من سيرة العجم، ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها.

الثالث: أن يرفق برفيقه في القصعة، فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله. بل ينبغي أن يقصد الإيثار. فأما الحلف عليه بالأكل فممنوع. قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: الطعام أهون من أن يحلف عليه.

الرابع: أن يعود نفسه حسن الأدب في الوحدة، حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع.

الخامس: أن غسل اليد في الطست لا بأس به.

السادس: أن لا ينظر إلى أصحابه، ولا يراقب أكلهم فيستحيون، بل يغض بصره عنهم، ويشتغل بنفسه، ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده، بل يمد اليد ويقبضها ويتناول قليلاً قليلاً إلى أن يستوفوا.

السابع: أن لا يفعل ما يستقذره غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه. ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات.

***

الباب الثالث

آداب تقديم الطعام إلى الإخوان

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير. قال ﷺ: «خيركم من أطعم الطعام»[1]، وقال علي رضي الله عنه: (لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إليَّ من أن أعتق رقبة). وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: (من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه). وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون: (الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق).

وأما آدابه: فبعضها في الدخول، وبعضها في تقديم الطعام.

أما الدخول: فليس من السنَّة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم، فيدخل عليهم وقت الأكل، فإن ذلك من المفاجأة، وقد نهي عنه، قال الله تعالى:

﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[2].

يعني: منتظرين حينه ونضجه.

أما إذا كان جائعاً، فقصد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به. فعل ذلك رسول الله ﷺ[3].

ويجوز أن يدخل الدار بغير استئذان اكتفاءً بعلمه بالإذن، فإن لم يعلم فلا بد من الاستئذان أولاً ثم الدخول. كان محمد بن واسع[4] وأصحابه يدخلون منزل

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم من حديث صهيب وقال: صحيح الإسناد.

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٥٣).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٠٣٨).

(٤) محمد بن واسع الأزدي، أبو بكر، الإمام الرباني القدوة أحد الأعلام، ثقة كبير الشأن، =

الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن، وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسرٌّ به ويقول: هكذا كنا.

وروي عن الحسن أنه كان قائماً يأكل من متاع بقال في السوق، يأخذ من هذه الجونة تينة.. فقال له هشام[1]: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع، تأكل متاع الرجل بغير إذنه؟ فقال: يا لكع، اتل عليَّ آية الأكل، فتلا إلى قوله تعالى:

﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾[2].

فقال: فمن الصديق يا أبا سعيد؟ قال: من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب.

ومشى قوم إلى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه، ففتحوا الباب، وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون، فدخل الثوري وجعل يقول: ذكرتموني أخلاق السلف، هكذا كانوا.

وأما آداب التقديم فهي:

الأول: ترك التكلف، وتقديم ما حضر، فإن لم يحضره شيء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك. قال بعض السلف في تفسير التكلف: أن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت، بل تقصد زيادة عليه في الجودة والقيمة.

وكان الفضيل يقول: إنما تقاطع الناس بالتكلف، يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له، فيقطعه عن الرجوع إليه. وقال بعضهم: ما أبالي بمن أتاني من إخواني، فإني

= اشترك في الغزو في سبيل الله مع قتيبة بن مسلم. وقال قتيبة وقد رآه يشير بأصبعه إلى السماء: (تلك الأصابع أحب إليَّ من مئة ألف سيف)، توفي سنة (١٢٧)هـ.

(١) هو هشام الأوقص.

(٢) سورة النور: الآية (٦١)، ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه، أو صديقكم، ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾.

لا أتكلف له، إنما أقرب ما عندي، ولو تكلفت له لكرهت مجيئه ومللته.

ومن التكلف: أن يقدم جميع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي قلوبهم.

الثاني: وهو للزائر، أن لا يقترح، ولا يتحكم بشيء بعينه، فربما يشق على المزور إحضاره، فإن خيره أخوه بين طعامين فليتخير أيسرهما عليه.

فإن علم أنه يُسرُّ باقتراحه فلا يكره له الاقتراح، فعل ذلك الشافعي[1] رحمه الله مع الزعفراني[2] إذ كان نازلاً عنده ببغداد، وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان، ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة وألحق بها لوناً آخر بخطه، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكر، وقال: ما أمرت بهذا؟ فعرضت عليه الرقعة ملحقاً فيها خط الشافعي، فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سروراً باقتراح الشافعي عليه.

الثالث: أن يشهي[3] المزور أخاه الزائر، ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح، فذلك حسن، وفيه أجر وفضل جزيل.

الرابع: أن لا يقول له: هل أقدم لك طعاماً؟ بل ينبغي أن يقدم إن كان. قال الثوري: إذا زارك أخوك فلا تقل له: أتأكل؟ أو أقدم إليك؟ ولكن قدم، فإن أكل وإلّا فارفع.

***

(١) الإمام محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ ــ ٢٠٤)هـ، أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة. فضائله كثيرة، استقر بمصر وتوفي فيها.

(٢) الزعفراني هو، الحسن بن محمد بن الصباح، تلميذ الشافعي، روى عن سفيان بن عيينة، وهو من رواة المذهب القديم للشافعي، وروى عنه جماعة منهم البخاري في صحيحه. توفي سنة (٢٢٦)هـ .

(٣) أي: يطلب معرفة رغبته فيما يشتهي.

الباب الرابع

آداب الضيافة

ومظان الآداب فيها ستة: الدعوة أولاً، ثم الإجابة، ثم الحضور، ثم تقديم الطعام، ثم الأكل، ثم الانصراف ولنقدم على شرحها.

فضيلة الضيافة:

سُئل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فقال: «إطعام الطعام وبذل السلام»(١). وقال ﷺ في الكفارات والدرجات: «إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام»(٢)، والأخبار في فضل الضيافة لا تحصى.

آداب الدعوة:

ينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق. قال ﷺ: «أكل طعامك الأبرار»(٣) في دعائه لبعض من دعا له. ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص. قال ﷺ: «شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء»(٤).

---

(١) متفق عليه بلفظ: «أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف». (خ ١٢، م ٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي وصححه والحاكم من حديث معاذ (ع).

(٣) سبق تخريجه وهو بلفظ: «أكل طعامكم الأبرار». وممن أخرجه أبو داود بإسناد صحيح (ع).

(٤) متفق عليه (خ ٥١٧٧، م ١٤٣٢).

وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته، فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم، وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه، فإن في تخصيص البعض إيحاشاً لقلوب الباقين.

وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل استمالة قلوب الإخوان، والتسنن بسنة رسول الله ﷺ في إطعام الطعام، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين.

آداب الإجابة:

الأول: أن لا يميِّز الغني بالإجابة عن الفقير، فذلك هو التكبر المنهي عنه. وكان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين[1].

الثاني: أنه لا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة، كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه، بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع لأجل ذلك.

الثالث: أن لا يمتنع لكونه صائماً، بل يحضر، فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر، وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب في الصوم وأفضل، وذلك في صوم التطوع.

قال ابن عباس: من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار.

الرابع: أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة، أو كان في الموضع منكر.

وكذلك إذا كان الداعي ظالماً أو فاسقاً، أو متكلفاً للمباهاة والفخر.

الخامس: أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن، فيكون عاملاً في أبواب الدنيا، بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عاملاً للآخرة، وذلك بأن تكون نية الاقتداء

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه دون ذكر المسكين، ضعفه الترمذي، وصححه الحاكم (ع).

بسنّة رسول الله ﷺ. وينوي إكرام أخيه المؤمن وإدخال السرور على قلبه، وينوي زيارته ليكون من المتحابين في الله.

آداب الحضور:

أدبه أن يدخل الدار، ولا يتصدَّر فيأخذ أحسن الأماكن، بل يتواضع، ولا يطول الانتظار عليهم، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه، فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد، فمخالفته تشوش عليه، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراماً فليتواضع.

ولا ينبغي أن يجلس في مقابلة باب الحجرة التي للنساء، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام، فإنه دليل على الشره. ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس.

آداب إحضار الطعام:

الأول: تعجيل الطعام، فذلك من إكرام الضيف، وقد قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[1]، ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود فحق الحاضرين في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير.

الثاني: ترتيب الأطعمة، بتقديم الفاكهة أولاً إن كانت، فذلك أوفق في الطب، فإنها أسرع استحالة، فينبغي أن تقع في أسفل المعدة، وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى:

﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧).

ثم قال:

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ ﴾[1].

ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد، فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات.

وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد، وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل.

الثالث: أن يقدم من الألوان ألطفها، حتى يستوفي منها من يريد، ولا يكثر الأكل بعده، وعادة المترفين: تقديم الغليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده، وهو خلاف السنَّة، فإنه حيلة في استكثار الأكل.

وكان من سنَّة المتقدمين: أن يقدموا جملة الألوان دفعة واحدة على المائدة ليأكل كل واحد مما يشتهي، وإن لم يكن عنده إلَّا لون واحد ذكره ليستوفوا منه، ولا ينتظروا أطيب منه.

الرابع: أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء، حتى يرفعوا الأيدي عنها، فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه.

الخامس: أن يقدم من الطعام قدر الكفاية، فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة، والزيادة عليه تصنُّع ومراءاة، لا سيما إذا كانت نفسه لا تسمح بأن يأكلوا الكل.

وينبغي أن يعزل أولاً نصيب أهل البيت، حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه، فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم، وتنطلق في الضيفان ألسنتهم.

آداب الانصراف:

الأول: أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار، وهو سنَّة، وذلك من إكرام

---

(١) سورة الواقعة: الآية (٢١).

الضيف، وتمام الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة.

الثاني: أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير، فذلك من حسن الخلق والتواضع.

الثالث: أن لا يخرج إلاَّ برضا صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في قدر الإقامة. وإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على ثلاثة أيام، قال ﷺ: «الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة»(1).

نعم لو ألحَّ رب البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك، ويستحب أن يكون عنده فراش للضيف النازل. قال ﷺ: «فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان»(2).

آداب متفرقة:

الأول: إن الأكل في السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس، فهو حسن، وخرق مروءة من بعضهم فهو مكروه، وهو مختلف بعادات البلاد، وأحوال الأشخاص، فمن لا يليق ذلك بسائر أعماله حمل ذلك على قلة المروءة، وفرط الشره، ويقدح ذلك في الشهادة، ومن يليق ذلك بجميع أحواله وأفعاله في ترك التكلف كان ذلك منه تواضعاً.

الثاني: يستحب أن يُحْمَلَ طعام إلى أهل الميت، ولما جاء نعي جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قال ﷺ: «إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن صنع طعامهم، فاحملوا إليهم ما يأكلون»(3).

الثالث: لا ينبغي أن يحضر طعام ظالم، فإن أكره فليقلل الأكل، ولا يقصد الطعام الأطيب.

***

---

(1) متفق عليه (خ ٦٠١٩، م ٤٨).

(2) أخرجه مسلم برقم (٢٠٨٤).

(3) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه بسند حسن (ع).

الكِتَابُ الثَّانِي

آدَابُ ٱلنِّكَاحِ

رُبْعُ العَادَاتِ

الباب الأول

الترغيب في النكاح

الترغيب في النكاح:

من الآيات: قال تعالى:

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾[1].

وهذا أمر.

وقال تعالى:

﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾[2].

وهذا منع من العضل ونهي عنه.

وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[3].

فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل.

ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾[4].

---

(١) سورة النور: الآية (٣٢).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٣٢).

(٣) سورة الرعد: الآية (٣٨).

(٤) سورة الفرقان: الآية (٧٤).

وأما الأخبار: فقوله ﷺ: «النكاح سنتي، فمن رغب عن سنَّتي فقد رغب عني»[1]. وقال ﷺ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»[2]، وهذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج. والوجاء: هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته، فهو مستعار للضعف عن الوقاع في الصوم.

وقال ﷺ: «كل عمل ابن آدم ينقطع إلَّا ثلاث: ولد صالح يدعو له..»[3] ولا يوصل إلى هذا إلَّا بالنكاح.

وأما الآثار: فقال عمر رضي الله عنه: (لا يمنع من النكاح إلَّا عجز أو فجور) فبين أن الدين غير مانع منه، وحصر المانع في أمرين مذمومين.

وقال سفيان بن عيينة: كثرة النساء ليست من الدنيا، لأن علياً رضي الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ وكان له أربع نسوة، فالنكاح سنَّة ماضية وخلق من أخلاق الأنبياء.

فوائد النكاح:

الفائدة الأولى: الولد، وهو الأصل، وله وضع النكاح، والمقصود إبقاء النسل، وإنما خلقت الشهوة باعثة مستحثة.

وفي التوصل إلى الولد قربة من أربعة أوجه:

(الأول): وهو أدق الوجوه، وأبعدها عن أفهام الجماهير، وهو أحقها وأقواها عند ذوي البصائر النافذة، في عجائب صنع الله تعالى ومجاري حكمه، وبيانه: أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر، وآلات الحرث، وهيأ له أرضاً مهيأة للحراثة، وكان

---

(١) متفق عليه (خ ٥٠٦٣، م ١٤٠١) بلفظ: «.. وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني».

(٢) متفق عليه (خ ٥٠٦٥، م ١٤٠٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٦٣١) بلفظ: «إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلَّا من ثلاثة، إلَّا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

العبد قادراً على الحراثة، ووكل به من يتقاضاه عليها، فإن تكاسل وعطل آلة الحرث، وترك البذر ضائعاً حتى فسد، ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة، كان مستحقاً للمقت والعتاب من سيده.

فكل ممتنع عن النكاح معرض عن الحراثة مضيع للبذر، معطل لما خلق الله من الآلات المعدة، وجانٍ على مقصود الفطرة.

(الثاني): السعي في محبة الرسول الله ﷺ بتكثير ما به مباهاته.

(الثالث): أن يبقي بعده ولداً صالحاً يدعو له.

(الرابع): طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله، وفي الخبر: «يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك»[1].

الفائدة الثانية: التحصن من الشيطان، وكسر التوقان، ودفع غوائل الشهوة، وغض البصر، وحفظ الفرج. وإليه الإشارة بقوله: «ومن لم يستطع فعليه بالصوم».

فإن الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوة التقوى جرَّت إلى اقتحام الفواحش. وإن كان ملجماً بلجام التقوى، فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة، فيغض البصر، ويحفظ الفرج، فأما حفظ القلب عن الوسواس والفكر فلا يدخل تحت اختياره، بل لا تزال النفس تجاذبه وتحدثه بأمور الوقاع، ولا يفتر عنه الشيطان الموسوس إليه في أكثر الأوقات، وقد يعرض له ذلك في أثناء الصلاة..

والمواظبة على الصوم لا تقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق، إلاَّ أن ينضاف إليه ضعف في البدن، وفساد في المزاج.

الفائدة الثالثة: ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة، إراحة للقلب، وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول، وهي عن الحق نفور، لأنه على خلاف طبعها، فإذا روّحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب، ويروِّح القلب، وينبغي أن يكون

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣٥).

لنفوس المتقين استراحات بالمباحات، ولذلك قال الله تعالى:

﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[1].

وقال علي رضي الله عنه: (روِّحوا القلوب ساعة، فإنها إذا أكرهت عميت).

الفائدة الرابعة: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش، وتنظيف الأواني، وتهيئة أسباب المعيشة، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله وحده، إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل.

فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: (الزوجة الصالحة ليست من الدنيا، فإنها تفرغك للآخرة).

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، والأهل والولد رعية، وفضل الرعاية عظيم، وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره، كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط.

ولذلك قال بشر الحافي: فضل عليَّ أحمد بن حنبل بثلاث، إحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره.

وقد قال ﷺ: «ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة، وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى في امرأته»[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٨٩)، والآية: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها..﴾.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة» ولهما من حديث سعد «ومهما أنفقت فهو لك صدقة، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك». (ع).

آفـات النكـاح:

الأولى: وهي أقـواها، العجـز عن طلب الحـلال، فـإن ذلـك لا يتيسـر لكـل أحد، لا سيما في هذه الأوقات، فيكـون النكاح سبباً في التوسـع للطلب والإطعام من الحرام.

وهذه آفة عامة، قلَّ من يتخلص منها، إلاَّ من له مال مـوروث أو مكتسب من حلال يفي به وبأهله، وكان له من القناعة ما يمنعـه من الزيـادة، أو كان في صنـاعة لا تتعلق بالسلاطين ويقدر على أن يعامل به أهل الخير.

الثـانية: القصـور عن القيـام بحقهن والصبـر على أخـلاقهن واحتمـال الأذى منهن، وهـذه دون الأولى في العموم، فـإن القدرة على هـذا أيسـر من القـدرة على الأولى، وتحسين الخلق مع النساء والقيام بحظوظهن أهون من طلب الحلال، وفي هـذا أيضاً خـطر، لأنه راعٍ ومسؤول عن رعيتـه. وقال ﷺ: «كفى بـالمـرء إثمـاً أن يضيع من يعول»[1].

الثالثة: ــ وهي دون الأولى والثانية ــ أن يكون الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى، وجاذباً إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد.

* * *

فهـذه مجامـع الآفات: فـالحكم على شخص واحد بـأن الأفضل لـه النكـاح أو العزوبة مطلقاً قصور عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور. بل يتخذ من هذه الفـوائد والآفات معتبراً ومحكمـاً، يعرض المـريد عليـه نفسه، فـإن انتفت في حقه الآفـات واجتمعت الفوائد، فـلا يماري في أن النكـاح أفضل لـه، مع مـا فيه من السعي في تحصيل الولد، فإن انتفت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل[2].

---

(١) رواه أبو داود والنسائي بلفظ: «من يقوت»، وهو عنـد مسلم بلفظ آخر (ع). وورواه أحمـد والطبراني والحاكم وصححه، وأقره الذهبـي، وقال في الروض: إسناده صحيح. وأمـا لفظ مسلم فهو ما رواه في كتاب الزكاة: أن ابن عمر ــ وجاءه قهرمـانه ــ فقـال: أعطيت الـرقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق أعطهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى إثماً أن تحبس عمن تملك قوته» (ش).

(٢) مهمـا يكن من شأن هـذه الآفـات، فـإنـه لا ينبغي أن تحـول دون الـزواج، وقـد سبق ذكـر الحديث الذي فيه «. . فمن رغب عن سنتي فليس مني».

الباب الثاني

مراعاة شروط العقد وأحوال المرأة

العقـد وآدابـه:

أركان العقد وشروطه لينعقد ويفيد الحل، أربعة:

الأول: إذن الولي، فإن لم يكن فالسلطان.

الثاني: رضا المرأة إن كانت ثيِّباً بالغاً، أو كانت بكراً بالغاً.

الثالث: حضور شاهدين ظاهري العدالة.

الرابع: إيجاب وقبول متصل به، بلفظ الإنكاح أو التزويج، أو معناهما الخاص بكل لسان.

وآدابـه:

ـ تقديم الخِطبة مع الولي، وأن لا تكون في حال سبق غيره بالخطبة، إذ نهي عن الخطبة على الخطبة.

ـ الخُطبة قبل النكاح، ومزج التحميد بالإيجاب والقبول.

ـ يستحب النظر إلى المخطوبة قبل النكاح، فإنه أحرى أن يؤدم بينهما.

ـ إحضار جميع أهل الصلاح في العقد زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة.

ما يراعى من أحوال المرأة:

يعتبر في المنكوحة نوعان: أحدهما للحل، والثاني لطيب المعيشة.

فالنوع الأول أن تكون خلية عن موانع النكاح ـ التي ذكرها الفقهاء ـ كأن

تكون قريبة للزوج بأن تكون من أصوله أو فصوله . . كالأمهات والأولاد والإخوة وأولادهم . . أو تكون محرمة بالرضاع . . أو بالمصاهرة . . إلخ .

وأما الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده فهي :

الأولى: أن تكون صالحة ذات دين، فهذا هو الأصل، وبه ينبغي أن يقع الاعتناء، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها أزرت بزوجها، وسودت بين الناس وجهه. ولهذا بالغ رسول الله ﷺ في التحريض على ذات الدين فقال: «تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فعليك بذات الدين تربت يداك»[1].

الثانية: حسن الخلق، وذلك أصل مهم في طلب الاستعانة على الدين، فإنها إذا كانت سليطة بذيئة اللسان، سيئة الخلق، كان الضرر منها أكثر من النفع.

الثالثة: حسن الوجه، فذلك أيضاً مطلوب، إذ به يحصل التحصن، والطبع لا يكتفي بالدميمة غالباً، وما نقلناه من الحث على الدين، وأن المرأة لا تنكح لجمالها، ليس زاجراً عن رعاية الجمال، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين. فإن الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح، ويهون أمر الدين، ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال أن الألفة والمودة تحصل به غالباً. وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة، ولذلك استحب النظر. قال ﷺ: «إن في أعين الأنصار شيئاً، فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن»[2].

قال الأعمش[3]: (كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم).

---

(١) متفق عليه (خ ٥٠٩٠، م ١٤٦٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٢٤)، وأخرج الترمذي وحسنه النسائي وابن ماجه من حديث المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال النبي ﷺ: «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما».

(٣) الأعمش: سليمان بن مهران الكاهلي، أبو محمد، الحافظ، أحد الأعلام من التابعين، قال الذهبي: كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح، توفي سنة (١٤٨)هـ .

ومعلوم أن النظر لا يعرِّف الخلق والدين والمال، وإنما يعرف الجمال من القبح.

وقال ﷺ: «خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله»(١).

وروي أن رجلاً تزوج على عهد عمر رضي الله عنه، وكان قد خضب، فنصل خضابه، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر، وقالوا: حسبناه شاباً، فأوجعه عمر ضرباً، وقال: غررت القوم(٢).

الرابعة: أن تكون خفيفة المهر، وقد نهي عن المغالاة في المهور(٣). وكان عمر ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول: ما تزوج رسول الله ﷺ ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله ﷺ.

وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل، ولا ينبغي أن ينكح طمعاً في المال. قال الثوري: إذا تزوج الرجل، وقال: أي شيء للمرأة؟ فاعلم أنه لص.

الخامسة: أن تكون المرأة ولوداً، فإذا عرفت بالعقر، فليمتنع عن تزوجها.

السادسة: أن تكون بكراً، قال ﷺ لجابر وقد نكح ثيباً: «هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك»(٤).

السابعة: أن تكون نسيبة، أعني: أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح، فإنها ستربي بناتها وبنيها، فإذا لم تكن مؤدَّبة؛ لم تحسن التأديب والتربية.

---

(١) أخرج النسائي من حديث أبي هريرة نحوه بسند صحيح (ع).

(٢) أورد المصنف هذه الحادثة ليشير إلى أن النظر مطلوب لمصلحة كلا الزوجين.

(٣) رواه أصحاب السنن الأربعة موقوفاً على عمر، وصححه الترمذي.

(٤) متفق عليه من حديث جابر (خ ٥٢٤٧، م كتاب الرضاع ٥٤).

الثامنة: أن لا تكون من القرابة القريبة، فإن ذلك يقلل الشهوة.

فهذه هي الخصال المرغبة في النساء.

ويجب على الولي ـ أيضاً ـ أن يراعي خصال الزوج، ولينظر لكريمته، فلا يزوجها ممن ساء خَلْقُه أو خُلُقُه، أو ضعف دينه، أو قصر عن القيام بحقها. فـ (النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته)[1].

قال رجل للحسن: قد خطب ابنتي جماعة، فمن أزوجها؟ قال: ممن يتّقي الله، فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

***

(١) هو من قول عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر رضي الله عنه وعنهما.

الباب الثالث

في آداب المعاشرة

القسم الأول: فيما على الزوج

الأدب الأول: الوليمة، وهي مستحبة. قال أنس رضي الله عنه: رأى رسول الله ﷺ على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة، فقال: «ما هذا؟» فقال: تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب فقال: «بارك الله لك، أولم ولو بشاة»(١).

وتستحب تهنئته، فيقول من دخل على الزوج: بارك الله لك، وبارك عليك وجمع بينكما في خير(٢).

ويستحب إظهار النكاح، قال ﷺ: «فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت»(٣).

الأدب الثاني: حسن الخلق معهن، واحتمال الأذى منهن. قال الله تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(٤).

وقال في تعظيم حقهن:

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾(٥).

---

(١) متفق عليه (خ ٥١٥٥، م ١٤٢٧).

(٢) رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه (ع).

(٣) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه.

(٤) سورة النساء: الآية (١٩).

(٥) سورة النساء: الآية (٢١).

واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ، فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل[1]، وكان ﷺ يقول لعائشة: «إني لأعرف غضبك من رضاك» قالت: وكيف تعرفه؟ قال: «إذا رضيت قلت: لا وإله محمد، وإذا غضبت قلت: لا وإله إبراهيم»، قالت: صدقت، إنما أهجر اسمك[2].

الأدب الثالث: أن يزيد على احتمال الأذى، بالمداعبة والمزح والملاعبة، فهي التي تطيب قلوب النساء، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق، حتى روي أنه ﷺ كان يسابق عائشة في العدو فسبقته يوماً، وسبقها في بعض الأيام، فقال ﷺ: «هذه بتلك»[3].

وقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله»[4]، وقال ﷺ: «خيركم خيركم لنسائه»[5].

وقال عمر رضي الله عنه ـ مع خشونته ـ: ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً.

ووصفت أعرابية زوجها ـ بعد موته ـ فقالت: والله لقد كان ضحوكاً إذا ولج، سكيتاً إذا خرج، آكلاً ما وجد، غير مسائل عما فقد.

الأدب الرابع: أن لا يتبسط في الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها، ويسقط بالكلية هيبته عندها، بل يراعي الاعتدال فيه،

---

(١) متفق عليه (خ ٥١٩١، م ١٤٧٩/٣٤).

(٢) متفق عليه (خ ٥٢٢٨، م ٢٤٣٩).

(٣) رواه أبو داود والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث عائشة بسند صحيح (ع).

(٤) رواه الترمذي والنسائي، واللفظ له، والحاكم وقال: رواته ثقات على شرط الشيخين (ع).

(٥) أخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة، وله من حديث عائشة وصححه: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) (ع).

فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات ألبتة، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض.

وعلى الجملة: فبالعدل قامت السماوات والأرض، فكل ما جاوز حده انعكس إلى ضده، فينبغي أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة، وتتبع الحق في جميع ذلك لتسلم من شرهن، فإن كيدهن عظيم، والغالب عليهن سوء الخلق، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف ممزوج بسياسة. فالطبيب الحاذق هو الذي يقدر العلاج بقدر الداء، فلينظر الرجل أولاً إلى أخلاقها بالتجربة، ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها.

الأدب الخامس: الاعتدال في الغيرة، وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله ﷺ أن تتبع عورات النساء[1].

وقال ﷺ: «إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عزَّ وجلّ، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة»[2] لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه، فإن بعض الظن إثم، وأما الغيرة في محلها فلا بد منها، وهي محمودة.

وكان الحسن يقول: أتدعون نساءكم ليزاحمن العلوج في الأسواق؟ قبح الله من لا يغار.

وأذن رسول الله ﷺ للنساء في حضور المسجد، وكذلك أذن لهن في الأعياد. والخروج الآن مباح للمرأة العفيفة برضا زوجها، ولكن القعود أسلم، وينبغي أن لا تخرج إلا لمهم، فإذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال.

الأدب السادس: الاعتدال في النفقة، فلا ينبغي أن يقتر عليهن بالإنفاق، ولا ينبغي أن يسرف، بل يقتصد، قال تعالى:

---

(١) الحديث عند مسلم بلفظ: «نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً يخونهم أو يطلب عثراتهم» — كتاب الإمارة رقم (١٨٤).

(٢) رواه أبو داود والنسائي وابن حبان (ع).

﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[2].

وقال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله»[3]. وقال ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»[4].

وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام، وما يفسد لو ترك، فهذا أقل درجات الخير، وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح إذن من الزوج.

وينبغي أن لا يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منه، فإن ذلك مما يوغر الصدور، ويبعد عن المعاشرة بالمعروف، ولا ينبغي أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه، وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته.

وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق، أن يطعمها من الحلال، ولا يدخل مداخل السوء لأجلها، فإن ذلك جناية عليها، لا مراعاة لها.

الأدب السابع: أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب، ويعلم زوجته أحكام الصلاة، وما يقضى منها في الحيض وما لا يقضى، فإنه أمر بأن يقيها النار بقوله تعالى:

﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[5].

فعليه أن يلقنها اعتقاد أهل السنة، ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣١).
(٢) سورة الإسراء: الآية (٢٩).
(٣) أخرجه الترمذي وصححه من حديث عائشة.
(٤) أخرجه مسلم برقم (٩٩٥).
(٥) سورة التحريم: الآية (٦).

إليها، ويخوفها في الله إن تساهلت في أمر الدين.

ويعلمها من أحكام الحيض.. ما تحتاج إليه، فإن كان قائماً بذلك فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قصر علم الرجل، ولكن ناب عنها في السؤال، فأخبرها بجواب المفتي فليس لها خروج، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال، بل عليها ذلك، ويعصي الرجل بمنعها.

الأدب الثامن: إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن، ولا يميل إلى بعضهن، فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ[1]. فإن ظلم امرأة بليلتها قضى لها، فإن القضاء واجب عليه. وقد قال رسول الله ﷺ: «من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى ـ وفي لفظ ـ ولم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»[2].

وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار، قال تعالى:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[3].

أي: أن تعدلوا في شهوة القلب والميل.

الأدب التاسع: في النشوز، ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما، فإن كان من جانبهما جميعاً، أو من الرجل، ولا يقدر على إصلاحها فلا بد من حكمين، أحدهما من أهله، والآخر من أهلها، لينظرا بينهما، ويصلحا أمرهما:

﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[4].

وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة، فالرجال قوامون على النساء، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة. ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها، وهو أن يقدم أولاً

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة (خ ٢٨٧٩، م ٢٧٧٠).
(٢) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان.
(٣) سورة النساء: الآية (١٢٩).
(٤) سورة النساء: الآية (٣٥).

الوعظ والتحذير والتخويف، فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال، فإن لم ينجح ذلك فيها، ضربها ضرباً غير مبرح، ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه.

الأدب العاشر: في آداب الجماع. ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى. وقال ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان»[1] وليغط نفسه وأهله بثوب، وليقدم التلطف بالكلام والتقبيل. ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضي هي نهمتها[2].

ولا يأتيها في المحيض، ولا بعد انقضائه وقبل الغسل، فهو محرم، وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض، ولا يأتيها في غير المأتى. وله أن يؤاكل الحائض ويخالطها في المضاجعة وغيرها، وليس عليه اجتنابها.

الأدب الحادي عشر: في آداب الولادة، وهي خمسة:

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذكر، وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري الخيرة له في أيهما، فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له، أو يتمنى أن يكون بنتاً، بل السلامة منهن أكثر والثواب فيهن أجزل. قال ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة»[3].

الثاني: أن يؤذن في أذن المولود حين ولادته، ويستحب أن يلقنوه أول انطلاق لسانه: «لا إله إلا الله» ليكون أول حديثه، والختان في اليوم السابع.

الثالث: أن يسميه اسماً حسناً؛ فذلك من حق الولد، وقال ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»[4]. ومن كان له اسم مكروه يستحب تبديله.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس (خ ٦٣٨٨، م ١٤٣٤).

(٢) أي حاجتها.

(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد (ع).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢١٣٢).

الرابع: العقيقة عن الذكر بشاتين، وعن الأنثى بشاة.

الخامس: أن يحنكه بتمرة أو حلاوة. روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (ولدت عبد الله بن الزبير بقباء، ثم أتيت رسول الله ﷺ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه. فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له وبرَّك عليه، وكان أول مولود في الإسلام)[1].

الأدب الثاني عشر: في الطلاق: وليعلم أنه مباح، ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل، ومهما طلقها فقد آذاها، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها، أو بضرورة من جانبه. قال تعالى:

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾[2].

أي: لا تطلبوا حيلة للفراق.

وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدي ببذل مال. ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى، فإن ذلك إجحاف بها، وتحامل عليها، وتجارة على البضع، قال تعالى:

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ ﴾[3].

فردُّ ما أخذته فما دونه لائق بالفداء.

فإن سألت الطلاق بغير ما بأس، فهي آثمة، قال ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة»[4].

ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور:

الأول: أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، لما فيه من تطويل العدة عليها.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٤٦٩، م ٢١٤٦).

(٢) سورة النساء: الآية (٣٤).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٢٩).

(٤) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان (ع).

الثـاني: أن يقتصر على طلقـة واحدة، فـلا يجمع بين الثـلاث، لأن الـطلقـة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود، ويستفيد بها الـرجعة إن نـدم في العدة، وتجـديد النكاح إن أراد بعد العدة.

الثالث: أن يتلطف في التعلل بتطليقهـا من غير تعنيف واستخفـاف، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع، والجبر لما فجعها به من أذى الفراق. قال تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾[1].

الـرابع: أن لا يفشي سـرها، لا في الـطلاق، ولا عند النكـاح، فقد ورد في إفشاء سرِّ النساء في الخبر الصحيـح وعيد عـظيم[2]، ويروى عن بعض الصـالحين أنه أراد طلاق امرأة، فقيل له: ما الـذي يريبـك فيها؟ فقـال: العاقـل لا يهتك ستـر امرأته، فلما طلقها، قيل له: لم طلقتها؟ فقال: ما لي ولامرأة غيري؟

القسم الثاني: حقوق الزوج على زوجته

على الزوجة طـاعة زوجهـا في كل مـا يطلب منهـا في نفسها، ممـا لا معصية فيـه، وقد ورد في تعـظيم حق الزوج عليهـا أخبـار كثيـرة[3]، وحقـوق الـزوج على

---

(١) سـورة البقـرة: الآيــة (٢٣٦). من قـولــه تعـالى: ﴿ لا جنــاح عليكم إن طلقتم النســاء، ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾.

(٢) قال ﷺ: «إن أعظم الخيانة عند الله يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليـه، ثم يفشي سرّها» أخرجه مسلم برقم (١٤٣٧).

(٣) أورد المصنف هنا الخبر التالي: (كان رجل قد خرج إلى سفر وعهـد إلى امرأتـه أن لا تنزل من العلو إلى الأسفل، وكان أبوها في الأسفل، فمرض، فأرسلت المرأة إلى رسـول الله ﷺ تستأذن في النزول إلى أبيها، فقال ﷺ: «أطيعي زوجك» فمات، فاستأمرته فقـال: «أطيعي زوجك» فدفن أبوها. فأرسل رسول الله ﷺ يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها).
قال الحافظ العراقي: أخرجه الطبراني بسند ضعيف.
أقول: هذا الخبر ــ حتى ولو كـان حسناً فكيف وهـو ضعيف؟ ــ معارض بـالآيات الكـريمة والأحاديث الصحيحة التي تحض على الإحسان إلى الوالـدين والسعي في خدمتهمـا. ولذا فلا ينبغي الاستشهاد به.

الزوجة كثيرة أهمها أمران:

أحدهما: الستر والصيانة.

والآخر: ترك المطالبة بما وراء الحاجة، والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً، وهكذا كانت عادة النساء في السلف، كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته: إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار.

ومن الواجبات عليها: أن لا تفرط في ماله، بل تحفظه عليه فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره[1].

ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن العشرة مع الزوج، كما روي أن أسماء بن خارجة الفزاري[2]، قال لابنته عند التزوج: إنك خرجت من العش الذي فيه درجت، فصرت إلى فراش لا تعرفينه، وقرين لا تألفينه، فكوني له أرضاً يكن لك سماء، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكوني له أمة يكن لك عبداً، لا تلحفي به فيقلاك[3]، ولا تَبَاعدي عنه فينساك، إن دنا فاقربي منه، وإن نأى فابعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يَشَمَّنَّ منك إلا طيباً، ولا يسمع منك إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلاً.

فالقول الجامع في آداب المرأة: أن تكون قاعدة في بيتها، ملازمة لمغزلها، قليلة الكلام لجيرانها، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول، تحفظ بعلها في غيبته، وتطلب مسرته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسها وماله، لا تخرج

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه قوله ﷺ: «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها، غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب».

(٢) أورد المصنف الخبر كما يلي: (كما روي أن أسماء بنت خارجة الفزاري قالت لابنتها..) وقد بين الشارح أن الخبر عن أسماء بن خارجة، وكان من الحكماء، وأنه قال ذلك لابنته، وأول الخبر: يا بنية، قد كانت والدتك أحق بتأديبك مني، أن لو كانت باقية، أما الآن..
أقول: قال صاحب الأعلام: أسماء بن خارجة، تابعي من رجال الطبقة الأولى من أهل الكوفة، كان سيد قومه، جواداً، مقدماً عند الخلفاء. توفي سنة (٦٦)هـ.

(٣) تلحفي: أي تلحي عليه، والإلحاف: المبالغة في السؤال. وقلاه: أبغضه.

من بيتها إلا بإذنه، فإن خرجت فمحترزة أن يسمع غريب صوتها، أو يعرفها بشخصها، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه، همها صلاح شأنها وتدبير بيتها، مقبلة على صلاتها وصيامها. وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله، وتقدم حقه على حق نفسها، مشفقة على أولادها، حافظة للستر عليهم، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج.

ومن آدابها: أن لا تفاخر على الزوج بجمالها، ولا تزدري زوجها لقبحه.

ومن آدابها: ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها، والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضوره.

ومما يجب عليها من حقوق النكاح: إذا مات عنها زوجها أن لا تحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر، وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة. وتلزم مسكن النكاح إلى آخر العدة.

ومن آدابها: أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها.

[حكم العزل]:

من الآداب أن لا يعزل[1] فما من نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة[2]. هكذا قال رسول الله ﷺ، فإن عزل فقد اختلف العلماء في إباحته وكراهته على أربعة مذاهب:

- فمن مبيح بكل حال مطلقاً.

- ومن محرم بكل حال.

- ومن قائل: يحل برضاها، ولا يحل دون رضاها. وكأن هذا القائل يحرم الإيذاء دون العزل.

---

(١) وردت هذه المسألة ضمن الأدب العاشر ـ فيما على الزوج ـ ولانفرادها بموضوع خاص أفردتها في هذه الفقرة.

(٢) متفق عليه (خ ٥٢١٠، م ١٤٣٨).

ـ ومن قائل: يباح في المملوكة دون الحرة.

والصحيح عندنا: أن ذلك مباح. وأما الكراهية فإنها تطلق لنهي التحريم، ولنهي التنزيه، ولترك الفضيلة، فهو مكروه بالمعنى الثالث، أي فيه ترك فضيلة. كما يقال: يكره للقاعد في المسجد أن يقعد فارغاً لا يشتغل بذكر أو صلاة.

وإنما قلنا: لا كراهة بمعنى التحريم والتنزيه، لأن إثبات النهي إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص، ولا نص، ولا أصل يقاس عليه.

وليس هذا كالإجهاض والوأد، لأن ذلك جناية على موجود حاصل.

فإن قلت: فإن لم يكن العزل مكروهاً من حيث إنه دفع لوجود الولد، فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه، إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شيء من شوائب الشرك الخفي.

فأقول: النيات الباعثة على العزل هي:

الأولى: استبقاء جمال المرأة لدوام التمتع، واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق، وهذا ليس منهياً عنه.

الثانية: الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب، ودخول مداخل السوء، وهذا أيضاً غير منهي عنه، فإن قلة الحرج معين على الدين.

نعم، الكمال والفضل في التوكل، والثقة بضمان الله حيث قال:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾(١).

ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال، وترك الأفضل، ولكن النظر إلى العواقب، وحفظ المال وادخاره مع كونه مناقضاً للتوكل، لا نقول إنه منهي عنه.

الثالثة: الخوف من الأولاد اناث.. فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح، أو أصل الوقاع أثم بها، لا بترك النكاح والوطء، فكذا في العزل.

---

(١) سورة هود: الآية (٦).

فإن قلت: فقد قال ﷺ في العزل: «ذاك الوأد الخفي»[1]، وقرأ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾[2].

وهذا في الصحيح.

قلنا: وفي الصحيح أيضاً أخبار صحيحة في الإباحة[3]، وقوله «الوأد الخفي» كقوله «الشرك الخفي» وذلك يوجب كراهة لا تحريماً.

فإن قلت: قال ابن عباس: العزل هو الوأد الأصغر، فإن الممنوع وجوده به هو الموؤدة الصغرى.

قلنا: هذا قياس أنكره عليه علي رضي الله عنه. وقال: لا تكون موؤدة إلا بعد سبع، أي بعد سبعة أطوار، وتلا الآية الواردة في أطوار الخلقة، وهي قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[4].

أي: نفخنا فيه الروح. ثم تلا قوله تعالى في الآية: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾[5].

وإذا نظرت إلى ما قدمناه من طريق القياس والاعتبار، ظهر لك تفاوت منصب علي وابن عباس رضي الله عنهما في الغوص على المعاني ودرك العلوم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٤٢).

(٢) سورة التكوير: الآية (٨).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٤٣٨)، أنهم سألوه عن العزل فقال: «لا عليكم أن لا تفعلوا».

(٤) سورة المؤمنون: الآيات (١٢ ـ ١٤).

(٥) سورة التكوير: الآية (٨).

وكيف؟ ومن المتفق عليه في الصحيحين، عن جابر أنه قال: (كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل) وفي لفظ آخر: (كنا نعزل، فبلغ ذلك نبي الله فلم ينهنا)[1].

***

(١) متفق عليه، وانفرد مسلم بقوله (فلم ينهنا) (خ ٥٢٠٨، م ١٤٤٠).

الكِتَابُ ٱلثَّالِثُ

آدَابُ ٱلكَسْبِ وَٱلمَعَاش

ربع العادات

البَابُ الأوّل

فَضْلُ الكَسْبِ وَالحَثّ عَلَيْه

أما من الكتاب، فقوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ ﴾[1].

فذكره في معرض الامتنان. وقال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠ ﴾[2].

فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها، وقال تعالى:

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[4].

وأما الأخبار: فقوله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه»[5].

وقال ﷺ: «أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح»[6].

---

(١) سورة النبأ: الآية (١١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠).

(٣) سورة المزمل: الآية (٢٠).

(٤) سورة الجمعة: الآية (١٠).

(٥) متفق عليه (خ ٢٠٧٤، م ١٠٤٢).

(٦) رواه أحمد وإسناده حسن (ع) وقال الهيثمي: رجاله ثقات (ش).

وقال ﷺ: «من فتح على نفسه باباً من السؤال، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر»[1].

وروي أن عيسى عليه السلام رأى رجلًا فقال: ما تصنع؟ قال: أتعبد، قال: من يعولك؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك.

وأما الآثار: فقال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، يقول: اللَّهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً، لا في أمر دنياه، ولا في أمر آخرته.

وجاءت ريح عاصفة في البحر، فقال أهل السفينة لإبراهيم بن أدهم رحمه الله وكان معهم فيها: أما ترى هذه الشدة؟ فقال: ما هذه الشدة؟ وإنما الشدة الحاجة إلى الناس.

وقال ﷺ حين ذكر الطير فقال: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[2]. فذكر أنها تغدو في طلب الرزق.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، والقدوة بهم.

وروي أن الأوزاعي[3] لقي إبراهيم بن أدهم[4] ـ رحمهما الله ـ وعلى عنقه

---

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح (ع).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (ع). وخماصاً: خالية البطن، وبطاناً: ممتلئة.

(٣) الأوزاعي: عبد الرحمن بن عمرو، من قبيلة الأوزاع، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد. سكن بيروت وتوفي فيها، عرض عليه القضاء فامتنع. قال صالح بن يحيى: كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام، وكان أمره فيهم أعز من السلطان. توفي سنة (١٥٧)هـ.

(٤) إبراهيم بن أدهم، زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز. وأخذ عن كثير من العلماء. وكان يعيش من العمل =

حزمة حطب، فقال لـه: يا أبـا إسحاق، إلى متى هـذا؟! إخوانـك يكفونـك. قال: دعني عن هذا يا أبا عمرو، فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحـلال، وجبت له الجنة.

وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أن تصفَّ قدميك وغيرك يقـوت لك. ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد.

فهذه فضيلة الكسب، وليكن العقد الذي به الاكتسـاب جامعـاً لأربعة أمـور: الصحة، والعدل، والإحسان، والشفقة على الدين، ونحن نعقد في كل واحد باباً.

***

= بـالحصاد، وحفظ البسـاتين والحمل والـطحن. ويشترك مـع الغزاة في قتـال الروم. ولعـل الراجح أنه مات ودفن في سوفنن (حصن في بلاد الروم) في سنة (١٦١)هـ .

الباب الثاني

في علم الكسب

وذلك بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة، وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع.

اعلم أن تحصيل هذا الباب واجب على كل مسلم مكتسب، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه، والمكتسب يحتاج إلى علم الكسب، ومهما حصَّل علم هذا الباب، وَقفَ على مفسدات المعاملة فيتقيها، وما شذَّ عنه من الفروع فيتوقف فيها إلى أن يسأل.

فلا بد من هذا القدر من علم التجارة ليتميَّز له المباح عن المحظور، وموضع الإشكال عن موضع الوضوح. ولذلك روي عن عمر رضي الله عنه، أنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول: (لا يبيع في سوقنا إلَّا من يفقه، وإلَّا أكل الربا شاء أم أبى).

وعلم العقود كثير، ولكن هذه العقود الستة لا تنفك عنها المكاسب، فلنشرح شروطها.

العقد الأول: البيع

وقد أحله الله تعالى، وله ثلاثة أركان: العاقد، والمعقود عليه، واللفظ.

الركن الأول: العاقد، ينبغي للتاجر أن لا يعامل: الصبي، والمجنون والأعمى. لأن الصبي غير مكلف، وكذا المجنون وبيعهما باطل، وأما الأعمى فإنه يبيع ويشتري ما لا يرى فلا يصح ذلك، وعليه أن يوكل وكيلاً بصيراً ليشتري له أو يبيع.

وأما الكافر، فتجوز معاملته، لكن لا يباع منه المصحف، ولا العبد المسلم ولا يباع منه السلاح.

الركن الثاني: في المعقود عليه، وهو المال، المقصود نقله من أحد العاقدين إلى الآخر ثمناً كان أو مثمناً، فيعتبر فيه ستة شروط:

الأول: أن لا يكون نجساً في عينه، فلا يصح بيع كلب وخنزير..

الثاني: أن يكون منتفعاً به، فلا يجوز بيع الحشرات.

الثالث: أن يكون المتصرَّف فيه مملوكاً للعاقد، أو مأذوناً من جهة المالك.

الرابع: أن يكون المعقود عليه مقدوراً على تسليمه شرعاً وحساً، فما لا يقدر على تسليمه حساً، لا يصح بيعه، كالسمك في الماء، والمعجوز عن تسليمه شرعاً كالمرهون والموقوف.

الخامس: أن يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف.

السادس: أن يكون المبيع مقبوضاً، فكل ما اشتراه أو باعه قبل القبض فبيعه باطل، وقبض المنقول بالنقل، وقبض العقار بالتخلية، وقبض ما ابتاعه بشرط الكيل لا يتم إلَّا بأن يكتاله.

الركن الثالث: لفظ العقد، فلا بد من جريان إيجاب وقبول متصل به، دال على المقصود.

العقد الثاني: عقد الربا

وقد حرمه الله تعالى، وشدد الأمر فيه، ويجب الاحتراز منه على الصيارفة المتعاملين على النقدين، وعلى المتعاملين بالأطعمة، إذ لا ربا إلَّا في نقد أو طعام، وعلى الصيرفي أن يحترز من النسيئة والفضل، أما النسيئة فأن لا يبيع شيئاً من جواهر النقدين بشيء من جواهر النقدين إلَّا يداً بيد، وهو أن يجري التقابض في المجلس.

العقد الثالث: السَّلم

وليراعِ التاجر فيه عشرة شروط[1]:

الأول: أن يكون رأس المال معلومـاً على مثله، حتى إذا تعذر تسليم المسْلَم فيه أمكن الرجوع إلى قيمة رأس المال.

الثاني: أن يسلِّم رأس المال في مجلس العقد قبل التفرق.

الثـالث: أن يكـون المسلم فيـه، ممـا يمكن تعـريف أوصـافـه كـالحبـوب والحيوانات..

الرابع: أن يستقصي وصف هذه الأمور القابلة للوصف، حتى لا يبقى وصف تتفاوت به القيمة تفاوتـاً لا يتغابن النـاس بمثله، فإن ذلـك الوصف هـو القائم مقـام الرؤية في البيع.

الخامس: أن يجعل الأجل معلوماً بالأشهر والأيام.

السادس: أن يكون المسلم فيه مما يقـدر على تسليمه وقت المحـل، ويؤمن فيه وجوده غالباً، فلا ينبغي أن يسلم العنب إلى أجل لا يدرك فيه.

السابع: أن يذكر مكان التسليم.

الثامن: أن لا يعلقه بمعيَّن فيقول: من حنطة هذا الزرع.

التاسع: أن لا يسلم في شيء نفيس عزيز الوجود.

العاشر: أن لا يسلم في طعام إذا كان رأس المال طعاماً.

العقد الرابع: الإجارة

وله ركنان: الأجرة والمنفعة.

فأما العاقد، واللفظ، فيعتبر فيه ما ذكرناه في البيع، والأجـرة كالثمن، فينبغي

---

(١) عـرف الفقهاء السَّلم بقـولهم: هو عقـد على مـوصـوف في الـذمـة مؤجـل، بثمن مقبـوض بمجلس العقد. ويسمى سلفاً أيضاً.

أن يكون معلوماً أو موصوفاً.

وأما المنفعة المقصودة بالإجارة فهي العمل وحده، إن كان عملَ مباحٍ معلوم، يلحق العامل فيه كلفة، ويتطوع به الغير عن الغير، فيجوز الاستئجار عليه. فليراع في العمل المستأجر عليه خمسة أمور:

الأول: أن يكون متقوماً، بأن يكون فيه كلفة وتعب، فلو استأجر طعاماً ليزين به الدكان لم يجز.

الثاني: أن لا تتضمن الإجارة استيفاء عين مقصودة، فلا يجوز إجارة المواشي للبنها.

الثالث: أن يكون العمل مقدوراً على تسليمه حساً وشرعاً، فلا يصح استئجار الضعيف على عمل لا يقدر عليه، ولا استئجار الحائض على كنس المسجد.

الرابع: أن لا يكون العمل واجباً على الأجير، فلا يجوز أخذ الأجرة على الجهاد، ولا سائر العبادات التي لا نيابة فيها.

الخامس: أن يكون العمل والمنفعة معلوماً، فالخياط ــ مثلاً ــ يعرف عمله في الثوب..

العقد الخامس: القراض

وليراع فيه ثلاثة أركان(١):

الركن الأول: رأس المال، وشرطه أن يكون نقداً معلوماً مسلَّماً إلى العامل.

الركن الثاني: الربح: وليكن معلوماً بالجزئية، بأن يشترط له الثلث، أو النصف، أو ما شاء، فلو قال: على أن لك من الربح مائة والباقي لي لم يجز، إذ ربما لا يكون الربح مائة.

الركن الثالث: العمل الذي على العامل، وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقة

(١) القراض: هو ما يسميه بعض الفقهاء «شركة المضاربة»، وهي أن يدفع مالاً معلوماً لعامل يتجر به بجزء معلوم مشاع من ربحه.

عليه بتعيين وتأقيت، فلو شرط أن يشتري بالمال ماشية ليطلب نسلها فيقتسمان النسل لم يصح، لأن القراض مأذون فيه في التجارة وهو البيع والشراء.

العقد السادس: الشركة

وهي أربعة أنواع: ثلاثة منها باطلة وهي:

(الأولى): شركة المفاوضة، وهي أن يقولا: تفاوضنا لنشترك في كل ما لنا وعلينا، فهي باطلة.

(الثانية): شركة الأبدان، وهو أن يتشارطا الاشتراك في أجرة العمل، فهي باطلة.

(الثالثة): شركة الوجوه، وهو أن يكون لأحدهما حشمة وقول مقبول، فيكون من جهته التنفيل ومن جهة غيره العمل، وهذا أيضاً باطل.

وإنما الصحيح: العقد الرابع المسمى شركة العنان، وهو أن يختلط مالاهما بحيث يتعذَّر التمييز بينهما إلاَّ بقسمه، ويأذن كل واحد منهما لصاحبه في التصرف. ثم حكمهما توزيع الربح والخسران على قدر المالين، ولا يجوز أن يغير ذلك بالشرط.

* * *

فهذا القدر من علم الفقه يجب تعلمه على كل مكتسب، وإلاَّ اقتحم الحرام من حيث لا يدري.

وأما معاملة القصاب والخباز والبقال، فلا يستغني عنها المكتسب وغير المكتسب. والخلل فيها من ثلاثة وجوه:

- من إهمال شروط البيع.
- أو إهمال شروط السلم.
- أو الاقتصار على المعاطاة.

وذلك مما نرى القضاء بإباحته للحاجة.

***

البَابُ الثَالِث

العَدْلُ فِي المعَامَلَة

اعلم أن المعـاملة قد تجـري على وجه يحكم المفتي بصحتهـا وانعقـادهـا، ولكن تشتمـل على ظلم يتعرض بـه المعـامـل لسخط الله تعـالى، إذ ليس كـل نهي يقتضي فسـاد العقد، وهـذا الظلم يعنى بـه: ما استضـر به الغيـر، وهـو منقسم إلى ما يعم ضرره، وإلى ما يخص المعامل.

القسم الأول: فيما يعم ضرره:

وهو الاحتكار: فبائع الطعام يدَّخر الطعام ينتـظر به غـلاء الأسعار، وهـو ظلم عام، وصاحبه مذموم في الشرع. وذلك في وقت قلة الأطعمة وحـاجة النـاس إليه، حتى يكـون في تأخيـر بيعه ضـرر ما، فـأما إذا اتسعت الأطعمـة وكثـرت، واستغنى الناس عنها، ولم يرغبوا فيها إلَّا بقيمة قليلة، فانتظر صاحب الطعام ذلك، ولم ينتظر قحطاً، فليس في هذا إضرار.

وإذا كـان الـزمـان زمـان قحط فينبغي أن يقضى بتحـريمـه، ويعـول في نفي التحريم وإثباته على الضرار، فإنه مفهوم قطعاً من تخصيص الطعام.

وإذا لم يكن ضرار، فلا يخلو احتكار الأقوات عن كراهية، فإنه ينتظر مبادىء الضرار، وهو ارتفاع الأسعار، وانتظار مبادىء الضرار محذور كانتظار عين الضـرار، ولكنه دونه، فبقدر درجات الإضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم.

القسم الثاني: ما يخصُّ ضرره المُعامل:

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم، وإنما العدل أن لا يُضر بـأخيه المسلم. والضابط الكلي فيه: أن لا يحب لأخيه إلَّا ما يحب لنفسه، فكل ما لو عومل بـه شق

عليه وثقل على قلبه، فينبغي أن لا يعامل غيره به. وتفصيله في أربعة أمور:

- أن لا يثني على السلعة بما ليس فيها.
- وأن لا يكتم من عيوبها شيئاً.
- وأن لا يكتم وزنها ومقدارها.
- وأن يصدق في سعرها.

أما الأول: فهو ترك الثناء، فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب، فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كذباً، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة. وإن أثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان، إلاَّ أن يثني على السلعة بما فيها مما لا يعرفه المشتري.

ولا ينبغي أن يحلف ألبتة، فإن كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس، وهي من الكبائر، وإن كان صادقاً فقد جعل الله عرضة لأيمانه. وقد أساء فيه، إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة. وفي الخبر: «اليمين الكاذبة منفقة للسلعة، ممحقة للبركة»[1].

الثاني: أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيِّها وجليِّها، ولا يكتم منها شيئاً فذلك واجب، فإن أخفاه كان ظالماً غاشاً، والغش حرام. وكان تاركاً للنصح في المعاملة، والنصح واجب.

ويدل على تحريم الغش، ما روي أنه ﷺ مرَّ برجل يبيع طعاماً فأعجبه، فأدخل يده فيه فرأى بللاً، فقال: «ما هذا؟» قال: أصابته السماء، قال: «فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غشنا فليس منا»[2].

ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب، ما روي أن النبي ﷺ لما بايع جريراً على الإسلام، ذهب لينصرف، فجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم[3]، فكان جرير إذا قام إلىٰ السلعة يبيعها بصَّر عيوبها ثم خيَّره وقال: إن

---

(١) متفق عليه (خ ٢٠٨٧، م ١٦٠٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠١).
(٣) متفق عليه (خ ٧٢٠٤، م ٥٦).

شئت فخذ، وإن شئت فاترك.

فقد فهموا من النصح: أن لا يرضى لأخيه إلاَّ ما يـرضاه لنفسـه، ولـم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات. بل اعتقدوا أنـه من شروط الإسـلام الداخلة تحت بيعتهم. ولن يتيسر ذلك على العبد إلاَّ بأن يعتقد أمرين:

أحدهما: أن تلبيسه العيوب، وترويجه السلع لا يـزيد في رزقـه، بل يمحقـه ويذهب ببركته، وما يجمعه من مفرقات التلبيسات يهلكه الله دفعة واحدة. قال ﷺ: «البيعـان إذا صدقـا ونصحا بـورك لهما في بيعهمـا، وإذا كتما وكـذبا نـزعت بـركـة بيعهما»[1]. فإذاً: لا يزيد مال من خيانـة، كما لا ينقص من صـدقة. ومن لا يعـرف الـزيادة والنقصـان إلاَّ بالميـزان لم يصـدق بهـذا الحـديث. ومن عـرف أن الـدرهم الواحد قـد يبارك فيـه حتى يكون سبباً لسعادة الإنسـان، والآلاف قد ينـزع الله منها البركة حتى تكون سبباً لهلاك مالكهـا.. عرف معنى قـولنا: إن الخيـانة لا تـزيد في المال.

الثاني: أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا، وأن فوائـد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمـر، وتبقى مظالمهـا وأوزارها، فكيف يستجيـز العاقـل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، والخير كله في سلامة الدين؟!.

والغش حـرام في البيـوع والصنـائـع جميعـاً، ولا ينبغي أن يتهـاون الصـانـع بعمله، على وجه لو عامله به غيره لما ارتضـاه لنفسه، بـل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها، ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب، فبذلك يتخلص.

ومن هذا الفن ما سئل عنه أحمد بن حنبل[2] رحمه الله عن (الرفـو)[3] بحيث

---

(١) متفق عليه (خ ٢٠٧٩، م ١٥٣٢).

(٢) الإمام أحمد بن حنبل، صاحب المـذهب المعروف من المـذاهب الأربعة التي عمت بـلاد المسلمين طـاف أكثـر البـلاد المسلمـة في طلب العلم. وضـــرب وسجن في فتنـة «خلق القرآن»، وله «المسند» الذي جمع فيه أكثر من ثلاثين ألف حديث. توفي عام (٢٤١)هـ.

(٣) رفا الثوب: أصلحه.

لا يتبين، قال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه، وإنما يحل للرفَّا إذا علم أنه يظهره، أو أنه لا يريده للبيع[1].

الثالث: ألا يكتم في المقدار شيئاً، وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل. فينبغي أن يكيل كما يكتال. قال الله تعالى:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾[2].

ولا يخلص من هذا إلاَّ بأن يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ، إذ العدل الحقيقي قلَّما يتصور. فإن من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه.

وكان بعضهم يقول: لا أشتري الويل من الله بحبة. فكان إذا أخذ نقص نصف حبة، وإذا أعطى زاد حبة.

وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها.

وبالجملة: كل من ينتصف لنفسه من غيره، ولو في كلمة، ولا ينصف بمثل ما ينتصف فهو داخل تحت قوله تعالى:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ ﴾. الآيات.

فإن تحريم ذلك في المكيل ليس لكونه مكيلاً، بل لكونه أمراً مقصوداً ترك العدل والنصفة فيه، فهو جار في جميع الأعمال.

وكل من خلط بالطعام تراباً أو غيره، ثم كاله فهو من المطففين في الكيل، وكل قصاب وزن مع اللحم عظماً لم تجرِ العادة بمثله، فهو من المطففين في الوزن، وقس على هذا سائر التقديرات.

---

(١) أي إنما يحل للرفَّا أن يرفوه إذا علم أن صاحبه يظهره للمشتري أو أنه يصلحه لنفسه وليس للبيع.

(٢) سورة المطففين: الآية (١ ــ ٣).

الـرابـع: أن يصـدق في سعـر الـوقت، ولا يخفي منـه شيئـاً، فقـد نهى رسول الله ﷺ عن تلقي الركبان، ونهى عن النجش[1].

أمـا تلقي الركبـان، فهو أن يستقبـل الرفقـة ويتلقّى المتاع ويكـذب في سعـر البلد.

والنجش: أن يتقدم إلى البائـع بين يدي الـراغب المشتري. ويـطلب السلعة بزيادة وهو لا يريـدها، وإنمـا يريـد تحريـك رغبة المشتـري فيها، فهـذا إن لم تجرِ مواطأة مع البائع فهو فعل حرام من صـاحبه والبيـع منعقد، وإن جـرى مواطـأة ففي ثبوت الخيار خلاف، والأولى إثبات الخيار.

ونهى ﷺ أيضاً: أن يبيع حـاضر لبـاد[2]. وهو أن يقـدم البدوي البلد، ومعـه قوت يريد أن يسارع إلى بيعـه، فيقول لـه الحضري: اتـركه عنـدي حتى أغالي في ثمنـه وأنتظر ارتفـاع سعـره. وهـذا في القـوت محـرم، وفي سـائـر السلع خـلاف، والأظهر تحريمه لعموم النهي.

فهذه المناهي تدل على أنه لا يجوز أن يلبِّس على البائع والمشتري في سعـر الوقت، ويكتم منه أمراً لو علمه لما أقدم على العقد. ففعـل هذا من الغش الحـرام المضاد للنصح الواجب.

*
**

---

(١) حـديث تلقي الركبـان: متفق عليه من حـديث ابن عباس وأبـي هـريرة، وحـديث النجش: متفق عليه من حديث ابن عمر وأبـي هريرة (خ ٢١٥٠، م ١٤١٣ و ١٥١٥).

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس وأبـي هريرة (خ ٢١٤٠، م ١٤١٣).

الباب الرابع

الإحسان في المعاملة

قد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً، والعدل سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال. والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح. ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة.

فلا ينبغي أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم، ويدع أبواب الإحسان وقد قال الله تعالى:

﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾(1).

وقال عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾(2).

وقال سبحانه:

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ ﴾(3).

ونعني بالإحسان: فعل ما ينتفع به المعامل، وهو غير واجب عليه، ولكنه تفضل منه، فإن «الواجب» يدخل في باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه. وتنال رتبة «الإحسان» بواحد من ستة أمور:

---

(1) سورة القصص: الآية (٧٧).

(2) سورة النحل: الآية (٩٠).

(3) سورة الأعراف: الآية (٥٦).

الأول: في المغابنة[1]، فينبغي أن لا يَغْبُنَ صاحبه بما لا يُتَغابن به في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه، لأن البيع للربح، ولا يمكن ذلك إلاّ بغبن ما، ولكن يراعى فيه التقريب.

فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد، إما لشدة رغبته، أو لشدة حاجته في الحال إليه، فينبغي أن يمتنع من قبوله، فذلك من الإحسان.

روي عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة وبعضها بعشرة، فباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة، فلما عرف، لم يزل يطلب ذاك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده، فقال له: إن الغلام قد غلط، فباعك ما يساوي خمسة بعشرة، فقال: يا هذا قد رضيت. فقال: وإن رضيت فإنّا لا نرضى لك إلاّ ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك، وإما أن نرد عليك خمسة، وإما أن تردَّ شقتنا وتأخذ دراهمك، فقال: أعطني خمسة، فرد عليه خمسة وانصرف.

الثاني: في احتمال الغبن، والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيف، أو شيئاً من فقير، فلا بأس أن يتحمل الغبن ويتساهل، ويكون به محسناً وداخلاً في قوله ﷺ: «رحم الله امرءاً سهل البيع سهل الشراء»[2].

أما إذا اشترى من غني تاجر، يطلب الربح زيادة على حاجته، فاحتمال الغبن منه ليس محموداً، بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد.

وصف بعضهم عمر رضي الله عنه فقال: كان أكرم من أن يَخْدَع، وأعقل من أن يُخدع.

وكان الحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون في الشراء، ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال، فقيل لبعضهم: تستقصي في شرائك على

---

(١) غبنه في البيع: خدعه.

(٢) رواه البخاري بلفظ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى». (خ ٢٠٧٦).

اليسيـر، ثم تهب الكثير ولا تبـالي، فقال: إن الـواهب يعطي فضله، وإن المغبـون يغبن عقله.

الثالث: في استيفاء الثمن، وسائر الديون. والإحسـان فيه مـرة بالمسـامحة، وحط البعض، ومرة بالإمهال والتأخير، ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد، وكـل ذلـك مندوب إليـه. قـال ﷺ: «رحم الله امـرءاً سهـل البيـع سهـل الشـراء، سهـل الاقتضاء»[1].

وذكـر رسول الله ﷺ رجـلاً كان مسـرفاً على نفسـه، حـوسب فلم يـوجـد لـه حسنة، فقيل له: هل عملت خيراً قط؟ فقال: لا، إلّا أني كنت رجلاً أداين الناس، فأقول لفتياني: سامحوا الموسر، وانظروا المعسـر ــ وفي لفظ آخر: وتجـاوزوا عن المعسر ــ، فقال الله تعالى: نحن أحق بذلك منه، فتجاوز الله عنه وغفر له[2].

ونـظر رسول الله ﷺ إلى رجـل يلازم رجـلاً بدين، فـأومأ إلى صـاحب الدين بيده: أن ضع الشطر ففعل، فقال للمديون: «قم فأعطه»[3].

الرابع: في توفية الدين، ومن الإحسان فيه حسن القضاء، وذلـك بأن يمشي إلى صـاحب الحق، ولا يكلفـه أن يمشي إليـه يتقـاضـاه. فقـد قـال ﷺ: «خيـركم أحسنكم قضاء»[4]. ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليـه ولو قبـل وقته. وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن. وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر.

ومهما كلمه صـاحب الحق بكلام خشن فليحتمله، وليقـابله باللطف، اقتـداءً برسول الله ﷺ إذ جاءه صاحب دين فجعـل يشدد الكـلام، فهمَّ به أصحـابه فقـال: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً»[5].

---

(١) انظر الحاشية قبلها.
(٢) رواه البخاري برقم (٣٤٨٠) ومسلم برقم (١٥٦٢).
(٣) متفق عليه (خ ٤٥٧، م ١٥٥٨).
(٤) متفق عليه (خ ٢٣٠٦، م ١٦٠١).
(٥) هو جزء من الحديث قبله (متفق عليه).

الخامس: أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلاَّ متندم مستضر بالبيع، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه. قال ﷺ: «من أقال نادماً صفقته، أقال الله عثرته يوم القيامة»[1].

السادس: أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة، وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم يظهر لهم ميسرة. فقد كان في صالحي السلف من له دفتران للحساب، أحدهما ترجمته مجهولة، فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء.

ولم يكن هذا يعدُّ من الخيار، بل عدَّ من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلاً ولا يجعله ديناً.

فهذه طرق تجارات السلف، وقد اندرست، والقائم بها محيٍ لهذه السنَّة.

وبالجملة: التجارة محك الرجال وبها يمتحن دين الرجل وورعه، ولذلك قيل: إذا أثنى على الرجل جيرانه في الحضر، وأصحابه في السفر، ومعاملوه في الأسواق، فلا تشكّوا في صلاحه.

***

(١) أخرجه أبو داود والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم (ع).

البَابُ الخَامِسُ

في شَفَقَةِ التَّاجِرِ على دِيْنِه

ولا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معـاده، فيكون عمـره ضائعـاً، وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما ينال في الدنيـا، فيكون اشتـرى الحياة الدنيـا بالآخـرة. بل العـاقل ينبغي أن يشفق على نفســه، وشفقته على نفســه بحفظ رأس ماله، ورأس ماله دينه وتجارته فيه.

قـال معاذ بن جبـل رضي الله عنه في وصيتـه: إنه لا بـدَّ لك من نصيبـك في الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فابدأ بنصيبك من الآخرة فخذه، فإنك ستمر على نصيبك من الدنيا فتنظمه.

وإنما تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور:

الأول: حسن النيـة في ابتـداء التجـارة، فلينـو بهـا الاستعفـاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس استغناءً بالحلال عنهم، واستعـانة بمـا يكسبه على الـدين، وقياماً بكفاية العيال، ليكون من جملة المجاهدين به، ولينو النصح للمسلمين، وأن يحب لسائر الخلق ما يحب لنفسه، ولينو اتباع طـريق العدل والإحسـان في معاملتـه كما ذكرناه.

الثاني: أن يقصد القيام في صنعته، أو تجارته، بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعات والتجارات لـو تركت بـطلت المعايش، وهلك أكثـر الخلق. فانتـظام أمر الكل بتعاون الكل، وتكفل كل فريق بعمل. ولـو أقبل كلهم على صنعـة واحدة لتعطلت البواقي.

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وأسواق الآخرة المساجد، قال الله تعالى:

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾(٢).

فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته، فيلازم المسجد ويواظب على الأوراد. كان عمر رضي الله عنه يقول للتجار: (اجعلوا أول النهار لآخرتكم وما بعده لدنياكم).

الرابع: أن يلازم ذكر الله تعالى في السوق، ويشتغل بالتسبيح والتهليل. فذكر الله تعالى في السوق بين الغافلين أفضل.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج، فهو مكروه.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتقي مواقع الشبهات ومظان الريب. ولا ينظر إلى الفتاوى، بل يستفتي قلبه، فإذا وجد فيه حزازة اجتنبه.

وإنما الواجب: أن ينظر التاجر إلى من يعامله، فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله، لأنه معين على الظلم بذلك.

السابع: ينبغي أن يراقب معاملته مع كل واحد من معامليه، فإنه مراقب ومحاسب.

* * *

فهذا ما على المكتسب في عمله من: العدل، والإحسان، والشفقة على الدين، فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين وإن أضاف إليه الإحسان كان من المقربين، وإن راعى مع ذلك وظائف الدين ـ كما ذكر في الباب الخامس ـ كان من الصديقين.

***

(١) سورة النور: الآية (٣٧).

(٢) سورة النور: الآية (٣٦).

الكتاب الرابع

الحلال والحرام

ربع العادات

الباب الأول

فضيلة الحلال ومذمة الحرام

فضيلة الحلال ومذمة الحرام:

قال الله تعالى:

﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾[1].

أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل، وقيل المراد به الحلال.

وقال تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾.

ثم قال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.

ثم قال: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾[4].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٥١).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٨٨).

(٣) سورة النساء: الآية (١٠).

(٤) سورة البقرة: الآيتان (٢٧٨ ــ ٢٧٩).

ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾[1].

جعل آكل الربا أول الأمر مؤذناً بمحاربة الله، وفي آخره متعرضاً للنار.

والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى.

وقال ﷺ: «كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به»[2].

و «ذكر ﷺ الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»[3].

وأما الآثار: فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده، ثم سأل عبده فقال: تكهنت لقوم فأعطوني، فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء[4].

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما أدرك من أدرك، إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه.

وقال ابن المبارك: ردُّ درهم من شبهة، أحب إليّ من أن أتصدق بمائة ألف درهم.

وقد كان بين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صحبة طويلة، فهجره أحمد إذ سمعه يقول: إني لا أسأل أحداً شيئاً، ولو أعطاني الشيطان شيئاً لأكلته، حتى اعتذر يحيى وقال: كنت أمزح، فقال: تمزح بالدين، أما علمت أن الأكل من الدين، قدمه الله تعالى على العمل الصالح فقال:

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٧٥) وهي قبل الآيتين السابقتين. فكان الأولى أن يقول: وقال.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث كعب بن عجرة وحسنه (ع).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٠١٥).

(٤) أخرجه البخاري من حديث عائشة (٣٨٤٢).

﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾(١).

وقال سهل التستري: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال: أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهي من الظاهر والباطن، والصبر على ذلك إلى الموت.

أصناف الحلال ومداخله:

اعلم أن تفصيل الحلال والحرام إنما يتولى بيانه كتب الفقه. ونحن نشير إلى مجامعه في سياق تقسيم: وهو أن المال إنما يحرم إما لمعنى في عينه، أو لخلل في جهة اكتسابه.

القسم الأول: الحرام لصفة في عينه: كالخمر والخنزير وغيرهما، وتفصيله أن الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام، فإنها إما أن تكون من المعادن كالملح والطين وغيرهما، أو من النبات، أو من الحيوانات.

ــ أما المعادن: فهي أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها، فلا يحرم أكله إلا من حيث إنه يضر بالآكل. وفائدة قولنا: إنه لا يحرم ــ مع أنه لا يؤكل ــ أنه لو وقع شيء منها في مرقة أو طعام مائع لم يصر به حراماً.

ــ أما النبات: فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل، أو يزيل الحياة، أو الصحة. فمزيل العقل: البنج والخمر وسائر المسكرات. ومزيل الحياة: السموم. ومزيل الصحة: الأدوية في غير وقتها. وكأن مجموع هذا يرجع إلى الضرر، إلا الخمر والمسكرات، فإن الذي لا يسكر منها أيضاً حرام مع قلته لعينه وصفته.

ــ وأما الحيوانات فتنقسم إلى ما يؤكل، وإلى ما لا يؤكل، وتفصيله في كتاب الأطعمة والنظر فيه يطول. وما يحل أكله فإنما يحل إذا ذبح ذبحاً شرعياً، روعي فيه شروط الذبائح والآلة والمذبح، على ما يذكر في كتب الفقه، وما لم يذبح ذبحاً شرعياً أو مات فهو حرام، ولا يحل إلا ميتتان السمك والجراد.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٥١).

القسم الثاني: ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه، ويتحصل منه ستة أقسام:

الأول: ما يؤخذ من غير مالك: كنيل المعادن، وإحياء الموات، والاصطياد.. فهذا حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذي حرمة من الآدميين.

الثاني: المأخوذ قهراً ممن لا حرمة له، وهي الفيء والغنيمة.. وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الخمس، وقسموها بين المستحقين بالعدل.

الثالث: ما يؤخذ قهراً، عند امتناع من وجب عليه، فيؤخذ دون رضاه. وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق كأخذ الزكاة والنفقة [ممن امتنع عن أدائهما].

الرابع: ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة، وذلك حلال، إذا روعيت الشروط، كالبيع..

الخامس: ما يؤخذ عن رضا من غير عوض، وهو حلال إذا روعيت فيه الشروط، كالهبات.

السادس: ما يحصل بغير اختيار كالميراث، وهو حلال إذا كان المورث قد اكتسب المال من جهات حلال. ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا، وإخراج الزكاة والحج والكفارة إن كان واجباً.

فهذه مجامع مداخل الحلال والحرام.

درجات الحلال والحرام:

اعلم أن الحرام كله خبيث، لكن بعضه أخبث من بعض، والحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، وأصفى من بعض، فلذلك نقول: الورع عن الحرام على أربع درجات:

الأولى: **ورع العدول**، وهو الذي يجب الفسق باقتحامه، وتسقط العدالة به، ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه، وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى

الفقهاء. وهو الذي نريده بـ «الحرام المطلق» ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد.

الثانية: ورع الصالحين، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ولكن المفتي يرخص في التناول بناء عل الظاهر، فهو من مواقع الشبهة على الجملة. فلنسم التحرج عن ذلك: ورع الصالحين، وهو في الدرجة الثانية. وأمثلتها: كل شبهة لا يجب اجتنابها ولكن يستحب ذلك، وهو الذي ينزل عليه قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»(١)، ونحمله على نهي التنزيه.

يحكى عن ابن سرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم، لأنه حاك في قلبه شيء، مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به.

الثالثة: ورع المتقين، وهي ما لا تحرمه الفتوى، ولا شبهة في حله، ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرَّم، وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس. قال ﷺ: «لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس»(٢).

ومن ذلك: ما روي أن عمر رضي الله عنه وصله مسك من البحرين، فقال: وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت امرأته عاتكة: أنا أجيد الوزن، فسكت عنها، ثم أعاد القول، فأعادت الجواب، فقال: لا، أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار، فتمسحين بها عنقك، فأصيب بذلك فضلاً على المسلمين.

وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين، فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة، وقال ـ لما استبعد ذلك منه ـ: وهل ينتفع منه إلا بريحه؟

وأخذ الحسن رضي الله عنه تمرة من تمر الصدقة ـ وكان صغيراً ـ فقال النبي ﷺ: «كخ، كخ»(٣) أي ألقها.

---

(١) أخرجه النسائي والترمذي والحاكم وصححاه (ع).

(٢) رواه ابن ماجه (ع) ورواه الترمذي والحاكم وقال الترمذي: حسن غريب (ش). أقول: المراد بقوله غريب: التفرد لا الضعف. انظر «الحديث النبوي» للدكتور محمد لطفي الصباغ ص ٣٢٣.

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٤٩١).

الرابعة: ورع الصديقين، الامتناع مما لا بأس به أصلاً، ولا يخاف أن يؤدي إلى ما به بأس، ولكنه يتناول لغير الله، وعلى غير نية التقوي به على عبادة الله.

لذلك تقيأ الصديق رضي الله عنه من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة، مع أنه شربه عن جهل، وكان لا يجب إخراجه، ولكن تخلية البطن عن الخبيث ورع الصديقين.

والتحقيق: أن الورع له أول، وهو ورع العدول، وله غاية وهو ورع الصديقين، فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة، وأسرع جوازاً على الصراط.

*
**

الباب الثاني

في مراتب الشبهات ومثاراتها

قال رسول الله ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات واقع الحرام. كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه..»[1].

فهذا الحديث نص في إثبات الأقسام الثلاثة، والمشكل منها القسم المتوسط، الذي لا يعرفه كثير من الناس، وهو «الشبهة»، فلا بد من بيانها وكشف الغطاء عنها، فإن ما لا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل، فنقول:

الحلال المطلق: هو الذي خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عينه، وانحل عن أسبابه ما تطرَّق إليه تحريم أو كراهية. ومثاله الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر.

والحرام المحض: هو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها، كالخمر، والنجاسة في البول، أو حصل بسبب منهي عنه قطعاً، كالمحصل بالظلم والربا ونظائره.

فهذان طرفان ظاهران.

ويلتحق بالطرفين، ما تحقق أمره، ولكنه احتمل تغيره، ومن هذا الجنس من يستعير داراً فيغيب عنه المعير، فيخرج ويقول: لعله مات وصار الحق للوارث، فهذا وسواس ــ ولنسمِّ هذا الفن ورع الموسوسين ــ إذ لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك.

(١) متفق عليه (خ ٥٢، م ١٥٩٩).

والشبهة المحذورة: ما تنشأ من الشك.

والشك، عبارة عن اعتقادين متقابلين، صدرا عن سببين، فما لا سبب له لا يثبت عقده في النفس؛ حتى يساوي العقد المقابل له فيصير شكاً.

فالشبهة نعني بها: ما اشتبه علينا أمره، بأن تعارض لنا فيه اعتقادان، صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين. ومثارات الشبهة أربعة[1]:

المثار الأول: الشك في السبب المحلل والمحرم

وذلك لا يخلو: إما أن يكون متعادلاً، أو غلب أحد الاحتمالين.

فإن تعادل الاحتمالان، كان الحكم لما عرف قبله، فيستصحب ولا يترك بالشك.

وإن غلب أحد الاحتمالين عليه، بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب. ولا يتبين هذا إلا بالأمثال والشواهد، فلنقسمه إلى أقسام أربعة.

القسم الأول: أن يكون التحريم معلوماً من قبل، ثم يقع الشك في المحلل، فهذه شبهة يجب اجتنابها، ويحرم الإقدام عليها.

مثاله: أن يرمي إلى صيد فيجرحه، ويقع في الماء، فيصادفه ميتاً، ولا يدري أنه مات بالغرق أو بالجرح. فهذا حرام، لأن الأصل التحريم، إلا إذا مات بطريق معين، وقد وقع الشك في الطريق، فلا يترك اليقين بالشك.

وعلى هذا ينزل قوله ﷺ لعدي بن حاتم: «لا تأكله فلعله قتله غير كلبك»[2].

القسم الثاني: أن يعرف الحل، ويشك في المحرم، فالأصل الحل وله الحكم.. إذ ثبت في المياه والنجاسات والأحداث والصلوات، أن اليقين لا يجب تركه بالشك، وهذا في معناه.

---

(١) قال المصنف: هي خمسة، ولكنه ذكر أربعة فقط.

(٢) متفق عليه (خ ٥٤٨٤، م ١٩٢٩).

القسم الثالث: أن يكون الأصل التحريم، ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب، فهو مشكوك فيه، والغالب حله، واجتنابه من الورع.

مثاله: أن يرمي إلى صيد، فيغيب، ثم يدركه ميتاً، وليس عليه أثر سوى سهمه، ولكن يحتمل أنه مات بسبب آخر، فالمختار أنه حلال. لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق، والأصل: أنه لم يطرأْ غيره عليه، فطريانه مشكوك فيه، فلا يدع اليقين بالشك.

القسم الرابع: أن يكون الحل معلوماً، ولكن يغلب على الظن طريان محرم، بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً، فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم، إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف، ولا يبقى له حكم مع غالب الظن.

ومثاله: أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين، بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن، فتوجب تحريم شربه، كما أوجبت منع الوضوء به.

المثار الثاني للشبهة: شك منشؤه الاختلاط

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال، ويشتبه الأمر، ولا يتميز. وهو ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن تستبهم العين بعدد محصور، كما لو اختلطت الميتة بمذكاة أو بعشر مذكيات، أو اختلطت رضيعة بعشر نسوة. فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع.

وهذا إذا اختلط حلال محصور بحرام محصور، فإن اختلط حلال محصور بحرام غير محصور، فلا يخفى أن وجوب الاجتناب أولى.

القسم الثاني: حرام محصور بحلال غير محصور، كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم اجتناب نكاح نساء أهل البلد، بل له أن ينكح من شاء منهن. وهذا لا يجوز أن يعلل بكثرة الحلال، بل العلة الغلبة والحاجة جميعاً. وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً، لا يلزمه ترك الشراء والأكل. فإن ذلك حرج، وما في الدين من حرج.

ويعلم هذا بأنه لما سرق في زمان رسول الله ﷺ مجن، وغل واحد في الغيمة عباءة، لم يمتنع أحد من شراء المجانّ والعباءِ في الدنيا.

وبالجملة: إنما تنفك الدنيا عن الحرام إذا عصم الخلق كلهم عن المعاصي، وهو محال، فاجتناب هذا من ورع الموسوسين.

فإن قلت: فكل عدد محصور في علم الله تعالى. فما حد المحصور؟

فنقول: إنما يضبط بالتقريب، فكل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عدهم بمجرد النظر، كالألف والألفين فهو غير محصور. وما سهل كالعشرة والعشرين فهو محصور.

القسم الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر، بحلال لا يحصر، كحكم الأموال في زماننا هذا، والذي نختاره: أنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يُتناول شيء بعينه احتمل أنه حرام وأنه حلال. إلا أن يقترن بتلك العين علامة، فتركه ورع، وأخذه حلال لا يفسق به آكله.

فإن قيل: فلو قدر غلبة الحرام، وقد اختلط غير محصور بغير محصور، فماذا تقولون فيه إذا لم يكن في العين المتناولة علامة خاصة؟

فتقول: الذي نراه أن تركه ورع، وأن أخذه ليس بحرام، لأن الأصل الحل، ولا يرفع إلا بعلامة معينة، كما في طين الشوارع ونظائرها.

المثار الثالث: أن يتصل بالسبب المحلل معصية

وذلك كالذبح بالسكين المغصوبة، والبيع على بيع الغير. فكل نهي ورد في العقود ولم يدل على فساد العقد فإن الامتناع من جميع ذلك ورع. لأن تناول الحاصل من هذه الأمور مكروه.

ومثله كل تصرف يفضي في سياقه إلى معصية، كبيع العنب من الخمار، وبيع السلاح من قطاع الطريق، وقد اختلف العلماء في صحة ذلك، وفي حل الثمن المأخوذ منه. والأقيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال، والرجل عاص بعقده

كما يعصي بالذبح بالسكين المغصوب، والذبيحة حلال، ولكنه يعصي عصيان الإعانة على المعصية، إذ لا يتعلق ذلك بعين العقد، فالمأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة، وتركه من الورع المهم، وليس بحرام.

المثار الرابع: الاختلاف في الأدلة

فإن ذلك كالاختلاف في السبب، وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع، أو لتعارض العلامات الدالة، أو لتعارض التشابه.

القسم الأول: أن تتعارض أدلة الشرع، مثل تعارض عمومين من القرآن أو السنة، أو تعارض قياسين، أو تعارض قياس وعموم، وكل ذلك يورث الشك، ويرجع فيه إلى الاستصحاب، أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح، فإن ظهر ترجيح في جانب الحظر وجب الأخذ به، وإن ظهر في جانب الحل جاز الأخذ به ولكن الورع تركه. واتقاء مواضع الخلاف مهم في الورع في حق المفتي والمقلد.

القسم الثاني: تعارض العلامات الدالة على الحل والحرمة، وذلك مثل أن يخبر عدل أنه حرام، وآخر أنه حلال، أو تتعارض شهادة فاسقين.. فإن ظهر ترجيح حكم به، والورع الاجتناب، وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف. وسيأتي تفصيله في باب التعرف والبحث والسؤال.

القسم الثالث: تعارض الأشباه في الصفات التي تناط بها الأحكام. مثاله أن يوصي بمال للفقهاء، فيعلم أن الفاضل في الفقه داخل فيه، وأن الذي ابتدأ التعلم من يوم أو شهر لا يدخل فيه، وبينهما درجات لا تحصى يقع الشك فيها.

فالمفتي يفتي بحسب الظن، والورع الاجتناب، وهذا أغمض مثارات الشبهة، فإن فيها صوراً يتحير المفتي فيها تحيراً لازماً، لا حيلة له فيه. والوجه في هذا ما قاله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[1]. كل ذلك في محل الريب إن توقف المفتي فلا وجه إلا التوقف، وهو أهم مواقع الورع.

***

(١) أخرجه النسائي والترمذي والحاكم وصححاه (ع).

البَابُ الثَّالِثُ

فِي البَحْثِ وَالسُّؤَال

اعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية، أو أردت أن تشتري منه، فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول: هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه، وليس لك أيضاً أن تترك البحث، فتأخذ كل ما لا تتيقن تحريمه، بل السؤال واجب مرة، وحرام مرة، ومندوب مرة، ومكروه مرة، فلا بد من تفصيله.

والقول الشافي فيه: هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة، ومنشأ الريبة ومثارها إما أمر يتعلق بالمال، أو يتعلق بصاحب المال.

المثار الأول: أحوال المالك

وله ثلاثة أحوال: إما أن يكون مجهولاً، أو مشكوكاً فيه، أو معلوماً بنوع ظن يستند إلى دلالة.

الحالة الأولى: أن يكون مجهولاً، والمجهول: هو الذي ليس معه قرينة تدل على فساده وظلمه، ولا ما يدل على صلاحه، فإذا دخلت قرية لا تعرفها، فرأيت رجلاً لا تعرف من حاله شيئاً، ولا عليه علامة تنسبه إلى أهل صلاح، أو أهل فساد فهو مجهول.

وإذا دخلت بلدة غريباً، ودخلت سوقاً، ووجدت رجلاً خبازاً، أو قصاباً، أو غيره، ولا علامة تدل على كونه مريباً، أو خائناً، ولا ما يدل على نفيه، فهو مجهول ولا يدرى حاله. ولا نقول: إنه مشكوك فيه، لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين لهما سببان متقابلان. وأكثر الفقهاء لا يدركون الفرق بين ما لا يدرى حاله، وبين ما يشك فيه.

وقد عرفت ـ مما سبق ـ أن الورع ترك ما لا يدرى. وتكلم جماعة في أشق الأعمال، فقالوا: هو الورع، فقال لهم حسان بن أبي سنان[١]: ما شيء عندي أسهل من الورع، إذا حاك في صدري شيء تركته.

وإنما نذكر الآن حكم الظاهر فنقول: حكم هذه الحالة أن المجهول إن قدم إليك طعاماً، أو حمل إليك هدية، أو أردت أن تشتري من دكانه شيئاً، فلا يلزمك السؤال، بل: يده وكونه مسلماً دلالتان كافيتان في الهجوم على أخذه[٢].

وليس لك أن تقول: الفساد والظلم غالب على الناس، فهذه وسوسة، وسوء ظن بهذا المسلم بعينه. وإن بعض الظن إثم. وهذا المسلم يستحق بإسلامه عليك أن لا تسيء الظن به، فإن أسأت الظن به في عينه لأنك رأيت فساداً في غيره فقد جنيت عليه، وأثمت به في الحال نقداً من غير شك.

ويدل عليه: أنا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم في غزواتهم وأسفارهم، كانوا ينزلون في القرى، ولا يردون القِرى، ويدخلون البلاد ولا يحترزون من الأسواق، وكان الحرام أيضاً موجوداً في زمانهم، وما نقل عنهم سؤال إلا عن ريبة.

الحالة الثانية: أن يكون مشكوكاً فيه بسبب دلالة أورثت ريبة. بأن يكون طويل الشارب، وأن يكون الشعر مفرقاً على رأسه، على دأب أهل الفساد. أو كان يلبس زي أهل الظلم والفساد، أو يشاهد منه الإقدام على ما لا يحل.. فهذه مواضع الريبة.

فإذا أراد أن يشتري من مثل هذا شيئاً، أو يجيبه إلى ضيافة، وهو غريب مجهول عنده لم يظهر له منه إلا هذه العلامات.. فهي دلالات ضعيفة فالإقدام جائز، والترك من الورع.

---

(١) حسان بن أبي سنان البصري أحد العباد الورعين، قال البخاري: كان من عباد أهل البصرة، وقد ترجمه أبو نعيم في الحلية. من أقواله: لولا المساكين ما اتجرت.

(٢) أي: إن كون الرجل مسلماً، والأصل فيه الاستقامة، وكون الشيء تحت يده والأصل فيه أنه وصل إليه عن طريق مشروع، فهذا يحل لك الشراء منه والتعامل معه دون نظر أو توقف. واستعمل المصنف كلمة (الهجوم على أخذه) للدلالة على عدم التردد.

الحالة الثالثة: أن تكون الحالة معلومة بنوع خبرة وممارسة، بحيث يوجب ذلك ظناً في حل المال، أو تحريمه، مثل أن يعرف صلاح الرجل وديانته، وعدالته في الظاهر، وجوَّز أن يكون الباطن بخلافه، فههنا لا يجب السؤال، ولا يجوز، كما في المجهول، فالأولى الإقدام.

المثار الثاني: الشك في المال

وذلك بأن يختلط الحلال بالحرام، كما إذا طرح في سوق أحمال من طعام غصب، واشتراها أهل السوق، فليس يجب على من يشتري في تلك البلدة وذلك السوق أن يسأل عما يشتريه، إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام، فعند ذلك يجب السؤال. فإن لم يكن هو الأكثر فالتفتيش من الورع وليس بواجب. والسوق الكبير حكمه حكم بلد.

والدليل على أنه لا يجب السؤال والتفتيش ـ إذا لم يكن الأغلب الحرام ـ أن الصحابة رضي الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء من الأسواق، وفيها دراهم الربا، وغلول الغنيمة وغيرها، وكانوا لا يسألون في كل عقد، وإنما السؤال نقل عن آحادهم نادراً في بعض الأحوال، وهي محالّ الريبة في حق ذلك الشخص المعين.

***

البَابُ الرَّابِعُ
في خُرُوجِ ٱلتَّائِبِ عَنِ ٱلمَظَالِمِ

اعلم أن من تاب وفي يده مختلط، فعليه وظيفة في تمييز الحرام وإخراجه، ووظيفة أخرى في مصرف المخرج، فلينظر فيهما:

النظر الأول: كيفية التمييز والإخراج:

اعلم أن كل من تاب، وفي يده ما هو حرام، معلوم العين، من غصب أو وديعة أو غيره، فأمره سهل، فعليه تمييز الحرام.

وإن كان ملتبساً مختلطاً، فلا يخلو: إما أن يكون في مال هو من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان، وإما أن يكون في أعيان متمايزة كالدور والثياب، فإن كان في المتماثلات، أو كان شائعاً في كله، كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب في بعضها في المرابحة وصدق في بعضها، أو من غصب دهناً وخلطه بدهن نفسه، أو فعل ذلك في الحبوب، أو الدراهم أو الدنانير، فلا يخلو ذلك: إما أن يكون معلوم القدر أو مجهولاً.

فإن كان معلوم القدر، مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام، فعليه تمييز النصف.

وإن أشكل فله طريقان: أحدهما: الأخذ باليقين، والآخر: الأخذ بغالب الظن، ولكن الورع في الأخذ باليقين.

فإن أراد الورع، فطريق التحري والاجتهاد أن لا يستبقي إلاَّ القدر الذي يتيقن أنه حلال. وإن أراد الأخذ بالظن، فطريقه ـ مثلاً ـ أن يكون في يده مال تجارة، تيقن أن النصف حلال، وأن الثلث ـ مثلاً ـ حرام، وبقي السدس يشك فيه، فيحكم فيه بغالب الظن.

النظر الثاني: في المصرف:

فإذا أخرج الحرام، فله ثلاثة أحوال:

إما أن يكون له مالك معين، فيجب الصرف إليه، أو إلى وارثه. وإن كان غائباً فينتظر حضوره، أو الإيصال إليه، وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره.

وإما أن يكون لمالك غير معين، وقع اليأس من الوقوف على عينه، ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك، كغلول غنيمة، فإنها بعد تفرق الغزاة، كيف يقدر على جمعهم؟ وإن قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً ــ مثلاً ــ على ألف أو ألفين، فهذا ينبغي أن يتصدق به.

وإما أن يكون من مال الفيء، والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة، فيصرف ذلك إلى القناطر والمساجد والرباطات.. وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الانتفاع بها كل من يمر بها من المسلمين، ليكون عاماً للمسلمين.

فإن قيل: ما دليل جواز التصدق بما هو حرام؟ وكيف يتصدق بما لا يملك؟ وقد ذهب جماعة إلى أن ذلك غير جائز لأنه حرام. وحكي عن الفضيل أنه وقع في يده درهمان، فلما علم أنهما من غير وجههما رماهما بين الحجارة وقال: لا أتصدق إلاَّ بالطيب، ولا أرضى لغيري ما لا أرضاه لنفسي.

فنقول: نعم، ذلك له وجه واحتمال، وإنما اخترنا خلافه للخبر والأثر والقياس.

أما الخبر، فأمر رسول الله ﷺ بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت إليه فكلمته بأنها حرام، إذ قال ﷺ: «أطعموها الأسارى»[1].

وأما الأثر: فإن ابن مسعود رضي الله عنه اشترى جارية، فلم يظفر بمالكها

---

(١) أخرجه أحمد وإسناده جيد (ع). ورواه أبو داود (ش).

لينقده الثمن، فطلبه كثيراً فلم يجده، فتصدق بالثمن وقال: اللَّهم هذا عنه إن رضي وإلَّا فالأجر لي.

وسئل الحسن عن توبة الغالّ، ومايؤخذ منه بعد تفرق الجيش؟ فقال: يتصدق به.

وقد ذهب أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وجماعة من الورعين إلى ذلك.

وأما القياس فهو أن يقال: إن هذا المال مردد بين أن يضيع، وبين أن يصرف إلى خير، إذ قد وقع اليأس من مالكه، وبالضرورة يعلم أن صرفه إلى خير أولى من إلقائه في البحر. فإنّا إن رميناه في البحر فقد فوتناه على أنفسنا وعلى المالك ولم تحصل منه فائدة. وإذا رميناه في يد فقير يدعو لمالكه، حصل للمالك بركة دعائه، وحصل للفقير سد حاجته.

وأما قول القائل: لا نتصدق إلَّا بالطيب، فذلك إذا طلبنا الأجر لأنفسنا، ونحن الآن نطلب الخلاص من المظلمة لا الأجر. وترددنا بين التضييع وبين التصدق، ورجحنا جانب التصدق على التضييع.

وقول القائل: لا نرضى لغيرنا ما لا نرضاه لأنفسنا، فهو كذلك، ولكنه علينا حرام لاستغنائنا عنه، وللفقير حلال إذ أحله دليل الشرع، وإذا اقتضت المصلحة التحليل وجب التحليل، وإذا حل فقد رضينا له الحلال..

***

البَابُ الخَامِسُ

فِي مُخَالَطَةِ السَّلَاطِيْنِ وَصِلَاتِهِمْ

صِـلات السلاطيـن:

اعلم أن من أخذ مالاً من سلطان فلا بد له من النظر في أمور:

- في مدخل ذلك إلى يد السلطان، من أين هو؟
- وفي صفته التي بها يستحق الأخذ.
- وفي المقدار الذي يأخذه، هل يستحقه؟

وقد احتج من جوَّز أخذ أموال السلاطين، إذا كان فيها حرام وحلال، بما روي عن جماعة من الصحابة، أنهم أدركوا أيام الأئمة الظلمة وأخذوا الأموال.

والجواب: أن ما نقل من أخذ هؤلاء محصور قليل، بالإضافة إلى ما نقل من ردهم وإنكارهم. وإن كان يتطرق إلى امتناعهم احتمال الورع، فيتطرَّق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتمالات متفاوتة في الدرجة بتفاوتهم في الورع. فإن للورع في حق السلاطين أربع درجات:

الدرجة الأولى: أن لا يأخذ من أموالهم شيئاً أصلاً، كما فعله الورعون منهم، وكما كان يفعله الخلفاء الراشدون، حتى إن أبا بكر رضي الله عنه حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال، فبلغ ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال.

وقال عمر رضي الله عنه: (إني لم أجد نفسي فيه إلاَّ كالوالي مال اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف).

فهذه الدرجة العليا في الورع.

الدرجة الثانية: هو أن يأخذ مال السلطان، ولكن إنما يأخذ إذا علم أن

ما يأخذه من جهة حلال، فاشتمال يد السلطان على حرام آخر لا يضره.

وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار، أو أكثرها، أو ما اختص منها بأكابر الصحابة، والورعين منهم مثل ابن عمر، فإنه كان من المبالغين في الورع، فكيف يتوسع في مال السلطان؟! قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «ما منا أحد إلاَّ مالت به الدنيا إلاَّ ابن عمر». فبهذا يتَّضح أنه لا يظن به وبمن كان في منصبه أنه أخذ ما لا يدري أنه حلال.

الدرجة الثالثة: أن يأخذ ما أخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء، أو يفرِّقه على المستحقين، فإن ما لا يتعين مالكه هذا حكم الشرع فيه، فإذا كان السلطان إن لم يأخذ منه لم يفرقه واستعان به على ظلم، فقد نقول: أخذه منه وتفرقته أولى من تركه في يده.

قال ابن المبارك: إن الذين يأخذون الجوائز اليوم، ويحتجون بابن عمر وعائشة ما يقتدون بهما، لأن ابن عمر فرق ما أخذ، حتى استقرض في مجلسه بعد تفرقته ستين ألفاً، وعائشة فعلت مثل ذلك.

وهكذا فعل الشافعي رحمه الله بما قَبِله من هارون الرشيد، فإنه فرقه عن قرب، حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة.

الدرجة الرابعة: أن لا يتحقق أنه حلال، ولا يفرق، بل يستبقي، ولكن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال.

فإذا فهمت هذه الدرجات تحققت أن إدرارات الظلمة في زماننا لا تجري مجرى ذلك، وأنها تفارقه من وجهين قاطعين:

أحدهما: أن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها.

الثاني: أن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين، كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوفين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين، وحريصين على قبولهم جوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به.

أما الآن، فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردد في الخدمة ثانياً، وبالثناء والدعاء ثالثاً، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادساً، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوي أعماله سابعاً، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً.

فإذاً: لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني، فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه؟ فمن استجرأ على أموالهم، وشبَّه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين.

حكم مخالطة السلاطين:

اعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

الأولى: وهي شرها أن تدخل عليهم.

الثاني: وهي دونها أن يدخلوا عليك.

الثالثة: وهي الأسلم، أن تعتزلهم فلا تراهم ولا يرونك.

أما الحالة الأولى: وهي الدخول عليهم، فهو مذموم جداً في الشرع. وقد قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه.

وقال أبو ذر رضي الله عنه لسلمة بن قيس: يا سلمة لا تَغْشَ أبواب السلاطين، فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلاَّ أصابوا من دينك أفضل منه.

وقال الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً.

فهذه الآثار تدل على ما في مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد، ونفصل ذلك فنقول: الداخل على السلطان متعرض لأن يعصي الله تعالى، إما بفعله وإما بسكوته، وإما بقوله وإما باعتقاده، فلا ينفك عن أحد هذه الأمور.

أما الفعل، فالدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى دور مغصوبة، والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام.

فإن فرض ذلك حلالاً، فلا يعصي بالدخول من حيث إنه دخول، ولا بقوله: السلام عليكم، ولكن إن مَثُل قائماً في سلامه وخدمته كان مكرماً للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه، والتواضع للظالم معصية. ثم إنه لا يخلو من الجلوس على بساطهم، وإذا كان أغلب أحوالهم حراماً فلا يجوز الجلوس على فرشهم.

وأما السكوت: فإنه سيرى في مجلسهم ما هو حرام، وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك فيها، بل يسمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء. . والسكوت على جميع ذلك حرام.

فإن قلت: إنه يخاف على نفسه، فهو معذور في السكوت؟

فهذا حق، ولكنه مستغنٍ عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلَّا بعذر.

وأما القول: فهو أن يدعو للظالم أو يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم، ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

أما الدعاء له: فلا يحل إلَّا أن يقول: أصلحك الله، أو وفقك الله للخيرات، أو ما يجري هذا المجرى، فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة، مع الخطاب بالمولى وما في معناه فغير جائز. فإن جاوز الدعاء إلى الثناء فسيذكر ما ليس فيه فيكون به كاذباً ومنافقاً ومكرماً لظالم، وهذه ثلاث معاص. وفي الأثر: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه»[(١)].

ولا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه، فإنه ينظر إلى توسعه في النعمة، ويزدري نعم الله عليه، ويكون متقحماً نهي رسول الله ﷺ حيث قال: «يا معشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة للرزق»[(٢)].

---

(١) أورده المصنف مرفوعاً وحقق الشارح أنه من قول الحسن البصري رحمه الله.

(٢) أخرجه الحاكم بلفظ «أقلوا»، وقال: صحيح الإسناد (ع)، وأخرجه الذهبي، وقد رواه أيضاً أحمد وأبو داود والنسائي، وعبر بـ (أقلوا) ولم يقل لا تدخلوا (ش).

وقد سئل سفيان الثوري رحمه الله عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، دعه حتى يموت، فإن ذلك إعانة له.

ولا يجوز الدخول عليهم إلاَّ بعذرين:

أحدهما: أن يكون من جهتهم أمر إلزام، لا أمر إكرام، وعلم أنه لو امتنع أوذي.

الثاني: أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم أو عن نفسه، فذلك رخصة بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً.

الحالة الثانية: أن يدخل عليك السلطان الظالم، زائراً، فجواب السلام لا بدَّ منه وأما القيام والإكرام فلا يحرم، مقابلة له على إكرامه، فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للإحماد، كما أنه بالظلم مستحق للإبعاد، فالإكرام بالإكرام، والجواب بالسلام.

ثم يجب عليه إن وقع اللقاء أن ينصحه، ويخوفه من المعاصي مهما ظن أن التخويف يؤثر فيه، وعليه أن يرشده إلى طريق المصلحة.

الحالة الثالثة: أن يعتزلهم، فلا يراهم ولا يرونه، وهو الواجب، إذ لا سلامة إلاَّ فيه، وعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، ولا يحب بقاءهم، ولا يثني عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يتقرب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم.

وكل من أحاط علمه بظلم ظالم، ومعصية عاصٍ، فينبغي أن يحط ذلك من درجته في قلبه، فهذا واجب عليه، لأن المعصية ينبغي أن تكره.

[علماء السلف والدخول على السلاطين]:

فإن قلت: فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين؟

فأقول: نعم، تعلَّم الدخول منهم ثم ادخل.

● كما حكي أن هشام بن عبد الملك[1] قدم حاجاً إلى مكة، فلما دخلها قال: ائتوني برجل من الصحابة، فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا. فقال: من التابعين. فأتي بطاووس اليماني. فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين، ولكن قال: السلام عليك يا هشام، ولم يكنه، وجلس بإزائه وقال: كيف أنت يا هشام؟

فغضب هشام غضباً شديداً حتى همَّ بقتله، فقيل له: أنت في حرم الله وحرم رسوله، ولا يمكن ذلك.

فقال: يا طاووس، ما الذي حملك على ما صنعت؟

قال: وما الذي صنعت؟

فقال: ـ وقد ازداد غضباً وغيظاً ـ: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تقبل يدي، ولم تسلم علي بإمرة المؤمنين، ولم تكنني، وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت: كيف أنت يا هشام؟

قال: أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك، فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، ولا يعاقبني ولا يغضب علي. وأما قولك: لم تقبل يدي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلاَّ امرأته من شهوة، أو ولده من رحمة. وأما قولك: لم تسلم علي بإمرة الؤمنين، فليس كل الناس راضين بإمرتك، فكرهت أن أكذب. وأما قولك: لم تكنني، فإن الله تعالى سمّى أنبياءه وأولياءه فقال: يا يحيى، يا عيسى، وكنّى أعداءه فقال: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾. وأما قولك: جلست بإزائي، فإني سمعت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام.

---

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، أبو سليمان، أحد الخلفاء الأمويين بويع له سنة (١٠٥)هـ بعد موت يزيد بن عبد الملك، فبقي تسع عشرة سنة وأشهراً، ومات سنة (١٢٥)هـ.

فقال له هشام: عظني.

فقال: سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله يقول: إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبغال، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، ثم قام وهرب.

* * *

● وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: أدخلت على أبي جعفر المنصور[1] بمنى، فقال: ارفع إلينا حاجتك.

فقلت له: اتق الله، فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً.

فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك.

فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم.

فطأطأ رأسه، ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك.

فقلت: حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهماً، وأرى ههنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها.. وخرج.

* * *

● وحكي أن سليمان بن عبد الملك[2] قدم المدينة، وهو يريد مكة، فأرسل إلى أبي حازم[3] فدعاه، فلما دخل عليه:

---

(١) أبو جعفر المنصور، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي، ثاني الخلفاء العباسيين، بويع له سنة خمس وثلاثين ومائة، وبقي اثنتين وعشرين سنة، وتوفي سنة ثمانٍ وخمسين ومائة.

(٢) سليمان بن عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي، ولد في دمشق عام (٥٤)هـ، ولي الخلافة بعد أخيه الوليد سنة (٩٦)هـ فأطلق الأسرى وأخلى السجون، وأحسن إلى الناس، وكان عاقلاً. توفي سنة (٩٩)هـ.

(٣) أبو حازم: سلمة بن دينار، عالم المدينة وقاضيها وشيخها، كان زاهداً عابداً. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما رأيت أحداً الحكمة أقرب إلى فِيه من أبي حازم. توفي سنة (١٤٠)هـ.

قال له سليمان: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟

فقال: لأنكم خربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

فقال: يا أبا حازم، كيف القدوم على الله؟

قال: يا أمير المؤمنين، أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله. وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه..

فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما لي عند الله؟

قال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث قال:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[1].

قال: فأين رحمة الله؟

قال: قريب من المحسنين..

قال سليمان: ما تقول فيما نحن فيه؟

قال: أوتعفيني؟

قال: لا بد، فإنها نصيحة تلقيها إلي.

قال: يا أمير المؤمنين، إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين، ولا رضاً منهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقد ارتحلوا، فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم؟

فقال له رجل من جلسائه: بئسما قلت.

قال أبو حازم: إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

قال: وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد؟

---

(١) سورة الانفطار: الآية (١٣).

قال: أن تأخذه من حله، فتضعه في حقه.

فقال سليمان: ومن يقدر على ذلك؟

فقال: من يطلب الجنة ويخاف النار.

فقال سليمان: ادع لي.

فقال أبو حازم: اللَّهم إن كان سليمان وليَّك فيسره لخيري الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى.

فقال سليمان: أوصني.

فقال: أوصيك وأوجز: عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

***

الكِتَابُ الخَامِسُ

آدابُ الأُلْفةِ والأُخُوَّةِ والصُّحْبَة والمُعاشَرَةِ مَعَ الخَلْق

رُبع العادات

الباب الأول

في الألفة والأخوة

فضيلة الألفة والأخوَّة:

اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرُّق ثمرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب التحابّ والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر، وحسن الخلق لا تخفى في الدين فضيلته، وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه ﷺ إذ قال:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾(١).

وقال ﷺ: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»(٢).

وقال ﷺ: «بعثت لأتمم محاسن الأخلاق»(٣).

ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن الألفة وانقطاع الوحشة، وقد ورد في الثناء على نفس الألفة ـ سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحب الله ـ من الآيات، والأخبار، والآثار، ما فيه كفاية.

قال الله تعالى ـ مظهراً عظيم منّته على الخلق بنعمة الألفة ـ :

---

(١) سورة القلم: الآية (٤).

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وقال: صحيح الإسناد (ع).

(٣) رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه (ع)، وأورده مالك في الموطأ بلاغاً، وقال ابن عبد البر متصل من وجوه صحاح. ولفظهم جميعاً: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». (ش).

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[1].

وقال:

﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[2].

أي: بالألفة.

ثم ذم التفرقة، وزجر عنها فقال عزَّ من قائل:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[3].

وقال ﷺ: «المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[4].

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلاَّ ظلي»[5].

وقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله»، وذكر منهم: «ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه»[6].

وقال ﷺ: «إن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد[7] الله له على مدرجته[8] ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها[9]؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٦٣).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٠٣).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٠٣).

(٤) رواه أحمد والطبراني والحاكم وصححه (ع).

(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٦).

(٦) متفق عليه (خ ٦٦٠، م ١٠٣١).

(٧) أرصده: أي أقعده يرقبه.

(٨) هي الطريق.

(٩) أي تقوم بإصلاحها.

قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[1].

الآثار: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: والله لو صمت النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي في سبيل الله، أموت يوم أموت، وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله، وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئاً.

بيان معنى الأخوَّة في الله:

اعلم أن الحب في الله، والبغض في الله، غامض، وينكشف الغطاء عنه بما نذكره: وهو أن الصحبة تنقسم:

– إلى ما يقع بالاتفاق، كالصحبة بسبب الجوار، أو بسبب الاجتماع في المكتب، أو في المدرسة، أو في السوق، أو في الأسفار..

– وإلى ما ينشأ اختياراً ويقصد، وهو الذي نريد بيانه، إذ الأخوة في الدين واقعة في هذا القسم لا محالة، إذ لا ثواب إلَّا على الأفعال الاختيارية، ولا ترغيب إلَّا فيها.

والصحبة: عبارة عن المجالسة والمجاورة، وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلَّا إذا أحبه، فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد، ولا تقصد مخالطته.

والذي يحب، فإما أن يحب لذاته، وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود.. وهنا أربعة أقسام:

القسم الأول: وهو حبك الإنسان لذاته، فذلك ممكن، وهو أن يكون في ذاته محبوباً عندك، على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له، فإن كل جميل لذيذ في حق من أدرك جماله، وكل لذيذ محبوب، واللذة تتبع الاستحسان، والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع، ثم ذلك المستحسَن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة، أعني حسن الخلقة، وإما أن يكون هو الصورة الباطنة، أعني كمال العقل وحسن الأخلاق، ويتبع حسن

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٧).

الأخلاق حسن الأفعال لا محالة، ويتبع كمال العقل غزارة العلم. وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم والعقل المستقيم.

وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة فليس في قوة البشر الاطلاع عليها، وقد عبر رسول الله ﷺ عن ذلك حيث قال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[1].

فظهر من هذا، أن الإنسان قد يحب لذاته، لا لفائدة تنال منه في حال أو مآل، بل لمجرد المجانسة والمناسبة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية. ويدخل في هذا القسم الحب للجمال ـ إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة ـ فإن الصور الجميلة مستلذة في عينها، حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفاح المشرب بالحمرة وإلى الماء الجاري والخضرة، من غير غرض سوى عينها.

وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله، بل هو حب بالطبع، وشهوة النفس، ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله.

القسم الثاني: أن يحبه ليكون وسيلة إلى محبوب غيره، والوسيلة إلى المحبوب محبوب، وما يحب لغيره كان ذلك «الغير» هو المحبوب بالحقيقة.

ولذلك أحب الناس الذهب والفضة، ولا غرض فيهما، إذ لا يطعم ولا يلبس، ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات.

فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث إنه وسيلة إلى المقصود، فالمتوسل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا، لم يكن حبه من جملة الحب في الله، فحب التلميذ لأستاذه ـ إن كان إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فمحبوبه العلم ـ وهو خارج عن الحب لله.

القسم الثالث: أن يحبه لا لذاته، بل لغيره، وذلك الغير ليس راجعاً إلى حظوظه في الدنيا، بل راجع إلى حظوظه في الآخرة، فهذا ظاهر لا غموض فيه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣٨)، والبخاري تعليقاً برقم (٣٣٣٦).

وذلـك كمن يحب أستـاذه وشيخـه، لأنـه يتـوصـل بــه إلى تحصيـل العلم، وتحسين العمـل، ومقصـوده من العلم والعمـل الفـوز في الآخـرة. فهـذا من جملة المحبين في الله.

وليس من شرط الحب في الله أن لا يحب في العاجل حظاً البتـة، إذ الدعـاء الذي أمر به الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ فيه جمع بين الـدنيا والآخـرة، ومن ذلك قولهم:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾(1).

والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين، إحداهما أقرب من الأخرى. فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً، ولا يحبهـا اليوم؟ وإنمـا يحبها غـداً، لأن الغد سيصير حالاً راهنة، فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة أيضاً.

والمقصود من هذا: أنه لو أحب أستـاذه لأنه يـواسيه ويعلمـه، وأحدهمـا حظ عاجل والآخر حظ آجل لكان في زمرة المتحابين في الله.

القسم الرابع: أن يحب لله، وفي الله، لا لينال منه علمـاً أو عملاً، أو يتـوسل به إلى أمر وراء ذاته، وهذا أعلى الدرجات، وهو أدقها وأغمضها.

وهذا القسم أيضاً ممكن، فـإن من آثار غلبـة الحب أن يتعدى من المحبـوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعـد. فمن أحب إنسانـاً حباً شـديداً، أحب محب ذلك الإنسان، وأحب محبوبه، وأحب من يخـدمه، ومن يثني عليـه.. والمشاهدة والتجربة تدل على ذلك.

وكذلك حب الله سبحـانه وتعـالى إذا قوي وغلب على القلب استـولى عليه، فيتعدى إلى كل موجود سواه، فإن كل موجود سواه أثر من آثار قدرته.

وحب الله تعالى تارة يكون لصدق الرجاء في مواعيده وما يتوقع في الآخرة من

(1) سورة البقرة: الآية (٢٠١).

نعيمه، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته، وتارة لذاته، لا لأمر آخر، وهو أدق ضروب المحبة وأعلاها.

والمقصود: أن حب الله إذا قوي أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله، في علم أو عمل، وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله، من خلق حسن، أو تأدب بآداب الشرع. وما من محب للآخرة ومحب لله إلاَّ إذا أخبر عن حال رجلين، أحدهما عالم عابد، والآخر جاهل فاسق، إلاَّ وجد في نفسه ميلاً إلى العالم العابد، فذلك الميل: هو حب في الله، ولله، من غير حظ، فإنه إنما يحبه لأن الله يحبه، ولأنه مرضي عند الله تعالى، ولأنه يحب الله تعالى، ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى.

فحصل من هذا: أن كل من أحب عالماً أو عابداً، أو أحب شخصاً راغباً في علم أو في خير، فإنما أحبه في الله ولله، وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه.

بيان البغض في الله:

اعلم أن كل من يحب في الله، لا بد أن يبغض في الله، فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله، فإن عصاه فلا بدَّ أن تبغضه، لأنه عاصٍ لله وممقوت عند الله. ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده.

والمشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصي، فإنك تقول: كيف أجمع بين البغض والمحبة، وهما متناقضان؟

وأقول: ذلك غير متناقض. فإنه مهما اجتمع في شخص واحد خصال، يحب بعضها، ويكره بعضها، فإنك تحبه من وجه، وتبغضه من وجه. فمن ولده ذكي خدوم ولكنه فاسق، فإنه يحبه من وجه ويبغضه من وجه، ويكون معه على حالة بين حالتين.

وإظهار البغض يكون: في القول بكفِّ اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة، وبالاستخفاف والتغليظ في القول أخرى، ويكون في الفعل بقطع السعي في إعانته مرة، وبالسعي في إساءته وإفساد مآربه أخرى. وبعض هذا أشد من بعض، وهي

بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه. أما ما يجري مجرى الهفوة التي يعلم أنه متندم عليها، ولا يصرُّ عليها، فالأولى فيه الستر والإغماض.

مراتب البغض في الله:

فإن قلت: إظهار البغض والعداوة بالفعل، إن لم يكن واجباً، فلا شك أنه مندوب إليه، والعصاة والفساق على مراتب مختلفة، فهل يسلك بجميعهم مسلكاً واحداً أم لا؟

فاعلم: أن المخالف لأمر الله سبحانه ثلاثة أقسام:

الأول: الكفر، فالكافر إن كان محارباً فهو يستحق القتل، وأما الذمي فإنه لا يجوز إيذاؤه إلاَّ بالإعراض عنه والتحقير له. والأولى ترك مخالطته ومعاملته ومواكلته، وأما الانبساط معه كالأصدقاء فهو مكروه كراهة شديدة. قال الله تعالى:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾[1].

الثاني: المبتدع، فإن كان يدعو إلى بدعته، وكانت البدعة بحيث يكفر بها، فأمره أشد من الذمي، وإن كان ممن لا يكفر بها فأمره بينه وبين الله أخفّ من أمر الكافر لا محالة، ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر، لأن شر الكافر غير متعدٍ، فإن المسلمين اعتقدوا كفره، فلا يلتفتون إلى قوله. أما المبتدع الذي يدعو إلى بدعته، ويزعم أن ما يدعو إليه حق، فهو سبب لغواية الخلق، فشرّه متعدّ، فالاستحباب في إظهار بغضه ومعاداته والانقطاع عنه، والتشنيع عليه ببدعته.

وأما المبتدع العامي، الذي لا يخاف الاقتداء به، فأمره أهون، فالأولى أن يتلطف به في النصح، فإن قلوب العوام سريعة التقلب. فإن لم ينفع النصح، وكان في الإعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه تأكد الاستحباب في الإعراض عنه.

---

(١) سورة المجادلة: الآية (٢٢).

الثالث: العاصي، بفعله وعمله لا باعتقاده.

فإن كان بحيث يتضرر به الناس، كالظلم والغصب، وشهادة الزور، والغيبة والنميمة، فهؤلاء الأولى الإعراض عنهم وترك مخالطتهم والانقباض عن معاملتهم، لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخلق. ثم هؤلاء ينقسمون إلى من يظلم في الدماء، وإلى من يظلم في الأموال، وإلى من يظلم في الأعراض، وبعضها أشد من بعض.

وقريب منهم الذي يهيِّىء أسباب الفساد ويسهل طرقه على الخلق، ويجمع بين الرجال والنساء.. وهذا يقتضي أيضاً الإهانة والإعراض والمقاطعة.

وإن كان يفسق في نفسه بشرب خمر، أو ترك واجب، أو مقارفة محظور يخصه فالأمر فيه أخف. ولكنه إن صودف في وقت مباشرته فيجب منعه، فإن النهي عن المنكر واجب. وإن كان النصح يمنعه عن العود إليه، وجب النصح، وإلاّ فالتغليظ إن كان هو الأنفع.. وهذا يختلف باختلاف نية الرجل.

الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته:

اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان، قال ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»(1) ولا بد أن يتميز بصفات يرغب بسببها في صحبته، وتشترط تلك الصفات بحسب تلك الفوائد المطلوبة من الصحبة.

ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية:

أما الدنيوية: فكالانتفاع بالمال أو الجاه، أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة، وليس ذلك من أغراضنا.

وأما الدينية: فيجتمع فيها أيضاً أغراض مختلفة، كالاستفادة من العلم والعمل، والاستعانة في المهمات، والتبرك بالدعاء. وعلى الجملة فينبغي أن يكون

(1) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم وقال: صحيح إن شاء الله (ع).

فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

أما العقل، فهو رأس المال، ولا خير في صحبة الأحمق، لأنه قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك. ونعني بالعاقل: الذي يفهم الأمور على ما هي عليه.

وأما حسن الخلق: فلا بدَّ منه، إذ ربَّ عاقل يغلبه غضب أو شهوة أو بخل، فلا خير في صحبته.

وأما الفاسق، فإنه لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته.

وأما المبتدع، ففي صحبته خطر سراية البدعة، وتعدي شؤمها.

قال أبو ذر رضي الله عنه: الوحدة خير من الجليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة.

وأما الحريص على الدنيا، فصحبته سم قاتل، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا، وتستحب صحبة الراغبين في الآخرة.

قال علي رضي الله عنه: (أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه).

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: (ما أوقعني في بلية إلَّا صحبة من لا أحتشمه).

وقال لقمان: (يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر).

*
**

البَابُ الثَّانِي

فِي حُقُوقِ الأُخُوَّةِ وَالصُّحْبَةِ

اعلم أن عقد الأخوَّة رابطة بين شخصين، يقتضي حقوقاً يجب الوفاء بها قياماً بحق الأخوة، فلأخيك عليك حق في المال، والنفس، وفي اللسان والقلب بالعفو والدعاء، وبالإخلاص والوفاء، وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف، وذلك يجمعه ثمانية حقوق:

الحق الأول: في المال:

وهذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء، والمشاركة في المآل والحال، وارتفاع الاختصاص والاستئثار. والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب:

أدناها: أن تنزله منزلة خادمك، فتقوم بحاجته من فضل مالك، فإذا سنحت له حاجة، وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء، ولم تحوجه إلى السؤال، فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوَّة.

الثانية: أن تنزله منزلة نفسك، وترضى بمشاركته إياك في مالك، ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال.

الثالثة: وهي العليا، أن تؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك، وهذه رتبة الصدّيقين، ومنتهى درجات المتحابين.

فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك، فاعلم أن عقد الأخوَّة لم ينعقد بعد في الباطن، وإنما الجاري بينكما مخالطة رسمية، لا وقع لها

في العقل والدين. قال ميمون بن مهران(١): من رضي من صلة الإخوان بلا شيء، فليؤاخ أهل القبور(٢).

وأما الدرجة الدنيا فليست أيضاً مرضية عند ذوي الدين. ومن كان في هذه الدرجة فينبغي أن لا تعامله في الدنيا. قال أبو حازم: (إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنياك). وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة.

وأما الرتبة العليا، فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾(٣).

أي: كانوا خلطاء في الأموال، لا يميز بعضهم رحله عن بعض(٤).

ولما آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، آثره بالمال، والنفس، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فيهما(٥)..

وروي أن مالك بن دينار(٦) ومحمد بن واسع، دخلا منزل الحسن البصري ـ وكان غائباً ـ فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن، فجعل يأكل، فقال له مالك: كفَّ يدك حتى يجيء صاحب البيت، فلم يلتفت محمد إلى قوله، وأقبل على الأكل، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقاً، فدخل الحسن وقال: يا مويلك، هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضاً، حتى ظهرت أنت وأصحابك.

---

(١) ميمون بن مهران الجزري، كوفي نزل الرقة، ثقة فقيه، ولي لعمر بن عبد العزيز الجزيرة، روى له البخاري في الأدب المفرد والباقون، كان كثير العبادة، توفي سنة (١١٧)هـ.

(٢) هذا أصل العبارة نقلتها من الشرح، فهي أوضح مما أورده المصنف.

(٣) سورة الشورى: الآية (٣٨).

(٤) كأن المصنف فهم هذا من قوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، أي: مشاع وهو توسع كبير في مفهوم الآية، وربما يساعده عليه أن الآية مكية، أو أنه أخذ ذلك من الشطر الثاني من الآية.

(٥) رواه البخاري من حديث أنس (٣٧٨٠).

(٦) مالك بن دينار: البصري، أحد الزهاد المشهورين، كان تقياً ورعاً يأكل من كسبه، من رجال الحديث، أخرج له الأئمة الأربعة والبخاري في التاريخ. توفي سنة (١٣٠)هـ.

وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوَّة، كيف وقد قال الله تعالى:

﴿ أَوْصَدِيقِكُمْ ﴾.

وقال:

﴿ أَوْمَامَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾[1].

إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه، ويفوض له التصرف، وكان أخوه يتحرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء.

الحق الثاني: الإعانة بالنفس:

وهذه أيضاً لها درجات، كما للمواساة بالمال. فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح.

قال بعضهم: إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية، فلعله أن يكون قد نسي، فإن لم يقضها فكبر عليه واقرأ هذه الآية:

﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾[2].

والأخوة: إذا لم تثمر الشفقة، حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها.

وبالجملة: فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة، غير غافل عن أحواله، كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته كأنك

---

(١) سورة النور: الآية (٦١).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٣٦). ونص الآية الكريمة: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾.

لا تدري أنك قمت بها، ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها، بل تتقلد منَّة بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره.

كان الحسن البصري يقول: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة.

وقال عطاء: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم، أو كانوا نسوا فذكروهم.

الحق الثالث: في اللسان:

وذلك بالسكوت مرة، وبالنطق أخرى.

أما السكوت، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، ولا يماريه ولا يناقشه، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله. وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يسأله عنه، فربما يثقل عليه ذكره، أو يحتاج إلى أن يكذب فيه.

وليسكت عن أسراره التي بثها إليه، ولا يبثها إلى غيره البتة، ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن. وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه.

ولا ينبغي أن يخفي ما يسمع من الثناء عليه، فإن السرور به أولاً يحصل من المبلغ للمدح، ثم من القائل، وإخفاء ذلك من الحسد.

وبالجملة: فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً، إلَّا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، ولم يجد رخصة في السكوت، فإذ ذاك لا يبالي بكراهته، فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر.

أما ذكر مساويه وعيوبه.. فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم، ويزجرك عنه أمران:

أحدهما: أن تطالع أحوال نفسك، فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً،

فهوِّن على نفسك ما تراه من أخيك. وقدِّر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة، كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به، ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة، فأي الرجال المهذب؟

الثاني: أن تعلم أنك لو طلبت منزهاً عن كل عيب، اعتزلت عن الخلق كافة، ولن تجد من تصاحبه أصلاً، فما من أحد من الناس إلاَّ وله محاسن ومساوٍ، فإذا غلبت المحاسنُ المساوي فهو الغاية والمنتهى. فالمؤمن الكريم أبداً يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث في قلبه التوقير والود والاحترام، وأما المنافق اللئيم فإنه أبداً يلاحظ المساوي والعيوب.

قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات.

وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه، يجب عليك السكوت بقلبك، وذلك بترك إساءة الظن، فسوء الظن غيبة القلب، وهو منهي عنه أيضاً، وحدّه: أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن. قال ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»(1).

وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس، وقد قال ﷺ: «لا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»(2)، والتجسس في تطلع الأخبار والتحسس بالمراقبة بالعين.

فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين، واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الأخوَّة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوي والعيوب.

قال ﷺ: «من ستر عورة أخيه ستره الله يوم القيامة»(3).

---

(1) متفق عليه (خ ٦٠٦٤، م ٢٥٦٣).

(2) متفق عليه وهو بعض الحديث السابق (خ ٦٠٦٤، م ٢٥٦٣).

(3) أخرجه ابن ماجه ولمسلم: «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة» وللشيخين: «من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» (ع). (م ٢٥٨٠).

وقال ذو النون[1]: (لا خير في صحبة من لا يحب أن يراك إلَّا معصوماً، ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم، لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها).

وقال العباس لابنه عبد الله: (إني أرى هذا الرجل ـ يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ يقدِّمك على الأشياخ، فاحفظ عني خمساً: لا تفشينَّ له سراً، ولا تغتابنَّ عنده أحداً، ولا يجربنَّ عليك كذباً، ولا تعصين له أمراً، ولا يطلعنَّ منك على خيانة).

قال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق:

كما تقتضي الأخوة السكوت عن المكاره، فإنها تقتضي أيضاً النطق بالمحابِّ، بل هو أخص بالأخوة، لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور. وإنما يراد الإخوان ليستفاد منهم، لا ليتخلص من أذاهم، والسكوت معناه كف الأذى.

فعليه أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله التي يجب أن يُتفقَّد فيها، كالسؤال عن عارض إن عرض، وإظهار شغل القلب بسببه، واستبطاء العافية عنه. وكذا جملة أحواله التي يكرهها، ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها، وجملة أحواله التي يسرُّ بها، ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته في السرور بها.

فمعنى الأخوة: المساهمة في السرَّاء والضرَّاء، وقد قال ﷺ: «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره»[2]، وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب، فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف.

---

(١) ذو النون: ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفياض، أحد الزهاد والعباد المشهورين من أهل مصر، نوبي الأصل من الموالي، كانت له فصاحة وحكمة، توفي بالجيزة سنة (٢٤٥)هـ.

(٢) أخرجه أبو داود والحاكم والترمذي وقال: حسن صحيح (ع).

ومن ذلك: أن يدعوه بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره، قال عمر رضي الله عنه: ثلاث يصفين لك ودَّ أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه.

ومن ذلك: أن يثني عليه بما يعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده، فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة. وذلك من غير كذب وإفراط، ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه، وأكثر من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح، فإن إخفاء ذلك محض الحسد.

ومن ذلك: أن تشكره على صنيعه في حقك، بل على نيته وإن لم يتم ذلك. وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة، الذبُّ عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض. فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة.

قال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه»[1]، وهذا من الخذلان، فإن في إهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق لحمه. ولذلك شبهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال:

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾[2].

قال مجاهد: (لا تذكر أخاك في غيبته إلاَّ كما تحب أن يذكرك في غيبتك).

ومن ذلك: التعليم والنصيحة، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته من فضلك، وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا، فإن علمته ولم يعمل بمقتضى العلم، فعليك النصيحة. ولكن ينبغي أن يكون ذلك سراً لا يطلع عليه أحد، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السرِّ فهو شفقة ونصيحة. قال الشافعي رحمه الله: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٠).
(٢) سورة الحجرات: الآية (١٢).

فإن قلت: النصح ذكر العيوب، وفيه إيحاش القلب، فكيف يكون من حق الأخوة؟

فاعلم: أن الإيحاش يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه، فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استمالة القلوب، أعني قلوب العقلاء. فإن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته، ليزكي نفسك، كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همّت بإهلاكك. فإن كنت تكره ذلك، فما أشد حمقك! والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات. ولذلك كان عمر رضي الله عنه يستهدي ذلك من إخوانه ويقول: رحم الله أمرءاً أهدى إلى أخيه عيوبه.

أما ما يتعلق بتقصيره في حقك، فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه.

الحق الخامس: العفو عن الزلات:

هفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية، أو في حقك بتقصيره في الأخوة.

أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها، فعليك التلطف في نصحه بما يقوّم أوده، ويجمع شمله، ويعيد إلى الصلاح والورع حاله.

فإن لم تقدر، وبقي مصراً، فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودته، أو مقاطعته.

فذهب أبو ذر رضي الله عنه إلى الانقطاع، وقال: إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته. ورأى ذلك من مقتضى الحب في الله والبغض في الله.

وأما أبو الدرداء، وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه، فقال أبو الدرداء: إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى.

هذا كله في زلته في دينه، أما زلته في حقك بما يوجب إيحاشك، فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال، بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن، ويتصوَّر تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة.

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذباً كان أو صادقاً فاقبل عذره. قال تعالى:

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[1].

ولم يقل والفاقدين الغيظ، وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يجرح الإنسان فلا يتألم، بل تنتهي إلى أن يصبر عليه ويتحمل. قال الشاعر:

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

الحق السادس: الدعاء للأخ:

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به، فتدعو له كما تدعو لنفسك، ولا تفرق بين نفسك وبينه، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق، فقد قال ﷺ: «إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك: ولك مثل ذلك»[2]، وفي الحديث: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة»[3].

وكان محمد بن يوسف الأصفهاني[4] يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك، وينعمون بما خلفت، وهو منفرد بحزنك، مهتم بما قدمت وما صرت إليه، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٢).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٣)، وأثبتُّ النص منه، وذكره المصنف بلفظ قريب.

(٤) محمد بن يوسف الأصفهاني: سماه عبد الله بن المبارك (عروس العباد)، وسماه أبو نعيم في الحلية (عروس الزهاد) كانت وفاته في نهاية القرن الثاني. [عن حاشية موعظة المؤمنين].

الحق السابع: الوفاء والإخلاص:

ومعنى الوفاء: الثبات على الحب، وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي.

وقد روي أنه ﷺ أكرم عجوزاً دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين»[1].

فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه، والمتعلقين به، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ نفسه.

والمودة الدائمة هي التي تكون في الله، وما يكون لغرض، فإنه يزول بزوال ذلك الغرض.

ومن ثمرات المودة في الله، أن لا تكون مع حسد في دين أو دنيا، وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته؟ وبه وصف الله تعالى المحبين فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[2].

ووجود الحاجة هو الحسد.

ومن الوفاء: أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه، وإن ارتفع شأنه، واتسعت ولايته، وعظم جاهه، فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم. قال الشاعر:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

واعلم: أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل الوفاء له المخالفة، فمن تمام الوفاء بالمحبة النصح لله.

---

(١) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، وليس له علة (ع).

(٢) سورة الحشر: الآية (٩).

ومن آثار الإخلاص وتمام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة، نفور الطبع عن أسبابها، كما قيل:

وجدت مصيبات الزمان جميعها   سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

ومن الوفاء: أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه، ولا يصادق عدو صديقه.

الحق الثامن: ترك التكلف والتكليف:

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه، بل يُروِّح سرَّه من مهماته وحاجاته، فلا يستمد منه من جاه ومال، ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله، والقيام بحقوقه، بل لا يقصد بمحبته إلَّا الله تعالى تبرّكاً بدعائه، واستئناساً بلقائه، واستعانةً به على دينه، وتقرّباً إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته.

وتمام التخفيف بطيٍّ بساط التكليف، حتى لا يستحيي منه فيما لا يستحي من نفسه.

قال الفضيل: إنما تقاطع الناس بالتكلف، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له، فيقطعه ذلك عنه.

وكان جعفر بن محمد الصادق رحمهما الله يقول: أثقل إخواني علي من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي.

ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلَّا بأن يرى نفسه دون إخوانه، ويحسن الظن بهم ويسيء الظن بنفسه، فإذا رآهم خيراً من نفسه فعند ذلك يكون هو خيراً منهم. ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه، وهذا في عموم المسلمين مذموم. قال ﷺ: «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[1].

* * *

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤).

فهذا جامع حقوق الصحبة، قد أجملناه مرة وفصلناه أخرى، ولا يتم ذلك إلَّا بأن تقيِّد بحقوقهم جميع جوارحك:

أما البصر: فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك، وتنظر إلى محاسنهم، وتتعامى عن عيوبهم.

وأما السمع، فبأن تسمع كلامه متلذذاً بسماعه ومصدقاً به، ومظهراً للاستبشار به، ولا تقطع حديثهم بمرادَّة ولا اعتراض.

وأما اللسان، فبأن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلَّا بما يفقهون.

وأما اليدان، فأن لا يقبضهما عن معاونتهم في كل ما يتعاطى باليد.

وأما الرجلان، فأن يمشي بهما وراءهم مشي الأتباع، لا مشي المتبوعين، ولا يتقدمهم إلَّا بقدر ما يقدمونه ولا يقرب منهم إلَّا بقدر ما يقربونه.

خاتمة هذا الباب:

نذكر فيها جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق، ملتقطة من كلام بعض الحكماء:

إذا أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا، من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم، وتوقير من غير كبر، وتواضع في غير مذلة. وكن في جميع أمورك في أوسطها، فكلا طرفي قصدِ الأمورِ ذميم.

ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، وتحفظ من تشبيك أصابعك، والعبث بلحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنخمك، وطرد الذباب عن وجهك، وكثرة التمطي، والتثاؤب في وجوه الناس، في الصلاة وغيرها.

ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا تصنيفك، وسائر ما يخصك.

ولا تتصنع تصنُّع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذُّل العبد.

وإذا خاصمت فتوقر، وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في

حجتك ولا تكثر الإشارة بيديك، ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك، وإذا هدأ غيظك فتكلم..

وإياك وصديق العافية، فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك.

وإذا دخلت مجلساً، فالأدب فيه البداية بالتسليم، وترك التخطي لمن سبق، والجلوس حيث اتسع، وحيث يكون أقرب إلى التواضع، وأن تحيّي بالسلام من قرب منك.

ولا تجالس العامة، فإن فعلت، فأدبُه تركُ الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم.

وإياك أن تمازح لبيباً أو غير لبيب، فإن اللبيب يحقد عليك، والسفيه يجترىء عليك، لأن المزاح يخرق الهيبة، ويسقط ماء الوجه.

***

البَابُ الثَالِثُ

فِي حَقِّ الْمُسْلِمِ وَالرَّحِمِ وَالْجِوَارِ

اعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره، وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه، لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة. وكل مخالط ففي مخالطته أدب، والأدب على قدر حقه، وحقه على قدر رابطته التي بها وقعت المخالطة.

والرابطة إما القرابة، وهي أخصها، أو أخوة الإسلام وهي أعمها، وإما الجوار، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس، وإما الصداقة والأخوة.

ونحن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الإسلام، وحق الرحم، وحق الوالدين، وحق الجوار.

حقوق المسلم

هي: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبرَّ قسمه إذا أقسم عليك، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، ورد جميع ذلك في أخبار وآثار[1].

ومنها: أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه. قال النعمان بن بشير سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم

---

(١) كل ذلك وردت به أحاديث صحيحة.

كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر»[1] وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً»[2].

ومنها: أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول، قال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[3]. وقال ﷺ: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين»[4]. وقال أبو برزة رضي الله عنه: يا رسول الله، علمني شيئاً أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[5].

ومنها: أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه، فإن الله لا يحب كل مختال فخور. قال ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إليَّ: أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد»[6].

ومنها: أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض، ولا يبلّغ بعضهم ما يسمع من بعض، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»[7]. وقال الخليل بن أحمد[8]: من نَمَّ لك، نَمَّ عليك، ومن أخبرك بخبر غيرك، أخبر غيرك بخبرك.

ومنها: أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام، مهما غضب عليه. قال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠١١، م ٢٥٨٦).
(٢) متفق عليه (خ ٤٨١، م ٢٥٨٥).
(٣) متفق عليه (خ ١٠، م ٤١).
(٤) أخرجه مسلم برقم (١٢٩) من كتاب البر والصلة.
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٦١٨).
(٦) أخرجه أبو داود وابن ماجه واللفظ له، ورجاله رجال الصحيح (ع).
(٧) متفق عليه (خ ٦٠٥٦، م ١٠٥) ومعنى قتات: نمّام.
(٨) الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ ــ ١٧٠)هـ من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي، ولد ومات في البصرة، عاش فقيراً صابراً، كان شاحب اللون مغموراً في الناس لا يعرف. قال النضر بن شميل: ما رأى الراؤون مثل الخليل، ولا رأى الخليل مثل نفسه.

هـذا وخيرهمـا الذي يبـدأ بالسـلام»[1]. وقالت عـائشة رضي الله عنهـا: (مـا انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله)[2].

ومنها: أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم مـا استطاع، لا يميـز بين الأهل وغير الأهل.

ومنها: أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه، بل يستأذن ثلاثاً، فـإن لم يؤذن له انصرف. قال ﷺ: «الاستئذان ثلاث. .»[3].

ومنها: أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان، ومن تمام توقير المشـايخ ألا يتكلم بين أيديهم إلا بإذن، والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله ﷺ، وكان ﷺ يقدم من السفر فيتلقاه الصبيـان، فيقف عليهم، ثم يأمـر بهم فيرفعـون إليه، فيـرفع منهم بين يديه، ومنهم خلفه، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم[4]، فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض: حملني رسول الله ﷺ بين يديه، وحملك أنت وراءه. .

ومنهـا: أن يكـون مـع كـافـة الخلق مستبشـراً طلق الـوجـه[5] رفيقـاً. قـال عبد الله بن عمر: إن البر شيء هين، وجه طليق وكلام لين.

ومنها: أن لا يَعِدَ بوعد إلا ويفي به قال ﷺ: «آيـة المنافق ثـلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[6].

ومنها: أن ينصف من نفسه، ولا يأتي إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه.

ومنها: أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلتـه، فينزل النـاس

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٧٧، م ٢٥٦٠).

(٢) متفق عليه (خ ٣٥٦٠، م ٢٣٢٨).

(٣) متفق عليه (خ ٦٢٤٥، م ٢١٥٣).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٤٢٧).

(٥) جاء في صحيح مسلم بـرقم (٢٦٢٦): «لا تحقرن من المعـروف شيئاً، ولـو أن تلقى أخاك بوجه طلق»، وفي الحديث عند الترمذي وحسنه: «وتبسمك في وجه أخيك صدقة».

(٦) متفق عليه (خ ٣٣، م ٥٩).

منازلهم[1]، وكذلك كل من له عليه حق قديم فليكرمه. روي أن ظئر[2] رسول الله ﷺ التي أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه، ثم قال لها: مرحباً بأمي ثم أجلسها على الرداء ثم قال: اشفعي تشفعي.. وذلك يوم حنين[3].

ومنها: أن يصلح ذات البين بين المسلمين، مهما وجد إليه سبيلاً. قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين. وفساد ذات البين هي الحالقة»[4].

ومنها: أن يستر عورات المسلمين كلهم، قال ﷺ: «من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة»[5]، وقال: «لا يستر عبد عبداً إلا ستره الله يوم القيامة»[6].

وعلى المسلم أن يستر عورة نفسه، فحق إسلامه واجب عليه، كحق إسلام غيره، قال أبو بكر رضي الله عنه: لو وجدت شارباً لأحببت أن يستره الله، ولو وجدت سارقاً لأحببت أن يستره الله.

ومن أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش، أن أفحشها الزنا وقد نيط بأربعة من العدول، يشاهدون ذلك، فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات، ثم انظر إلى كثيف ستر الله، كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه.

قال ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا

---

(١) جاء في صحيح مسلم (المقدمة ص ٦) قالت عائشة: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم.
(٢) الظئر: المرضع.
(٣) أخرجه أبو داود والحاكم وصححه.
(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه.
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٠) بلفظ «يوم القيامة».
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٠).

المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته»[1].

وقال رجل لعبد الله بن عمر: يا أبا عبد الرحمن، كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: «إن الله ليدني منه المؤمن يوم القيامة فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا فيقول: نعم يا رب، حتى إذا قرره بذنوبه، فرأى في نفسه أنه قد هلك، قال له: يا عبدي، إني لم أسترها عليك في الدنيا إلا وأنا أريد أن أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافرون والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق، هؤلاء الذين كذبوا على الله»[2].

وقال ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل السوء سراً ثم يخبر به»[3].

وقال ﷺ: «من استمع خبر قوم وهم له كارهون صب في أذنه الآنك[4] يوم القيامة»[5].

ومنها: أن يتقي مواضع التهم، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن، ولألسنتهم عن الغيبة، فإنهم إذا عصوا الله بذكره ــ وكان هو السبب ــ كان شريكاً.

قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[6].

وقال ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله،

(١) أخرجه أبو داود بإسناد جيد، والترمذي وحسنه.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٦٨).
(٣) متفق عليه (خ ٦٠٩٦، م ٢٩٩٠).
(٤) الرصاص المذاب.
(٥) أخرجه البخاري برقم (٧٠٤٢).
(٦) سورة الأنعام: الآية (١٠٨).

وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسبّ الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسبّ أمه فيسب أمه»[1].

ومر رجلان من الأنصار برسول الله ﷺ، فلما رأيا النبي ﷺ: أسرعا فقال: على رسلكما، إنها صفية، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً[2]. وكان ﷺ مع زوجته صفية بنت حيي.

وقال عمر رضي الله عنه: من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومنَّ من أساء به الظن.

ومنها: أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة، ويسعى في قضاء حاجته بما قدر عليه. قال ﷺ: «إني أوتى وأسأل وتطلب إليَّ الحاجة وأنتم عندي فاشفعوا لتؤجروا ويقضي الله على يدي نبيه ما أحب»[3].

ومنها: أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام، ويصافحه عند السلام. قال تعالى:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾[4].

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله ﷺ، قال: أفشوا السلام بينكم»[5].

---

(١) متفق عليه (خ ٥٩٧٣، م ٩٠) ذكره المصنف بمعناه وأثبت لفظ البخاري وقد أورد المصنف هذا الحديث والآية قبله ليدلل على أن من تسبب بشيء فهو شريك فيه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٢٨١).

(٣) متفق عليه (خ ١٤٣٢، م ٢٦٢٧).

(٤) سورة النساء: الآية (٨٦).

(٥) أخرجه مسلم برقم (٥٤).

وكان أنس رضي الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله[1].

وقال ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم، فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»[2].

والانحناء عند السلام منهي عنه، والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر، فعل ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه.

والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام، قال أنس: ما كان شخص أحبَّ إلينا من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته لذلك[3].

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر.

ومنها: تشميت العاطس، قال ﷺ في العاطس: «يقول: الحمد لله، ويقول الذي يشمته: يرحمكم الله، ويرد عليه العاطس فيقول: يهديكم الله ويصلح بالكم»[4].

وروي أنه شمت عاطساً ثلاثاً، فعطس أخرى فقال: «إنك مزكوم»[5].

وقال أبو هريرة: (كان ﷺ إذا عطس غض صوته واستتر بثوبه أو يده)[6].

ومنها: أنه إذا بلي بذي شر فينبغي أن يتحمله ويتقيه، قال تعالى:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[7].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٢٤٧).
(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه (ع).
(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح (ع).
(٤) أخرجه البخاري وأبو داود (ع).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٣).
(٦) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح (ع).
(٧) سورة المؤمنون: الآية (٩٦).

وقال ابن عباس في معنى قوله تعالى:
﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾[1].

أي: الفحش والأذى بالسلام والمداراة.

قالت عائشة رضي الله عنها: «استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو، فلما دخل، ألان له القول، فلما خرج قلت له: لما دخل قلت الذي قلت، ثم ألنت له القول، فقال: يا عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة، من تركه الناس اتقاء فحشه»[2].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إنا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم) وهذا معنى المداراة، وهي مع من يخافه.

وقال محمد بن الحنفية[3] رحمه الله: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدّاً حتى يجعل الله له منه فرجاً.

ومنها: أن يخالط المساكين، ويحسن إلى الأيتام، قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وهو يشير بأصبعيه»[4] وقال موسى عليه السلام: إلهي، أين أبغيك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم.

ومنها: النصيحة لكل مسلم، والجهد في إدخال السرور على قلبه. قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[5].

ومنها: أن يعود مرضاهم، فالمعرفة والإسلام كافيان في إثبات هذا الحق

---

(١) سورة الرعد: الآية (٢٢).
(٢) متفق عليه (خ ٦٠٥٤، م ٢٥٩١).
(٣) هو ابن علي بن أبي طالب، نسب إلى أمه خولة بنت جعفر الحنفية تمييزاً له عن أخويه الحسن والحسين، كان واسع العلم شديد القوة شجاعاً، توفي سنة (٨١)هـ وكانت ولادته سنة (٢١)هـ.
(٤) متفق عليه (خ ٦٠٠٥، م ٢٩٨٣).
(٥) متفق عليه (خ ١٣، م ٤٥).

ونيل فضله، وأدب العائد: خفة الجلسة، وقلة السؤال، وإظهار الرقة، والدعاء بالعافية، وجملة أدب المريض: حسن الصبر، وقلة الشكوى والضجر، والفزع إلى الدعاء، والتوكل ــ بعد الدواء ــ على خالق الدواء.

ومنها: أن يشيع جنائزهم، قال ﷺ: «من شيع جنازة فله قيراط من الأجر، فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان، القيراط مثل أحد»[1] ولما روى أبو هريرة هذا الحديث وسمعه ابن عمر قال: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[2].

وكان مكحول الدمشقي[3] إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون، موعظة بليغة، وغفلة سريعة، يذهب الأول، والآخر لا عقل له.

وآداب المعزّي: خفض الجناح، وإظهار الحزن، وقلة الحديث، وترك التبسم.

وآداب تشييع الجنازة: لزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتفكر في الموت، والاستعداد له.

ومنها: أن يزور قبورهم، والمقصود من ذلك: الدعاء، والاعتبار، وترقيق القلب، قال ﷺ: «ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه»[4].

وكان عمر رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته ويقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد»[5].

---

(١) متفق عليه (خ ٤٧، م ٩٤٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٩٤٥).
(٣) مكحول بن أبي مسلم، أبو عبد الله، فقيه الشام في عصره، ومن حفاظ الحديث. ولد بكابل ورحل في طلب العلم إلى العراق فالمدينة واستقر في دمشق وتوفي بها سنة (١١٢)هـ قال الزهري: لم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا.
(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وقال الترمذي حسن غريب.
(٥) أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه والحاكم وصحح إسناد (ع).

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه، يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك؛ فقال: أجلس إلى قوم يذكرونني معادي، وإن قمت عنهم لم يغتابوني.

فهذه جمل آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق. والجملة الجامعة فيه: أن لا تستصغر منهم أحداً، حياً كان أو ميتاً، فتهلك لأنك لا تدري لعله خير منك؟ ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم، فإن الدنيا صغيرة عند الله، صغير ما فيها. ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم فتصغر في أعينهم، ثم تحرم دنياهم، وإلا كنت استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك، وليكن وعظك عرضاً واسترسالاً، من غير تنصيص على الشخص.

واحذر صحبة من لا يقيلون عثرة، ولا يغفرون زلة، ولا يسترون عورة، ويحاسبون على النقير والقطمير[1]، ويحسدون على القليل والكثير...

فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق.

حقوق الجوار

اعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء أخوة الإسلام، فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة، قال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[2]. وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[3].

وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه»[4].

وقال رجل لابن مسعود رضي الله عنه: إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق علي. فقال: اذهب، فإن هو عصى الله فيك، فأطع الله فيه.

---

(١) النقير: النكتة التي في ظهر النواة، والقطمير: شق النواة والقشرة التي فيها.

(٢) متفق عليه (خ ٦٠١٤، م ٢٦٢٤).

(٣) متفق عليه (خ ٦٠١٩، م ٤٧).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٠١٦).

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى، ولا يكفي احتمال الأذى، بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف.

وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع إلى عوراته، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته.

وقال أبو ذر رضي الله عنه: أوصاني خليلي ﷺ: «إذا طبخت قدراً فأكثر ماءها، ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها»[١].

وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «يا معشر المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسِنَ شاة»[٢].

حقوق الأقارب والرحم

قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا الرحمن، وهذه الرحم، شققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته»[٣].

وقال ﷺ: «من سره أن ينسأ له في أثره، ويوسع عليه في رزقه، فليصل رحمه»[٤].

وقال ﷺ: «ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٥).

(٢) متفق عليه (خ ٢٥٦٦، م ١٠٣٠) والفرسن: هو الظلف، قالوا: وأصله في الإبل.

(٣) قال العراقي: متفق عليه من حديث عائشة. والمتفق عليه هو القسم الأخير منه (خ ٥٩٨٩، م ٢٥٥٥).

(٤) متفق عليه (خ ٥٩٨٥، م ٢٥٥٧).

(٥) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩١).

ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له يعجبه، عملاً بقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١].

قال: يا رسول الله، فضعها حيث أراك الله، فقال: «بخ، ذلك مال رابح.. وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»[٢].

حقوق الوالدين والولد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم، فأخص الأرحام وأمسها الولادة، فيتضاعف تأكد الحق فيها. وقد قال ﷺ: «برّ أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك»[٣].

وقال مالك بن ربيعة: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي علي من بر أبوي شيء أبرّهما به بعد وفاتهما؟ قال: «نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما»[٤].

وقال ﷺ: «إن من أبرّ البرّ أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يولي»[٥].

ويستحب الرفق بالولد، رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل ولده الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم، فقال ﷺ: «إن من لا يرحم لا يرحم»[٦].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٥٥٤) ذكره المصنف بالمعنى وأثبتُّ النص من البخاري.

(٣) أخرجه النسائي وأحمد والحاكم (ع) وروى الشيخان: «قال رجل: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال ﷺ: «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك» زاد مسلم: «ثم أدناك أدناك» (خ ٥٩٧١، م ٢٥٤٨).

(٤) أخرجه أبو داود وابن حبان، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٥٥٢).

(٦) متفق عليه (خ ٥٩٩٧، م ٢٣١٨).

وقال عبد الله بن شداد: بينما رسول الله ﷺ يصلي بالنـاس، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد، فأطال السجود بالناس حتى ظنـوا أنه قـد حدث أمـر، فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السجود يا رسول الله، حتى ظننـا أنه قـد حدث أمـر، فقال: إن ابني قد ارتحلني، فكرهت أن أعجله، حتى يقضي حاجته[1].

واعلم: أن أكثـر العلماء على أن طـاعة الـوالدين واجبـة في الشبهـات، وإن لم تجب في الحرام المحض.

***

(١) أخرجه النسائي، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

الكِتَابُ ٱلسَّادِسُ

آدَابُ ٱلعُزْلَةِ

ربع العادات

اختلف الناس اختلافاً كثيراً في العـزلة والمخـالطة، وتفضيـل إحداهمـا على الأخـرى، ومع أن كـل واحدة منهمـا لا تنفك عن غـوائل تنفـر عنها، وفـوائد تـدعو إليها، فإن ميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة.

ونكشف الغطاء عن الحق في بابين:

الباب الأول: في نقل المذاهب والحجج فيها.

الباب الثاني: في فوائد العزلة وغوائلها.

البَابُ الأوَّل

الآرَاءُ فِي العُزلَةِ وَالمُخَالَطة

ذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وبشر الحافي[1].. وغيرهم.

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة، واستكثار الإخوان، والتحبب إلى المؤمنين، والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى، ومال إلى هذا: الشعبي، وسعيد بن المسيب، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل.. وغيرهم.

حجج المائلين إلى المخالطة:

احتجوا بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾[2].

(١) بشر بن الحارث المعروف بالحافي، نزيل بغداد، الزاهد المشهور، ثقة عابد قدوة، أقبل على العبادة واعتزل الناس، توفي في بغداد عام (٢٢٧)هـ وله ست وسبعون.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٠٥).

امتنَّ على الناس بالسبب المؤلف.

وهذا ضعيف، لأن المراد تفرق الآراء واختلاف المذاهب.

واحتجوا بقوله ﷺ: «المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[1].

وهذا ضعيف، لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق. ولا يدخل تحته، من كان حسن الخلق، ولكنه ترك المخالطة اشتغالاً بنفسه وطلباً للسلامة.

واحتجوا بقوله ﷺ: «من فارق الجماعة فمات فميتته جاهلية»[2].

وهذا ضعيف، لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة، فالخروج عليهم بغي، وذلك محظور. وليس في هذا تعرض للعزلة.

واحتجوا بنهيه ﷺ عن الهجر فوق ثلاث. والعزلة هجر بالكلية.

وهذا ضعيف، لأن المراد به الغضب على الناس وقطع السلام والمخالطة المعتادة. فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلاً من غير غضب.

حجج المائلين إلى العزلة:

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾[3].

وهذا ضعيف، لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلاّ دعوتهم إلى الدين.

واحتجوا بقول موسى عليه السلام:

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾[4].

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني، والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٨٤٨).

(٣) سورة مريم: الآية (٤٨).

(٤) سورة الدخان: الآية (٢١).

واعتزل نبينا ﷺ قريشاً لما آذوه، وأمر أصحابه باعتزالهم بالهجرة إلى الحبشة.

وهذا أيضاً اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم، وإنما النظر في العزلة من المسلمين.

واحتجوا بقوله ﷺ لعبد الله بن عامر الجهني، لما قال: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: «ليسعك بيتك، وأمسك عليك لسانك، وابك على خطيئتك»(١)، وروي أنه قيل له ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى». قيل: ثم من؟ قال: «رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره»(٢). وقال ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي»(٣).

وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر: فأما قوله لعبد الله بن عامر، فلا يمكن تنزيله إلَّا على ما عرفه ﷺ بنور النبوة من حاله، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك.

وربَّ شخص تكون سلامته في العزلة لا في المخالطة، كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد، وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل، وفي مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة، ولذلك قال ﷺ: «الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(٤)، وعلى هذا ينزل قوله ﷺ: «رجل معتزل يعبد ربه ويدع الناس من شرِّه»، فهذا إشارة إلى شرير بطبعه تتأذى الناس بمخالطته.

وقوله: «إن الله يحب التقي النقي الخفي» إشارة إلى إيثار الخمول، وتوقي

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حسن.
(٢) متفق عليه (خ ٢٧٨٦، م ١٨٨٨).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٦٥)، بلفظ «النقي الغني الخفي».
(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

الشهرة، وذلك لا يتعلق بالعزلة. فكم من معتزل تعرفه كافة الناس، وكم من مخالط خامل، لا ذكر له ولا شهرة.

فإذا ظهر أن هذه الأدلة لا شفاء فيها، فنصرح بفوائد العزلة وغوائلها، ومقايسة بعضها ببعض، ليتبين الحق فيها.

*
**

الباب الثاني

في فوائد العزلة وغوائلها

اعلم أن اختلاف الناس في هذا يضاهي اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فكذلك القول فيما نحن فيه.

فلنذكر أولاً فوائد العزلة، ثم ما يفوت بها وهو آفاتها:

فوائد العزلة

الفائدة الأولى: التفرغ للعبادة:

التفرغ للعبادة والفكر، والاستئناس بمناجاة الله تعالى، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة، فإن ذلك يستدعي فراغاً، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه. لذلك كان ﷺ في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء، وينعزل إليه[1].

إن غاية العبادات، وثمرة المعاملات، أن يموت الإنسان محباً لله، عارفاً بالله، ولا محبة إلَّا بالأنس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلَّا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

الفائدة الثانية: البعد عن المعاصي:

التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة،

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة نحوه (فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه). (خ ٣، م ١٦٠).

ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة: الغيبة، والنميمة، والرياء، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة.

أما الغيبة: فإذا عرفت من كتاب «آفات اللسان» من ربع المهلكات وجوهها، عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم، لا ينجو منها إلاَّ الصديقون، فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض الناس، والتفكه بها، فإن وافقتهم أثمت، وإن سكت كنت شريكاً، وإن أنكرت أبغضوك واغتابوك، فازدادوا غيبة إلى غيبة.

وأما الرياء، فهو الداء العضال، الذي يعسر الاحتراز عنه، وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا. وأقل ما يلزم فيه النفاق.

وقد كان السلف يتلاقون ويحترزون في قولهم: كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وكيف أنت؟ وكيف حالك؟ وفي الجواب عنه، فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا. قيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة.

والمقصود أن الالتقاء في غالب العادات ليس يخلو عن أنواع من التصنع والرياء والنفاق، وكل ذلك مذموم. وفي العزلة خلاص من ذلك.

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم، فهو داء دفين لمن يتنبه له من العقلاء فضلاً عن الغافلين، فلا يجالس الإنسان فاسقاً مدة، مع كونه منكراً عليه في باطنه، إلاَّ ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله، إذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هيناً على الطبع، فيسقط وقعه واستعظامه له، ومهما طالت مشاهدة الكبائر من غيره استحقر الصغائر من نفسه.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن:

الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها. وقلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن، فالمعتزل في سلامة منها.

روى أبو سعيد الخدري أنه ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع به شَعَفَ الجبال[1] ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»[2].

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس:

فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بسوء الظن، وتارة بالنميمة أو الكذب.

ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدو يسيء الظن به. وقد قيل: معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار.

قال الحسن البصري: أردت الحج، فسمع ثابت البناني[3] بذلك، فقال: بلغني أنك تريد الحج، فأحببت أن أصحبك، فقال له الحسن: ويحك نتعاشر بستر الله علينا، إني أخاف أن نصطحب، يرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه.

وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة، وهو بقاء الستر على الدين والمروءة والأخلاق وسائر العورات.

ولا يخلو الإنسان في دينه ودنياه، وأخلاقه وأفعاله، عن عورات، الأَوْلى في الدين والدنيا سترها، ولا تبقى السلامة مع انكشافها.

الفائدة الخامسة: قطع الطمع:

أن ينقطع طمع الناس عنك، وينقطع طمعك عن الناس.

فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد، فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى. وإن حضور الولائم والإملاكات[4] فيها تضييع للأوقات وتعرض للآفات. والقيام بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد، طول

---

(١) شعف: جمع شَعَفَة، وهي رؤوس الجبال.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٩١).

(٣) ثابت بن أسلم البناني، وبنانة من قريش، أبو محمد، كان من سادة التابعين، علماً وفضلاً وعبادة ونبلاً، وكان من خواص أنس، وروى عن غيره من الصحابة، توفي سنة (١٢٣)هـ.

(٤) الملاك والإملاك: التزويج وعقد النكاح.

الليل والنهار، فكيف من له مهم يشغله من دين أو دنيا؟ فمن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه. قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء.

وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة جزيلة، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه، وانبعث طمعه.. ومهما اعتزل لم يشاهد. قال تعالى:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾[1].

وقال ﷺ: «انظروا إلى من هو دونكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[2] والذي هو في بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن.

الفائدة السادسة:

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاساة حمقهم وأخلاقهم، وإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل لم يأمن أن يغتابه.

آفات العزلة
[وهي فوائد المخالطة]

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير، ولا يحصل ذلك إلاَّ بالمخالطة، فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة، وفواته من آفات العزلة. فلنفصل ذلك فنتحدث عن فوائد المخالطة.

الفائدة الأولى: التعليم والتعلم:

وهما من أعظم العبادات في الدنيا، ولا يتصور ذلك إلاَّ بالمخالطة، فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاصٍ بالعزلة. وإن كان يقدر على التبرز

---

(١) سورة طه: الآية (٣١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٩٦٣).

في علوم الشرع والعقل فالعزلة في حقه ــ قبل التعلم ــ غاية الخسران. ولهذا قال النخعي وغيره: تفقه ثم اعتزل.

ومن اعتزل قبل التعلم، فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها، ولا ينفك اعتقاده في الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها، وعن خواطر فاسدة تعتريه، فيكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان، وهو يرى نفسه من العباد.

فالعلم هو أصل الدين، فلا خير في عزلة العوام الجهال، أعني من لا يحسن العبادة في الخلوة، ولا يعرف جميع ما يلزم فيها.

وأما التعليم، ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع:

أما الانتفاع بالناس، فبالكسب والمعاملة، وذلك لا يتأتى إلاَّ بالمخالطة، والمحتاج إلى ذلك مضطر إلى ترك العزلة، وإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاشتغال بالنافلة.

وأما النفع، فهو أن ينفع الناس، إما بماله أو ببدنه، فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة، ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب، وذلك لا ينال إلاَّ بالمخالطة، ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهي أفضل له من العزلة.

الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب:

ونعني به الارتياض بمقاساة الناس، والمجاهدة في تحمل أذاهم، كسراً للنفس وقهراً للشهوات، وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه، ولم تذعن لحدود الشرع شهواته.

وأما التأديب، فإنما نعني به أن يروِّض غيره، وهو حال الشيخ، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلاَّ بمخالطتهم، وحاله حال المعلم وحكمه، ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم.

[ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو من أصول الدين، وهو واجب، كما سيأتي بيانه][1].

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس:

وهو غرض من يحضر الولائم والدعوات، ومواضع المعاشرة والأنس، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال. ويستحب ذلك لأمر الدين، وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين، كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت الفتوى.

وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب، إذا كان الغرض منه ترويح القلب، فإن القلوب إذا أكرهت عميت، ومهما كان في الوحدة وحشة، وفي المجالسة أنس يروِّح القلب فهي أولى. ولذلك قال ﷺ: «إن الله لا يملُّ حتى تملوا»[2].

وهذا أمر لا يستغنى عنه، فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروَّح.

الفائدة الخامسة: نيل الثواب وإنالته:

أما النيل، فبحضور الجنائز وعيادة المريض، وحضور العيدين، وأما حضور الجمعة فلا بد منه، وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً لا رخصة في تركه. وكذلك في حضور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم.

وأما إنالته، فهو أن يفتح الباب ليعوده الناس أو ليعزوه في المصائب، أو يهنئوه على النعم، فإنهم ينالون بذلك ثواباً.

الفائدة السادسة: التواضع:

فإنه من أفضل المقامات، ولا يقدر عليه في الوحدة. وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة، فكم من معتزل في بيته وباعثه الكبر، ومانعه عن المحافل أن

---

(١) نقلت هذه الفقرة من (فوائد العزلة) لمناسبتها مع الموضوع هنا.
(٢) متفق عليه (خ ٤٣، م ٧٨٢).

لا يوقر أو يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله، وأنقى لطراوة ذكره بين الناس.

وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط، فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة، فيتخذ البيت ستراً على مقابحه، إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده.

وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا، ولا يحبون أن يزوروا، ويفرحون بتقرب الناس إليهم، واجتماعهم على بابهم، فمن ليس مشغولاً مع نفسه بذكر الله، فاعتزاله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام. والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه:

أحدها: أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه، إذ كان أبو هريرة وحذيفة وأبي وابن مسعود ــ رضي الله عنهم ــ يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم، وكان أبو هريرة يقول ــ وهو والي المدينة، والحطب على رأسه ــ : طرقوا لأميركم.

الثاني: أن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه، وتحسين اعتقادهم فيه مغرور، لأنه لو عرف الله حق المعرفة، علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً.

فإذن: من حبس نفسه ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو في عناء حاضر في الدنيا.. فهذه غوائل خفية في اختيار العزلة ينبغي أن تتقى، فإنها مهلكات في صور منجيات.

الفائدة السابعة: التجارب:

فإنها تستفاد من المخالطة للخلق، والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا، وإنما تفيدها التجربة والممارسة. ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب.

فالصبي إذا اعتزل بقي غمراً جاهلاً، بل ينبغي أن يشتغل بالتعليم، ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب.. ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال.

ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه، وأخلاقه وصفات باطنه، وذلك لا يقدر عليه في العزلة، فإن كل مجرب في الخلاء يسر، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه، وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إماطتها وقهرها، ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يحركها.

فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث مثال دمل ممتلىء بالصديد، وقد لا يحسّ صاحبه بألمه ما لم يتحرك أو يمسّه غيره، وما لم يكن من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولكن لو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال.

فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة، إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك.

ولهذا كان السالكون لطريق الآخرة الطالبون لتزكية القلوب يجربون أنفسهم. ومن هذا ما حكي عن بعضهم أنه قال: أعدت صلاتي لفترة من الزمن مع أني كنت أصليها في الصف الأول، فتخلفت يوماً بعذر، فما وجدت موضعاً في الصف الأول. فوجدت نفسي تستشعر خجلة من نظر الناس إليَّ، فعلمت أن صلواتي كانت مشوبة بالرياء.

فالمخالطة لها فائدة عظيمة ظاهرة في استخراج الخبائث وإظهارها.

* * *

ونرجع إلى المقصود فنقول:

إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها، تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ. بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى المخالط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة، ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل.

وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب، إذ قال: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة. ويختلف ذلك بالأحوال وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل، وهذا هو الحق الصراح، وكل ما سوى ذلك فهو قاصر.

[الدقة في نظرة العالم]:

الفرق[1] بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى أن الصوفي لا يتكلم إلاَّ عن حاله، فلا جرم تختلف أجوبتهم في المسائل. والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه، ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق فيه، وذلك مما لا يختلف فيه، فإن الحق واحد أبداً، والقاصر عن الحق كثير لا يحصى.

ولذلك لما سئل الصوفية عن الفقر، فما من واحد إلاَّ وأجاب بجواب غير جواب الآخر، وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله، وليس بحق في نفسه، إذ الحق لا يكون إلاَّ واحداً.

ونور العلم: إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء رفع الاختلاف.

[أثر البيئة في البناء النفسي][2]:

إن مسارقة طبع الإنسان مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم [أمر واقع]، وهو داء دفين، قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين.

فما جالس الإنسان فاسقاً مدة، مع كونه منكراً عليه في باطنه، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما فرقاً، في النفرة عن الفساد واستثقاله، إذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هيناً على الطبع، فيسقط وقعه واستعظامه له.

---

(١) أورد المصنف هذه الملاحظة الدقيقة عند نهاية بحثه عن تفضيل المخالطة والعزلة وذهاب فئة إلى كل منهما. ولدقتها وضعتها تحت عنوان مستقل.

(٢) أورد المصنف هذا البحث المهم في ثنايا حديثه عن الفائدة الثانية للعزلة، وبما أنه بحث مهم وموضوع قائم بذاته يتناول الأثر النفسي للجو المحيط بالإنسان، فقد أفردته بهذا العنوان للفت النظر إليه.

وإنما الوازع عنه، شدة وقعه في القلب، فإذا صار مستصغراً بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة، ويذعن الطبع للميل إليه، أو لما دونه.

ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره، استحقر الصغائر من نفسه، ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه، فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده، وتؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم.

وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة، هذا تأثيره في الطبع.

فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتنزه عن الدنيا فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار، وإلى عبادته بعين الاستحقار، وما دام يرى نفسه مقصراً، فلا يخلو من داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستتماماً للاقتداء.

ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان، وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا، واعتيادهم المعاصي، استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك.

ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدته، وبهذه الدقيقة يعرف دقة نظر سفيان بن عيينة عندما قال: (عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة)[1].

وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين، فما ظنك بمشاهدتهم؟ بل قد صرح بذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «مثل الجليس السوء كمثل الكير، إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه»، فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به، فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به، وقال: «مثل الجليس الصالح مثل صاحب المسك، إن لم يهب لك منه تجد ريحه»[2].

---

(١) ذكره المصنف باعتباره حديثاً مرفوعاً. وقد بين الحافظ العراقي وكذا الشارح أنه من قول سفيان بن عيينة رحمه الله.

(٢) متفق عليه (خ ٢١٠١، م ٢٦٢٨).

ولهذا أقول: من عرف من عالم زلة حرم عليه حكايتها لعلتين: إحداهما: أنها غيبة، والثانية ــ وهي أعظم منها ــ أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة، ويسقط من قلوبهم استعظام الإقدام عليها، فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية.

ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته، أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعاداً يكاد يفضي إلى اعتقادهم كفره، وقد يشاهدون من يُخرج الصلوات عن أوقاتها، ولا تنفر عنه طباعهم، كنفرتهم عن تأخير الصوم، مع أن الصلاة يقتضي تركها الكفر عند قوم، وحزَّ الرقبة عند قوم، وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه. ولا سبب له: إلَّا أن الصلاة تتكرر، والتساهل فيها مما يكثر، فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب.

ولذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير أو خاتماً من ذهب، استبعدته النفوس واشتد إنكارها، وقد يشاهَد في مجلس طويل لا يتكلم إلَّا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك، والغيبة أشد من الزنا، فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير؟ ولكن كثرة سماع الغيبة، ومشاهدة المغتابين، أسقط وقعها عن القلوب، وهوَّن على النفس أمرها.

***

الكِتَابُ ٱلسَّابِعُ

آدَابُ ٱلسَّفَرِ

رُبعُ العَادَات

الباب الأوّل

فوائد السّفر وآدابه

فوائد السفر وفضله ونيته:

اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة، وفيه فوائد، وله آفات.

والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه، ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه، وإما أن يكون له مقصد ومطلب. وعلى هذا فالسفر أقسام:

القسم الأول: السفر في طلب العلم، وهو إما واجب وإما نفل، وذلك بحسب كون العلم واجباً أو نفلاً. وذلك العلم: إما علم بأمور دينية، أو بأخلاقه في نفسه، أو بآيات الله. قال ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»[1].

وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد.

وقال الشعبي: لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدل على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعاً.

وكل مذكور في العلم محصّل له ــ من زمان الصحابة إلى زماننا هذا ــ لم يحصِّل العلم إلا بالسفر.

وأما من سافر لأجل علمه بنفسه وأخلاقه، فذلك أيضاً مهم، فإن طريق

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه. ومن لا يطلع على أسرار باطنه، وخبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها. وإنما السفر هو يسفر عن أخلاق الرجال، وإنما سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن الأخلاق. وبالجملة: فإن النفس في الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها، لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر صرفت عن مألوفاتها، وامتحنت بمشاق الغربة، انكشفت غوائلها، ووقع الوقوف على عيوبها، فيمكن الاشتغال بعلاجها.

وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر: ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبراري والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء إلا وهو شاهد لله بالوحدانية، ومسبِّح له بلسان لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد. وأما الغافلون والمغترون بلامِعِ السراب، من زهرة الدنيا، فإنهم لا يسمعون ولا يبصرون، لأنهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون، والمراد بالسمع السمع الباطن، الذي يدرك لسان الحال، الذي هو نطق وراء نطق المقال.

القسم الثاني: أن يسافر لأجل العبادة، كالحج والجهاد، وكذا المساجد التي نص عليها الحديث: «لا تشدّ الرجال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى»(١) ولا معنى لزيارة البقاع سوى المساجد الثلاثة.

القسم الثالث: أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين، وذلك حسن، فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين.

وقد كان من عادة السلف مفارقة الوطن خيفة من الفتن. قال سفيان الثوري: هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل فكيف على المشتهرين؟ هذا زمان رجل يتنقل من بلد إلى بلد، كلما عُرِفَ في موضع تحول إلى غيره.

---

(١) متفق عليه (خ ١٩٩٥، م ١٣٩٧).

قال أبو نعيم[1]: رأيت سفيان الثوري، وقد علق قلته[2] بيده، ووضع جرابه على ظهره، فقلت: إلى أين يا أبا عبد الله؟ قال: بلغني عن قرية فيها رخص، أريد أن أقيم بها، فقلت له: وتفعل هذا؟ قال: نعم، إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها، فإنه أسلم لدينك، وأقل لهمك. فهذا هرب من غلاء السعر.

القسم الرابع: السفر هرباً مما يقدح في البدن كالطاعون، أو في المال كغلاء السعر أو ما يجري مجراه، ولا حرج في ذلك. ولكن يستثنى منه الطاعون فلا ينبغي أن يفر منه لورود النهي عنه.

[سياحة المتصوفة]:

لا ينبغي أن يسافر المريد إلا في طلب علم، أو مشاهدة شيخ يقتدى به في سيرته، وتستفاد الرغبة في الخير من مشاهدته.

إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار ـ لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار، ودقائق الأعمال، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره، وكانوا بطالين ـ قد ألفوا البطالة واستثقلوا العمل، واستوعروا طريق الكسب، واستلانوا جانب السؤال، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم، وأسخفوا عقولهم وأديانهم، من حيث لم يكن قصدهم إلا الرياء والسمعة وانتشار الصيت.. فلبسوا المرقعات واتخذوا من الخانقاهات متنزهات، وربما تلقفوا ألفاظاً مزخرفة من أهل الطامات، فينظرون إلى أنفسهم، وقد تشبهوا بالقوم في لباسهم، وفي سياحتهم، وفي لفظهم وعباراتهم.. فيظنون بأنفسهم خيراً، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويعتقدون أن كل سوداء تمرة.. فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم.

فهؤلاء بغضاء الله تعالى، فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ، ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ.

---

(١) أبو نعيم: الفضل بن دكين الكوفي، ثقة ثبت، من كبار مشايخ البخاري، روى له الجماعة، مات سنة (٢١٨)هـ.

(٢) هي شبه الكوز تستعمل للماء.

والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت إلا التصوف، فإنه قد انمحق بالكلية وبطل، لأن العلوم لم تندرس بعد، والعالم ـ وإن كان عالم سوء ـ فإنما فساده في سيرته لا في علمه، فيبقى عالماً غير عامل بعلمه، والعمل غير العلم.

وأما التصوف: فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى، واستحقار ما سوى الله، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح، ومهما فسد العمل فات الأصل(١).

آداب المسافر(٢):

الأول: أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده، ولا يأخذ إلا الزاد الحلال الطيب، وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه. ولا بد في السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام، وإظهار مكارم الأخلاق.

الثاني: أن يختار رفيقاً صالحاً، فلا يخرج وحده، فالرفيق ثم الطريق، وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إن نسي، ويعينه ويساعده إذا ذكر.

وليؤمِّروا أحسنهم أخلاقاً وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم في الإيثار وطلب الموافقة، وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف، في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر ومهما كان المدبر واحداً انتظم أمر التدبير، وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور في الحضر والسفر.

الثالث: أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء، وليدع عند الوداع لمودعه بقوله (أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك)(٣).

الرابع: أن يستصحب معه من الأشياء ما يحتاج إليه.

الخامس: وعند القدوم يرسل إلى أهله من يبشرهم بقدومه، ولا ينبغي أن يطرقهم ليلاً، ويسن له أن يدخل المسجد أولاً فيصلي فيه ركعتين، ثم يذهب إلى بيته.

---

(١) أورد المصنف هذا الموضوع تعليقاً على أقسام السفر ونيته، ولأهميته أفردته بعنوان مستقل.

(٢) سبق للمصنف أن ذكر ذلك في باب الحج. . فلا نطيل به هنا.

(٣) أخرجه النسائي في اليوم والليلة، وأبو داود مختصراً، وإسناده جيد.

الباب الثاني

فيما لا بدَّ للمسافر من تعلّمه

اعلم أن المسافر يحتاج في أول سفره إلى أن يتزود لدنياه وآخرته.

أما زاد الدنيا: فالطعام والشراب، وما يحتاج إليه من نفقة.

وأما زاد الآخرة: فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته، وصلاته، وصومه، وعبادته، فلا بد أن يتزود منه، إذ السفر يخفف عنه أموراً، فيحتاج إلى معرفة القدر الذي يخففه: كالقصر والجمع والفطر..

الرخصة الأولى: المسح على الخفين

قال صفوان بن عسال: (أمرنا رسول الله ﷺ إذا كنا مسافرين، أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن)[1] فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة، ثم أحدث، فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافراً، أو يوماً وليلة إن كان مقيماً، ولكن بخمسة شروط:

الأول: أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة، فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها في الخف، ثم غسل اليسرى وأدخلها، لم يجز له المسح.

الثاني: أن يكون الخف قوياً يمكن المشي عليه.

الثالث: أن لا يكون في موضع فرض الغسل خرق.

الرابع: أن لا ينزع الخف بعد المسح عليه، فإن نزع فالأولى له استئناف الوضوء، فإن اقتصر على غسل القدمين جاز.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه، وابن ماجه والنسائي في الكبرى، وابن خزيمة وابن حبان (ع).

الخامس: أن يمسح على الموضع المحاذي لمحل فرض الغسل، ووصفه: ان يبل اليدين ويضع رؤوس أصابع اليمنى من يده على رؤوس أصابع اليمنى من رجله، ويمسحه بأن يجر أصابعه إلى جهة نفسه. وكذا اليسرى.

الرخصة الثانية: التيمم

التيمم بالتراب بدلاً عن الماء، عند العذر.

وإنما يتعذر الماء بأن يكون بعيداً، وهو البعد الذي لا يعتاده أهل المنزل، وكذا إن احتاج إليه لعطشه في يومه أو بعد يومه، وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقائه، فلا يجوز له الوضوء. وإن بيع الماء بثمن المثل لزمه الشراء.

وليقصد صعيداً طيباً، عليه تراب يثور منه غبار، وليضرب عليه كفيه، بعد ضم أصابعهما ضربة، فيمسح بها وجهه، ويضرب ضربة أخرى ــ بعد نزع الخاتم ــ ويفرج الأصابع ويمسح بها بيديه إلى مرفقيه.

ثم إذا صلى به فريضة واحدة، فله أن يتنفل به ما شاء، وإن أراد الجمع بين فريضتين، فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية. ولا يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها، فإن فعل أعاد التيمم.

الرخصة الثالثة: القصر

له أن يقصر في الصلاة المفروضة في كل واحدة من: الظهر والعصر والعشاء، فيقتصر على ركعتين ولكن بشروط:

الأول: أن يؤديها في أوقاتها.

الثاني: أن ينوي القصر، فلو نوى الإتمام أتمَّ.

الثالث: أن لا يقتدي بمقيم ولا بمسافر متم.

ولا يصير مسافراً ما لم يفارق عمران البلد، ولا يشترط أن يغادر خراب البلدة وبساتينها، وأما نهاية السفر فتكون بالوصول إلى العمران من البلد الذي عزم على الإقامة به ثلاثة أيام فصاعداً سوى يوم الدخول. وإن لم يعزم على الإقامة وكان له

شغل، وهو يتوقع كل يوم إنجازه، فله أن يترخص وإن طالت المدة.

الرخصة الرابعة: الجمع

الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما، وبين المغرب والعشاء في وقتيهما، فذلك أيضاً جائز في السفر، ويكون تقديماً وتأخيراً.

وترك الجمعة من رخص السفر أيضاً.

الرخصة الخامسة: التنفل راكباً

كان ﷺ يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته[1]، وأوتر ﷺ على الراحلة. وليس على المتنفل الراكب في الركوع والسجود إلا الإيماء. ولا يجب استقبال القبلة في ابتداء الصلاة ولا في دوامها.

الرخصة السادسة: الفطر:

الفطر في صيام رمضان، وإن كان الصوم يضرّ به فالإفطار أفضل، وإلا فالصوم أفضل من الفطر.

***

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر (خ ١٠٠٠، م ٧٠٠).

الكِتَابُ ٱلثَّامِنُ

آدَابُ ٱلسَّمَاعِ

رُبْعُ العَادَاتِ

[آراء الأئمة]:

حكى القاضي أبو الطيب الطبري[1]، عن الشافعي ومالك[2]، وأبي حنيفة[3]، وسفيان[4]، وجماعة من العلماء ألفاظاً يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه.

وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء: إن الغناء لهو مكروه، يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه تردّ شهادته.

وأما مالك رحمه الله: فقد نهى عن الغناء وقال: إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا ابن سعد[5] وحده.

وأما أبو حنيفة رحمه الله، فإنه كان يكره ذلك، ويجعل سماع الغناء من الذنوب، وكذلك سائر أهل الكوفة سفيان الثوري والشعبي وإبراهيم وغيرهم.

---

(١) طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري، شيخ المذهب ولد بآمل (طبرستان) سنة (٣٤٨)هـ وتوفي سنة (٤٥٠)هـ . وله كتاب في تحريم السماع، وما ذكر المصنف فهو منه.

(٢) مالك بن أنس (٩٣ ــ ١٧٩)هـ إمام دار الهجرة، إمام المذهب المالكي، ولد وتوفي بالمدينة. وله كتاب «الموطأ».

(٣) أبو حنيفة، النعمان بن ثابت (٨٠ ــ ١٥٠)هـ الفقيه المجتهد المحقق، أحد أئمة المذاهب الأربعة عند أهل السنة، نشأ بالكوفة قال الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.

(٤) هو سفيان الثوري.

(٥) إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، أبو إسحاق، نزيل بغداد، روى له الجماعة ولد سنة (١٠٨)هـ وتوفي سنة (١٨٥)هـ وهو أحد شيوخ الشافعي، وكان تعاطيه الغناء وسماعه أمراً مشهوراً، لم يختلف النقل فيه(ش).

فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري.

ونقل أبو طالب المكي[1] إباحة السماع عن جماعة فقال: سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر[2] وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم، وقال: قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح. صحابي وتابعي بإحسان، وقال: لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة، وهي الأيام المعدودات، التي أمر الله عباده فيها بذكره. ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا.

هذا ما نقل من الأقاويل، ومن طلب الحق في التقليد فمهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل، فيبقى متحيراً، أو مائلاً إلى بعض الأقاويل بالتشهي، وكل ذلك قصور، بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقه، وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة، كما سنذكره.

الدليل على إباحة السماع:

اعلم أن قول القائل: السماع حرام، معناه: أن الله تعالى يعاقب عليه. وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل، بل بالسمع، ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص. فإن لم يكن فيه نص، ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه، وبقي فعلاً لا حرج فيه كسائر المباحات. ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس، ونقول: دل النص والقياس جميعاً على إباحته.

إن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها، ثم عن مجموعها، فإن فيه: سماع صوت، طيب، موزون، مفهوم المعنى، محرك للقلب. فالوصف

---

(١) أبو طالب، محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، فقيه زاهد واعظ، أصله من العراق نشأ بمكة واشتهر بها، وسكن بغداد ووعظ فيها، توفي سنة (٣٨٦)هـ وهو صاحب كتاب (قوت القلوب).

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما.

الأعم: أنه صوت طيب، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره. والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات.

الدرجة الأولى: أما سماع الصوت الطيب، من حيث إنه طيب، فلا ينبغي أن يحرم، بل هو حلال بالنص والقياس.

أما القياس: فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص بها، والإنسان عقل وخمس حواس، ولكل حاسة إدراك، وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ، فلذة النظر في المبصرات الجميلة، كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن.. وللشم الروائح الطيبة.. وللمس لذة اللين والنعومة.. وللعقل لذة العلم والمعرفة..

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحمار. فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها.

أما النص: فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن، امتنان الله تعالى على عباده إذ قال:

﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾[1].

فقيل: هو الصوت الحسن. وقال ﷺ: «لله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته»[2].

وقال ﷺ في مدح أبي موسى الأشعري: «لقد أعطي مزماراً من مزامير آل داود»[3]، وقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة فاطر: الآية (١).

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والبيهقي في السنن والحاكم وقال صحيح على شرطهما (ش).

(٣) متفق عليه (خ ٥٠٤٨، م ٧٩٣).

(٤) سورة لقمان: الآية (١٩).

يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن.

الدرجة الثانية: النظر في الصوت الطيب الموزون. فإن الوزن وراء الحسن. فكم من صوت حسن خارج عن الوزن، وكم من صوت موزون غير مستطاب.

والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر، وهو تشبيه للصنعة بالخلقة.

فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة، فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة، ولا بين جماد وحيوان. فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي، كالذي يخرج من حلقه أو من الدف وغيره.

ولا يستثنى من هذه إلاَّ الملاهي والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها[1]، لا للذتها، إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان. ولكن حرمت الخمور واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها، حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان، فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط. وكان تحريمها من قِبَل الإتباع، كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع.

فبهذه المعاني حرم المزمار العراقي والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها. وما عداها فليس في معناها كشاهين الرعاة وكالطبل والقضيب وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب، ولا يتعلق بالخمر ولم يكن في معناها، فبقي على أصل الإباحة قياساً على أصوات الطيور وغيرها. قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٥٩٠) من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري، سمع النبي ﷺ يقول: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِر والحرير والخمر والمعازف».
قال الحافظ العراقي: وصورته عند البخاري صورة التعليق، ولذلك ضعفه ابن حزم، ووصله أبو داود والإسماعيلي.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[1].

فهذه الأصوات لا تحرم من حيث إنها أصوات موزونة، وإنما تحرم بعارض آخر، كما سيأتي في العوارض المحرمة.

الدرجة الثالثة: الموزون والمفهوم، وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان، فيقطع بإباحة ذلك، لأنه ما زاد إلا كونه مفهوماً. والكلام المفهوم غير حرام، والصوت الطيب الموزون غير حرام.

والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله إذ قال: الشعر كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح، ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان. وكيف ينكر إنشاد الشعر، وقد أنشد بين يدي رسول الله ﷺ[2]. وقال ﷺ: «إن من الشعر لحكمة»[3].

ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله ﷺ، وزمان الصحابة رضي الله عنهم، وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة، وألحان موزونة، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره.

الدرجة الرابعة: النظر من حيث إنه محرك للقلب، ومهيج لما هو الغالب عليه، فأقول: لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح، حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً، فمن الأصوات ما يفرح، ومنها ما يحزن، ومنها ما ينوم.

ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب، لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم، بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص، واختلاف طرق النغمات، فحكمه حكم ما في القلب. قال أبو سليمان الداراني: السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه، لكن يحرك ما هو فيه.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣٢).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة (ع).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٤٥).

فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة، ترتبط بها آثار في القلب وهي:

الأول: غناء الحجيج، فإنهم أولاد يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء، وذلك مباح، لأنها أشعار في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى.

الثاني: ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو، وذلك أيضاً مباح.

الثالث: الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء، والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار، وتحريك النشاط فيهم للقتال. وذلك مباح في كل قتال مباح، ومندوب في كل قتال مندوب.

الرابع: أصوات النياحة التي تهيج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة، وقد ورد النهي الصريح عنها[1].

الخامس: السماع في أوقات السرور، تأكيداً للسرور، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحاً. كالغناء في أيام العيد، وفي العرس، وفي وقت قدوم الغائب، وفي وقت الوليمة والعقيقة، وعند ولادة المولود، وعند ختانه، وعند حفظ القرآن العزيز. وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما حديث عائشة رضي الله عنها: (أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدففان وتضربان، والنبي ﷺ متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه، فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»[2].

وقالت عائشة: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة، وهم يلعبون في المسجد، فزجرهم عمر رضي الله عنه فقال النبي ﷺ: «أمنا بني

---

(١) متفق عليه من حديث أم عطية (ع).
(٢) متفق عليه (خ ٩٨٧، م ٨٩٢).

أرفدة»[1] يعني من الأمن.

فهـذه الأحاديث نص صـريح في أن الغنـاء واللعب ليس بحرام، وفيهـا دلالة على الرخصة في الغنـاء، والضرب بـالدف من الجـاريتين، وأن رسـول الله ﷺ كـان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع.

فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحـريم صوت المـزامير، بـل إنما يحرم عند خوف الفتنة.

فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء، والضرب بـالدف، واللعب بالدرق والحراب، والنظر إلى رقص الحبشـة في أوقات السـرور كلها ـ قيـاساً على يوم العيد، فإنه وقت سرور ـ وفي معناه يوم العرس. . وغيره.

[العوارض المحرمة للغناء]:

فإن قيل: فهل له حالة يحرم فيها؟

فأقول: إنـه يحرم بخمسـة عوارض: عـارض في المسمع، وعـارض في آلة الإسمـاع، وعارض في نـظم الصـوت، وعـارض في نفس المستمـع أو مـواظبتـه، وعارض في كون الشخص من عوام الخلق.

العارض الأول: أن يكون المسمع امرأة، لا يحل النظر إليهـا، وتخشى الفتنة من مسامعها، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل الغنـاء، بل لـو كانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان، فلا يجـوز محاورتهـا ومحادثتها، ولا سماع صوتها في القرآن أيضاً.

العـارض الثاني: في الآلـة، بأن تكـون من شعار أهـل الشرب أو المخنثين، وهي: المزامير والأوتار وطبل الكوبة، فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة، وما عدا ذلـك يبقى على أصـل الإباحـة، كالـدف ـ وإن كان فيـه الجلاجـل ـ وكالـطبل، والشـاهين، والضرب بالقضيب، وسائر الآلات.

---

(١) متفق عليه (خ ٩٨٨، م ٨٩٢ و٨٩٣).

العارض الثالث: في نظم الصوت، وهو الشعر، فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو، أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، أو الصحابة رضي الله عنهم، فسماع ذلك حرام، بألحان وغير ألحان، والمستمع شريك القائل، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز.

العارض الرابع: في المستمع، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه، وكان في غرَّة الشباب، فالسماع حرام عليه، لأن السماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص.

العارض الخامس: أن يكون الشخص ممن اتخذه ديدنه وهجيراه[1] وقصر عليه أكثر أوقاته، فهذا هو السفيه الذي ترد شهادته، فإن المواظبة على اللهو جناية، وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة، فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة. ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج فإنه مباح، ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة.

فالشافعي ــ وليس تحريم الغناء من مذهبه أصلاً ــ قد نص[2] وقال: (في الرجل يتخذه صناعة: لا تجوز شهادته، وذلك لأنه من اللهو المكروه الذي يشبه الباطل، ومن اتخذه صنعة كان منسوباً إلى السفاهة وسقوط المروءة، وإن لم يكن محرماً بَيِّن التحريم).

قال يونس بن عبد الأعلى[3]: سألت الشافعي رحمه الله، عن إباحة أهل المدينة للسماع فقال الشافعي: لا أعلم أحداً من علماء الحجاز كره السماع، إلا ما كان في الأوصاف، فأما الحداء وذكر الأطلال والمرابع وتحسين الصوت بألحان الأشعار فمباح.

---

(١) معنى ديدنه: عادته، ومعنى هجيراه: طريقته (ش).

(٢) في كتاب آداب القضاء من كتابه «الأم» (ش).

(٣) يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري ثقة، مات سنة (٢٦٤)هـ، روى له مسلم والنسائي وابن ماجه (ش).

حجج القائلين بتحريم السماع:

احتجوا بقوله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾[1].

قال ابن مسعود والحسن البصري والنخعي رضي الله عنهم: إن لهو الحديث هوالغناء. وروت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها»[2].

فنقول: أما القينة، فالمراد بها الجارية التي تغني للرجال في مجلس الشرب، وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق، ومن يخاف عليهم الفتنة حرام. وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم من هذا الحديث. بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة، بدليل ما روي في الصحيحين من غناء الجاريتين في بيت عائشة رضي الله عنها.

وأما شراء لهو الحديث بالدين، استبدالاً به ليضل به عن سبيل الله، فهو حرام مذموم، وليس النزاع فيه، وليس كل غناء بدلاً عن الدين مشترى به، ومضلاً عن سبيل الله تعالى، وهو المراد في الآية، ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراماً.

واحتجوا بقوله تعالى:

﴿ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝٦١ ﴾[3].

قال ابن عباس: هو الغناء بلغة حمير، يعني: السمد.

فنقول: ينبغي أن يحرم الضحك، وعدم البكاء أيضاً، لأن الآية تشتمل عليه.

---

(١) سورة لقمان: الآية (٦). والآية: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف. قال البيهقي: ليس بمحفوظ (ع).

(٣) سورة النجم: الآية (١١).

واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: «كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل، إلا تأديبه فرسه، ورميه بقوسه، وملاعبته لامرأته»[1].

قلنا: فقوله «باطل» لا يدل على التحريم، بل يدل على عدم الفائدة. على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام.

واحتجوا بقول ابن مسعود رضي الله عنه: الغناء ينبت في القلب النفاق. وزاد بعضهم: كما ينبت الماء البقل.

وقالوا: ومر على ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قوم محرمون، وفيهم رجل يتغنى، فقال: ألا لا أسمع الله لكم، ألا لا أسمع الله لكم. وعن نافع أنه قال: كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما في طريق، فسمع زمارة راع، فوضع أصبعيه في أذنيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع، أتسمع ذلك؟ حتى قلت: لا، فأخرج أصبعيه وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع[2].

وقال الفضيل بن عياض: الغناء رقية الزنا.

فنقول: قول ابن مسعود: «ينبت النفاق» أراد به في حق المغني، فإن غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره، ويروّج صوته عليه، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه. وذلك أيضاً لا يوجب تحريماً.

وأما قول ابن عمر: «ألا لا أسمع الله لكم» فلا يدل على التحريم، من حيث إنه غناء، بل كانوا محرمين، ولا يليق بهم الرفث، وظهر له من مخايلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى، بل لمجرد اللهو، فأنكر ذلك عليهم لكونه منكراً بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام.

وأما وضعه أصبعيه في أذنيه، فيعارضه: أنه لم يأمر نافعاً بذلك، ولا أنكر عليه سماعه، وهذا لا يدل على التحريم بل يدل على أن الأولى تركه.

---

(١) أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب (ع).

(٢) رفعه أبو داود وقال: هذا حديث منكر (ع).

وأما قول الفضيل: «هو رقية الزنا» فهو منـزَّل على سماع الفساق والمغتلمين من الشبان[1].

***

(١) من الملاحظ أن المصنف رحمه الله، لم يورد ضمن حجج القائلين بتحريم السماع حديث البخاري الذي أشار إليه سابقاً وهو (ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف) وذلك لأنه يقول به ـ خلافاً لابن حزم ـ ولكنه يقيد هذه المعازف بما كان من شعار أهل شرب الخمر، وما كان مستعملاً في مجالسهم تلك، ولذا كان تحريم تلك المعازف تبعاً لتحريم الخمر، كما حرّمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة للجماع.
والمصنف رحمه الله لم يستطع أن يذكر دليلاً ما على تقييد النص، على الرغم من كثرة الشواهد التي أوردها.

الكِتَابُ ٱلتَّاسِعُ

الأمرُ بالمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلمُنْكَر

رُبعُ العِبَادَات

إن الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر هـو القطب الأعـظم في الدين، وهـو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين. ولـو طوي بسـاطه، وأهمـل علمه وعمله لتعـطلت النبـوة واضمحلت الـديـانـة، وعمت الفتـرة، وفشت الضـلالـة وشـاعت الجهالة.. وقد كان الذي خفنا أن يكون فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

الباب الأول

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ويدل على ذلك ــ بعد إجماع الأمة عليه ــ الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[1].

ففي الآية بيان الإيجاب، فإن قوله تعالى: ﴿ولتكن﴾ أمر، وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به، إذ حَصَرَ وقال: ﴿أولئك هم المفلحون﴾. وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين، إذ لم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال: ﴿ولتكن منكم أمة﴾، فإذاً مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين. واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين.

وقال تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٤).

(٢) سورة التوبة: الآية (٧١).

فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية.

وقال تعالى:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[2].

وهذا غاية التشديد، إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر.

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[3].

وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بيّن أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس.

وقال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾[4].

فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين.

وقال تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية (٧٨ ــ ٧٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

(٣) سورة الحج: الآية (٤١).

(٤) سورة المائدة: الآية (٢).

وهو أمر جزم، ومعنى التعاون: الحث عليه، وتسهيل طرق الخير، وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان.

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1].

وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين.

وقال تعالى:

﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[2].

وأما الأخبار: فقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: (أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾[3].

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»)[4].

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات»، قالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا. قال: «فإذا أبيتم إلَّا ذلك، فأعطوا الطريق حقها»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[5].

---

(١) سورة النساء: الآية (١٣٥).

(٢) سورة النساء: الآية (١١٤).

(٣) سورة المائدة: الآية (١٠٥).

(٤) أخرجه أصحاب السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح (ع). وقال الدراقطني في العلل: جميع رواته ثقات (ش).

(٥) متفق عليه (خ ٢٤٦٥، م ٢١٢١).

وعن عبد الله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلَّا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1].

وأما الآثار: فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب المعروف، ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله.

وسئل حذيفة رضي الله عنه، عن ميت الأحياء فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده، ولا بلسانه، ولا بقلبه.

وأوحى الله إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم، فقال: يا رب، هؤلاء الأشرار؟ فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي وواكلوهم وشاربوهم.

***

(١) أخرجه مسلم برقم (٥٠).

الباب الثاني

أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلم أن الأركان في الحسبة أربعة: المحتسب، والمحتسب عليه، والمحتسب فيه، ونفس الاحتساب.

الركن الأول: المحتسب:

وله شروط وهو أن يكون مكلفاً، مسلماً، قادراً.

أما التكليف، فلا يخفى وجه اشتراطه فإن غير المكلف لا يلزمه أمر.

وأما الإيمان، فلا يخفى وجه اشتراطه أيضاً، لأن هذا نصرة للدين، فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين، وعدوّ له.

وأما العدالة، فقد اعتبرها قوم، وقالوا: ليس للفاسق أن يحتسب وربما استدلوا بقوله تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾[2].

ونقول: هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوماً عن المعاصي كلها؟ ولهذا قال سعيد بن جبير[3]: (إن لم يأمر بالمعروف، ولم ينهَ عن المنكر، إلاّ

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٤).

(٢) سورة الصف: الآية (٣).

(٣) سعيد بن جبير أبو عبد الله، تابعي أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر، وصار من أعلم =

من لا يكـون فيه شيء، لم يـأمر أحـد بشيء). فأعجب مـالكـاً ذلـك من سعيـد بن جبير.

واشترط قوم: أن يكون مأذوناً من جهة الإمام والوالي، وهذا الاشتراط فاسد، فـإن الآيات والأخبـار التي أوردناهـا تدل على أن كـل من رأى منكـراً فسكت عليـه عصى، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له.

وأما كونه قادراً، فلا يخفى أن العاجـز ليس عليه حسبـة إلَّا بقلبه، إذ كـل من أحب الله يكره معاصيه وينكرهـا. واعلم أنه لا يتـوقف سقوط الـوجوب على العجـز الحسي، بل يلتحق به من يخاف مكروهاً يناله فذلك في معنى العجز.

الركن الثاني: مافيه الحسبة:

وهو كل منكر، موجود في الحال، ظاهر بغير تجسس، معلوم كونه منكراً بغير اجتهاد، فهذه أربعة شروط:

الأول: كونه منكراً، ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع.

ولفظ المنكـر أعم من المعصية، إذ من رأى صبيـاً أو مجنونـاً يشـرب الخمـر فعليـه أن يـريق خمـره ويمنعـه، وهـذا لا يسمى معصيـة في حق المجنـون، فلفظ المنكر أولى عليه وأعم من لفظ المعصية.

وقد أدرجنا في عموم هذا: الصغيرة والكبيرة، فـلا تختص الحسبة بـالكبائـر، بل كشف العورة في الحمام، واتباع النظر للنسوة الأجنبيات، كل ذلك من الصغائـر ويجب النهي عنها.

الثاني: أن يكون موجوداً في الحال، وهو احتراز عمن فرغ من شرب الخمر، فإن المنكر قد انقرض، واحتراز عما سيوجد، كمن يعلم بقرينة الحال أنه عازم على

= الناس، انضم إلى عبد الرحمن بن الأشعث في خروجه على عبد الملك، ألقي عليه القبض في مكة وأرسل إلى الحجاج فقتله عام (٩٥)هـ، قـال الإمام أحمـد: قتل الحجـاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلَّا وهو مفتقر إلى علمه.

الشرب، فلا حسبة عليه، فإن فيه إساءة ظن بالمسلم، وربما لا يقدم على ما عزم عليه.

الثالث: أن يكون المنكر ظاهر للمحتسب بغير تجسس، فكل من ستر معصية في داره، وأغلق بابه، لا يجوز أن يتجسس عليه، وقد نهى الله تعالى عنه بقوله:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾(١).

روي أن عمر رضي الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة، فأنكر عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد، فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه. فقال: وما هي؟ فقال: قد قال الله تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾ وقد تجسست. وقال تعالى:

﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾(٢).

وقد تسورت من السطح، وقال:

﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾(٣).

وما سلَّمت. فتركه عمر وشرط عليه التوبة.

ولذلك شاور عمر الصحابة رضي الله عنهم ـ وهو على المنبر ـ وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكراً فهل له إقامة الحدّ فيه؟ فأشار علي رضي الله عنه: بأن ذلك منوط بعدلَيْن فلا يكفي فيه واحد.

الرابع: أن يكون: كونه منكراً معلوماً بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل اجتهاد فلا حسبة فيه، يعني المسائل المختلف فيها بين الأئمة، فلا بد أن يكون المنكر متفقاً عليه.

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٢).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٨٩).

(٣) سورة النور: الآية (٢٧).

الركن الثالث: المحتسب عليه:

يشترط في المنكر عليه أن يكون إنساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً، كما في الصبي قبل البلوغ، والمجنون.

الركن الرابع: نفس الاحتساب:

وله درجات وآداب.

الدرجة الأولى: وهي التعرف، ونعني طلب المعرفة بجريان المنكر، وذلك منهي عنه ــ وهو التجسس ــ فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمسَّ ما في ثوبه ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره.

نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار. . فله إذ ذاك أن يدخل داره.

الدرجة الثانية: التعريف، فإن المنكر قد يقدم عليه المقدم بجهله، وإذا عرف أنه منكر تركه، كالسوادي يصلي ولا يحسن الركوع والسجود، فيعلم ذلك لجهله. . ولو رضي بأن لا يكون مصلياً لترك أصل الصلاة.

فيجب تعريفه باللطف من غير عنف، وذلك لأن ضمن التعريف نسبته إلى الجهل والحمق، والتجهيل إيذاء، وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور لا سيما بالشرع، ولذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء، فإن إيذاء المسلم حرام محذور.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى، وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً، أو فيمن أصرَّ عليه بعد أن عرف كونه منكراً، كالذي يواظب على الشرب أو على الظلم، فينبغي أن يوعظ ويخوَّف بالله تعالى، وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك. . وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه، ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه، إذ المسلمون كنفس واحدة.

وهـا هنا آفـة عظيمـة، ينبغي أن يتوقـاها فـإنها مهلكـة. وهي أن يرى العـالم ـ عنـد التعريف ـ عـزَّ نفسه بـالعلم، وذل غيره بـالجهل، فـربما يقصـد بالتعـريف الإذلال وإظهار التميز بشرف العلم، وإذلال صاحبه بالنسبـة إلى خسَّة الجهـل. فإن كان الباعث هذا، فهذا المنكر في نفسه أقبح من المنكر الذي يعترض عليه. ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية في الجهل.

قيـل لـداود الـطائي[1] رحمـه الله: أرأيت رجـلًا دخـل على هؤلاء الأمـراء، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ فقال: أخاف عليه السوط، قـال: إنه يقـوى عليـه، قال: أخـاف عليه السيف، قـال: إنه يقـوى عليه، قـال: أخاف عليـه الداء الدفين وهو العجب.

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ، وذلك يعدل إليه عند العجـز عن المنع باللطف، وظهور مبادىء الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، وذلك مثـل قول إبراهيم عليه السلام:

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2].

ولسنا نعني بالسب النسبة إلى الزنا ومقدماته، ولا الكذب، بل أن يخاطبه بما فيه، مما لا يعـدّ من جملة الفحش، كقولـه: يا أحمق، يـا جاهـل، ألا تخاف الله، يا غبـي. . ولهذه الرتبة أدبان:

أحدهما: أن لا يقدم عليها إلَّا عند الضرورة والعجز عن اللطف.

الثاني: أن لا ينطق إلَّا بالصدق، ولا يسترسل فيـه فيطلق لسـانه الـطويل بمـا لا يحتاج إليه.

الـدرجة الخـامسة: التغييـر باليـد، وذلك ككسـر الملاهي وإراقـة الخمـر. . وإخراجه من الدار المغصوبة. . فأما معاصي القلب فلا يقدر على مباشرة تغييـرها،

---

(١) داود بن نصيـر الطائي الكـوفي، برع في الفقـه ثم اعتزل النـاس، كان عـديم النظيـر زهداً وصلاحاً، ومن كلامه: (صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت. .)، توفي سنة (١٦٢)هـ .

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٦٧).

وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة.

وفي هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: أن لا يباشر بيده التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكَر عليه ذلك. فإذا أمكنه أن يكلفه المشي والخروج من الأرض المغصوبة فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره. وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه.

الثاني: أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه، وهو أن لا يأخذ برجله إذا قدر على جره بيده، فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف، كقوله: دع عنك هذا أو لأضربنك.. والأدب في هذه الرتبة، أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح، وذلك جائز بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع. فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف.

آداب المحتسب:

قد ذكرنا تفاصيل الآداب في آحاد الدرجات ونذكر الآن جملها ومصادرها فنقول: جميع آداب المحتسب مصدرها: العلم والورع وحسن الخلق.

أما العلم: فليعلم حدود الحسبة ومجاريها وموانعها، ليقتصر على حد الشرع فيه.

والورع: ليردعه عن مخالفة معلومه، فما كل من علم عمل بعلمه، بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحدّ المأذون فيه شرعاً، فليكن كلامه ووعظه مقبولاً.

وأما حسن الخلق: فليتمكن به من اللطف والرفق، وهو أصل الباب، والعلم والورع لا يكفيان فيه، ولا يتم الورع إلاَّ مع حسن الخلق والقدرة على ضبط شهوة الغضب، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله.

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات، وبها تندفع المنكرات.

قال الحسن البصري رحمه الله: إذا كنت ممن يأمر بالمعروف، فكن من آخَذِ الناس به وإلّا هلكت.

ومن آداب الحسبة، توطين النفس على الصبر، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف، فقال حاكياً عن لقمان:

﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾[1].

ومن الآداب: تقليل العلائق، وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداهنة.

ومما يدل على وجوب الرفق: ما استدل به المأمون[2] إذ وعظه واعظ وعنف له في القول، فقال: يا رجل، ارفق، فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى:

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾[3].

فليكن اقتداء المحتسب بالأنبياء ــ صلوات الله عليهم ــ فقد روى أبو أمامة: أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، أتأذن لي في الزنا؟ فصاح به الناس، فقال النبي ﷺ: «قرّبوه، ادن»، فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي ﷺ: «أتحبه لأمك؟» فقال: لا، جعلني الله فداك، قال: «كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتحبه لابنتك؟» قال: لا، جعلني الله فداك.. فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «اللّهم طهِّر قلبه، واغفر ذنبه، وحصِّن فرجه»[4]. فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا.

---

(١) سورة لقمان: الآية (١٧).

(٢) المأمون، عبد الله بن هارون الرشيد (١٧٠ ــ ٢١٨)هـ، سابع خلفاء بني العباس، وأحد أعظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه، كان فصيحاً مفوهاً، قرب العلماء والمحدثين..

(٣) سورة طه: الآية (٤٤).

(٤) رواه أحمد بإسناد جيد ورجاله رجال الصحيح (ع).

ومر رجل قد أسبل إزاره على صلة بن أشيم، فهمَّ أصحابه أن يأخذوه بشـدة، فقـال: دعـوني، أنـا أكفيكم، فقـال: يـا ابن أخي، إن لي إليـك حـاجـة، قــال: ومـا حاجتـك يا عم؟ قـال: أحب أن ترفـع من إزارك. فقـال: نعم وكـرامـة. فقـال لأصحابه: لو أخذتموه بشدة لقال: لا، ولا كرامة وشتمكم.

*
**

البَابُ الثَّالِثُ

المُنْكَرَاتُ المَألُوفَةِ فِي العَادَات

اعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة:

فإذا قلنا: هذا منكر مكروه، فاعلم أن المنع منه مستحب، والسكوت عليه مكروه وليس بحرام، إلَّا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له، لأن الكراهة حكم في الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه.

وإذا قلنا: منكر محظور، أو: منكر مطلقاً، فنريد به المحظور، ويكون السكوت عليه مع القدرة محظوراً.

منكرات المساجد:

مما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود، وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث. .

ومن رأى مسيئاً في صلاته فسكت عليه فهو شريكه. وكذلك كل ما يقدح في صحة الصلاة من نجاسة على ثوبه لا يراها، أو انحراف عن القبلة إن كان أعمى فكل ذلك تجب فيه الحسبة.

ومنها قراءة القرآن باللحن، يجب النهي عنه ويجب تلقين الصحيح.

ومنها تراسل المؤذنين في الأذان وتطويلهم بمدّ كلماته.

ومنها كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة، فالقاصّ إن كان يكذب في أخباره فهو فاسق، والإنكار عليه واجب، وكذا الواعظ المبتدع يجب منعه، ولا يجوز حضور مجلسه إلَّا على قصد إظهار الرد عليه.

ومنها دخول المجانين والصبيان إلى المسجد، ولا بأس بدخول الصبي إلى

المسجد إذا لم يلعب، ولا يحرم عليه اللعب في المسجد، ولا السكوت على لعبه، إلَّا إذا اتخذ المسجد ملعباً، وصار ذلك معتاداً، فيجب المنع. فهذا مما يحل قليله، دون كثيره.

منكرات الأسواق:

من المنكرات المعتادة في الأسواق: الكذب في المرابحة، فمن قال: اشتريت هذه السلعة ـ مثلاً ـ بعشرة وأربح فيها كذا، وكان كاذباً فهو فاسق، وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه.

ومنها إخفاء العيب، فإذا علم به عيباً، فيلزمه أن يبينه للمشتري، وإلَّا كان راضياً بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام.

وكذلك التفاوت في الذراع والمكيال والميزان.

ومنها بيع الملاهي والصور المجسمة، وكذلك بيع الأواني المتخذة من الذهب والفضة، وكذا بيع الثياب الحرير للرجال.

وكذلك تلبيس انخراق الثياب بالرفو، وما يؤدي إلى الالتباس.

منكرات الشوارع:

من المنكرات المعتادة فيها: إخراج الرواشن والأجنحة، ووضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطريق، فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق وتضرر المارَّة، وإن لم يؤدِ إلى ضرر لسعة الطريق فلا يمنع.

وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين منكر يجب المنع منه إلَّا بقدر حاجة النزول والركوب.

وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة، وليس لأحد أن يختص بها إلَّا بقدر الحاجة، والمرعي هو الحاجة التي ترد الشوارع لأجلها دون سائر الحاجات.

وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه.

وكذلك ذبح القصاب إذا كان يذبح في الطريق حذاء باب الحانوت، ويلوث الطريق بالدم، فإنه منكر يمنع منه، بل حقه أن يتخذ في دكانه مذبحاً، فإن في ذلك إضراراً بالناس بسبب ترشيش النجاسة وبسبب استقذار الطباع للقاذورات.

وكذلك طرح القمامة على جوادّ الطرق، وإرسال الماء من الميازيب.. فإن ذلك ينجس الثياب أو يضيق الطريق.

فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها، وليس للآحاد فيها إلَّا الوعظ فقط.

منكرات الحمامات:

منها كشف العورات والنظر إليها، ومنها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ.

ومنها غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة، وغسل الإزار والطاس النجس في الحوض وماؤه قليل.

منكرات الضيافة:

منها فرش الحرير للرجال فهو حرام، وكذلك تبخير البخور في حجرة فضة أو ذهب، أو استعمال أواني الفضة.

ومنها سماع الأوتار أو سماع القينات.

وأما الصور التي على النمارق والزرابي المفروشة فليس منكراً. وكذلك على الأطباق والقصاع، لا الأواني المتخذة على شكل الصور.

ومنها الإسراف في الطعام فهو منكر. ويطلق الإسراف على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة، والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال.

وكذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو إسراف محرم، وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة. ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب

والسقف لا فائدة فيه إلاَّ لمجرد الزينة، فكذلك الدور. وكذلك القول في التجمل بالثياب والأطعمة فذلك مباح، ويصير إسرافاً باعتبار حال الرجل وثروته.

المنكرات العامة (واجب الدعوة إلى الله):

اعلم أن كل قاعد في بيته ـ أينما كان ـ فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر، من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد، فكيف في القرى والبوادي؟!

فواجب أن يكون في مسجد من البلد فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه ـ فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية ـ أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد والعرب وغيرهم يعلمهم فرائض شرعهم.

فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم أهل بيته ذلك، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم إلى أهل بلده.. وهكذا إلى أقصى العالم.

فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد، وإلاَّ حرج به كل قادر عليه، قريباً كان أو بعيداً. ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه، وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره.

وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه، يشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة، والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات، ولا يتقدم على هذا إلاَّ فرض عين، أو فرض كفاية هو أهم منه.

***

الباب الرابع

في أمر الأمراء بالمعروف

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف، وأن أوله التعريف وثانيه الوعظ. . والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان: التعريف والوعظ.

وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان، فإن ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر، ويكون ما يتولد منه من المحذور أكثر، وأما التخشين في القول: كقوله: يا ظالم، يا من لا يخاف الله، وما يجري مجراه، فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز، وإن كان لا يخاف إلاَّ على نفسه فهو جائز، بل مندوب إليه.

فقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار، والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة، والتعرض لأنواع العذاب، لعلمهم بأن ذلك شهادة. قال رسول الله ﷺ: «خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك»(١). وقال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»(٢).

ولما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر، وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد، كما وردت به الأخبار، قدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك، ومحتملين أنواع العذاب، وصابرين عليه في ذات الله تعالى، ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله.

ونقتصر الآن على حكايات يعرف وجه الوعظ بها وكيفية الإنكار عليهم:

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال: صحيح الإسناد (ع).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري (ع).

● خطب مروان بن الحكم[1] قبل صلاة العيد، فقال له رجل: إنما الخطبة بعد الصلاة، فقال له مروان: اترك ذلك يا فلان، فقال أبو سعيد الخدري: أما هذا فقد قضى ما عليه، قال لنا رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فلينكره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[2].

● ودخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان[3] ـ وهو جالس على سريره وحوله الأشراف من كل بطن ـ وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به، قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟

فقال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين. وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم، ولا تغلق بابك دونهم.

فقال له: أجل أفعل.

ثم نهض وقام، فقبض عليه عبد الملك فقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك. وقد قضيناها، فما حاجتك أنت؟

فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة.. ثم خرج.

فقال عبد الملك: هذا ـ وأبيك ـ الشرف.

---

(١) مروان بن الحكم (٢ ـ ٦٥)هـ، أبو عبد الملك، خليفة أموي، ولي إمرة المدينة (٤٢ ـ ٤٩)هـ، ولما اعتزل معاوية بن يزيد الخلافة دعا مروان لنفسه فبويع سنة (٦٤)هـ وكانت خلافته تسعة أشهر.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٩) مع القصة.

(٣) عبد الملك بن مروان (٢٦ ـ ٨٦)هـ من أعظم الخلفاء ودهاتهم. انتقلت إليه الخلافة يوم موت أبيه سنة (٦٥)هـ، واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد الله ابني الزبير.

● وبعث الحجاج إلى الحسن البصري، فلما دخل عليه قال: أنت الذي تقول: قاتلهم الله، قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم؟ قال: نعم. قال: ما حملك على هذا؟ قال: ما أخذ الله على العلماء من المواثيق: ليبيننه للناس ولا يكتمونه[1]، قال: يا حسن أمسك عليك لسانك، وإياك أن يبلغني عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك.

● وعن الشافعي رحمه الله قال: حدثني عمي محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور[2] وفيه ابن أبي ذؤيب[3] وكان والي المدينة الحسن بن زيد[4]، قال: فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئاً من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبي ذؤيب. قال: فسأله:

فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب؟

فقال: أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس، كثيرو الأذى لهم.

فقال أبو جعفر: قد سمعتم.

فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين، سله عن الحسن بن زيد.

فقال: يا ابن أبي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد؟

---

(١) قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾. [سورة آل عمران: الآية (١٨٧)].

(٢) أبو جعفر المنصور، عبد الله بن محمد بن علي (٩٥ ــ ١٥٨)هـ، ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عني بالعلوم، كان عارفاً بالفقه والأدب. ولي الخلافة بعد أخيه السفاح سنة (١٣٦)هـ.

(٣) ابن أبي ذؤيب، محمد بن عبد الرحمن، قرشي عامري، روى عن الزهري ونافع، وثقه أحمد وغيره. قال الشافعي: ما فاتني أحد فأسفت عليه ما أسفت على الليث وابن أبي ذؤيب. قال الواقدي: كان صواماً قوالاً بالحق، مات بالكوفة منصرفاً من بغداد سنة (١٥٩)هـ. روى له الجماعة.

(٤) الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. توفي سنة (١٦٨)هـ.

فقال: أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه.

فقال: قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح.

فقال: يا أمير المؤمنين، اسأله عن نفسك.

فقال: ما تقول فيَّ؟

قال: تعفيني يا أمير المؤمنين.

قال: أسألك بالله إلاَّ أخبرتني.

قال: تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك؟

قال: والله لتخبرني.

قال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه، فجعلته في غير أهله، وأشهد أن الظلم ببابك فاشٍ.

قال: فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له: أما والله لولا أني جالس ها هنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك.

قال: فقال ابن أبي ذؤيب: يا أمير المؤمنين، قد ولي أبو بكر وعمر، فأخذا الحق، وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصفرا آنافهم.

قال: فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك.

***

الكِتَابُ ٱلعَاشِرُ

آدَابُ ٱلمَعِيْشَةِ وَأَخْلَاقِ ٱلنُّبُوَّة

رُبْعُ العَادَات

[بيان الغرض من هذا الكتاب]:

كنت عزمت على أن أختم ربع العادات من هذا الكتاب، بكتاب جامع لآداب المعيشة، لئلا يشق على طالبها استخراجها من جميع هذه الكتب، ثم رأيت كل كتاب من ربع العادات قد أتى على جملة من الآداب، فاستثقلت تكريرها وإعادتها، فإن طلب الإعادة ثقيل، والنفوس مجبولة على معاداة المعادات.

فرأيت أن أقتصر في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله ﷺ، وأخلاقه المأثورة عنه بالإسناد، فأسردها مجموعة فصلاً فصلاً، محذوفة الأسانيد، ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان، وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي شهد آحادُها على القطع بأنه أكرم خلق الله تعالى، وأعلاهم رتبة، وأجلهم قدراً، فكيف مجموعها؟!

ثم أضيف إلى ذكر أخلاقه، ذكر خلقته، ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الأخبار، ليكون ذلك معرباً عن مكارم الأخلاق والشيم. والله تعالى ولي التوفيق للاقتداء بسيد المرسلين، في الأخلاق والأحوال وسائر معالم الدين.

تأديب الله تعالى محمداً ﷺ بالقرآن:

كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال، دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: «اللهم حسن

خَلْقي وخُلُقي»[1]، ويقول: «اللهم جنبني منكرات الأخلاق»[2]. فاستجاب الله دعاءه، وفاءً بقوله عزّ وجلّ:

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[3].

فأنزل عليه القرآن وأدبه به، فـ «كان خلقه القرآن»[4].

وإنما أدبه القرآن بمثل:

قوله تعالى:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[5].

وقوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾[6].

وقوله:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾[7].

وقوله:

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾[8].

---

(١) «اللهم حسن خلقي وخلقي» و«اللهم أحسنت خلقي فأحسن خلقي» أخرجهما أحمد وإسنادهما جيد (ع).

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه واللفظ له (ع).

(٣) سورة غافر: الآية (٦٠).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٧٤٦).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٩٩).

(٦) سورة النحل: الآية (٩٠).

(٧) سورة لقمان: الآية (١٧).

(٨) سورة المائدة: الآية (١٣).

وقوله:

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾(1).

وقوله:

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(2).

وقوله:

﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾(3).

وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر.

وهو ﷺ المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق، فإنه أُدِّبَ بالقرآن، وأدَّب الخلق به، ولذلك قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(4).

ثم لما أكمل الله تعالى خُلُقه أثنى عليه فقال تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾(5).

فسبحانه، ما أعظم شأنه، وأتم امتنانه.

ثم انظر إلى عميم لطفه، وعظيم فضله، كيف أعطى ثم أثنى؟ فهو الذي زينه بالخلق الكريم، ثم أضاف إليه ذلك فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

ثم بين رسول الله ﷺ للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها، ومن ذلك:

---

(1) سورة فصلت: الآية (34).

(2) سورة آل عمران: الآية (134).

(3) سورة الحجرات: الآية (12).

(4) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي. قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم (ع).

(5) سورة القلم: الآية (4).

حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة، ولين الجانب، وبذل المعروف، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وعيادة المريض براً كان أو فاجراً، وتشييع جنازة المسلم، وحسن الجوار لمن جاورت ــ مسلماً كان أو كافراً ــ، وتوقير ذي الشيبة المسلم، وإجابة الطعام والدعاء عليه، والعفو والإصلاح بين الناس، والجود والكرم والسماحة، والابتداء بالسلام، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، واجتناب ما حرَّمه الإسلام، من الكذب والبخل والشح، والجفاء والمكر والخديعة، والنميمة، وسوء ذات البين، وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق، والتكبر والفخر والاختيال، والاستطالة، والبذخ، والفحش والتفحش، والحقد والحسد، والطيرة والبغي والعدوان والظلم.

بيان جمل من محاسن أخلاقه ﷺ:

كان ﷺ أحلم الناس، وأشجع الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، لم تمسَّ يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه[1].

وكان أسخى الناس، لا يبيت عنده دينار ولا درهم، لا يُسأل شيئاً إلا أعطاه، وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله..

وكان أشد الناس حياء، لا يثبت بصره في وجه أحد، ويجيب دعوة العبد والحر، ويقبل الهدية، ولو أنها جرعة لبن ويكافىء عليها، ويأكلها ولا يأكل الصدقة.

يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، وينفذ الحق.

وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع[2] ومرة يأكل ما حضر ولا يأكل متكئاً، ولم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية.

ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، وكان يمشي وحده بلا حارس.

---

(١) أخرج الشيخان عن عائشة: «ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها» (ع).

(٢) متفق عليه من حديث جابر في قصة حفر الخندق (ع).

كان أشد الناس تواضعاً، وأسكنهم من غير كبر، وأبلغهم في غير تطويل، وأحسنهم بشراً، لا يهوله شيء من أمور الدنيا، يلبس ما وجد، يركب ما أمكنه، مرة فرساً، ومرة بعيراً، ومرة بغلة، ومرة حماراً، ومرة يمشي راجلاً حافياً.

يحب الطيب، ويكره الرائحة الرديئة، ويجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم.

يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم، يقبل معذرة المعتذر إليه. يمزح ولا يقول إلا حقاً، يضحك من غير قهقهة، يرى اللعب المباح فلا ينكره، يسابق أهله، وترفع الأصوات عليه فيصبر.

يخرج إلى بساتين أصحابه، لا يحتقر مسكيناً لفقره، ولا يهاب ملكاً لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً.

قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة، والسياسة التامة، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحارى، في فقره وفي رعاية الغنم يتيماً لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، والطرق الحميدة..

جملة أخرى من أخلاقه ﷺ:

ما شتم رسول الله ﷺ أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعلها الله كفارة ورحمة[1]، وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة[2]، وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص، عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له[3]، وما انتقم من شيء صنع إليه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، وما خُيِّر بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة: «ما شتم أحداً من المؤمنين إلا جعلها الله كفارة ورحمة» (خ ٦٣٦١، م ٢٦٠١).

(٢) المعروف «ماضرب» مكان «مالعن» وهو متفق عليه، وللبخاري «لم يكن فحاشاً ولا لعاناً» (ع).

(٣) أخرجه الشيخان (ع).

ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه، لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس، وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة قال الله تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾[1].

وكان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم، ويكني من لم تكن له كنية..

وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضاً، وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس.

كلامه ﷺ وضحكه:

قالت عائشة رضي الله عنها: (كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا).

وكان يتكلم بجوامع الكلم، لا فضول ولا تقصير، وكان جهير الصوت، أحسن الناس نغمة، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ولا يقول المنكر، ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق، ويكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره، ويعظ بالجد والنصيحة.

وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه، وخلطاً لنفسه بهم، ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه. وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيراً له.

أخلاقه وآدابه ﷺ في الطعام:

كان ﷺ يأكل ما وجد، وكان إذا وضعت المائدة قال «بسم الله». وكان يأكل مما يليه، ويأكل بأصابعه الثلاث. وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالرطب، وكان أكثر طعامه الماء والتمر، وكان أحب الطعام إليه اللحم، وكان يأكل الثريد باللحم والقرع، وكان يحب القرع، وكان يأكل الخبز والسمن، وكان

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

يحب من الشاة الذراع والكتف، ومن القدر[1] الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة.

وما ذم طعاماً قط، إن أعجبه أكله، وإن كرهه تركه، وإن عافه لم يبغضه إلى غيره. وكان لا يأكل التوم والبصل.

وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول: إنه لا يدري في أي الطعام البركة. وإذا فرغ قال: «الحمد لله».

وكان يشرب في ثلاث دفعات، وكان يدفع فضل سؤره إلى من على يمينه. وكان لا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه.

وكان في بيته أشد حياء من العاتق[2]، لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه عليهم، إن أطعموه أكل، وما أعطوه قبل، وما سقوه شرب. وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب.

آدابه وأخلاقه ﷺ في اللباس:

كان ﷺ يلبس من الثياب ما وجد، من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك، وكان أكثر لباسه البياض، وكان قميصه مشدود الأزرار. وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها، وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول: إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد. وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره، ويعقد طرفيه بين كتفيه، وكان يتختم، وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه..

وكان له فراش من أدم[3] حشوه ليف، وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره، وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه.

---

(١) أي المطبوخ في القدر.
(٢) العاتق: الجارية أول ما أدركت، أو التي لم تتزوج، أو التي بين الإدراك والتعنيس.
(٣) الأدم: الجلد.

عفوه ﷺ مع القدرة:

كان ﷺ أحلم الناس، وأرغبهم في العفو مع القدرة. روى جابر أنه ﷺ كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة في ثوب بلال، فقال له رجل: يا رسول الله، اعدل، فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، فمن يعدل إذا لم أعدل، فقد خبت إذن وخسرت إن كنت لا أعدل، فقام عمر فقال: ألا أضرب عنقه فإنه منافق؟ فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي»[1].

وكان ﷺ في حرب، فرأوا من المسلمين غرَّة، فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله». فقال: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف، وقال ﷺ: «من يمنعك مني؟» فقال: كن خير آخذ. قال: «قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله». فقال: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون معك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله. فجاء أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس[2].

وروى أنس أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ليأكل منها، فجيء بها إلى النبي ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردت قتلك، قال: ما كان الله ليسلطك على ذلك. قالوا: أفلا تقتلها؟ فقال: لا[3].

وقسم رسول الله ﷺ قسمة، فقال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله؟ فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمرَّ وجهه وقال: «رحم الله أخي موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[4].

وكان ﷺ يقول: « لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٣) وهو بلفظ قريب عند البخاري (٣٦١٠).
(٢) متفق عليه (خ ٤١٣٥ و٤١٣٦، م ٨٤٣) وذكر البخاري اسم الرجل: غورث بن الحارث.
(٣) أخرجه مسلم من حديث أنس، وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة (ع).
(٤) متفق عليه (خ ٣١٥٠، م ١٠٦٢).

أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[١].

إغضاؤه ﷺ عما كان يكرهه:

بال أعرابي في المسجد بحضرته، فهمَّ به الصحابة، فقال ﷺ: «لا تزرموه» أي لا تقطعوا عليه البول، ثم قال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء»[٢].

سخاؤه وجوده ﷺ:

كان ﷺ أجود الناس وأسخاهم، وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئاً[٣]. وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلَّا أعطاه[٤]، وأتاه رجلاً فسأله، فأعطاه غنماً سدت ما بين جبلين، فرجع إلى قومه وقال: أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة[٥]، وما سئل ﷺ شيئاً قط فقال: لا[٦].

شجاعته ﷺ:

كان ﷺ أنجد الناس وأشجعهم، قال علي رضي الله عنه: كنا إذا حمي البأس ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه[٧]. وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب، لقربه من العدو[٨].

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود (ع) وكذا أحمد والبيهقي (ش).
(٢) متفق عليه (خ ٦٠٢٥، م ٢٨٥).
(٣) متفق عليه من حديث أنس (خ ٦٠٣٣، م ٢٣٠٨).
(٤) متفق عليه من حديث أنس (خ ٦٠٣٤، م ٢٣١٢).
(٥) متفق عليه (ع) ورقمه عند مسلم (٢٣١٢).
(٦) متفق عليه (خ ٦٠٣٦، م ٢٣١١).
(٧) أخرجه النسائي بإسناد صحيح، ولمسلم نحوه (ع).
(٨) أخرجه مسلم من حديث البراء (٧٧٦).

تـواضعـه ﷺ:

كان ﷺ من أشد الناس تواضعـاً مع علوّ منصبـه. وكان يـركب الحمار مـوكفاً عليه قطيفة، وكان مع ذلك يستردف[1] وكان أصحـابه لا يقـومون لـه لما عـرفوا من كراهته لذلك، وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

وأتي ﷺ برجل، فأرعد من هيبته، فقال له: هوّن عليـك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد[2].

وكـان يجلس بين أصحـابـه مختلطاً بهم كـأنـــه أحـدهم، فيـأتي الغـريب، فلا يدري أيهم هو؟

وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانـاً، ويذكـرون أشياء من أمـر الجاهليـة، ويضحكون، فيبتسم هو إذا ضحكوا، ولا يزجرهم إلا عن حرام[3].

صورته وخلقته ﷺ:

كان من صفته ﷺ: أنه لم يكن بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده.

وأما لونه، فقد كان أزهر اللون، ولم يكن بالآدم، ولا بالشديد البياض.

وأما شعره، فقد كان رَجْلَ الشعر حسنه، ليس بالسبط ولا بالجعد.

وكان ﷺ أحسن الناس وجهاً وأنورهم، لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر، وكان يرى رضاه وغضبه في وجهه لصفاء بشرته.

وأما مشيه ﷺ فكان يمشي كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب، ويمشي الهوينى بغير تبختر.

---

(١) متفق عليه (خ ٤٢٨، م ٥٢٤).

(٢) أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (ع).

(٣) أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون قوله «ولا يزجرهم إلا عن حرام» (٦٧٠).

بعض معجزاته ﷺ:

اعلم أن من شاهد أحواله ﷺ، وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه، وسياسته لأصناف الخلق، وهدايته إلى ضبطهم، وقوده إياهم إلى طاعته، مع ما يحكى من عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة، وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع، الذي يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة البشرية.

بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبّس.

بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه، حتى إن العربي القح كان يراه فيقول: والله ما هذا وجه كذاب، فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله، فكيف من شاهد أخلاقه، ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده؟

وإنما أوردنا بعض أخلاقه، لتعرف محاسن الأخلاق، وليتنبه لصدقه ﷺ وعلوّ منصبه، ومكانته العظيمة عند الله تعالى، إذ آتاه الله جميع ذلك وهو رجل أمي، لم يمارس العلم، ولم يطالع الكتب، ولم يسافر قط في طلب علم، ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يتيماً مستضعفاً ضعيفاً، فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب، ومعرفة مصالح الفقه مثلاً فقط، دون غيره من العلوم، فضلاً عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه، وغير ذلك من خواص النبوة، لولا صريح الوحي؟ ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك؟

فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية.

وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل. فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار، واشتملت عليه الكتب الصحيحة، إشارة إلى مجامعها من غير تطويل:

فقد خرق الله العادة على يده، إذ شق له القمر بمكة لما سألته قريش آية[1].

(١) متفق عليه (خ ٣٦٣٧، م ٢٨٠٠).

وأطعم النفر الكثير في منزل جابر[1] وفي منزل أبي طلحة[2] ويوم الخندق.

ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش، وتوضؤوا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه[3].

وحنَّ الجذع الذي كان يخطب إليه، لما عمل له المنبر، حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الإبل فضمه إليه فسكن[4].

وأخبر ﷺ يوم بدر بمصارع صناديد قريش، ووقفهم على مصارعهم رجلاً رجلاً، فلم يتعدَّ واحد منهم ذلك الموضع[5].

وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه ﷺ[6].

إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته ﷺ.

والقرآن هو المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق، وليس لنبي معجزة باقية سواه ﷺ، إذ تحدى بها رسول الله ﷺ بلغاء الخلق وفصحاء العرب..

فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله ﷺ، ثم في أقواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه ثم في معجزاته.. ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه.

وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه..

تمّ بعونه تعالى ربع العادات،
وبه يكمل المجلد الأول من مهذب الإحياء
ويليه المجلد الثاني

---

(١) متفق عليه من حديث جابر (ع).
(٢) متفق عليه من حديث أنس (ع) (خ ٣٥٧٨).
(٣) متفق عليه من حديث أنس في ذكر الوضوء فقط. ولأبي نعيم من حديثه وذكر الشرب وإسناده جيد (ع). (خ ٣٥٧٢).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٥٨٣).
(٥) أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب (١٧٧٩).
(٦) أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود (٣٥٧٩).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

﴿ربـع العبـادات﴾

١ ـ كتاب العلم

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٥ ــ كتاب أسرار الزكاة

٦ ــ كتاب أسرار الصوم

٧ ــ كتاب أسرار الحج

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٩ ـ كتاب الأذكار والدعوات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

***

المُهَذَّب

مِنْ إحياءِ عُلُومِ الدِّين

إعداد

صالح أحمد الشّامي

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت

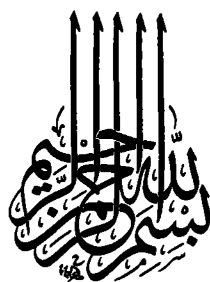
الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

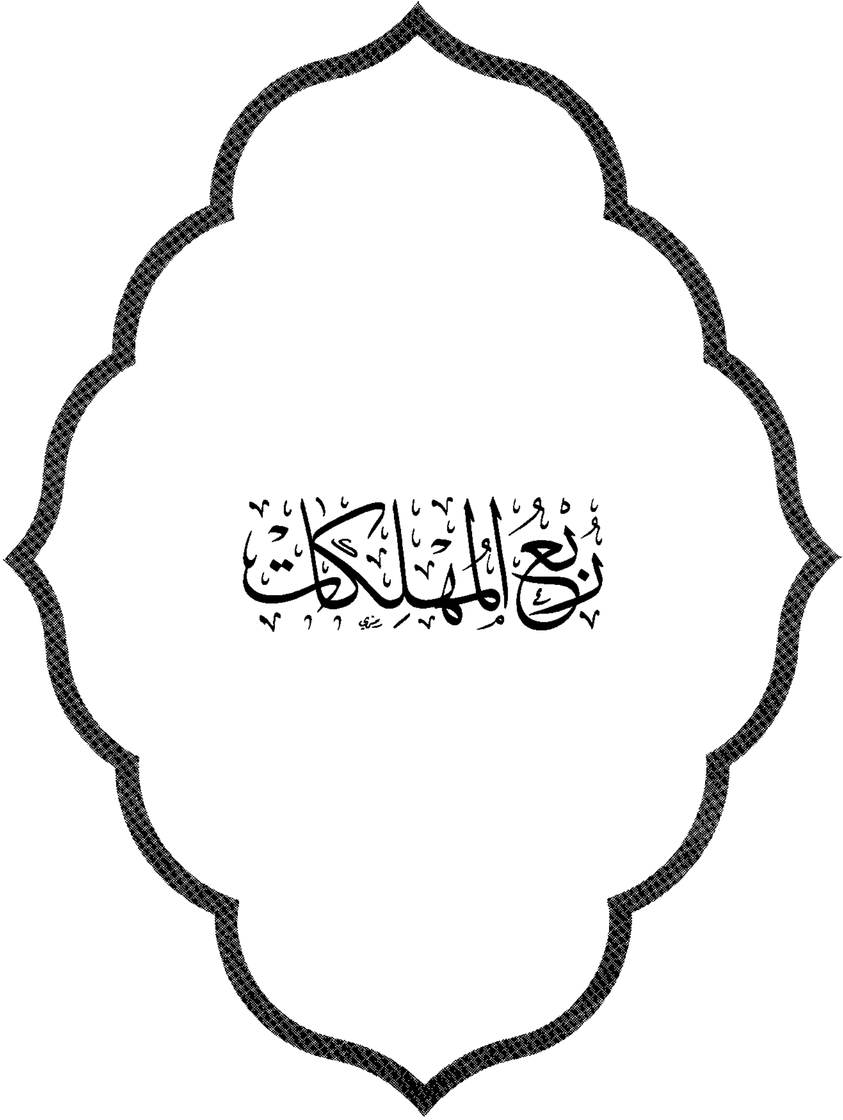
دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣

المهذب

من إحياء علوم الدين


بسم الله الرحمن الرحيم


رُبعُ المُهلِكات

الكِتَابُ الأَوَّلُ

شَرْحُ عَجَائِبِ القَلْبِ

رُبُعُ المُهْلِكَاتِ

[مقدمة: مكانة القلب]:

إن شرف الإنسان وفضيلته ـ التي فاق بها جملة من أصناف الخلق ـ باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدّته وذخره، وإنما استعد للمعرفة بقلبه، لا بجارحة من جوارحه، فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله وهو الساعي إلى الله. وإنما الجوارح أتباع وخدم، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية.

فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً بغير الله. وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى، وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذ كل إناء ينضح بما فيه.

وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا جهله فقد جهل نفسه، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين.



وإذ فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب، من النظر فيما يجري على الجوارح من العبادات والعادات ـ وهو العلم الظاهر ـ ووعدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجري على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات ـ وهو العلم الباطن ـ فلا بدَّ أن نقدم عليه كتابين: كتاباً في شرح عجائب صفات القلب

وأخلاقه، وكتاباً في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه. ثم نندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات.

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام، فإن التصريح بعجائبه مما يكلُّ عن دركه أكثر الأفهام.

بيان معنى: النفس، الروح، القلب، العقل:

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب، ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها، وحدودها ومسمياتها، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي واشتراكها بين مسميات مختلفة، ونحن نشرح من معاني هذه الأسامي ما يتعلق بغرضنا.

اللفظ الأول: القلب. وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر. وهذا القلب موجود للبهائم، بل هو موجود للميت، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعنِ به ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر له.

الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب.

والمقصود: أنّا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب، أردنا به هذه اللطيفة، وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها، لا ذكر حقيقتها في ذاتها، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها، ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها.

اللفظ الثاني: الروح. وهو أيضاً يطلق لمعنيين:

أحدهما: جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، فينتشر بواسطة العروق إلى سائر أجزاء البدن. وجريانه في البدن، وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منه على أعضائه، يضاهي فيضان النور من السراج الذي

يدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلّا ويستنير به. والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان، والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه.

الثاني: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وهو الذي شرحناه في أحد معنيي القلب، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1].

وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته.

اللفظ الثالث: **النفس**. وهو مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان:

أحدهما: أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة فيقولون: لا بدَّ من مجاهدة النفس وكسرها.

الثاني: هي اللطيفة التي ذكرناها، التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة، بحسب اختلاف أحوالها.

فإذا سكنت تحت الأمر، وزايلها الاضطراب ـ بسبب معارضة الشهوات ـ سميت: «النفس المطمئنة». قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2].

والنفس بالمعنى الأول لا يتصوَّر رجوعها إلى الله تعالى، فإنها مبعدة عن الله. وهي من حزب الشيطان.

وإذا لم يتم سكونها، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية، ومعترضة عليها

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

(٢) سورة الفجر: الآيتان (٢٧ ـ ٢٨).

سميت: «النفس اللوامة»، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه قال تعالى:

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[1].

وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان، سميت: «النفس الأمّارة بالسوء». قال تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[2].

وقد يجوز أن يقال: المراد بالأمّارة بالسوء: هي النفس بالمعنى الأول.

فإذاً: النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثاني محمودة، لأنها نفس الإنسان، أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى.

اللفظ الرابع: العقل. وهو أيضاً مشترك لمعان، والمتعلق بغرضنا معنيان:

أحدهما: أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب.

الثاني: أنه قد يطلق ويراد به المدرِك للعلوم، وهو القلب، أعني تلك اللطيفة.

* * *

فإذا انكشف لك أن معاني هذه الأسماء موجودة، وهي: القلب الجسماني، والروح الجسماني، والنفس الشهوانية، والعلوم[3]، فهذه أربعة معانٍ يطلق عليها الألفاظ الأربعة.

---

(١) سورة القيامة: الآية (٢).

(٢) سورة يوسف: الآية (٥٣).

(٣) أي العقل المدرك للعلوم.

ومعنى خامس: وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنســان، والألفاظ الأربعـة بجملتها تتوارد عليها.

فالمعاني خمسة، والألفاظ أربعة. وكل لفظ أطلق لمعنيين.

وأكثـر العلمـاء قـد التبس عليهم اختـلاف هـذه الألفـاظ وتـواردهـا، فتـراهم يتكلمون في الخواطـر، ويقولـون: هذا خـاطر العقـل، وهذا خـاطر الـروح، وهذا خـاطـر القلب، وهـذا خـاطـر النفس. وليس يـدري النـاظـر اختـلاف معـاني هـذه الأسماء، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامي.

وحيث ورد في القرآن والسنَّة لفظ «القلب»، فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان، ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنّى عنه بالقلب الذي في الصدر.

بيان جنود القلب:

للقلب جندان: جند يرى بالأبصار، وجند لا يرى إلاَّ بالبصائر، وهو في حكم الملك، والجنود في حكم الخدم والأعوان، فهذا معنى الجند.

فأما جنده المشاهد بالعين، فهو: اليد والرجل والعين والأذن واللسان، وسائـر الأعضـاء الظاهـرة والباطنـة، فإنهـا جميعاً خـادمة للقلب ومسخـرة له. وقـد خلقت مجبولة على طاعته، لا تستطيع لـه خلافـاً، فإذا أمـر العين بالانفتـاح انفتحت، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت.

وجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف:

الأول: صنف باعث ومستحث، إما إلى جلب النافع كالشهوة، وإمـا إلى دفع الضار المنافي كالغضب. وقد يعبر عن هذا الباعث بـ «الإرادة».

الثاني: هو المحـرك للأعضـاء إلى تحصيل هـذه المقاصـد، ويعبر عن هـذا الثـاني بـ «القدرة» وهي جنـود مبثوثـة في سائـر الأعضـاء لا سيمـا العضـلات منهـا والأوتار.

الثالث: هو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس، وهي قوة البصر والسمـع

والشم والـذوق واللمس، وهي مبثوثـة في أعضاء معينـة، ويعبـر عن هـذا بـ «العلم والإدراك».

وهـذا الصنف الثالث هـو المدرك من هـذه الجملة، فإن الإنسـان بعـد رؤيـة الشيء يغمض عينه، فيدرك صورة «ذلك الشيء» في نفسه وهو: الخيـال. ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفـظه، وهو الجنـد الحافظ. ثم يتفكـر فيما حفـظه فيركب بعض ذلك إلى البعض، ثم يتذكر مـا قد نسيـه ويعود إليـه، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات.

ففي الباطن: حسّ مشترك، وتخيُّل، وتفكُّر، وتذكّر، وحفظ.

ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل، لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه. فتلك القوى أيضاً جنود باطنة، وأماكنها أيضاً باطنة.

فهذه هي أقسام جنود القلب، وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضـرب الأمثلة يطول. ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلمـاء. ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم.

أمثلة القلب مع جنوده الباطنة:

اعلم أن جنديْ الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيـاداً تامـاً، فيعينه ذلـك على طـريقه الـذي يسلكه، وتحسن مـرافقتهما في السفـر الذي هـو بصـدده، وقـد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد، حتى يملكاه ويستعبداه، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد.

وللقلب جنـد آخر، وهـو: العلم والحكمة والتفكـر، وحقـه أن يستعين بهـذا الجند ــ فإنه حزب الله تعالى ــ على الجندين الآخرين، فإنهما قد يلتحقـان بحزب الشيطان، فإن تـرك الاستعانـة وسلط على نفسه جنـد الغضب والشهوة هلك يقينـاً، وخسر خسراناً مبيناً، وذلك حالة أكثر الخلق، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضـاء الشهوة، وكـان ينبغي أن تكون الشهـوة مسخَّرة لعقـولهم فيما يفتقر العقل إليه. ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بمثالين:

المثال الأول: اعلم أن البدن كالمدينة، والعقل ـ أعني المدرك ـ من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته، والنفس الأمّارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كمقيم فيه مرابط. فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره. وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى.

المثال الثاني: مثل العقل مثل فارس متصيد، وشهوته كفرسه، وغضبه ككلبه، فمتى كان الفارس حاذقاً، وفرسه مروضاً، وكلبه معلماً، كان جديراً بالنجاح، ومتى كان هو في نفسه أخرق، وكان الفرس جموحاً، والكلب عقوراً، فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً، ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً، فهو خليق بأن يعطب، فضلاً عن أن ينال ما طلب.

وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان، وقلة حكمته، وكلال بصيرته، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة، خصوصاً شهوة البطن والفرج، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه.

بيان خاصية قلب الإنسان:

اعلم أن جملة ما ذكرناه، قد أنعم الله به على سائر الحيوانات، إذ للحيوان الشهوة والغضب، والحواس الظاهرة والباطنة أيضاً، حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه، فذلك هو الإدراك الباطن.

فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان، ولأجله عظم شرفه، واستأهل القرب من الله تعالى. وهو راجع إلى: علم وإرادة.

أما العلم، فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية، والحقائق العقلية، فإن هذه أمور وراء المحسوسات، ولا يشاركه فيها الحيوانات، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل، إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة. وهذا حكم منه على كل شخص، ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلاّ بعض الأشخاص، فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه

الحس، وإذا فهمت هـذا في العلم الظاهـر الضروري، فهـو في سـائـر الـنظريـات أظهر.

وأما الإرادة، فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبـه الأمر، وطـريق الصلاح فيـه، انبعث من ذاتـه شوق إلى جهـة المصلحة، وإلى تعـاطي أسبابهـا والإرادة لها، وذلـك غير إرادة الشهوة، وإرادة الحيوانات، بل يكون على ضد الشهـوة، فإن الشهـوة تنفر عن الفصد والحجامة، والعقل يريدها ويطلبهـا، ويبذل المـال فيها، والشهـوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض، والعـاقل يجـد في نفسه زاجـراً عنها، وليس ذلـك زاجر الشهوة، ولو خلق الله العقل المعرّف بعواقب الأمـور، ولم يخلق هذا البـاعث المحـرك لـلأعضـاء على مقتضى حكم العقـل، لكـان حكم العقـل ضـائعـاً على التحقيق.

فقلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائـر الحيوان، بـل ينفك عنهـا الصبـي في أول الفطرة، وإنما يحدث ذلك فيـه بعد البلوغ. وأمـا الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبـي.

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته:

اعلم أن الإنسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب. فلذلك اجتمع عليـه أربعة أنـواع من الأوصاف وهي: الصفـات السبعية، والبهيميـة، والشيطانيـة، والربانية.

فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء، والتهجم على الناس بالضرب والشتم.

ومن حيث سلطت عليـه الشهوة يتعـاطى أفعال البهـائم من الشره، والحـرص والسبق وغيره.

ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال تعالى:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

فإنه يدعى لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء والاستعلاء، والتخصص والاستبداد بالأمور كلها، والتفرد بالرياسة، ويدعّي لنفسه العلم والمعرفة، والإحاطة بحقائق الأمور. والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق، من أوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك.

ومن حيث إنه يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية، فصار شريراً، يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع، ويظهر الشر في معرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين.

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة ـ أعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية ـ وكل ذلك مجموع في القلب.

والقلب في حكم مرآة، فالآثار المحمودة تزيد مرآة القلب جلاءً وإشراقاً ونوراً وضياءً، حتى تتلألأ فيه جلية الحق، وتنكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين. وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر. قال الله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(١).

وأما الآثار المذمومة، فإنها مثل دخان مظلم، يتصاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى، إلى أن يسودّ ويظلم، ويصير بالكلية محجوباً عن الله تعالى. وهو «الطبع» وهو «الرين» قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢).

وقال عزَّ وجلّ:

﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الرعد: الآية (٢٨).
(٢) سورة المطففين: الآية (١٤).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٠٠).

فربط عدم السماع و «الطبع» بالذنوب.

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق، وصلاح الدين، ويستهين بأمر الآخرة، ويعظم أمر الدنيا، ويصير مقصور الهم عليها، فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن، ولم يستقر في القلب، ولم يحركه إلى التوبة والتدارك، أولئك:

﴿يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾[1].

وهذا هو معنى اسوداد القلب، كما نطق به القرآن والسنَّة.

حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم:

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات، ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية. والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة، والمكتسبة إلى دنيوية وأخروية.

أما العقلية: فنعني بها ما تقضي بها غريزة العقل. ولا توجد بالتقليد والسماع، وهي تنقسم إلى:

ـ ضرورية، لا يدري من أين حصلت، وكيف حصلت؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين، والشيء الواحد لا يكون: حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً معاً. فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطوراً عليها، ولا يدري متى حصل له هذا العلم، ولا من أين حصل له؟ أعني أنه لا يدري له سبباً قريباً، وإلاَّ فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهداه.

ـ وإلى علوم مكتسبة، وهي المستفادة بالتعليم والاستدلال.

وكلا القسمين قد يسمى عقلاً.

وأما العلوم الدينية: فهي المأخوذة بطريق التقليد، من الأنبياء، عليهم الصلاة

(١) سورة الممتحنة: الآية (١٣).

والسلام، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى، وسنَّة رسوله ﷺ، وفهم معانيهما بعد السماع. وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدواء والأمراض.

فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب، وإن كان محتاجاً إليها، كما أن العقل غير كافٍ في استدامة أسباب صحة البدن، بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء، إذ مجرد العقل لا يهتدي إليه، ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل.

فلا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنَّة مغرور. فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين. وظن من يظن: أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه.

والعلوم العقلية: تنقسم إلى دنيوية وأخروية:

- فالدنيوية: كعلم الطب والحساب والهندسة وسائر الحرف والصناعات.
- والأخروية: كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال، والعلم بالله وصفاته.

وهما علمان متنافيان: أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر. ولذلك ضرب علي رضي الله عنه للدنيا والآخرة مثلاً فقال: (هما ككفتي ميزان، وقال: هما كالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى).

الفرق بين الإلهام والتعلم:

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية ـ وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال ـ تختلف الحال في حصولها:

فتارة تهجم على القلب، كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري.

وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم.

فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل، يسمى: إلهاماً.

والذي يحصل بالاستدلال يسمى: اعتباراً واستبصاراً.

ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد، ينقسم إلى:

ـ ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له، ومن أين حصل؟

ـ وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقي في القلب.

والأول: يسمى: إلهاماً ونفثاً في الروع، ويختص به الأولياء.

والثاني: يسمى: وحياً، وتختص به الأنبياء.

والذي قبلهما ـ وهو المكتسب بطريق الاستدلال ـ يختص به العلماء.

الفرق بين طريق الصوفية وطريق النظار:

إذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون، والبحث عن الأقاويل والأدلة، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى.

وأما النظار وذوو الاعتبار، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه، وإفضاءه إلى هذا المقصد على الندور، ولكن استوعروا هذا الطريق، واستبطؤوا ثمرته، واستبعدوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر، وإن حصل في حال، فثباته أبعد منه، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب، قال ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»(١). وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج، ويختلط العقل، ويمرض البدن.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٤) بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء».

وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم، نشبت بالقلب خيالات فاسدة، تطمئن النفس إليها مدة طويلة، إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها. فكم من صوفي سلك هذا الطريق، ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة، ولو كان قد أتقن العلم من قبل، لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض.

وقالوا: إن ذلك يضاهي ما لو ترك إنسان تعلم الفقه وزعم أن النبي ﷺ لم يتعلم ذلك، وصار فقيهاً بالوحي والإلهام، من غير تكرير وتعليق، وأنا أيضاً ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه. ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره، بل هو كمن يترك طريق الكسب رجاء العثور على كنز من الكنوز، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً. فكذلك هذا.

وقالوا: لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء، وفهم ما قالوه، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء، فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة[1].

تسلط الشيطان على القلب بالوساوس:

اعلم أن القلب كمثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب، ومثاله أيضاً: مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه.

وأما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال:

- فهي من الظاهر: الحواس الخمس.
- وهي من الباطن: الخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة في مزاج الإنسان.

---

(١) اختار المصنف طريق النظار كما صرح بذلك في (كتاب ذم الغرور) من هذا الكتاب. انظر فقرة غرور المتصوفة.

فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلًا بسبب كثرة الأكل، حصل منها في القلب أثر.

والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً، من هذه الأسباب، وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر.

وأعني بـ «الخواطر» ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار، وأعني به: إدراكاته علوماً، إما على سبيل التجدد، وإما على سبيل التذكر، فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلًا عنها.

والخواطر هي المحركات للإرادات، فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محال.

فمبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء.

والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر، أعني إلى ما يضر في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى الخير، أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة، فهما خاطران مختلفان، فافتقرا إلى اسمين مختلفين:

- فالخاطر المحمود يسمى: إلهاماً.
- والخاطر المذموم ـ أعني الداعي إلى الشر ـ يسمى: وسواساً.

ولأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان: فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى: «ملكاً»، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى: «شيطاناً».

واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى: «توفيقاً» والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى: «إغواء وخذلاناً».

والملك: عبارة عن خلق خلقه الله تعالى، شأنه إفاضة الخير، وإفادة العلم، وكشف الحق، والوعد بالخير، والأمر بالمعروف، وقد خلقه وسخره لذلك.

والشيطان: عبارة عن خلق، شأنه ضد ذلك، وهو الوعد بالشر، والأمر بالفحشاء، والتخويف عند الهمّ بالخير بالفقر.

فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾(١).

والقلب متجاذب بين الشيطان والملك. قال ﷺ: «إن للشيطان لَمة بابن آدم وللملك لَمة(٢)، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان، ثم قرأ:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾(٣) »(٤).

فإذا اتبع الإنسان مقتضى الشهوة ظهر تسلط الشيطان، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه صار قلبه مستقر الملائكة. ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع.. لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله شيطان». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير»(٥).

وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة، فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي، وإلى الحد الذي ينبغي، فشهوته لا تدعو إلى الشر، فالشيطان المتدرع بها لا يأمر إلا بالخير.

ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى، وجد الشيطان مجالاً

(١) سورة الذاريات: الآية (٤٩).
(٢) اللَّمة: بالفتح: القرب والإصابة، فَعلة من الإلمام.
(٣) سورة البقرة: الآية (٢٦٨).
(٤) قال ابن كثير في تفسيره: رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي حسن غريب ورواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً. وقد ذكره المصنف بمعناه وأثبتُّ نصه من تفسير ابن كثير.
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٨١٤، ٢٨١٥).

فوسوس، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك.

قال جابر بن عبيدة العدوي: شكوت إلى العلاء بن زياد[1] ما أجد في صدري من الوسوسة، فقال: إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص. فإن كان فيه شيء عالجوه، وإلا مضوا وتركوه. يعني: أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان.

ولذلك قال الله تعالى:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[2].

فكل من اتبع الهوى، فهو عبد الهوى، لا عبد الله، ولذلك سلط الله عليه الشيطان. وقال تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[3].

أي: إن الهوى إلهه ومعبوده، فهو عبد الهوى، لا عبد الله.

ولا يعالج الشيء إلا بضده. وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة، وهو معنى قولك: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى.

وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات، على سبيل الخلسة، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم

---

(١) العلاء بن زياد العدوي البصري، أحد العباد، كنيته أبو نصر، ثقة، روى له البخاري معلقاً، والنسائي وابن ماجه مات سنة (١٩٤)هـ.

(٢) سورة الحجر: الآية (٤٢).

(٣) سورة الجاثية: الآية (٢٣).

مُّبْصِرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى في حق أضدادهم:

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾[2].

وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه، فسلطنة الشيطان أيضاً سارية في لحمه ودمه، ومحيطة بالقلب من جوانبه. ولذلك قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[3].

فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار، معنى: الوسوسة والإلهام، والملَك والشيطان، والتوفيق والخذلان.

فحق على العبد أن يقف عند كل همّ يخطر له، ليعلم أنه من لَمة الملَك، أو لَمة الشيطان، وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة، لا بهوى من الطبع، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة، وغزارة العلم، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ ﴾.

أي: ارجعوا إلى نور العلم.

﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[4].

أي ينكشف لهم الإشكال.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٠١).
(٢) سورة المجادلة: الآية (١٩).
(٣) متفق عليه (خ ٢٠٣٥، م ٢١٧٤).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٠١).

تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب:

اعلم أن مثال القلب، مثال حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه، ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه. ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة، وهو فرض عين على كل عبد مكلف، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضاً واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة.

ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهي كثيرة، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة، الجارية مجرى الدروب، التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان:

● فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة، ومهما غضب الإنسان لعب به الشيطان كما يلعب الصبي بالكرة.

● ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص، فمهما كان العبد حريصاً على كل شيء أعماه حرصه وأصمه.

● ومن أبوابه العظيمة: الشبع من الطعام، وإن كان حلالاً، فإن الشبع يقوي الشهوات، والشهوات أسلحة الشيطان.

● ومن أبوابه: حب التزين من الأثاث والثياب والدار، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان، باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها. . ويستسخره فيها طول عمره، فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى.

● ومن أبوابه العظيمة: الطمع في الناس، لأنه إذا غلب الطمع على القلب، لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه، بأنواع الرياء والتلبيس، حتى [يصبح] المطموع فيه كأنه معبوده. فلا يزال يتفكر في حيلة التودد إليه، ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك.

● ومن أبوابه العظيمة: العجلة، وترك التثبت في الأمور. قال ﷺ: «العجلة

من الشيطان. والتأني من الله»[1]. وقال تعالى:

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[2].

وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمّل وتمهل، والعجلة تمنع ذلك، وعندها يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري.

● ومن أبوابه العظيمة: الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال.. وطلب الاستزادة منها.

● ومن أبوابه العظيمة: البخل وخوف الفقر، فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق، ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم، وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز.

● ومن أبوابه العظيمة: التعصب للمذاهب والأهواء، والحقد على الخصوم، والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يهلك العبّاد والفساق جميعاً، فإن الطعن في الناس، والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع.

● ومن أبوابه: حمل العوام ـ الذين لم يمارسوا العلم ـ على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمور لا يبلغها حد عقولهم، حتى يشككهم في أصل الدين.

● ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فمن يحكم بشرٍّ على غيره بالظن، بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة، فيهلك، أو يقصر في القيام بحقوقه، أو يتوانى في إكرامه، وينظر إليه بعين الاحتقار، ويرى نفسه خيراً منه، وكل ذلك من المهلكات.

فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب. ولو أردت الاستقصاء لم أقدر عليه، وفي هذا القدر ما ينبه على غيره.

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظ (الأناة) وقال: حسن (ع).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٣٧).

ما يؤاخذ به العبد من الخواطر :

اعلم أن هذا أمر غامض، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة، يلتبس طريق الجمع بينها إلا على العلماء بالشرع.

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «عفي عن أمتي ما حدّثت به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»[1]. وقال أبو هريرة: قال ﷺ: «إن الله تعالى يقول للحفظة: إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً»[2] وقد خرجه البخاري ومسلم في الصحيحين، وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمّه بالسيئة.

وكل ذلك يدل على العفو، فأما ما يدل على المؤاخذة، فقوله سبحانه:

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[4].

فدلَّ على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه.

والحق عندنا في هذه المسألة، لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب، من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٢٦٩، م ١٢٧).
(٢) متفق عليه (خ ٦٤٩١، م ١٢٨) واللفظ لمسلم.
(٣) سورة البقرة: الآية (٢٨٤).
(٤) سورة الإسراء: الآية (٣٦).

فنقول: أول ما يرد على القلب الخاطر، كما لو خطر له مثلاً صورة امرأة، وأنها وراء ظهره في الطريق، لو التفت إليها لرآها. ونسميه «حديث النفس».

والثاني: هيجان الرغبة إلى النظر، وهو حركة الشهوة في الطبع، وهذا يتولد من الخاطر الأول، ونسميه: «ميل الطبع».

والثالث: حكم القلب، بأن هذا ينبغي أن يفعل، أي: ينبغي أن ينظر إليها. فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات. ويسمى هذا «اعتقاداً» وهو يتبع الخاطر والميل.

الرابع: تصميم العزم على الالتفات، وجزم النية فيه. وهذا نسميه «همّاً بالفعل» و «نية» و «قصداً».

وهذا «الهمّ» قد يكون له مبدأ ضعيف، ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول، حتى طالت مجاذبته للنفس، تأكد هذا الهمّ، وصار إرادة مجزومة، فإذا انجزمت الإرادة، فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل، وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه، وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل.

فهاهنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة: الخاطر ـ وهو حديث النفس ـ ، ثم الميل، ثم الاعتقاد، ثم الهمّ.

فنقول: أما الخاطر فلا يؤاخذ به، لأنه لا يدخل تحت الاختيار، وكذلك الميل وهيجان الشهوة، لأنهما لا يدخلان أيضاً تحت الاختيار. وهما المرادان بقوله ﷺ: «عفي عن أمتي ما حدثت به نفوسها» فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس، ولا يتبعها عزم على الفعل، فأما الهمّ والعزم فلا يسمى حديث النفس.

وأما الثالث: وهو الاعتقاد، وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل، فهذا تردد بين أن يكون اضطراراً أو اختياراً. والأحوال تختلف فيه، فالاختياري منه يؤاخذ به والاضطراري لا يؤاخذ به.

وأما الرابع: وهو الهمّ بالفعل، فإنه مؤاخذ به. إلا أنه إن لم يفعل نظر، فإن

كان قد تركه خوفاً من الله تعالى، وندماً على همّه، كتبت له حسنة، لأن همّه سيئة وامتناعه ومجاهدة نفسه حسنة، وإن تعوّق الفعل بعائق، أو تركه بعذر، لا خوفاً من الله تعالى، كتبت عليه سيئة، فإن همّه فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل: ما روي في الصحيح مفصلاً في لفظ الحديث: قال ﷺ: «قالت الملائكة: ربّ، ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة ــ وهو أبصر به ــ فقال: ارقبوه، فإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرائي[1]»[2]. أما إذا عزم عليها فتعذرت، فكيف تكتب له حسنة؟

وقال ﷺ: «إنما يحشر الناس على نياتهم»[3] ونحن نعلم أن من عزم ليلاً على أن يصبح ليقتل مسلماً، فمات تلك الليلة، مات مصراً ويحشر على نيته.

والدليل القاطع فيه، ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» فقيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «لأنه أراد قتل صاحبه»[4]. وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار، مع أنه قتل مظلوماً، فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهمّ؟

بل كل همّ دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به، إلا أن يكفره بحسنة، ونقض العزم بالندم حسّنه، فلذلك كتبت له حسنة، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة، وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة، فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار.

فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس، وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس، ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بدّ وأن يغلط، وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد،

---

(١) أي من أجلي.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٢٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه دون قوله (إنما) ولمسلم من حديث عائشة: «يبعثهم الله على نياتهم». وله من حديث أم سلمة: «يبعثون على نياتهم» (ع).

(٤) متفق عليه (خ ٣١، م ٢٨٨٨).

وجملة الخبائث من أعمال القلب؟! بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً، أي ما يدخل تحت الاختيار.

بيان سرعة تقلب القلب:

اعلم أن القلب ــ كما ذكرناه ــ تكتنفه الصفات التي ذكرناها، وتنصب إليه الآثار والأحوال، من الأبواب التي وصفناها، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب.

فتارة يكون متنازعاً بين ملكين[1]، وتارة يكون بين شيطانين، وتارة بين ملك وشيطان. ولا يكون مهملاً قط، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾[2].

ولاطِّلاع رسول الله ﷺ على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه، كان يحلف به فيقول: «لا، ومقلب القلوب»[3]، وكان كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالوا: أو تخاف يا رسول الله؟ قال: «وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء»[4].

والقلوب في الثبات على الخير والشر، والتردد بينهما ثلاثة:

القلب الأول: قلب عمر بالتقوى، وزكا بالرياضة، وطهر عن خبائث الأخلاق، تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[5].

وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات، يصير على القرب معموراً بالمنجيات

---

(١) المقصود من ذلك: إن جذبه ملك إلى خير، جذبه ملك آخر إلى خير آخر. وكذلك في الذي يكون بين شيطانين.

(٢) سورة الأنعام: الآية (١١٠).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٧٣٩١).

(٤) رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه، والحاكم من حديث جابر وقال صحيح على شرط مسلم. ولمسلم «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» برقم (٢٦٥٤).

(٥) سورة الليل: الآيات (٥ ــ ٧).

من الشكر والصبر والخوف. . . وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

القلب الثاني: القلب المخذول المشحون بالهوى، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث، المفتوح فيه أبواب الشياطين، المسدود عنه أبواب الملائكة.

ومبدأ الشر فيه: أن ينقدح فيه خاطر من الهوى، ويهجس فيه. . ويكون العقل قد ألف خدمة الهوى. . فيقوى سلطان الشيطان، فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني، ويوحي بذلك زخرفاً من القول غروراً، فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور اليقين، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2].

القلب الثالث: قلب تبدو فيه خواطر الهوى، فتدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير، فتنبعث النفس بشهواتها إلى نصرة خاطر الشر، فتقوى الشهوة، وتحسن التمتع والتنعم، فينبعث العقل إلى خاطر الخير، ويدفع في وجه الشهوة، ويقبح فعلها، وينسبها إلى الجهل، ويشبهها بالبهيمة في تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب، فتميل النفس إلى نصح العقل. .

فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذباً بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به. فإن كانت الصفات التي في القلب، الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان، ومال القلب إلى جنسه، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية، لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه، بل مال إلى حزب الله تعالى، وظهرت الطاعة على جوارحه.

فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ــ أي بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب ــ أعني التقليب والانتقال من حزب إلى حزب، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة، أو مع حزب الشيطان، فنادر من الجانبين.

---

(١) سورة الرعد: الآية (٢٨).

(٢) سورة الفرقان: الآيتان (٤٣ ــ ٤٤).

الكِتَابُ الثَّانِي

رِيَاضَةُ ٱلنَّفْسِ وَتَهْذِيبُ ٱلأَخْلَاقِ

رُبْعُ المُهْلِكَات

[تمهيد: عن موضوع هذا الكتاب]

الخلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين.

والأخلاق السيئة، هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة، والخبائث المبعدة عن جوار ربِّ العالمين. والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس، إلَّا أنه مرض يفوِّت حياة الأبد.

ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب، والقول في كيفية معالجتها على الجملة، من غير تفصيل، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع. وغرضنا الآن: النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها.

فضيلة حسن الخلق:

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنياً عليه، ومظهراً نعمته لديه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن)(٢).

وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٣).

وقال ﷺ: «أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق»(٤).

---

(١) سورة القلم: الآية (٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٤٦).

(٣) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي (ع). (٤) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه (ع).

وقال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[1].

وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلاَّ أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلاَّ أنت»[2].

حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق:

اعلم أن الناس قد تكلموا في حسن الخلق، فتعرضوا لثمرته ولم يتعرضوا لحقيقته، ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضراً في ذهنه، ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حدِّه وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب. وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل.

فنقول: الخُلُق والخَلْق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخلق والخلق، أي: حسن الباطن والظاهر.

فيراد بالخَلْق: الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق: الصورة الباطنة، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرَك بالبصر، ومن روح ونفس مدرَك بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئة وصورة، إما قبيحة وإما جميلة.

فالنفس المدرَكة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى:

﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[3].

فنبَّه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى ربِّ العالمين. والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد.

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (ع).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧١).

(٣) سورة صٓ: الآيتان (٧١ و ٧٢).

فالخُلق: عبارة عن هيئة في النفس راسخة، تصدر الأفعال عنها بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية.

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً.

وإنما قلنا: إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة، لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية، لأن من تكلف بذل المال، أو السكوت عند الغضب بجهد وروية، لا يقال: خلقه السخاء والحلم.

فهاهنا أربعة أمور:
أحدها: فعل الجميل والقبيح.
الثاني: القدرة عليهما.
الثالث: المعرفة بهما.
الرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين، ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن، وإما القبيح.

وليس الخلق واحداً من الثلاثة الأولى. لأن البذل قد يصدر عن بخيل لباعث الرياء.. بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل.

فالخلق هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها، حتى يتم حسن الخلق.

فإذا استوت الأركان الأربعة، واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق، وهي: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث.

أما قوة العلم، فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا حصلت هذه القوة حصل منها ثمرة: الحكمة.

وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع.

وأما قوة العدل: فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع.

فأمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل. والباقي فروعها.

قبول الأخلاق للتغيير بالرياضة:

اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة، استثقل المجاهدة والرياضة، والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق. فزعم أن الأخلاق لا يتصوَّر تغييرها، فإن الطباع لا تتغير. واستدل على ذلك بأمرين:

أحدهما: أن الخلق هو صورة الباطن، كما أن الخلق هو صورة الظاهر، فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى.

الثاني: قالوا: حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة، وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع، وهو لا ينقطع عن الآدمي، فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة.

فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير، لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات. وكيف ينكر هذا في حق الآدمي، وتغيير خلق البهيمة ممكن؟ إذ ينقل الكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية. والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى:

ـ ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجـوده وكمالـه، كالسمـاء والأرض بل وأعضاء البدن داخلاً وخارجاً.

ـ وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً، وجعل فيه قوة لقبول الكمال، بعـد أن يوجـد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار العبد.

فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل، إلاَّ أنهـا خلقت خلقة يمكن أن تصيـر نخلة إذا انضاف إليها التربية، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية. فإذا صارت النواة متـأثرة بالاختيار، حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض، فكذلك الغضب والشهـوة لو أردنـا قمعهمـا وقهرهمـا بالكليـة حتى لا يبقى لهما أثـر، لم نقدر عليـه أصلاً، ولـو أردنـا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أمـرنا بـذلك، وصـار ذلك سبب نجـاتنا، ووصـولنا إلى الله تعـالى. نعم، الجبلات مختلفـة، بعضها سـريعـة القبول وبعضها بطيئة القبول. وسبب ذلك: إما قوة في أصل الجبلة، أو تأكد الخلق بكثرة العمل بمقتضاه واعتقاد كونه حسناً ومرضياً.

وأمـا الخيال الآخـر الذي استـدلوا بـه، وهو قـولهم: إن الآدمي مـا دام حيـاً لا تنقطع عنه الشهوة والغضب..

فهذا غلط وقع لطائفة، ظنـوا أن المقصود من المجـاهدة قمـع هذه الصفـات بالكلية ومحوها، وهيهات! فإن الشهـوة خلقت لفائـدة، وهي ضروريـة في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقـطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه. فليس المـطلوب إماطـة ذلك بالكلية، بل المطلوب ردهـا إلى الاعتدال، الـذي هو وسط بين الإفـراط والتفريط. فالمطلوب في صفة الغضب بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً، وبالجملة: أن يكون في نفسه قوياً، ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال تعالى:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(١).

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٩).

وصفهم بالشدة، وهي إنما تصدر عن الغضب، ولو بطل الغضب لبطل الجهاد.

وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم ينفكوا عن ذلك، إذ قال ﷺ: «إنما أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر»(١)، وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه، ولكن لا يقول: إلاَّ حقاً، فكان ﷺ لا يخرجه غضبه عن الحق(٢).

وقال تعالى:

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾(٣).

ولم يقل: والفاقدين الغيظ، فرد الغضب والشهوة إلى حدّ الاعتدال، بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما، وهو المراد بتغيير الخلق. وذلك ممكن تدل عليه التجربة والمشاهدة.

السبب الموصل إلى حسن الخلق:

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل، وكمال الحكمة، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة، وكونها مطيعة للعقل وللشرع. وهذا الاعتدال يحصل على وجهين:

أحدهما: بجود إلّهي وكمال فطري، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل، حسن الخلق، فيصير مؤدباً بغير تأديب، كعيسى بن مريم، وكذا سائر الأنبياء.

الثاني: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة، وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠٣).

(٢) متفق عليه (خ ٢٣٦٠، م ٢٣٥٧).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٣٤).

فمن أراد ــ مثلاً ــ أن يحصل لنفسه خلق الجود، فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد، وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه، ويواظب عليه تكلفاً، مجاهداً نفسه، حتى يصير ذلك طبعاً له، ويتيسر عليه، فيصير به جواداً.

وكذلك من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع، وقد غلب عليه الكبر، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة، وهو فيها مجاهد نفسه، ومتكلف أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً، فيتيسر عليه. وجميع الأخلاق المحمودة تحصل بهذه الطريق.

فالأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً، لتصير طبعاً انتهاءً. وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح. ويعرف ذلك بمثال: فمن أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية ــ حتى يصير كاتباً بالطبع ــ فلا طريق له إلاَّ أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق، ويواظب عليه مدة طويلة، يحاكي الخط الحسن. فيتشبَّه بالكاتب تكلفاً، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً.

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة:

تارة تكون بالطبع والفطرة.

وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة.

وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم، وهم قرناء الخير، وإخوان الصلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً.

فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث، حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً، فهو في غاية الفضيلة. ومن كان رَذْلاً بالطبع، واتفق له قرناء سوء، فتعلم منهم، وتيسرت له أسباب الشر، حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عزَّ وجلَّ. وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات، ولكلٍ درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(1).

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(2).

بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

قد عرفت أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له، والميل عن الاعتدال مرض فيه، فلنتخذ البدن مثالاً: فنقول:

مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل عنها وجلب الفضائل إليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له، وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعتري المعدة عوارض الأغذية والأهوية والأحوال فتضرها، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالاعتياد والتعليم.

وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس، تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالتعليم.

وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن، الموجبة للمرض، لا تعالج إلَّا بضدها، فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت برودة فبالحرارة. فكذلك الرذيلة، التي هي مرض القلب، علاجها بضدها. فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع. وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد

---

(1) سورة الزلزلة: الآيتان (7 و8).

(2) سورة النحل: الآية (33).

من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب، بل هو أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب ــ والعياذ بالله ــ مرض يدوم بعد الموت أبد الأبد.

وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة، فكذلك الشيخ الذي يطبب نفوس المريدين، ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم.

وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد، قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم.

فهذه أمثلة تعرفك طريقة معالجة القلوب. وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض ــ فإن ذلك سيأتي ــ وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه: سلوك مسلك المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه.

وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1].

والأصل المهم في المجاهدة: الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها، ويكون ذلك ابتلاءً من الله تعالى واختباراً، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عوّد نفسه تَرْكَ العزم ألفت ذلك ففسدت، وإذا اتفق منه نقض عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه.

علامات أمراض القلب:

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خُلق له، حتى لا يصدر منه أصلاً، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار.

(١) سورة النازعات: الآيتان (٤٠ ــ ٤١).

وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله، وهو: العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى. . فمن عنده شيء أحب إليه من الله تعالى فقلبه مريض.

فهذه علامات المرض، وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلاَّ ما شاء الله. إلاَّ أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات، وهو نزع الروح.

فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض. فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، والمرض مزمناً. واندرس هذا العلم، وأنكر بالكلية طب القلوب، وأنكر مرضها.

وعلامات العودة إلى الصحة بعد المعالجة، أن ينظر في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل، فإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه، ولكنه قد يبذل المال إلى حدّ يصير به مبذراً، فيكون التبذير أيضاً داءً. فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء. بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة، وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير، حتى يكون على الوسط. وفي غاية البعد عن الطرفين.

ولما كان الوسط الحقيقي في غاية الغموض، وهو الصراط المستقيم في الدنيا. . وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1].

إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

---

(١) سورة الفاتحة: الآية (٦).

الطريق الذي تعرف به عيوب النفس:

اعلم أن الله عزَّ وجلّ إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى[1] في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين نفسه، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:

الطريق الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآفات. ويحكمه في نفسه، ويتبع إشاراته في مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه عيوب نفسه، ويعرفه طريق علاجه، وهذا قد عزَّ في هذا الزمان وجوده.

الطريق الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً، بصيراً متديناً، فينصبه رقيباً على نفسه، ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره منها ينبهه عليه. فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين.

كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي.

وكان يسأل حذيفة بن اليمان ويقول له: أنت صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، فهل ترى علي شيئاً من آثار النفاق؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه.

وكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه، إلَّا أن هذا أيضاً قد عزَّ، فقلَّ في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب.

ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس، فقيل له: لم لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي؟

---

(١) القذى: جمع قذاة، وهي ما يقع في عين الإنسان، أو في الماء والشراب من نحو تراب وتبن ووسخ.

فقد كانوا يحبون أن ينبهوا لعيوبهم، وقد آل الآمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا. ويكاد هذا أن يكون مفصحاً عن ضعف الإيمان.

الطريق الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساويا. ولعل انتفاع الإنسان بعدوّ مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه.

الطريق الرابع: أن يخالط الناس، فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق، فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى. فليتفقد نفسه، ويطهرها من كل ما يذمه من غيره، وناهيك بهذا تأديباً، لو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب.

علامات حسن الخلق:

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي، ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه، وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق، فإن حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق.

وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا
عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ

﴿يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[4].

إلى آخر السورة.

فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على هذه الآيات. فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده.

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات (١ ــ ١١).
(٢) سورة التوبة: الآية (١١٢).
(٣) سورة الأنفال: الآيات (٢ ــ ٤).
(٤) سورة الفرقان: الآية (٦٣).

وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق. فقال: «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[2].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[3].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[4].

وقال ﷺ: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[5].

وأولى ما يمتحن به حسن الخلق، الصبر على الأذى، واحتمال الجفاء. ومن شكا من سوء خلق غيره، دل ذلك على سوء خلقه، فإن حسن الخلق احتمال الأذى.

فقد روي أن رسول الله ﷺ كان يوماً يمشي، ومعه أنس، فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً، وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية، قال أنس: حتى نظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه، فقال: يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك ثم أمر بإعطائه[6].

وروي أن علياً رضي الله عنه، دعا غلاماً فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: بلى، قال: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امضِ فأنت حر.

---

(١) متفق عليه (خ ١٣، م ٤٥)، بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب..».
(٢) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧).
(٣) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧، و٤٨).
(٤) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧).
(٥) أخرجه أحمد والطبراني والحاكم، وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى. ورواه الطبراني والحاكم، وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة.
(٦) متفق عليه (خ ٣١٤٩، م ١٠٥٧).

وشتم رجل الأحنف بن قيس[1]، وهو لا يجيبه، وكان يتبعه، فلما قرب من الحي وقف وقال: إن كان بقي في نفسك شيء فقله، كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك.

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله: يا مرائي، فقال: يا هذه، وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة.

فهذه النفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها، فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى، وهو منتهى حسن الخلق.

فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات، فلا ينبغي أن يغتر بنفسه، فيظن بها حسن الخلق، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق.

***

(١) الأحنف بن قيس، أبو بحر، سيد تميم، وأحد الفصحاء والعلماء الأجلاء، قيل اسمه الضحاك، والأحنف لقب له، وبه جزم الحافظ ابن حجر، ولد في عهد النبي ﷺ ولم يره، اعتزل الفتنة يوم الجمل، وشهد صفين مع علي رضي الله عنه، يضرب المثل بحلمه، توفي سنة (٧٢)هـ.

فَصْلٌ
فِي تَرْبِيَةِ ٱلصِّبْيَانِ(١)

مسؤولية الوالدين عن التربية:

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة. وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عوِّد الخير وعلمه نشأ عليه، وإن عوِّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾(٢).

ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى. وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده النعيم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر، فيهلك هلاك الأبد.

مراقبة الرضاع وأول النشوء:

وينبغي أن يراقبه من أول أمره، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلاَّ امرأة متديّنة تأكل الحلال. فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبيث، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث.

---

(١) هذا الفصل هو فقرة من كتاب (رياضة النفس) ولأهميته ميَّزته ووضعت له هذه العناوين الفرعية.

(٢) سورة التحريم: الآية (٦).

ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي، ويترك بعض الأفعال، فليس ذلك إلَّا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً مخالفاً للبعض، فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه، وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ. فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه.

التأديب في شأن الطعام:

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلَّا بيمينه، وأن يقول عليه «بسم الله» عند أخذه، وأن يأكل مما يليه، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه، ولا إلى من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وأن لا يوالي بين اللقم، ولا يلطخ يده ولا ثوبه.

وأن يعوّد الخبز القفار[1] في بعض الأوقات، حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً، ويقبِّح عنده كثرة الأكل، بأن يشبِّه من يكثر الأكل بالبهائم، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل، ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام، وقلة المبالاة به، والقناعة بالطعام الخشن، أي طعام كان.

التأديب في شأن اللباس:

وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم[2]، ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين، وأن الرجال يستنكفون منه، ويكرر ذلك عليه، ومهما رأى على صبي ثوباً من إبريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه.

---

(١) أي: الخبز اليابس وحده.

(٢) أي: الحرير.

ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية، ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل من يُسمعه ما يرغبه فيه، فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق، وإنما يحفظ بحسن التأديب.

التأديب في شأن التعليم:

ثم يشغل في المكتب، فيتعلم القرآن، وأحاديث الأخبار، وحكايات الأبرار وأحوالهم، لينغرس في نفسه حب الصالحين، ويُحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في نفوس الصبيان بذر الفساد.

مكافأة الإحسان، والتدرج في معالجة الخطأ:

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل، وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازى عليه بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس.

فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة، فينبغي أن يتغافل عنه، ولا يهتك ستره، ولا يكاشفه، ولا يظهر له أنه يتصوَّر أن يتجاسر على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة.

فإن عاد ثانياً، فينبغي أن يعاتب سراً، ويعظم الأمر فيه، ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا، وأن يطلع عليك في مثل هذا، فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهوِّن عليه سماع الملامة، وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه.

وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه، فلا يوبخه إلَّا أحياناً، والأم تخوفه بالأب، وتزجره عن القبائح.

وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية، فإنه لا يخفيه إلَّا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا ترك تعود فعل القبيح.

الرياضة والبعد عن الكسل:

وينبغي أن يمنع عن النوم نهاراً، فإنه يورث الكسل، ولا يمنع منه ليلاً، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة، حتى تتصلب أعضاؤه، ولا يسمن بدنه، فلا يصبر عن التنعم، بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم.

ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة، حتى لا يغلب عليه الكسل، ويعود أن لا يكشف أطرافه، ولا يسرع المشي..

وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً، يستريح إليه من تعب المكتب، بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً، يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً.

وينبغي إذا ضربه المعلم، أن لا يكثر الصراخ والشغب، ولا يستشفع بأحد، بل يصبر، ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب النسوان.

التواضع والتعفف:

ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه، أو بشيء من مطاعمه وملابسه، أو لوحه ودواته، بل يعوَّد التواضع، والإكرام لكل من عاشره، والتلطف معهم في الكلام، ويمنع أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له، حشمة إن كان من أولاد المحتشمين، بل يعلم الرفعة في الإعطاء، لا في الأخذ، وأن الأخذ خسَّة ودناءة، وإن كان من أولاد الفقراء، فليعلم أن الطمع والأخذ ذلة ومهانة.

الآداب الاجتماعية:

وينبغي أن يعلم ويعوَّد أن لا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يستدبر غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده، فإن ذلك دليل الكسل.

ويعلم كيفية الجلوس، ويمنع كثرة الكلام، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة، وأنه فعل اللئام.

ويمنع اليمين[1] رأساً ـ صادقاً كان أو كاذباً ـ حتى لا يعتاد ذلك في الصغر.

ويمنع أن يبتدىء بالكلام، ويعود أن لا يتكلم إلَّا جواباً وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره، ممن هو أكبر منه سناً، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان.

ويمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك، فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء.

وينبغي أن يعلم طاعة والديه، ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي، وأن ينظر إليهم بعين الوقار، وأن يترك اللعب بين أيديهم.

سنّ التمييز:

ومهما بلغ سن التمييز، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب، ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

الخلاصة:

فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى، فإن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين. قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2].

***

---

(١) أي: حلف اليمين.

(٢) متفق عليه (خ ١٣٥٨، م ٢٦٥٨).

الكِتَابُ الثَّالِثُ

كَسْرُ الشَّهْوَتَيْن

رُبْعُ المُهْلِكَات

[تمـهـيد]

إن أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، بها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار، إلى دار الذل والافتقار، إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهـواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما.

والبطن ـ على التحقيق ـ ينبوع الشهوات، ومنبت الأدواء والآفات، إذ يتبعها شهوة الفرج.

ونحن نـوضـح ذلـك في فصـول يجمعهـا: بيـان فضيلة الجــوع، ثم طـريق الرياضة في كسر شهوة البطن.. ثم القول في شهوة الفرج.

فضيلـة الجـوع:

قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شـراً من بطنـه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، وإن كان لا بدّ فاعلاً، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه»[(١)].

وقال ﷺ: «المؤمن يأكل في معى واحد، والمنافق يأكل في سبعة أمعاء»[(٢)]، أي: يأكل سبعة أضعاف ما يأكـل المؤمن، أو تكون شهـوته سبعـة أضعاف شهـوته، وذكر «المعى» كناية عن الشهوة، لأن الشهـوة هي التي تقبل الـطعام وتـأخذه، كمـا يأخذه المعى، وليس المعنى زيادة عدد أمعاء المنافق على أمعاء المؤمن.

وقال أبو هريرة: «ما أشبع رسول الله ﷺ أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبـز الحنطة حتى فارق الدنيا»[(٣)].

(١) أخرجه الترمذي (ع).

(٢) متفق عليه (خ ٥٣٩٤، م ٢٠٦٠).

(٣) متفق عليه (خ ٥٣٧٤، م ٢٩٧٦).

وقال عمر رضي الله عنه: إياكم والبطنة، فإنها ثقل في الحياة، نتن في الممات.

وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه: أي شيء تخافين؟ أتخافين أن تجوعي؟ لا تخافي ذلك، أنت أهون على الله من ذلك، إنما يجوع محمد ﷺ وأصحابه.

وقال سهل بن عبد الله التستري: لا يوافي القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام، اقتداءً بالنبي ﷺ في أكله.

فوائد الجوع وآفات الشبع:

لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء، ومن جوع نفسه مصدقاً لما جاء من مدح الجوع. وفي الجوع فوائد:

الأولى: صفاء القلب، وإيقاد القريحة، وإنفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة، ويعمي القلب، ويكثر البخار في الدماغ، ولهذا قال لقمان لابنه: يا بني، إذا امتلأت المعدة، نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

الثانية: رقة القلب وصفاؤه، الذي به تهيأ لإدراك لذة التأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان، مع حضور القلب، لا يلتذ به. قال الجنيد[1]: يجعل أحدكم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة؟

الثالثة: الانكسار والذل، وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له.

---

(١) الجنيد بن محمد، أبو القاسم. ولد ونشأ ببغداد، له باع طويل في العلوم المختلفة. سيد الطائفة وشيخ التصوف في زمانه. التزم في تصوفه بالكتاب والسنة ومن قوله: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. توفي سنة (٢٩٧)هـ.

ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي ﷺ قال: «لا، بل أجوع يوماً، وأشبع يوماً، فإذا جعت صبرت وتضرعت، وإذا شبعت شكرت»[1].

الرابعة: أن لا ينسى أهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع. ولذلك قيل ليوسف عليه السلام: لم تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع، فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والشفقة على خلق الله عزَّ وجلّ. والشبعان في غفلة عن ألم الجائع.

الخامسة: كسر شهوات المعاصي كلها، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات. ومادتها لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة. وإنما السعادة كلها أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنك لا تملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت، فكذلك النفس.

السادسة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن، ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل، وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق.

السابعة: خفة المؤونة، فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له، آخذاً بمخنقه كل يوم، فيقول: ماذا تأكل اليوم..

الثامنة: أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين. فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى، أو أكل فأفنى، أو لبس فأبلى. فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وحسنه، وابن سعد والطبراني والبيهقي بلفظ: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب ولكن أجوع..» (ش).

الرياضة في كسر شهوة البطن:

اعلم أن على المريد في بطنه ومأكوله وظائف:

منها: أن لا يأكل إلا حلالاً، فإن العبادة مع أكل الحرام، كالبناء على أمواج البحار، وقد ذكرنا ما تجب مراعاته من درجات الورع في كتاب «الحلال والحرام».

ومنها: تقليل الطعام، وسبيل الرياضة فيه التدريج، فمن اعتاد الأكل الكثير، وانتقل إلى القليل دفعة واحدة لم يحتمله مزاجه، وضعف وعظمت مشقته، فينبغي أن يتدرج إليه قليلاً قليلاً، وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد، فمن كان يأكل رغيفين مثلاً، وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد، فينقص كل يوم مقدار لقمة، فيرجع إلى رغيف في شهر، ولا يستضر به، ولا يظهر أثره.

وتقدير الطعام لا يمكن، لأنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص.

ومنها: في نوع الطعام الإدام، وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع عن الشهوات.

بلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام، فقال عمر لمولى له: إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني، فأعلمه، فدخل عليه، فقرِّب عشاؤه، فأتوه بثريد لحم، فأكل معه عمر، ثم قرب الشواء، وبسط يزيد يده، وكف عمر يده وقال: الله الله، يا يزيد بن أبي سفيان، أطعام بعد طعام؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم.

وعلى الجملة: لا سبيل إلى إهمال النفس في الشهوات المباحات، واتباعها بكل حال، فالمطلوب في جميع الأمور الوسط، إذ خير الأمور أوساطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وما أوردناه في فضائل الجوع، ربما يومىء إلى أن الإفراط فيه مطلوب، وهيهات!!

فالعالم يدرك أن المقصود الوسط، لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع، فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع، حتى يحصل الاعتدال، فإن من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد، فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية، فإن أسرف مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدل على إساءته.

فقد بالغ الشرع في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثم لما علم النبي ﷺ من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله، نهى عنه[1].

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة، ولا يحس بألم الجوع. فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة.

القول في شهوة الفرج:

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدة عظيمة، وهي بقاء النسل ودوام الوجود.

ولكن فيها من الآفات، ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط، ولم تقهر، ولم ترد إلى حدّ الاعتدال.

وأعظم الشهوات شهوة النساء، وهذه الشهوة أيضاً لها إفراط وتفريط واعتدال.

فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء، حتى يجر إلى اقتحام الفواحش.

وتفريطها أيضاً مذموم.

وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع. ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح، قال ﷺ: «يا معشر الشباب. من استطاع منكم الباءة[2] فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[3].

***

(١) متفق عليه (خ ٥٠٦٣، م ١٤٠١).
(٢) المقصود: مؤنة النكاح.
(٣) متفق عليه (خ ١٩٠٥، م ١٤٠٠).

الكتاب الرابع

آفات اللسان

ربع المهلكات

[تمـهـيد]

إن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبـة، فإنـه صغير جِـرمه، عظيم طاعتـه وجُرمـه، إذ لا يستبين الكفر والإيمـان إلا بشهادة اللسـان، وهما غـاية الطاعة والعصيان.

وإن كل ما يتناوله العلم، يعرب عنه اللسان، إما بحق أو بـاطل، ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فـإن العين لا تصل إلى غيـر الألوان والصـور، والأذن لا تصل إلى غيـر الأصوات، واليـد لا تصل إلى غيـر الأجسام، وكذا سائر الأعضاء.

وهـو أعظم آلـة الشيطان في استغـواء الإنسان. ونحن ـ بتـوفيق الله ـ نفصل مجامع آفات اللسان، ونذكرها واحدة واحدة، بحدودها وأسبابهـا وغوائلهـا، ونعرِّف طريق الاحتراز عنها.

خطر اللسان وفضيلة الصمت:

اعلم أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت.

قـال عقبة بن عـامر، قلت: يـا رسول الله مـا النجـاة؟ قـال: «أمسـك عليـك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[1].

وقال ﷺ: «من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة»[2].

وقال معاذ بن جبل: قلت: يا رسول الله، أنؤاخذ بمـا نقول؟ فقـال: «ثكلتك

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن (ع).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٤٧٤).

أمسك يا ابن جبل، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[1].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»[2].

وقال ابن مسعود: يا لسان قل خيراً تغنم، وأمسك عن شر تسلم، من قبل أن تندم.

وقال: والله الذي لا إله إلا هو، ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.

وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ: أما بعد فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عدَّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

وقال الحسن: تكلم قوم عند معاوية، والأحنف بن قيس ساكت، فقال له: ما لك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال له: أخشى الله إن كذبت، وأخشاك إن صدقت.

فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟

فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان، من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة، والرياء والنفاق.. وهي لا تثقل على اللسان، ولها حلاوة في القلب، وعليها بواعث من الطبع، ومن الشيطان. ففي الخوض خطر، وفي الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته.

آفات اللسان:

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام:

قسم: هو ضرر محض.

وقسم: هو نفع محض.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين (ع).

(٢) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧).

وقسم: فيه ضرر ومنفعة..

وقسم: ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر. وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول، والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع. فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع.

وهذا الربع فيه خطر، إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع، والغيبة وتزكية النفس، وفضول الكلام، امتزاجاً يخفى دركه، فيكون الإنسان به مخاطراً.

ونحن الآن نعدّ آفات اللسان، ونبتدىء بأخفها، ونترقى إلى الأغلظ قليلاً، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول. وهي عشرون آفة.

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعني

اعلم أن أحسن أحوالك، أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات. وتتكلم فيما هو مباح، لا ضرر عليك فيه، ولا على مسلم أصلاً.

إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه، ولا حاجة بك إليه، فإنك مضيع به زمانك، ومحاسب على عمل لسانك، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأنك لو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك، فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة؟

ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز، فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها، كان خاسراً خسراناً مبيناً. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى، واشتغل بمباح لا يعنيه. فإنه ـ وإن لم يأثم ـ فقد خسر، حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى.

ولهذا قال النبي ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي وقال غريب، وابن ماجه (ع) وكذا أحمد والبيهقي ومالك والنسائي (ش).

وحدّ الكلام فيما لا يعنيك: أن تتكلم بكلام لو سكتَّ عنه لم تأثم، ولم يستضر به في حال ولا مآل، مثاله: أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك، وما رأيت فيها من جبال وأنهار. ومن جملتها: أن تسأل غيرك عما لا يعنيك، فأنت بالسؤال مضيع وقتك، وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع.

وأما سببه الباعث عليه: فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية[1] الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها.

وعلاج ذلك كله: أن يعلم أن الموت بين يديه، وأنه مسؤول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله. هذا علاجه من حيث العلم، وأما من حيث العمل: فالعزلة، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه، حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه.

الآفة الثانية: فضول الكلام

وهو أيضاً مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني، والزيادة على قدر الحاجة فيما يعني، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره، وإذا تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فضول ـ أي فضل عن الحاجة ـ وهو أيضاً مذموم لما سبق، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر.

قال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم، حسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته.

وقال عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم، كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، أو أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها. أتنكرون أن عليكم حافظين:

﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾[2].

(١) في القاموس: زجاه: ساقه ودفعه، والمقصود: تمضية الأوقات.

(٢) سورة الانفطار: الآية (١١).

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

أما يستحيي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه.

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر، والمهم محصور في كتاب الله تعالى، قال عزَّ وجلّ:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[2].

وعلاجه: ما سبق في الكلام فيما لا يعني.

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي، كحكاية أحوال النساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفساق، وتنعم الأغنياء، وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه.

وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس، أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها، لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا.

وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله،

(١) سورة قٓ: الآيتان (١٧ ــ ١٨).
(٢) سورة النساء: الآية (١١٤).

ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»(1).

قال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم: توضؤوا، فإن بعض ما تقولون شر من الحدث.

فهذا هو الخوض في الباطل، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾(2).

وقوله:

﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾(3).

الآفة الرابعة: المراء والجدال

وذلك منهي عنه، قال ﷺ: «لا تمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تعده موعداً فتخلفه»(4). وقال ﷺ: «من ترك المراء وهو محق، بني له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة»(5).

وحدّ المراء: هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق به، وإن كان باطلاً أو كذباً، ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه.

وأما المجادلة: فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه، وتنقيصه بالقدح في كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه.

---

(1) أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح. وللشيخين والترمذي: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً في النار» (ع).

(2) سورة المدثر: الآية (45).

(3) سورة النساء: الآية (140).

(4) أخرجه الترمذي (ع).

(5) أخرجه الترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن (ع).

والباعث على هذا، هو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه.

وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها. وهما من باب تزكية النفس، وهي من مقتضى العلو والكبرياء.

وأما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله. فإن علاج كل علة إماطة سببها.

روي أن أبا حنيفة قال لداود الطائي: لم آثرت الانزواء؟ قال: لأجاهد نفسي بترك الجدال، فقال: احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم. قال: ففعلت ذلك، فما رأيت مجاهدة أشد علي منها.

الآفة الخامسة: الخصومة

وهي أيضاً مذمومة، وهي وراء الجدل والمراء.

فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به سوى تحقير الغير، وإظهار مزية الكياسة. والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها.

والخصومة: لجاج في الكلام، ليستوفى به مال، أو حق مقصود.

وفي الحديث: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[1]. فإن قلت: فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه، أو في حفظه، إذا ظلمه ظالم، فكيف تذم خصومته؟!

فاعلم: أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل، والذي يخاصم بغير علم، والذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم

(١) أخرجه البخاري برقم (٧١٨٨) ومسلم برقم (٢٦٦٨).

وكسره. . ومن الناس من يصرح به ويقول: إنما قصدي عناده وكسره، وإني إذا أخذت منه المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي. . وهذا مقصوده الخصومة واللجاج، وهو مذموم جداً.

فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف، وزيادة لجاج على قدر الحاجة، ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه، وبقي الحقد بين المتخاصمين.

فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة، ومن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم.

نعم، أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال، طيب الكلام، وما ورد فيه من الثواب، وقد قال تعالى:

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1].

وفي الحديث: «الكلمة الطيبة صدقة»[2].

قال ابن عباس: من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام، وإن كان مجوسياً، إن الله تعالى يقول:

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[3].

وقال عمر رضي الله عنه: البر شيء هين: وجه طلق وكلام لين.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٨٣).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٠٠٩).
(٣) سورة النساء: الآية (٨٦).

الآفة السادسة: التقعر في الكلام

التقعر في الكلام، بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات، وما جرى به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة. وكل ذلك من التصنع المذموم، ومن التكلف الممقوت.

قال ﷺ: «إن أبغضكم إلي، وأبعدكم مني مجلساً: الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام»(١).

ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة.

ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها، وقبضها وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه، فهو لائق به.

الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهي عنه. ومصدره الخبث واللؤم. قال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء»(٢). وقال ﷺ: «إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقاً»(٣).

فهذه مذمة الفحش، وأما حدّه وحقيقته: فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة. وأكثر ذلك يقع في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه. وأهل الصلاح يتحاشون عنها، ويكنون عنها، ويدلون عليها بالرموز، فيذكرون ما يقاربها وما يتعلق بها.

قال ابن عباس: إن الله حيي كريم، يعفو ويكنو، كنى باللمس عن الجماع.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وحسنه (ع).

(٢) أخرجه الترمذي بإسناد صحيح (ع).

(٣) أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح (ع).

واللمس والدخول والصحبة والمسيس، كنايات عن الوقـاع وليست بفاحشـة، وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها، ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير.

والباعث على الفحش، إما قصد الإيذاء، وإما الاعتياد الحـاصل من مخـالطة الفساق، وأهل الخبث واللؤم، ومن عاداتهم السب.

قال ﷺ: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر»(١).

وقال ﷺ: «من أكبر الكبائر أن يسبَّ الـرجل والـديه»، قـالوا: يـا رسول الله، كيف يسب والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه»(٢).

الآفة الثامنة: اللَّعن

اللعن إمـا لحيوان أو جمـاد أو إنسان، مـذموم، قـال رسول الله ﷺ: «المؤمن ليس بلعان»(٣)، وقال ﷺ: «لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم»(٤).

وقال عمران بن حصين: بينمـا رسول الله ﷺ في بعض أسفـاره، إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها، فضجرت منها فلعنتها، فقال ﷺ: «خـذوا ما عليهـا وأعروهـا فـإنها ملعـونة» قـال: فكأني أنـظر إلى تلك الناقـة تمشي بين الناس لا يتعـرض لها أحد(٥).

وقال ﷺ: «إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»(٦).

واللعن: عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٤٤، م ٦٤).
(٢) متفق عليه (خ ٥٩٧٣، م ٩٠).
(٣) أخرجه أحمد والترمذي بإسناد صحيح (ع).
(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح (ع).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٥).
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٨).

وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عزَّ وجلّ، وهـو الكفر والظلم، بأن يقول: لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين.

والصفات المقتضية للعن ثلاثة: الكفر، والبدعة، والفسق.

قال ﷺ: «من لعن مؤمناً فهو كقتله»[1].

ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر.

الآفة التاسعة: الغناء والشعر

قد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده.

وأمـا الشعر فكـلام، حسنه حسن، وقبيحـه قبيح، إلا أن التجـرد له مـذموم، قـال ﷺ: «لأن يمتلىء جوف أحـدكم قيحـاً حتى يـريـه[2] خيـر لـه من أن يمتلىء شعراً»[3].

وإنشاد الشعر ونـظمه ليس بحـرام، إذا لم يكن فيه كـلام مستكره، قـال ﷺ: «إن من الشعر لحكمة»[4] وقد أمر ﷺ حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء قريش[5].

والتوسع في المدح ـ وإن كان كـذباً ـ فـإنه لا يلتحق في التحـريم بالكـذب كقول الشاعر:

ولـو لم يكن في كـفـه غيـر روحـه   لـجـاد بـهـا فـليـتـق الله سـائـلـه

فإن هذا عبـارة عن الوصف بنهـاية السخـاء، فإن لم يكن صـاحبه سخيـاً كان كذباً.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٤٧، م ١١٠).
(٢) يريه: من الوري، وهو داء يفسد الجوف.
(٣) متفق عليه (خ ٦١٥٤، م ٢٢٥٧).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٦١٤٥).
(٥) متفق عليه من حديث البراء: «اهجهم وجبريل معك» (خ ٦١٥٣، م ٢٤٨٦).

الآفة العاشرة: المزاح

وأصله مذموم منهي عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه.

فإن قلت: المزاح مطايبة، وفيه انبساط وطيب قلب، فلِمَ ينهى عنه؟

فاعلم: أن المنهي عنه الإفراط فيه، أو المداومة عليه. أما المداومة، فلأنه اشتغال باللعب والهزل، واللعب مباح، ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأما الإفراط فيه، فإنه يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب، وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار.

فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً»(١) ولكن غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان.

والضحك يدل على الغفلة عن الآخرة، قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً، ولضحكتم قليلاً»(٢).

قال رجل لأخيه: يا أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟

والمذموم من الضحك أن يستغرق ضحكاً، والمحمود منه التبسم، الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت. وكذلك كان ضحك رسول الله ﷺ.

والخلاصة: إن قدرت أن تمزح ولا تقول إلا حقاً، ولا تؤذي قلباً، ولا تفرط فيه، وتقتصر عليه أحياناً على الندور، فلا حرج عليك فيه. ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي (ع).

(٢) متفق عليه (خ ١٠٤٤، م ٩٠١).

الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء

وهذا محرم، مهما كان مؤذياً. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾(١).

ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يضحك منه. وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء.

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة، وربما فرح من أن يسخر به، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح.

وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه، أو على أفعاله، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً أو ناقصاً لعيب من العيوب فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها، وعليه نبه تعالى بقوله:

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾(٢).

أي: لا تستحقره استصغاراً، فلعله خير منك.

الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء، قال النبي ﷺ: «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة»(٣)

وقال الحسن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك.

وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار.

---

(١) (٢) سورة الحجرات: الآية (١١).

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه (ع).

الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب

إن اللسان سباق إلى الوعد، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء، فيصير الوعد خلفاً، وذلك من أمارات النفاق. قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[1].

وقد أثنى الله على نبيه إسماعيل عليه السلام فقال:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾[2].

وإذا كان هناك جزم في الوعد، فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[3].

وقال ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[4].

وهذا ينزل على عزم الخلف، أو ترك الوفاء من غير عذر. فأما من عزم على الوفاء، فعنَّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً، وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، لكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً، كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة.

قيل لإبراهيم النخعي: الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء؟ قال: ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء.

(١) سورة المائدة: الآية (١).
(٢) سورة مريم: الآية (٥٤).
(٣) متفق عليه (خ ٣٤، م ٥٨).
(٤) متفق عليه (خ ٣٣، م ٥٩).

وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا ويقول: إن شاء الله. وهو الأولى.

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين

[مذمة الكذب]:

الكذب من قبائح الذنوب وفواحش العيوب.

قال ﷺ: «لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[1].

وقال ﷺ: «ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم: المنان بعطيته، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمسبل إزاره»[2].

وقال ﷺ: «رأيت كأن رجلاً جاءني فقال لي قم، فقمت معه، فإذا أنا برجلين، أحدهما قائم والآخر جالس، بيد القائم كلوب من حديد، يلقمه في شدق الجالس، فيجذبه حتى يبلغ كاهله، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر، فيمده، فإذا مده رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة»[3].

وقال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم قعد وقال: ألا وقول الزور»[4].

وقال ﷺ: «من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم بغير حق لقي الله عزَّ وجلّ وهو عليه غضبان»[5].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٩٤، م ٢٦٠٧/١٠٥).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٦).
(٣) أخرجه البخاري برقم (١٣٨٦).
(٤) متفق عليه (خ ٢٦٥٤، م ٨٧).
(٥) متفق عليه (خ ٤٥٥٠، م ١٣٨).

ما رخص فيه من الكذب:

اعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه، بل لما فيه من الضرر على المخاطب، أو على غيره، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه، فيكون جاهلاً، وقد يتعلق به ضرر غيره، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجهل، فيكون مأذوناً فيه، وربما كان واجباً.

قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله، فدخل داراً، فانتهى إليك فقال: أرأيت فلاناً؟ ما كنت قائلاً؟ ألست تقول: لم أره؟ وما تصدق به، وهذا الكذب واجب.

والذي يدل على الاستثناء، ما روي عن أم كلثوم قالت: (ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها)[1].

وقالت أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين، فقال خيراً، أو نمى خيراً»[2].

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره.

وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذوراً، حتى إن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفتخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات، وذلك حرام[3]. قالت أسماء: (سمعت امرأة سألت

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠٥).

(٣) هناك فرق بين ما ورد في حديث أم كلثوم السابق (والمرأة تحدث زوجها) وبين أن تحكي عن زوجها، ومثال الأول ما روي عن عمر أنه بلغه أن امرأة ابن أبي عذرة الدؤلي قالت =

رسـول الله ﷺ قالت: إن لي ضـرة، وإني أتكثر من زوجي بمـا لم يفعـل أضـارهـا بـذلـك، فهـل عليّ شيء فيـه؟ فقـال ﷺ: «المتشبـع بمـا لم يعطَ كـلابس ثـوبـي زور»)[1].

[الكذب على رسول الله ﷺ]:

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائـل الأعمال، وفي التشـديد في المعاصي، وزعموا أن القصد منه صحيح. وهو خـطأ محض، إذ قال ﷺ: «من كـذب علي متعمـداً فليتبـوأ مقعـده من النـار»[2]. وهـذا لا يـرتكب إلاَّ لضـرورة، ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفـاية عن غيرها.

وقول القائـل: إن ذلك قـد تكرر على الأسمـاع وسقط وقعه، ومـا هو جـديد فـوقعه أعـظم، فهذا هـوس، إذ يؤدي فتح هـذا الباب إلى أمـور تشوش الشـريعة. والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء.

الحذر من الكذب بالمعاريض:

قد نقل عن السلف: إن في المعاريض مندوحة عن الكذب.

قال عمر رضي الله عنه: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب؟

وروي ذلك عن ابن عباس وغيره.

وإنمـا أرادوا بذلـك إذا اضطر الإنسـان إلى الكذب. فـأما إذا لم تكن حـاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً. ولكن التعريض أهون.

= لـزوجها: إنهـا تبغضه جـواباً على سؤال زوجهـا. فعاتبهـا عمر فقـالت: أفـأكـذب يـا أميـر المؤمنين؟ قال: نعم، فاكذبي. فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثـه بذلـك، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحسـاب [إحياء علوم الدين: ٣/١٣٨].

(١) متفق عليه (خ ٥٢١٩، م ٢١٣٠).

(٢) متفق عليه (خ ١١٠، م ٣).

ومثال التعريض: ما فعله معاذ بن جبل رضي الله عنه، إذ كان عاملاً لعمر رضي الله عنه، فلما رجع قالت له امرأته: ما جئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم؟ وما كان قد أتاها بشيء. فقال: كان عندي ضاغط، قالت: كنت أميناً عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر رضي الله عنه، فبعث عمر معك ضاغطاً؟ وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر، فلما بلغه ذلك دعا معاذاً وقال: بعثت معك ضاغطاً؟ قال: لم أجد ما أعتذر به إليها إلاّ ذلك، فضحك عمر رضي الله عنه، وأعطاه شيئاً فقال: أرضها به.

ومعنى قوله: «ضاغطاً» يعني رقيباً، وأراد به الله تعالى.

وكان إبراهيم النخعي إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار، قال للجارية: قولي له: اطلبه في المسجد، ولا تقولي ليس هنا، كيلا يكون كذباً.

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة، كقوله: طلبتك كذا وكذا مرة، وقلت لك مائة مرة، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها، بل تفهيم المبالغة، فإن لم يكن طلبه إلاّ مرة واحدة كان كاذباً.

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة

[مذمة الغيبة]:

نص الله سبحانه على ذمها في كتابه، وشبَّه صاحبها بآكل لحم الميتة، فقال تعالى:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[1].

وقال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[2].

والغيبة تتناول العرض، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم.

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤).

قال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»[1].

وقال قتادة: ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول.

وقال الحسن البصري: والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الآكلة في الجسد.

وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس.

وقال ابن عباس: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك، فاذكر عيوبك.

معنى الغيبة وحدودها:

الغيبة: أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه، أو في خلقه، أو في فعله، أو في قوله، أو في دينه، أو في دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع، والقصر والطول، والسواد والصفرة، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان.

وأما النسب: فبأن تقول: أبوه نبطي، أو هندي، أو فاسق، أو خسيس، أو إسكاف، أو زبال، أو شيء يكرهه كيفما كان.

وأما الخلق: فبأن تقول، هو سيء الخلق، بخيل، متكبر، مراء، شديد الغضب، عاجز، ضعيف القلب، متهور، وما يجري مجراه.

---

(١) رواه أبو داود بإسناد جيد (ع) ورواه الترمذي وقال: حسن غريب (ش).

وأما في أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك: هو سارق، أو كذاب، أو شارب خمر، أو خائن أو ظالم، أو متهاون بالصلاة أو الزكاة، أو لا يحسن الركوع أو السجود، أو ليس باراً بوالديه..

وأما في فعله المتعلق بالدنيا، فكقولك: إنه قليل الأدب، متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً، أو إنه كثير الكلام، أو كثير الأكل.

وأما في ثوبه: فكقولك: إنه واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثياب.

وكل هذا إن كان صادقاً فيه فهو به مغتاب، عاصٍ لربه آكل لحم أخيه. بدليل ما روي أن النبي ﷺ قال: «هل تدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكرهه»، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقوله؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[1].

قال الحسن البصري: ذكر الغير ثلاثة: الغيبة والبهتان والإفك، وكل في كتاب الله عزَّ وجلّ، فالغيبة: أن تقول ما فيه، والبهتان: أن تقول ما ليس فيه، والإفك: أن تقول ما بلغك.

الغيبة لا تقتصر على اللسان:

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه.

فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة، وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة، وهو حرام.

ومن ذلك المحاكاة بمشي، فهو غيبة، بل هو أشد من الغيبة، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم. وكذلك الغيبة بالكتابة، فإن القلم أحد اللسانين.

وأخبث أنواع الغيبة، غيبة المرائين، فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٩).

الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود. ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين: الغيبة والرياء. وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، نسأل الله أن يعصمنا منها. وإنما قصده أن يفهم عيب الغير، فيذكره بصيغة الدعاء. والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا.

ومن ذلك: الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب، فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيندفع فيها، وكأنه يستخرج الغيبة بهذا الطريق، فيقول: عجب!! ما علمت أنه كذلك، ما عرفته إلى الآن إلّا بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب. والتصديق بالغيبة غيبة، بل الساكت شريك المغتاب.

وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار.

الأسباب الباعثة على الغيبة:

البواعث على الغيبة كثيرة:

منها: أن يشفي الغيظ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه، فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع. وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن، فيصير حقداً ثابتاً، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوي. فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

ومنها: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض، فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه، ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة، ويظن أنه مجاملة في الصحبة.

ومنها: أن ينسب إلى شيء، فيريد أن يتبرأ منه، فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يبرىء نفسه، ولا يذكر الذي فعل.

ومنهـا: إرادة التصنع والمبـاهاة، وهـو أن يرفـع نفسه بتنقيص غيـره، فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك، وغرضـه في ذلك أن يثبت في ضمن ذلـك فضل نفسـه، ويريهم أنه أعلم منه.

ومنها: الحسد، وهو أنه ربما يحسد من يثني النـاس عليه، فيـريد زوال تلك النعمة عنه. فلا يجد سبيلاً إليه إلاَّ بالقدح فيه.

ومنها: اللعب والهزل والمطايبة بـالضحك، فيـذكر عيـوب غيره بمـا يضحك الناس على سبيل المحاكاة.

ومنها: السخرية والاستهزاء استحقاراً له، ومنشؤه التكبر.

العلاج الذي يمنع عن الغيبة:

اعلم أن مسـاوىء الأخلاق كلهـا إنما تعـالج بمعجـون العلم والعمل، وإنمـا علاج كل علة بمضادة سببها. وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين: أحدهمـا على الجملة، والآخر على التفصيل.

أما على الجملة: فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه، بـدلاً عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات، نقل إليه من سيئات خصمه. وهو مـع ذلك متعرض لمقت الله عزَّ وجلّ، ومشبه بآكل الميتة.

قـال رجل للحسن: بلغني أنـك تغتابني، فقـال: ما بلغ من قـدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

فإذا آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة، لم يطلق لسانه بهـا، خوفـاً من ذلك وينفعه أيضاً أن يتدبر في نفسه، فإن وجد فيها عيباً، اشتغل بعيب نفسه.

وينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلـك العيب كعجزه، وهـذا إن كان ذلـك عيباً يتعلق بفعله واختيـاره، وإن كان أمـراً خلقياً، فـالذم لـه ذم للخالق، فإن من ذم صنعة، فقد ذم صانعها.

وإذا لم يجد العبد عيباً في نفسه فليشكر الله تعالى، ولو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء، من كل عيب جهل بنفسه، وهو من أعظم العيوب.

وأما التفصيل: فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة، فإن علاج العلة بقطع سببها، وقد قدمنا الأسباب.

تحريم الغيبة بالقلب (سوء الظن):

اعلم أن سوء الظن حرام، مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوىء الغير فليس لك أن تحدث نفسك، وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلاَّ عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء.

فأما الخواطر، وحديث النفس، فهو معفو عنه، بل الشك أيضاً معفو عنه، ولكن المنهي عنه أن يظن.

والظن: عبارة عما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب، فقد قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(١).

وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلاَّ علاَّم الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً، إلاَّ إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلاَّ أن تعتقد ما علمته وشاهدته. وما لم تشاهده بعينك، ولم تسمعه بأُذنك، ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك. فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق. وقد قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾(٢).

فلا يجوز تصديق إبليس.

ولا يستباح ظن السوء إلاَّ بما يستباح به المال، وهو: نفس مشاهدة، أو بينة

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٢).

(٢) سورة الحجرات: الآية (٦).

عادلة، فإذا لم يكن كذلك، وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

وإذا خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء، ومهما عرفت هفوة مسلم فانصحه في السر، ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته، فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم، وتنظر إليه بعين الاستحقار وتترفع عليه، وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك.

وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة، فإذا أنت فعلت ذلك، كنت قد جمعت بين أجر الوعظ، وأجر الغم بمصيبته، وأجر الإعانة له على دينه.

ومن ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق بالتجسس وهو أيضاً منهي عنه، ومعنى التجسس: أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه.

الأعذار المرخصة في الغيبة:

اعلم أن المرخص في ذكر مساوىء الغير هو غرض صحيح في الشرع، لا يمكن التوصل إليه إلاَّ به، فيدفع ذلك إثم الغيبة، وهي ستة أمور:

الأول: التظلم، فإن من ذكر قاضياً بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً إن لم يكن مظلوماً، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان، وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلاَّ به، قال ﷺ: «إن لصاحب الحق مقالاً»[1]،

---

(٢) متفق عليه (خ ٢٤٠١، م ١٦٠١).

وقال ﷺ: «لَيُّ الواجد يحل عقوبته وعرضه»[1].

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى منهج الصلاح.

الثالث: الاستفتاء، كما يقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي، والأفضل أن يقول: ما قولك في رجل ظلمه أبوه، ولكن التعيين مباح.

الرابع: تحذير المسلم من الشر، فإذا رأيت فقيهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق، وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه، فلك أن تكشف له عن ذلك.

وكذلك المزكي: إذا سئل عن الشاهد، فله الطعن فيه إن علم مطعناً، وكذلك المستشار في التزويج، فإن علم أنه يترك التزويج بقوله: لا يصلح لك، فهو الواجب وفيه كفاية، وإن علم أنه لا ينزجر إلاَّ بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به.

الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش، فلا إثم على من يقول ذلك، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق، كالمخنث، وصاحب الماخور، والمجاهر بشرب الخمر، فلا يكره أن يذكر به، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك.

قال الحسن: «ثلاثة لا غيبة لهم: «صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسقه، والإمام الجائر». فهولاء يجمعهم أنهم يتظاهرون به، وربما يتفاخرون به.

كفارة الغيبة:

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب، ويتأسف على ما فعله، ليخرج به من حق الله سبحانه، ثم يستحل المغتاب ليحله، فيخرج من مظلمته، وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله.

وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح (ع).

أو مال فليستحللها منه، من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، وإنما يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته»[1].

روي عن الحسن أن رجلاً قال له: إن فلاناً قد اغتابك، فبعث إليه رطباً على طبق وقال: بلغني أنك أهديت إليَّ من حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

الآفة السادسة عشرة: النميمة

قال الله تعالى:

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[3].

قيل: الهمزة، النمام.

وقال تعالى:

﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[4].

قيل: إنها كانت نمامة.

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»[5].

واسم «النميمة» إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه،

---

(١) متفق عليه (خ ٦٥٣٤).
(٢) سورة القلم: الآية (١١).
(٣) سورة الهمزة: الآية (١).
(٤) سورة المسد: الآية (٤).
(٥) متفق عليه (خ ٦٠٥٦، م ١٠٥).

كما تقول: فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا. وليست النميمة مختصة به، بل حدها: كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث. وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال.

وحقيقة النميمة: إفشاء السر، وهتك الستر عما يكره كشفه.

وكل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره، فينبغي أن يسكت عنه، إلاَّ ما في حكايته فائدة لمسلم، أو دفع لمعصية، فإن كان ما ينم به نقصاً أو عيباً في المحكي عنه، كان قد جمع بين الغيبة والنميمة.

فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه، أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرُّج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

وكل من حملت إليه النميمة، وقيل له: إن فلاناً قال فيك كذا وكذا فعليه أمور:

الأول: أن لا يصدقه، لأن النمام فاسق، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾[1].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له.

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى.

الرابع: أن لا تظن بأخيك السوء، لقوله تعالى:

﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾[2].

الخامس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت عنه النمام، ولا تحكي نميمته فتقول: قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماماً ومغتاباً.

---

(١) سورة الحجرات: الآية (٦).

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٢).

روي أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ دخل عليه رجل، فذكر له عن رجل شيئاً، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾، وإن كنت صادقاً، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هماز مشاء بنميم﴾، وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً.

قال الحسن البصري: من نم لك نم عليك.

وروي عن علي رضي الله عنه: أن رجلاً سعى إليه برجل، فقال له: يا هذا، نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين.

وسعى رجل بزياد الأعجم[1] إلى سليمان بن عبد الملك، فجمع بينهما للموافقة، فأقبل زياد على الرجل وقال:

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً ... فخنت وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا ... بمنزلة بين الخيانة والإثم

الآفة السابعة عشرة: كلام ذي الوجهين

كلام ذي اللسانين، الذي يتردد بين المتعاديَين، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين. وذلك عين النفاق.

قال ﷺ: «تجد من شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»[2].

وقال ابن مسعود: لا يكونن أحدكم إمعة، قالوا: وما الإمعة؟ قال: الذي يجري مع كل ريح.

---

(١) زياد الأعجم، هو زياد بن سليم العبدي، أبو أمامة المعروف بالأعجم، روى عن أبي موسى وعبد الله بن عمر، شاعر مقبول، روى له أبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) متفق عليه (خ ٦٠٥٨، م ٢٥٢٦ وكتاب البر والصلة رقم ٩٨)، وقد أثبتّ لفظ البخاري.

فإن قلت: بماذا يصير الرجل ذا لسانين، وما حدّ ذلك؟

فأقول: إذا دخل على متعاديين، وجامل كل واحد منهما، وكان صادقاً فيه، لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين، فإن الواحد قد يصادق متعاديين، ولكن صداقة ضعيفة، لا تنتهي إلى حد الأخوة.

نعم، لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين، وهو شر من النميمة، إذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام.

وإذا لم ينقل كلاماً، ولكن حسَّن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه، فهذا ذو لسانين، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما أن ينصره..

وينبغي أن يسكت، أو يثني على المحق من المتعاديين، ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه.

قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنّا ندخل على أمرائنا، فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيره. فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ.

أما من ابتلي بذي شر فراعاه اتقاء شره فجائز.

قالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو»، ثم لما دخل ألان له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله، قلت فيه ما قلت، ثم ألنت له القول، فقال: «يا عائشة، إن شر الناس يكرم اتقاء شره»(١).

لكن هذا ورد في الإقبال والتبسم، فأما الثناء فهو كذب صراح، ولا يجوز إلاَّ لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله، بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كلام باطل. بل ينبغي أن ينكر، فإذا لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٥٤، م ٢٥٩١).

الآفة الثامنة عشرة: المدح

وهـو منهي عنه في بعض المـواضع. والمـدح يدخله ست آفـات: أربـع في المادح، واثنتان في الممدوح.

فأما المادح:

فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي إلى الكذب.

الثانية: أنه قد يدخله الرياء، فإنه بالمدح مظهر للحب.

الثالثة: أنه قد يقـول ما لا يتحققـه، ولا سبيل إلى الاطـلاع عليه. فقـد مدح رجـل رجـلاً عنـد النبـي ﷺ فقـال: «ويحـك قـطعت عنق صـاحبـك، لـو سمعهـا ما أفلح»، ثم قال: «إن كان أحدكم لا بد مادحاً أخاه فليقل: أحسب فلاناً ولا أزكي على الله أحداً، حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك»[1].

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح، وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز.

وأما الممدوح، فيضره من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان.

الثاني: أنه إذا أثني عليه بالخير، فرح به وفتر ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسـه قلَّ تشمـره، وإنما يتشمـر للعمل من يـرى نفسه مقصـراً. فأمـا إذا انـطلقت الألسن بـالثناء عليـه ظنَّ أنه قـد أدرك، ولهـذا قـال ﷺ: «قـطعت عنق صـاحبـك، لو سمعها ما أفلح».

ومدح الرجل نفسه قبيح، لما فيه من الكبر والتفاخر، ولذا قال ﷺ: «أنـا سيد ولـد آدم ولا فخر»[2]، أي لست أقـول هذا تفـاخراً كمـا يقصد النـاس بالثنـاء على أنفسهم.

---

(١) متفق عليه (خ ٢٦٦٢، م ٣٠٠٠) بغير «لو سمعها مـا أفلح» وبهذا اللفظ أورده المصنف عن ابن أبـي الدنيا. كما قال العراقي.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم، وقال صحيح الإسناد، وعند مسلم: «أنا سيـد ولد آدم يوم القيامة» (ع).

وعلى الممدوح: أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب، وآفة الفتور، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح، ولو انكشف له جميع أسراره، وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه، وعليه أن يظهر كراهة المدح، قال ﷺ: «احثوا التراب في وجوه المادحين»[1].

قال علي رضي الله عنه لما أثني عليه: (اللَّهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون).

الآفة التاسعة عشرة: الغفلة عن دقائق لفظية

من آفات اللسان: الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، ويرتبط بأمور الدين.

فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلَّا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله.

مثاله: ما قال حذيفة، قال النبي: «لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت»[2].

وخطب رجل عند رسول الله ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال: «قل: ومن يعصِ الله ورسوله فقد غوى»[3] فكره ﷺ قوله: ومن يعصهما، لأنه تسوية وجمع.

وكره بعضهم أن يقال: اللَّهم أعتقنا من النار، وكان يقول: العتق يكون بعد الورود؛ وكانوا يستجيرون من النار، ويتعوذون من النار.

وعن ابن عباس: إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه، فيقول: لولاه لسرقنا الليلة.

وقال ﷺ: «لا يقولن أحدكم عبدي ولا أمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٠٠٢).
(٢) أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح (ع).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٨٧٠).

إماء الله، وليقل: غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي، ولا يقولن المملوك: ربي ولا ربتي، وليقل سيدي وسيدتي، فكلكم عبيد الله، والرب الله سبحانه وتعالى»[1].

الآفة العشرون: خوض العوام في دقائق العلم

سؤال العوام عن صفات الله تعالى، وعن كلامه، وعن الحروف أنها قديمة أو محدثة، ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن، إلَّا أن ذلك ثقيل على النفوس، والفضول خفيف على القلب والعامي يفرح بالخوض في العلم.

وكل كبيرة يرتكبها العامي، فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات، والإيمان بما ورد في القرآن، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث.

وكل من سأل عن علم غامض، ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم، فإنه بالإضافة إليه عامي، قال ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»[2].

وفي الحديث: «نهى ﷺ عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال»[3].

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات، وهو من مثيرات الفتن.

* * *

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، فإن سكت سلم من الكل. وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلَّا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير، وورع حافظ، ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك. فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم، فكن ممن سكت فسلم، فالسلامة إحدى الغنيمتين.

* * *

(١) متفق عليه (خ ٢٥٥٢، م ٢٢٤٩).
(٢) متفق عليه (خ ٧٢٨٨، م ١٣٣٧).
(٣) متفق عليه (خ ٦٤٧٣، م ١٧١٥).

الكِتَابُ الخَامِسُ

ذَمُّ الغَضَبِ وَالحِقْدِ وَالحَسَدِ

رُبْعُ المُهْلِكَاتِ

الفصل الأول

في الغضب

ذم الغضب:

قال الله تعالى:

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة.

وروى أبو هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله مرني بعمل وأقلل، قال: «لا تغضب» ثم أعاد عليه، قال: «لا تغضب»[2].

وعن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «ما تعدون الصرعة فيكم؟» قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: «ليس ذلك، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»[3].

وقال ابن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه.

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦١١٦).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠٨)، ولهما: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»، (خ ٦١١٤، م ٢٦٠٩).

حقيقـة الغضـب:

خلق الله طبيعة الغضب من النار، وغرزها في الإنسان، وعجنها بطينته، فإذا صدَّ عن غرض من أغراضه، ومقصود من مقاصده، اشتعلت نار الغضب، وثارت ثوراناً يغلي به دم القلب، وينتشر في العروق، ويرتفع إلى أعالي البدن، فلذلك ينصب إلى الوجه، فيحمرّ الوجه والعين. والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم.

وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه، فإن صدر الغضب على من فوقه، وكان معه يأس من الانتقام، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب، وصار حزناً، ولذلك يصفرُّ اللون. وإن كان الغضب على نظير، تردد الدم بين انقباض وانبساط، فيحمرُّ ويصفرُّ ويضطرب.

وبالجملة، فقوة الغضب محلها القلب، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها. والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها، ولا تسكن إلاّ به.

[درجات الناس في قوة الغضب]:

إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث ــ في أول الفطرة ــ من: التفريط والإفراط والاعتدال.

أما التفريط: فيكون بفقد هذه القوة أو ضعفها، وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه: إنه لا حمية له.

ولذلك قال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار.

فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً، فهو ناقص جداً. وقد وصف الله سبحانه الصحابة بالشدة والحمية فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

(١) سورة الفتح: الآية (٢٩).

وقال لنبيه ﷺ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[1]، وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب.

وأما الإفراط: فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر.

وإذا اشتدت نار الغضب، وقوي اضطرامها، أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة، فإذا وعظ لم يسمع، بل زاده ذلك غضباً.

ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام، واضطراب الحركة والكلام، حتى يظهر الزبد على الأشداق، وتحمر الأحداق. . ، ولو رأى الغضبان ــ في حالة الغضب ــ قبح صورته، لسكن غضبه حياءً من قبح صورته واستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن.

وأما أثره في اللسان: فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام، الذي يستحيي منه ذو العقل، ويستحيي منه قائله عند فتور الغضب.

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه، فالحقد والحسد، وإضمار السوء والشماتة بالمساءات، والحزن بالسرور، والعزم على إفشاء السر. . فهذه ثمرة الغضب المفرط.

وأما ثمرة الحمية الضعيفة، فقلة الأنفة مما يؤنف منه، من التعرض للحرم والزوجة، واحتمال الذل. . وهو مذموم، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحُرَم، وهو خنوثة. قال ﷺ: «إن سعداً لغيور، وأنا أغير من سعد، وإن الله أغير مني»[2].

---

(١) سورة التوبة: الآية (٧٣).

(٢) متفق عليه (خ ٧٤١٦، م ١٤٩٩).

ومن ضعف الغضب، الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات، ففقد الغضب مذموم.

وإنما المحمود، غضب ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفىء حيث يحسن الحلم. وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده.

تعديل الغضب بالرياضة:

ليست الرياضة لينعدم غيظ القلب، ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب، ولا يستعمله إلَّا على حد يستحبه الشرع، ويستحسنه العقل، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً، فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع، وهو غير ممكن.

نعم، يمكن كسر سورته، وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن. وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه، ولكن ذلك شديد جداً.

ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله ﷺ، فإنه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه[1]، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا، فقال: «اكتب، فوالذي بعثني بالحق نبياً ما يخرج منه إلَّا حق»، وأشار إلى لسانه[2].

فلم يقل: إني لا أغضب، ولكن قال: إن الغضب لا يخرجني عن الحق. أي لا أعمل بموجب الغضب.

فمن مال غضبه إلى الفتور، حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة، فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط، حتى جره إلى التهور

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢/١٧٢٢).
(٢) أخرجه أبو داود (ع).

واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه، لينقص من سورة الغضب، ويقف على الوسط الحق.

الأسباب المهيجة للغضب:

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها، وإزالة أسبابها، فلا بد من معرفة أسباب الغضب.

والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو والعجب، والمزاح والهزل، والهزء والتعيير، والمماراة والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها.

فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك، وتزيل الفخر بأنك من جنس الناس. وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية، وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة، وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك.. وأما شدة الحرص فتُزال بالقناعة.

وكل خلق من هذه الأخلاق، وصفة من هذه الصفات، يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها، لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها. ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة، حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس.. فإذا انمحت عن النفس، فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل، وتخلصت أيضاً عن الغضب الذي يتولد منها.

ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية، وعزة نفس وكبر همة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة، غباوة وجهلاً حتى تميل النفس إليه وتستحسنه. وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل، بل هو مرض قلب ونقصان عقل.

علاج الغضب عند هيجانه :

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب، وقطع لأسبابه حتى لا يهيج ، فإذا جرى سبب هيجه، فعندها يعالج بمعجون العلم والعمل.

أما العلم، فهو خمسة أمور:

الأول: أن يتفكر في الأخبار ــ التي سنوردها ــ في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال، فيرغب في ثوابه.. وينطفىء عنه غيظه.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله تعالى. وهو أن يقول: قدرة الله عليَّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه عليَّ يوم القيامة، أحوج ما أكون إلى العفو.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام.. وهو لا يخلو عن المصائب.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد أن يكون من قول الشيطان.

وأما العمل: فأن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن لم يزل بذلك، فاجلس إن كنت قائماً، واضطجع إن كنت جالساً.

فضيلة كظم الغيظ :

قال الله تعالى:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: الآية (١٣٣ ــ ١٣٤).

فذكر ﴿الكاظمين الغيظ﴾ في معرض المدح.

قال عمر رضي الله عنه: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

وقال رجل لعمر رضي الله عنه: والله ما تقضي بالعدل، ولا تعطي الجزل، فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١).

فهذا من الجاهلين، فقال عمر: صدقت. فكأنما كانت ناراً فأطفئت.

فضيلة الحلم:

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم، أي تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلّا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، لكن إذا تعود ذلك مدة، صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداءه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً.

وعن الحسن البصري في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾(٢).

قال: حلماء، إن جهل عليهم لم يجهلوا.

وقال مجاهد:

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٩٩).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٦٣).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٧٢).

أي: إذا أوذوا صفحوا.

وقال ﷺ: «ليلني منكم ذوو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وإياكم وهيشات الأسواق(١)»(٢).

وقال ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة»(٣).

وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم.

وقال علي رضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(٤).

هو الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذباً فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي.

وقال لقمان: ثلاثة لا يعرفون إلاَّ عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلاَّ عند الغضب، ولا الشجاع إلاَّ عند الحرب، ولا الأخ إلاَّ عند الحاجة.

وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه، فلم يغضب، فقيل له في ذلك، فقال: أقمته مقام حجر تعثرت به.

---

(١) أي اختلاطها، والمنازعة، وارتفاع الأصوات.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٣٢).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٧).
(٤) سورة فصلت: الآية (٣٤).

ما يجوز به الانتصار من الكلام:

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله. فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا السب بالسب، وكذلك سائر المعاصي، وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به.

قال قوم: تجوز المقابلة بما لا كذب فيه.

والذي يرخص فيه، أن تقول: من أنت؟ وهل أنت إلاَّ من بني فلان؟ ومثل قوله: يا أحمق، فكل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلاَّ أن بعض الناس أقل حماقة من بعض.

قال ابن عمر: حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى.

وكذلك قوله: يا جاهل، إذ ما من أحد إلاَّ وفيه جهل. فقد آذاه بما ليس بكذب.

فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق. فقد روي أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام، فذكر رجل خالداً عند سعد، فقال سعد: مه! إن ما بيننا لم يبلغ ديننا. يعني: أن يأثم بعضنا في بعض، فلم يسمع السوء، فكيف يجوز له أن يقوله؟

والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام، كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب قوله ﷺ: «المستبان ما قالا[1] فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم»[2]، فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدي. فهذا القدر هو المباح، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق.

ولكن الأفضل تركه، فإنه يجره إلى ما وراءه، ولا يمكنه الاقتصار على قدر

---

(١) أي: إن إثم السباب مختص بالبادىء منهما، إلاَّ أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار، فيقول له أكثر مما قاله له.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٧).

الحق فيه. والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب. والوقوف على حدّ الشرع فيه.

[غضب الحاكم]:

ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحداً في حال غضبه، لأنه ربما يتعدى الواجب، ولأنه ربما يكون متغيظاً عليه، فيكون متشفياً لغيظه ومريحاً نفسه من ألم الغيظ، فيكون صاحَبَه حظ نفسه، فينبغي أن يكون انتقامه لله تعالى لا لنفسه.

قال عمر بن عبد العزيز ــ رحمه الله ــ لرجل أغضبه: لولا أنك أغضبتني لعاقبتك.

*
**

الفَصل الثاني

في الحقد والعفو

معنى الحقد وآثاره:

اعلم أن الغضب إذا لـزم كـظمـه لعجـز عن التشفي في الحـال رجـع إلى الباطن، واحتقن فيه فصار حقداً. ومعنى الحقد: أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى.

والحقد يثمر ثمانية أمور:

الأول: الحسـد، وهو أن يحملك الحقـد على أن تتمنى زوال النعمـة عنـه، فتغتم بنعمة إن أصابها، وتسرّ بمصيبة إن نزلت به، وهذا من فعل المنافقين.

الثاني: أن تزيد على إضمار الحسد، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تهجره وتنقطع عنه، وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع: وهو دونه: أن تعرض عنه استصغاراً له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل، من كذب وغيبة وإفشاء سرٍّ وغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

السابع: إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أورد مظلمة.

وكل ذلك حرام.

وأقـل درجات الحقـد: أن تحترز من الآفـات الثمانيـة المذكـورة، ولا تخرج بسبب الحقـد إلى ما تعصي الله بـه. ولكن تستثقله في الباطن، ولا تنهى قلبـك عن بغضه. فهذا مما يحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل، وإن كان لا يعرضـك لعقاب الله تعالى.

لما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح ـ وكان قريبه ـ لكونه تكلم في واقعة الإفك. نزل قوله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

فقال أبو بكر: نعم نحب ذلك وعاد إلى الإنفاق عليه(٢).

والأولى أن يبقى على ما كان عليه، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان، مجاهدة للنفس، وإرغاماً للشيطان فذلك مقام الصديقين. فللمحقود(٣) ثلاثة أحوال عند القدرة:

أحدها: أن يستوفي حقه من غير زيادة أو نقصان. وهو العدل ومنتهى درجات الصالحين.

الثاني: أن يحسن إليه بالعفو والصلة، وذلك هو الفضل. وهو اختيار الصديقين.

الثالث: أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل.

فضيلة العفو والإحسان:

اعلم أن معنى العفو: أن يستحق حقاً، فيسقطه عنه من غرامة أو قصاص، وهو غير الحلم وكظم الغيظ، فلذلك أفردناه.

قال تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة النور: الآية (٢٢).
(٢) متفق عليه (خ ٢٦٦١، م ٢٧٧٠).
(٣) المحقود: الذي أصابه الحقد.
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٩٩).

وقال تعالى:

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث والذي نفسي بيده، لو كنت حالفاً لحلفت عليهن: ما نقص مال من صدقة فتصدقوا، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزّاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»[2].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم تنتهك محارم الله. . »[3].

وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاماً فابتاع، ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته، فوجدها قد حلت، فقال: لقد جلست وإنها لمعي، فجعلوا يدعون على من أخذها، ويقولون: اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها، اللهم افعل به كذا، فقال عبد الله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها، وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه.

فضيلة الرفق:

اعلم أن الرفق محمود، ويضاده العنف والحدة، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة، وقد يكون سبب الحدة الغضب، وقد يكون سببها شدة الحرص، فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (ش).
أقول: وروى مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٥٨٨) قوله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

(٣) أخرجه الترمذي، وهو عند مسلم بلفظ آخر.

ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة، وحفظهما على حد الاعتدال. قال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»[1] وقال ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر على بعير صعب، فجعلت تصرفه يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، عليك بالرفق، فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[3].

ولما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل، كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف، وإن كان العنف في محله حسناً، كما أن الرفق في محله حسن.

عن أبي عون الأنصاري[4] قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة، إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها.

وقال أبو حمزة الكوفي[5]: لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه، فإن مع كل إنسان شيطاناً، واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه.

***

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٣).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٢).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٤).
(٤) أبو عون الأنصاري: اسمه عبد الله بن أبي عبد الله، الشامي، روى له النسائي (ش).
(٥) أبو حمزة الكوفي: اسمه سيار، روى له البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والترمذي وابن ماجه (ش).

الفصل الثالث

الحسد ومعالجته

ذم الحسد:

إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى، وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة، قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»(١).

وفي قصة عبد الله بن عمرو بن العاص مع الرجل الذي قال في حقه ﷺ: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» وأنه بات عنده ليعرف عمله. . فكاد يحتقر عمله ثم سأله عن عمله فقال الرجل: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فقلت له: هي التي بلغت بك(٢).

قال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه.

وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده.

حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه:

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة، وللحسد حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسداً، فالحسد حدّه: كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٦٦، م ٢٥٦٣).

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين (ع).

الثانية: أن لا تحب زوالها، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذه تسمى غبطة، وقد تختص باسم المنافسة.

فأما الأول: فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر، وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد. ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته.

ويدلك على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة. وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضره؟

قال تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[1].

فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد.

وقال تعالى في معرض الإنكار:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2].

[حسد الغبطة]:

وأما المنافسة: فليست بحرام، بل هي إما واجبة، وإما مندوبة، وإما مباحة. والمنافسة في اللغة من: النفاسة.

والذي يدل على إباحتها قوله تعالى:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٠٩).

(٢) سورة النساء: الآية (٥٤).

(٣) سورة المطففين: الآية (٢٦).

وقال تعالى:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾(١).

وإنما المسابقة عند خوف الفوت.

وقد صرح رسول الله ﷺ بذلك فقال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله تعالى علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس»(٢).

ثم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة، كالإيمان والصلاة.. فهذه المنافسة واجبة، وهو أن يحب أن يكون مثله، لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام.

وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في الفضائل والمكارم والصدقات، فالمنافسة فيها مندوب إليها.

وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح، فالمنافسة فيها مباحة.

ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات. نعم، ذلك ينقص من الفضائل، ويناقض الزهد والتوكل والرضا، ويحجب عن المقامات الرفيعة، ولكنه لا يوجب العصيان.

أسباب الحسد:

الحسد المذموم مداخله كثيرة جداً، ولكن يحصر جملتها سبعة أسباب:

الأول: العداوة والبغضاء، وهذا أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب، أبغضه قلبه وحقد عليه، والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه، أحب أن يتشفى منه الزمان، فمهما أصابت

(١) سورة الحديد: الآية (٢١).

(٢) متفق عليه (خ ٧٥٢٩، م ٨١٦).

عدوه بلية فرح بها، وظنها مكافأة له من جهة الله تعالى على بغضه، وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك، لأنه ضد مراده. فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما.

الثاني: التعزز، وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره، وليس من غرضه أن يتكبر، بل غرضه أن يدفع كبره، فإنه قد رضي بمساواته مثلاً، ولكن لا يرضى بالترفع عليه.

الثالث: الكبر، وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره، ويترفع عن متابعته، أو ربما يتشوف إلى مساواته، أو إلى أن يترفع عليه.

ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ فقالوا:

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1].

أي: كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان عظيماً.

الرابع: التعجب، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السابقة إذ قالوا:

﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[2].

﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾[3].

فتعجبوا أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم.

الخامس: الخوف من فوت المقاصد، وذلك يختص بمتزاحمين في مقصود واحد، فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده.

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٣١).

(٢) سورة يس: الآية (١٥).

(٣) سورة المؤمنون: الآية (٤٧).

ومن هذا الجنس: تحاسد الضرات، وتحاسد الأخوة على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل إلى الكرامة والمال، وتحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم..

السادس: حب الرياسة، وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود، وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون.. فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك وأحب زوال النعمة عنه.

وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس.

السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر، ولا طلب مال، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى، فيما أنعم الله به عليه، يشق ذلك عليه. وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وفوات مقاصدهم، وتنغص عيشهم، فرح به، فهو دائماً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه.

فهذا يبخل بنعمة الله على عباده، الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس، ورذالة في الطبع.

ومعالجته شديدة، لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب، أسبابه عارضة، يتصور زوالها فيطمع في إزالتها. وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض، فتعسر إزالته، إذ يستحيل في العادة إزالته.

سبب الحسد بين الأقران والأقارب:

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها. وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر، وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات، ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه عنه، وأبغضه وثبت الحقد في قلبه.

وحيث لا رابطة بين شخصين في بلدتين متنائيتين، فلا يكون بينهما محاسدة، وكذلك في محلتين.

وإذا تجاوروا في مسكن أو سوق أو مدرسة تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما، فيثور التنافر والتباغض، ومنه تثور بقية أسباب الحسد.

لذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضرتها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته... لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف، فلا يتزاحمون على المقاصد.

فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين، فلذلك كثر الحسد بينهما.

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين.

وإنما مثال الآخرة نعمة العلم، فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم، ويفرح بمعرفته ويلتذ به، ولا تنقص لذة واحدة بسبب غيره. بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس، وثمرة الاستفادة والإفادة. فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى.

فعليك إن كنت بصيراً، وعلى نفسك مشفقاً، أن تطلب نعمة لا زحمة فيها، ولذة لا كدر لها، ولا يوجد ذلك في الدنيا، إلا في معرفة الله عزَّ وجلّ ومعرفة صفاته وأفعاله، ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً.

الدواء الذي ينفي مرض الحسد:

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل.

والعلم النافع لمرض الحسد، هو أن تعرف تحقيقاً، أن الحسد ضرر عليك

في الدنيا والدين. وأنه لا ضرر فيه على المحسـود في الدنيـا والدين، بـل ينتفع بـه فيهمـا. ومهما عـرفت هذا عن بصيـرة، ولـم تكن عـدو نفسـك، وصـديق عـدوك، فارقت الحسد لا محالة.

أما كونه ضرراً عليك في الدين، فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعـالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الـذي أقامـه في ملكه بخفي حكمتـه، فـاستنكرت ذلـك واستبشعته، وهـذه جنايـة على حدقـة التـوحيـد، وقـذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين.

وقد انضاف إلى ذلك أنك شاركت إبليس وسائـر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا، وزوال النعم، وهذه خبائث في القلب تأكل الحسنات، وتمحوها كما يمحو الليل النهار.

وأمـا كونـه ضرراً عليـك في الدنيـا، فهـو أنـك تتـألم بحسـدك في الـدنيـا، أو تتعـذب بـه، ولا تـزال في كمـد وغم، إذ أعـداؤك لا يخليهم الله تعـالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتـألم بكل بليـة تنصرف عنهم، فتبقى مغمـوماً محـروماً، متشعب القلب، ضيق الصـدر، قـد نـزل بـك مـا يشتهيـه الأعداء لك، وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك، فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقداً. ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك.

ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب، لكان مقتضى الفطنة ــ إن كنت عاقلاً ــ أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب ومساءته مـع عدم النفـع. فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخـرة؟ فما أعجب من العـاقل، كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله، بل مع ضـرر يهلك دينه ودنيـاه من غير فائدة.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينـه ودنياه فـواضح، لأن النعمـة لا تزول عنه بحسدك، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة، فلا حيلة في دفعه، فكل شيء عنده بمقدار.

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح:

أما منفعته في الدين، فهو أنه مظلوم من جهتك، لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل، بالغيبة والقدح فيه، وذكر مساويه، فهذه هدايا تهديها إليه، أعني أنك بذلك تهدي إليه حسناتك.

وأما منفعته في الدنيا، فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم، وشقاوتهم وكونهم معذبين، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد. وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة، وأن تكون في غم وحسرة بسببهم، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم.

فهذه هي الأدوية العلمية، فإذا تفكر الإنسان فيها بذهن صاف، وقلب حاضر، انطفأت نار الحسد من قلبه، وعلم أنه مهلك نفسه، ومفرح عدوه، ومسخط ربه.

وأما العمل النافع فيه: فهو أن يحكم نفسه، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه.

فإن حمله الحسد على القدح في محسوده، كلف لسانه المدح له والثناء عليه.

وإن حمله على التكبر عليه، ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه.

وإن بعثه على كف الإنعام عليه، ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه...

فهذه أدوية الحسد، وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب، ولكن النفع في الدواء المر، فمن لم يصبر على مرارة الدواء، لم ينل حلاوة الشفاء.

وأما الدواء المفصل، فهو تتبع أسباب الحسد، من الكبر وغيره.. وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها، إن شاء الله تعالى.

***

الكِتَابُ ٱلسَّادِسُ

ذَمُّ ٱلدُّنْيَا

رُبْعُ المُهْلِكَات

ذم الدنيا:

الآيات الواردة في ذم الدنيا كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا، وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها[1].

وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها:

فقد روي أن رسول الله ﷺ مرَّ على شاة ميتة، فقال: «أترون هذه الشاة هينة على أهلها؟» قالوا: من هوانها ألقوها، قال: «والذي نفسي بيده، للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[2].

وقال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[3].

وقال ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلاَّ ما كان لله منها»[4].

---

(١) من هذه الآيات: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ [سورة آل عمران: الآية (١٤)].
ومنها ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [سورة آل عمران: الآية (١٨٥)].
ومنها ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب وزينة﴾ [سورة الحديد: الآية (٢٠)].

(٢) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده، وآخره عند الترمذي، وقال: حسن صحيح، ولمسلم نحوه من حديث جابر، وقد أخرجه برقم (٢٩٥٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٦).

(٤) أخرجه الترمذي وحسنه (ع) قلت: سياق المصنف أخرجه أبو نعيم في الحلية والضياء في المختارة من حديث جابر. وإسناده حسن (ش).

وقال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»[1].

وقال ﷺ: «ألهاكم التكاثر»، قال: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلَّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت»[2].

وقال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له»[3].

وبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح، فجاء بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلّى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟» فقالوا: أجل، يا رسول الله، قال: «فأبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[4].

وقال ﷺ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض»، فقيل: ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا»[5].

وقال أنس: كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي بناقة له فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، فقال ﷺ: «إنه حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلَّا وضعه»[6].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٤٢).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٨) بلفظ: «أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: يقول ابن آدم..».
(٣) رواه الإمام أحمد (ع) قلت: ورجاله رجال الصحيح غير ذويد وهو ثقة (ش).
(٤) متفق عليه (خ ٣١٥٨، م ٢٩٦١).
(٥) متفق عليه (خ ٦٤٢٧، م ١٠٥٢).
(٦) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠١).

وقال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»[1].



قال الفضيل رحمه الله: طالت فكرتي في هذه الآية:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[2].

وقال أيضاً: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى؟!

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما أصبح أحد من الناس إلاَّ وهو ضيف، وماله عاريَّة، فالضيف مرتحل والعارية مردودة.

وزار قوم رابعة، فذكروا الدنيا، فأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وقال الحسن: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدُّوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافاً.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر، فالمؤمن يتزوَّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

وقال رجل لعلي كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا، قال: وما أصف لك من دار من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، ومتشابهها العتاب.

(١) متفق عليه (خ ١٠٤٤، م ٩٠١).
(٢) سورة الكهف: الآيتان (٧ ــ ٨).

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه.

* * *

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال: يا أيها الناس، إنكم خلقتم لأمر، إن كنتم تصدقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى، إنما خلقتم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون، عباد الله إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص، ومن شرابكم شرق، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها، إلاّ بفراق أخرى تكرهون فراقها، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه، وخالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل.

* * *

وقال ﷺ: «ما لي وللدنيا، وإنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكبٍ سار في يومٍ صائف، فرفعت له شجرة[١] فقال[٢] تحت ظلها ساعة، ثم راح وتركها»[٣].

ورأى ﷺ بعض الصحابة يبني بيتاً من جص فقال: «أرى الأمر أعجل من هذا»[٤].

قال عيسى عليه السلام: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً، ازداد عطشاً حتى يقتله.

بيان الدنيا المذمومة:

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك، ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي؟ وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب؟ فنقول:

---

(١) أي ظهرت له.

(٢) من القيلولة، وهي النوم وسط النهار.

(٣) أخرجه الترمذي والحاكم من حديث ابن مسعود، وأحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس (ع) قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة (ش).

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح (ع).

دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك، فالقريب الداني منها يسمّى دنيا، وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمّى آخرة، وهو ما بعد الموت.

فكل ما لك فيه حظ ونصيب، وغرض وشهوة ولذة، عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك، إلاَّ أن جميع ما تميل إليه، وفيه نصيب وحظ، فليس بمذموم، بل هو ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يصحبك في الآخرة، وتبقى معك ثمرته بعد الموت، وهو شيئان: العلم والعمل فقط.

وأعني بالعلم: العلم بالله وصفاته وأفعاله، وملائكته وكتبه ورسله، والعلم بشريعة نبيه ﷺ.

وأعني بالعمل: العبادة الخالصة لوجه الله تعالى.

وقد يأنس العالم بالعلم، والعابد بالعبادة، ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلاً، بل قلنا إنه من الآخرة. وقد قال ﷺ: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب، وقرة عيني في الصلاة»[1] فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا. إلا أنا في هذا الكتاب لسنا نتعرض إلا للدنيا المذمومة، فنقول: هذه ليست من الدنيا.

القسم الثاني: وهو المقابل له، على الطرف الأقصى، كل ما فيه حظ عاجل، ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً، كالتلذذ بالمعاصي كلها، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات، الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة.. فحظ العبد من هذا كله، هي الدنيا المذمومة.

القسم الثالث: وهو متوسط بين الطرفين، فكل حظ في العاجل، معين على أعمال الآخرة، كقدر القوت من الطعام، والقميص الواحد الخشن، وكل ما لا بد

---

(١) أخرجه النسائي والحاكم دون قوله: «ثلاث» (ع).

منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة، التي بها يتوصل إلى العلم والعمل، فهذا ليس من الدنيا، كالقسم الأول، لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه. فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل، لم يكن به متناولاً للدنيا، ولم يصر به من أبناء الدنيا.

وإن كان باعثه الحظ العاجل، دون الاستعانة على التقوى، التحق بالقسم الثاني، وصار من جملة الدنيا.

إن القدر الذي لا بد منه من القوت والملبس والمسكن، إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة، لم يكن من أبناء الدنيا، وكانت الدنيا في حقه مزرعة الآخرة. وإن أخذ ذلك لحظ النفس، وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها، إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم:

ـ إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة، ويسمى ذلك: حراماً.

ـ وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا، ويعرضه لطول الحساب، ويسمى ذلك: حلالاً.

فقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا.

فإن قلت: فما الذي لله؟

فأقول: الأشياء ثلاثة أقسام:

منها: ما لا يتصور أن يكون لله، وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمحظورات، وأنواع التنعمات في المباحات[1]، وهي الدنيا المحضة المذمومة، فهي الدنيا صورة ومعنى.

ومنها: ما صورته لله، ويمكن أن يجعل لغير الله، وهو: الفكر، والذكر،

---

(١) إذ المباحات لا يتقرب بها إلى الله تعالى، بل هي تبعد عن ساحات رحمته، فليس لها تعلق بالآخرة أصلاً (ش).

والكف عن الشهوات، فإن هذه الثلاثة، إذا جرت سراً، ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر، فهي لله وليست من الدنيا، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وإظهار المعرفة، أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو صحة البدن، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى، وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى.

ومنها: ما صورته لحفظ النفس، ويمكن أن يكون معناه لله، وذلك كالأكل والنكاح، فإن كان القصد حفظ النفس فهو من الدنيا، وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى، فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا.

فإذن: الدنيا حظ نفسك العاجل، الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة، ويعبر عنه بالهوى، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1].

ومجامع الهوى خمسة أمور، وهي ما جمعه الله تعالى في قوله:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[2].

فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا، وقدر ضرورة القوت، وما لا بد منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله. والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله.

حقيقة الدنيا في نفسها:

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، وللإنسان فيها حظ، وله في إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور، قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها، وليس كذلك.

---

(١) سورة النازعات: الآيتان (٤٠ ــ ٤١).
(٢) سورة الحديد: الآية (٢٠).

أما الأعيان الموجودة ـ التي الدنيا عبارة عنها ـ فهي: الأرض وما عليها. قال الله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

فالأرض فراش للآدميين، ومهاد ومسكن ومستقر، وما عليها: ملبس لهم، ومطعم ومشرب ومنكح.

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن والنبات والحيوان.

أما النبات: فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي.

وأما المعادن: فيطلبها للآلات والأواني: كالنحاس والرصاص، وللنقد: كالذهب والفضة، ولغير ذلك من المقاصد.

وأما الحيوان: فينقسم إلى الإنسان وإلى البهائم:

ـ أما البهائم: فيطلب منها لحومها للمآكل، وظهورها للمركب والزينة.

ـ وأما الإنسان: فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم.. ويطلب قلوب الناس ليملكها، بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام، وهو الذي يعبر عنه بالجاه، إذ معنى الجاه: ملك قلوب الآدميين.

فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا. وقد جمعها الله تعالى في قوله:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾، فهذا من الإنس.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾، وهذا من الجواهر والمعادن، وفيه تنبيه على غيرها من اللآلىء واليواقيت وغيرها.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وهي البهائم والحيوانات.

﴿وَٱلْحَرْثِ﴾[3]، وهو النبات والزرع.

فهذه هي أعيان الدنيا.

(١) سورة الكهف: الآية (٢).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤).

[علاقة الإنسان بالدنيا]:

للإنسان في الدنيا حظ، وله في إصلاحها شغل، فهما علاقتان:

الأولى: علاقة مع القلب، وهو حبه لها، وحظه منها، وانصراف همه إليها، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا: كالكبر والغل والحسد، والرياء والسمعة، وحب الثناء، وحب التكاثر والتفاخر. وهذه هي الدنيا الباطنة، وأما الظاهرة: فهي الأعيان التي ذكرناها.

العلاقة الثانية: مع البدن، وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان، لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره. وهي جملة الصناعات والحرف التي شغل بها الخلق.

والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين: علاقة القلب بالحب، وعلاقة البدن بالشغل.

ولو عرف الإنسان نفسه، وعرف ربه، وعرف حكمة الدنيا وسرها، علم أن هذه الأعيان ـ التي سميناها الدنيا ـ لم تخلق إلا لبقاء البدن، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن.

ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا، وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها.

كيف استغرقت أشغال الدنيا هم الخلق؟

ونحن سنذكر تفاصيل أشغال الدنيا، وكيفية حدوث الحاجة إليها، وكيف غلط الناس في مقاصدها.

سبب كثرة الأشغال هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث: القوت، والملبس، والمسكن. فالقوت: للغذاء والبقاء، والملبس، لدفع الحر والبرد، والمسكن: لدفع الحر والبرد، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال.

ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس، مصْلَحاً، بحيث يستغنى عن صنعة

الإنسان فيه، فحدثت الحاجة إلى خمس صناعات، هي أصول الصناعات، وأوائل الأشغال الدنيوية وهي: الفلاحة، والرعاية، والاقتناص، والحياكة، والبناء.

ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات، كالحياكة والبناء والاقتناص، والآلات إنما تؤخذ: إما من النبات، وهو الأخشاب، أو من المعادن كالحديد والرصاص، أو من جلود الحيوانات.. فحدث الحاجة إلى ثلاث صناعات أخرى هي: النجارة، والحدادة، والخز، وهؤلاء هم عمال الآلات. فهذه أمهات الصناعات.

* * *

ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده، بل هو يضطر إلى الاجتماع مع غيره، من أبناء جنسه، وذلك لسببين:

أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما.

والثاني: التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس، ولتربية الولد.

ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل والولد في المنزل، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك، ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة.. فافتقروا إلى التناصر والتعاون، فحدثت البلاد لهذه الضرورة.

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا، تولدت بينهم خصومات.. فالمرأة تخاصم الزوج، والولد يخاصم الأبوين، هذا في المنزل.. وأهل البلد يتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها.. فحدثت بالضرورة صناعات أخرى: منها صناعة المساحة، التي تعرف بها مقادير الأرض لتمكن القسمة بينهم بالعدل، ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم، ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة، ومنها الحاجة إلى الفقه، وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق، ويلزموا الوقوف عند حدوده.

فهذه أمور سياسية لا بد منها، ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة، من العلم والتمييز والهداية، وإذا اشتغلوا بها، لم يتفرغوا لصناعة

أخرى، ويحتاجون إلى المعاش، ويحتاج أهل البلد إليهم، فمست الحاجة إلى أن يمدهم أهل البلد بأموالهم. . فتحدث الحاجة إلى الخراج.

ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج، الحاجة إلى صناعات أخر، إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال، وإلى من يستوفي منهم بالرفق: وهم الجباة، وإلى من يجمع عنده. . وهم الخزان. .

وهذه الأعمال لو تولاها عدد لا تجمعهم رابطة انخرم النظام، فحدثت الحاجة إلى ملك يدبرهم، وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصاً. .

وهكذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف:

- الفلاحون والرعاة والمحترفون.
- الجندية الحماة بالسيوف.
- المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء، وهم: العمال والجباة وأمثالهم.

* * *

فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والمسكن، وإلى ماذا انتهى.

وهكذا أمور الدنيا، لا يفتح منها باب، إلا وينفتح بسببه أبواب أخر، وهكذا تتناهى إلى غير حد محصور، كأنها هاوية لا نهاية لعمقها، من وقع في مهواة منها، سقط منها إلى أخرى، وهكذا على التوالي.

* * *

فهذه هي الحرف والصناعات، إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات. فالفلاح يحتاج أن يبذل ما عنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه، وذلك بطريق المعاوضة، ولكن الفلاح إذا طلب من النجار الآلة بالطعام، ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه، فتتعوق الأغراض، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات. . فظهرت الأسواق والمخازن. .

وحدث التجار المتكفلون بالنقل، وباعثهم عليه حرص جمع المال.. فيتعبون طول الليل والنهار في الأسفار لغرض غيرهم.. ونصيبهم منها جمع المال، الذي يأكله لا محالة غيرهم: إما قاطع طريق، وإما سلطان ظالم.

ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاماً للبلاد ومصلحة للعباد. بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة، ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا في الدنيا، ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش، ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد أيضاً.

ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين.. ثم مست الحاجة إلى الضرب والنقش.. وهكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ما تراه.

* * *

[اللصوصية والشحاذة]:

فهذه أشغال الخلق وهي معاشهم..

وشيء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب في الابتداء. وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به، أو يمنعه عنه مانع، فيبقى عاجزاً عن الاكتساب لعجزه عن الحرف، فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره. فيحدث منه حرفتان خسيستان: اللصوصية والكِدَاية[1]. إذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعي غيرهما.

ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدّين ويحفظون عنهم أموالهم، فافتقروا إلى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير.

أما اللصوص: فمنهم من يطلب أعواناً، ويكون في يده شوكة وقوة، ويتكاثرون ويقطعون الطريق، أما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل، إما بالنقب وإما بالتسلق عند انتهاز فرصة الغفلة..

---

(١) قال في القاموس: الكدية بالضم: شدة الدهر، وبالكسر: الكداء ــ ككساء ــ المنع والقطع. وفسرها الشارح: بالشحاذة.

وأما المكدي: فإنه إذا طلب ما سعى فيه غيره، وقيل له: اتعب واعمل كما عمل غيرك، فما لك والبطالة؟ فلا يعطى شيئاً، فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال، فاحتالوا للتعلل بالعجز، إما بالتعامي أو التفالج، أو التجانن أو التمارض، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل.

وجماعة يلتمسون أقوالاً وأفعالاً يتعجب الناس منها، فيعطون القليل من المال حال التعجب.. وقد يكون ذلك بالمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة.

ومن ذلك أهل المجانة كصنعة الطبالين في الأسواق، وكبيع التعويذات، وكأصحاب الفأل من المنجمين..

ويدخل في هذا الجنس: الوعاظ على رؤوس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائل علمي، وكان غرضهم استمالة قلوب العوام، وأخذ أموالهم بأنواع الكدية. وأنواعها تزيد على الألف.

وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة.

[فِرَقٌ ضلَّت المقصد]:

فهذه أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة، ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومآبهم فتاهوا وضلوا، وسبق إلى عقولهم الضعيفة ــ بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا ــ خيالات فاسدة، فاختلفت آراؤهم:

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة فقالوا: المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا، فنجتهد حتى نكسب القوت، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب.. فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا. فهذا مذهب من ليس له تنعم في الدنيا، ولا قدم في الدين.

وطائفة زعموا: أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل، بل السعادة أن يقضي وطره من شهوة الدنيا، وهي شهوة البطن والفرج.. فهم يأكلون كما تأكل الأنعام.

وطائفة: ظنوا أن السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في الجمع. فهم يتعبون في الأسفار.. ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلاً.. إلى أن يدركهم الموت، فيكون للجامع تعبه ووباله، وللآكل لذته.

وطائفة ظنوا أن السعادة حسن الاسم، وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة، فهؤلاء يتعبون ويضيقون على أنفسهم في المطعم، ويصرفون ذلك إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة، ويزخرفون أبواب الدور.. فهمتهم في تعهد موقع نظر الناس.

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة الجاه والكرامة.. فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التفكير في آخرتهم.

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها، كلهم قد ضلوا.

وإنما جرهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن، ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة، والقدر الذي يكفي منها، وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعى بهم ذلك إلى مهاوٍ لم يمكنهم الرقي منها.

فمن عرف أن غاية مقصوده تعهد بدنه حتى لا يهلك، سلك سبيل التقليل، فاندفعت الأشغال عنه، وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة.

[الفرقة الناجية]:

وتنبهت طائفة إلى شأن المنهمكين في الدنيا، فأعرضوا عنها، فحسدهم الشيطان ولم يتركهم، وأضلهم في الإعراض أيضاً.

فظنت طائفة أن السعادة في قطع الشهوة والغضب، ثم أقبلوا على المجاهدة، وشددوا على أنفسهم، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة. وبعضهم فسد عقله وجن، وبعضهم مرض وانسدَّ عليه الطريق في العبادة.

وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال.. فوقع في الإلحاد.

وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله، وأن الله مستغن عن عبادة العباد، لا ينقصه عصيان عاص، ولا تزيده عبادة متعبد، فعادوا إلى الشهوات، وسلكوا مسلك الإباحة، وطووا بساط الشرع والأحكام، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد.

وظن طائفة: أن المقصود من العبادات المجاهدة، حتى يصل العبد إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكليف على عوام الخلق.

ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها..

وإنما الناجي منها فرقة واحدة: وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو: أن لا يترك الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل. ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل.

ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا، بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حدّ مقصوده:

فيأخذ من القوت، ما يقوى به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد، ومن الكسوة كذلك.

حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن، أقبل على الله بكنه همته، واشتغل بالفكر والذكر طول العمر، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات، ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى.

ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية، وهم الصحابة، فإنه ﷺ لما قال: «الناجي منها واحدة» قالوا: يا رسول الله، ومن هم؟ قال: «أهل السنة

والجماعة» فقيل: ومن أهل السنة والجماعة؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[(1)].

وقد كانوا على النهج القصد، وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا، بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً.

*
**

---

(1) أخرجه الترمذي وحسنه، من حديث عبد الله بن عمرو ولفظه: «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا واحدة». قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».
ورواه أبو داود من حديث معاوية بلفظ: «ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة وهي الجماعة». وإسناده جيد. وكذلك رواه ابن جرير في التفسير، ورجاله رجال الصحيح (ش).

الكِتَابُ ٱلسَّابِعُ

ذَمُّ ٱلبُخْلِ وَحُبِّ ٱلمَالِ

رُبْعُ المُهْلِكَاتِ

[تمهيد وإيضاح]:

إن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف، ولكن الأموال أعظمها فتنة، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها، فإن فقد المال حصل منه الفقر، الذي يكاد أن يكون كفراً، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسراً، وبالجملة فهي لا تخلو من الفوائد والآفات وتمييز خيرها عن شرها لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين، من العلماء الراسخين.

وشرح ذلك مهم على الانفراد، فإن ما ذكرناه في كتاب «ذم الدنيا» لم يكن نظراً في المال خاصة، بل في الدنيا عامة، إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل، والمال بعض أجزاء الدنيا، والجاه بعضها. . ولها أبعاض كثيرة.

ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده، إذ فيه آفات وغوائل. وللإنسان من فقده صفة الفقر، ومن وجوده وصف الغنى، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان.

ذم المال وكراهة حبه:

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة المنافقون: الآية (٩).

وقال تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر خسراناً عظيماً.

وقال عزَّ وجلَّ:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾[4].

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال ﷺ: «هم الأخسرون ورب الكعبة، هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا»[5].

وقال ﷺ: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[6].

وقال ﷺ: «أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره، والثالث إلى محشره، فالذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله، والذي يتبعه إلى

---

(١) سورة التغابن: الآية (١٥).
(٢) سورة هود: الآية (١٥).
(٣) سورة العلق: الآيتان (٦ ــ ٧).
(٤) سورة التكاثر: الآية (١).
(٥) متفق عليه (خ ٦٦٣٨، م ٩٩٠) أثبتُّ الصحيح وما ذكره المصنف أخرجه الطبراني بلفظ: «هلك الأكثرون..».
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٨).

قبره فهو أهله، والذي يتبعه إلى محشره فهو عمله»[١].

وقال يحيى بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته، قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.

مدح المال (والجمع بينه وبين الذم):

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال «خيراً» في مواضع من كتابه العزيز. فقال تعالى:

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[٢].

وقال تعالى:

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[٣].

وقال تعالى ممتناً على عباده:

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[٤].

وقال رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[٥]. وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال، إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به.

ولا تقف على وجه الجمع ــ بعد الذم والمدح ــ إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده، عندها ينكشف لك أنه خير من وجه، وشر من وجه، وأنه محمود من حيث هو خير، ومذموم من حيث هو شر، فإنه ليس بخير محض ولا شر محض، بل هو سبب للأمرين جميعاً، وما هذا وصفه فيمدح تارة ويذم أخرى.

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد، وللشيخين: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد..»(ع).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٨٠).

(٣) سورة الكهف: الآية (٨٢).

(٤) سورة نوح: الآية (١٢).

(٥) أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط بسند صحيح (ع).

والبصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم، وبيانه ما ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم.

تفصيل فوائد المال وآفاته:

اعلم أن للمال فوائد وغوائل، فمن عرف ذلك، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره.

أما الفوائد: فهي دنيوية ودينية، أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها، فهي مشهورة، وأما الدينية فتنحصر في ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة، كالاستعانة به على الحج والجهاد، فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال، وإما في الاستعانة على عبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وضرورات المعيشة. وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام:

ـ الصدقة: ولا يخفى ثوابها، وهي تطفىء غضب الربّ تعالى.

ـ المروءة: ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف، في ضيافة وهدية وإعانة، فإن هذه لا تسمى صدقة، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه من غير اشتراط الفقر.

ـ وقاية العرض: ونعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء، وقطع ألسنة السفهاء، ودفع شرهم، وهو أيضاً ـ مع تنجز فائدته في العاجلة ـ من الحظوظ الدينية، وكيف لا، وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة.

ـ الاستخدام: فالأعمال التي يحتاج إليها الإنسان كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك طريق الآخرة.

النوع الثالث: ما لا يصرفه إلى إنسان معين، ولكن يحصل به خير عام، كبناء المساجد، والقناطر والرباطات، ودور المرضى، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات، وهي من الخيرات المؤبدة الدارّة بعد الموت.

فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر.

* * *

أما الآفات: فدينية ودنيوية، أما الدينية فثلاث:

الأولى: أن تجرّ إلى المعاصي، فإن الشهوات متفاضلة، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية، ومن العصمة أن لا يجد، والقدرة تحرك داعية المعاصي، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يجر إلى التنعم في المباحات، وهذا أول الدرجات، ويجره البعض منه إلى البعض، فإذا اشتد أنسه به، ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال، فيقتحم الشبهات، ويخوض في المداهنة والكذب والأخلاق الرديئة.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى. وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران.

وأما الدنيوية: فكثيرة، كالخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساد، وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه..

ذم الحرص والطمع ومدح القناعة:

ينبغي أن يكون الفقير قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة.

وقد جبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة. قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[1].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٣٦، م ١٠٤٨).

وقال ﷺ: «يهرم ابن آدم، ويشب معه اثنتان: الأمل وحب المال»(١).

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة، وغريزة مهلكة، أثنى ﷺ على القناعة فقال: «طوبى لمن هدي للإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به»(٢).

وقال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»(٣).

وقال عمر رضي الله عنه: إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإنه من ييأس عما في أيدي الناس، استغنى عنهم.

وعلاج ذلك خمسة أمور:

الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يرد نفسه إلى ما لا بدَّ له منه، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة، والاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة. قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»(٤).

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بدَّ وأن يأتيه، وإن لم يشتد حرصه، فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(٥).

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٢١، م ١٠٤٧) ولفظ البخاري: «حب المال وطول العمر» ومسلم: «الحرص على المال والحرص على العمر».

(٢) أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى، ولمسلم: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» رقم (١٠٥٤).

(٣) متفق عليه (خ ٦٤٤٦، م ١٠٥١).

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٧٦) وأثبت نصه، وقد ذكره المصنف بتقديم وتأخير. قال العراقي: وأخرجه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس، قال الشارح: قال الصدر المناوي: رجاله موثوقون، أي حديث الترمذي.

(٥) سورة هود: الآية (٦).

ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الحرص والطمع من الذل، فإذا تحقق عنده ذلك، انبعثت رغبته إلى القناعة، وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول، وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله، وفيه ثواب الآخرة.

ولذلك قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

الرابع: أن يكثر تأمله في تنعم الكفار وأراذل الناس ومن لا دين له، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء، وسمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين، ويخير عقله.. عندها يهون عليه الصبر على الضنك والقناعة باليسير.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، مما ذكرناه، ويتم ذلك بأن ينظر إلى من دونه في الدنيا، لا إلى من فوقه، قال أبو ذر: «أوصاني خليلي ﷺ أن أنظر إلى من هو دوني، لا إلى من هو فوقي»[1] أي في الدنيا. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه»[2].

فضيلة السخاء:

اعلم أن المال إن كان مفقوداً، فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص. وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء، واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، وهو أصل من أصول النجاة.

---

(١) أخرجه أحمد وابن حبان (ع).

(٢) متفق عليه (خ ٦٤٩٠، م ٢٩٦٣).

عن أنس قال: «إن رسول الله ﷺ لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة»[1].

وقال ﷺ: «كل معروف صدقة»[2].

وقال ابن السماك[3]: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه.

وعن محمد بن المنكدر، عن أم درة ـ كانت تخدم عائشة رضي الله عنها ـ قالت: إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين، ثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية، هلم فطوري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكرتيني لفعلت.

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز[4] من المسجد يريد منزله، وهو وحده، فقام إليه غلام من ثقيف، فمشى إلى جانبه، فقال له عبد الله: ألك حاجة يا غلام؟ قال: صلاحك وفلاحك، رأيتك تمشي وحدك، فقلت أقيك بنفسي، وأعوذ بالله إن طار بجنابك مكروه، فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى منزله، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام، وقال: استنفق هذه، فنعم ما أدبك أهلك.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٢).

(٢) متفق عليه (خ ٦٠٢١، م ١٠٠٥).

(٣) ابن السماك: محمد بن صبيح، مولى بني عجل، أبو العباس، زاهد حسن الكلام، مات سنة ثلاث وثمانين ومائة.

(٤) عبد الله بن عامر. . من بني عبد مناف، أبوه من مسلمة الفتح، وقد ولد في عهد النبي ﷺ وهو ابن خالة عثمان بن عفان، مات ﷺ وعمره دون السنتين، وكان جواداً شجاعاً، ولاه عثمان البصرة بعد أبي موسى، افتتح خراسان كلها وأطراف فارس وسجستان وكرمان كلها، وأحرم من خراسان شكراً لله، مات بالمدينة سنة (٥٧)هـ وأخباره في الجود كثيرة.

وخرج الحسن والحسين[1]، وعبد الله بن جعفر[2] حجاجاً، ففاتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا، فمرّوا بعجوز في خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا إليها، وليس لها إلا شويهة[3]، فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها، ففعلوا ذلك، ثم قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا، إلا هذه الشاة، فليذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم ما تأكلون.. ففعلوا.. فلما ارتحلوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا، فإنا صانعون بك خيراً.. فلما أقبل زوجها أنكر فعلها، ثم ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز، وهي له منكرة، فبعث غلامه فدعا بها وقال لها: أتعرفينني؟ أنا ضيفك يوم كذا وكذا، قالت العجوز: بأبي أنت وأمي، أنت هو؟ قال: نعم، ثم أمر فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين.. ففعل مثل أخيه، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر. فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفي شاة وألفي دينار، فأمر لها بمثل ذلك، وقال: لو بدأت بي لأتعبتهما. فرجعت العجوز بأربعة آلاف شاة، وأربعة آلاف دينار.

واشترى عبد الله بن عامر بن كريز من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون لدارهم، فقال: يا غلام، ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً.

وقال الأعمش: اشتكت شاة عندي، فكان خيثمة بن عبد الرحمن[4] يعودها

(١) هما ابنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.
(٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما.
(٣) تصغير شاة.
(٤) خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي بسرة الجعفي الكوفي، لأبيه وجده صحبة، قال العجلي: وكان خيثمة رجلاً صالحاً وكان سخياً.

ويسألني: هل استوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لبد أجلس عليه، فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللبد، حتى وصل إلي في علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

ومرض قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما، فاستبطأ إخوانه، فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً فنادى: من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بريء، قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من زاره وعاده.

وروي أن الشافعي رحمه الله، لما مرض مرض موته قال: مروا فلاناً[1] يغسلني، فلما توفي بلغه خبر وفاته، فحضر وقال: ائتوني بتذكرته، فأتي بها فنظر فيها، فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين، فكتبها على نفسه وقضاها عنه، وقال: هذا غسلي إياه. أي أراد به هذا[2].

بيان ذم البخل:

قال تعالى:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ

---

(١) عنى به: محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ش).
(٢) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (ع).
(٣) سورة الحشر: الآية (٩).
(٤) سورة آل عمران: الآية (١٨٠).

﴿ ... ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾[1].

وقال ﷺ: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[2].

وقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أردَّ إلى أرذل العمر»[3].

وقال ﷺ: «شر ما في الرجل شح هالع[4]، وجبن خالع[5]»[6].

وقال جبير بن مطعم: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين، إذ علقت برسول الله ﷺ الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، فوالذي نفسي بيده، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً»[7].

وقال عبد الله بن عمرو: الشح أشد من البخل، لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يد غيره، حتى يأخذه، ويشح بما في يده فيحبسه، والبخيل: هو الذي يبخل بما في يده.

وقال علي رضي الله عنه: والله ما استقصى كريم قط حقه.

بيان الإيثار وفضله:

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات، فأرفع درجة السخاء الإيثار، وهو: أن يجود بالمال مع الحاجة، وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج، والبذل مع الحاجة أشد.

---

(١) سورة النساء: الآية (٣٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٨) بلفظ: «واتقوا الشح . .».

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٣٧٤).

(٤) الهلع: الجزع، أي شح يحمل على الحرص على المال والجزع على ذهابه.

(٥) خالع: أي شديد، كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه من الخلق.

(٦) أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد (ع).

(٧) أخرجه البخاري برقم (٢٨٢١).

وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن، ولو وجدها مجاناً لأكلها.

فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة، وذلك يؤثر على نفسه غيره، مع أنه محتاج إليه، فانظر إلى ما بين الرجلين؟! فإن الأخلاق عطايا، يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء.

وقد أثنى الله تعالى على الصحابة رضي الله عنهم به فقال:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١).

ونزل برسول الله ﷺ ضيف، فلم يجد عند أهله شيئاً، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله. ثم وضع بين يديه الطعام، وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل، حتى أكل الضيف، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم»(٢) ونزل قوله تعالى:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٣).

فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى، والإيثار أعلى درجات السخاء، وكان ذلك من دأب رسول الله ﷺ حتى سماه الله تعالى عظيماً فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٤).

قيل: خرج عبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى ضيعة له، فنزل على نخيل

(١) سورة الحشر (٩).

(٢) متفق عليه (خ ٤٨٨٩، م ٢٠٥٤) وقد أجمله المصنف، وجاءت الرواية مفصلة في مسلم، حيث ذكر تعليل الأولاد حتى ناموا بغير عشاء، وبين التصنع في إطفاء السراج..

(٣) سورة الحشر: الآية (٩).

(٤) سورة القلم: الآية (٤).

قوم، وفيه غلام أسود يعمل فيه، إذ أتي الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب، ودنا من الغلام، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله. وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أشبع وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا. فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء!! إن هذا العبد لأسخى مني، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات، فأعتق الغلام، ووهبه منه.

بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما:

لعلك تقول: قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات، ولكن ما حد البخل؟ وبماذا يصير الإنسان بخيلاً؟ وما حدّ السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها؟

فنقول: قال قائلون: حد البخل منع الواجب، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل. وقال قائلون: البخيل: هو الذي يستصعب العطية..

وكذلك تكلموا في الجود، فقيل: الجود عطاء بلا منّ وإسعاف من غير روية، وقيل: من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، ومن قاسى الضر وآثر فهو صاحب إيثار، ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل.

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل.

بل نقول: المال خلق لحكمة ومقصود، وهو إصلاحه لحاجات الخلق. ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو: أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويبذل حيث يجب البذل.

فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، وبينهما وسط، وهو المحمود، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه.

إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء وقد قيل له:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾(١).

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾(٢).

فالجود وسط بين الإسراف والإقتار، وبين البسط والقبض، وهو أن يقدر على بذله وإمساكه بقدر الواجب. ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه، ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه فإن بذل في محل وجوب البذل، ونفسه تنازعه، وهو يصابرها فهو مُتَسَخٍّ وليس بسخي.

ثم إن الواجب قسمان:

- واجب بالشرع.
- وواجب بالمروءة والعادة.

والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع، ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، كالذي يمنع أداء الزكاة، ويمنع عياله وأهله النفقة، أو يؤديها ولكنه يشق عليه، فإنه بخيل بالطبع، وإنما يتسخى بالتكلف.

وأما واجب المروءة، فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فإن ذلك مستقبح، واستقباحه يختلف بالأحوال والأشخاص. فمن كثر ماله استقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ما لا يستقبح مع الأجانب، ويستقبح من الجار ما لا يستقبح مع البعيد، ويستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح في المعاملة.

فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة، وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٢٩).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٦٧).

فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل، نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات. فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير.

فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس، ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة، أو مكافأة، أو شكر، أو ثناء، فإن من طمع في الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد، فإنه يشتري المدح بماله، والجود بذل بغير عوض.

بيان علاج البخل:

اعلم أن البخل سببه حب المال، ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال، مع طول الأمل.

فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم، ربما أنه كان لا يبخل بماله، ولكنه لو كان قصير الأمل وكان له أولاد، أقام الولد مقام طول الأمل. فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر، قوي البخل لا محالة.

الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره، وهو شيخ بلا ولد، ومعه أموال كثيرة. ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة، ولا بمداواة نفسه عند المرض، بل صار محباً للدنانير عاشقاً لها، يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها.

وهذا مرض للقلب عظيم، عسير العلاج، لا سيما في كبر السن، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه. ومثال صاحبه: مثال رجل عشق شخصاً، فأحب رسوله لنفسه، ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله. وهو غاية الضلال.

فهذه أسباب حب المال.

وإنما علاج كل علة بمضادة سببها:

فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر.

ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت، والنظر في موت الأقران، وطول تعبهم في جمع المال، وضياعه بعدهم.

ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن خالقه خلق معه رزقه، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً، وحاله أحسن ممن ورث.

ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء، ومن الأدوية النافعة: كثرة التأمل في أحوال البخلاء، ونفرة الطبع عنهم..

ويعالج قلبه أيضاً: بأن يتفكر في مقاصد المال، وأنه لماذا خلق؟

فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم.

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفاً، ومن لطائف الحيل أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في صفة الجود، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل، واكتسب خبث الرياء، ثم ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه.

والصفات الخبيثة تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة، وهو منع القوت عنها، ومنع القوت عنها أن لا يعمل بمقتضاها، فإذا خولفت خمدت وماتت.

فالبخل يقتضي إمساك المال، فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد مرة، ماتت صفة البخل، وصار البذل طبعاً، وسقط التعب فيه.

وجملة القول: أن علاج البخل بعلم وعمل، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف.

وظائف العبد في ماله:

اعلم أن المال ــ كما وصفناه ــ خير من وجه وشر من وجه، ولا يخلو أحد عن شر المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

الأولى: أن يعرف مقصود المال، ولماذا خلق، فلا يعطيه من همته فوق ما يستحقه.

الثانية: أن يراعي جهة دخل المال، فيجتنب الحرام المحض، وما الغالب عليه الحرام، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة.

الثالثة: في المقدار الذي يكتسبه، فلا يستكثر منه، ولا يستقل عن قدر الحاجة.

الرابعة: أن يراعي جهة القصد في الإنفاق، غير مبذر ولا مقتر.

الخامسة: أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك.

***

الكِتَابُ الثَّامِنُ

ذَمُّ الجَاهِ وَالرِّيَاءِ

رُبْعُ المُهْلِكَاتِ

الفصل الأول

في ذمّ الجاه والشُّهرة

ذم الجاه وفضيلة الخمول:

اعلم ــ أصلحك الله ــ أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار، وهو مذموم، بل المحمود الخمول، إلاَّ من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه.

قال الله تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾(1).

جمع بين إرادة الفساد والعلو، وبيَّن أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً.

وقال تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(2).

وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه، فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا، وأكثر زينة من زينتها.

---

(1) سورة القصص: الآية (٨٣).

(2) سورة هود: الآيتان (١٥ ــ ١٦).

وقال رسول الله ﷺ: «ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين[1]، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرَّه»[2].

وقال ﷺ: «ألا أدلكم على أهل الجنة، كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره، وأهل النار كل متكبر مستكبر جوَّاظ[3]»[4].

وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت[5]، سرج الليل[6]، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل الأرض.

وقال الفضيل: إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف، وما عليك أن لا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس، إذا كنت محموداً عند الله تعالى؟

وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة.

وخرج أيوب السختياني[7] في سفر، فشيعه ناس كثيرون، فقال: لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عزَّ وجلَّ.

وقال رجل لبشر الحافي: أوصني، قال: أخمل ذكرك، وطيب مطعمك.

فهذه الأخبار والآثار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول، وإنما المطلوب

---

(١) الطِمْر: الثوب الخَلق البالي، وجمعه: أطمار.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٨٥٤) بلفظ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره».

(٣) هو الجموع المنوع. وقيل: المختال في مشيته.

(٤) متفق عليه (خ ٤٩١٨، م ٢٨٥٣).

(٥) أي: لازمين بيوتكم لزوم الحِلس، وهو: الحصير الذي يفرش تحت الفرش.

(٦) أي تحيون ليلكم بالعبادة.

(٧) أيوب بن أبي تميمة السختياني، البصري، تابعي جليل، من النساك الزهاد، سيد فقهاء عصره، ومن حفاظ الحديث، توفي عام (١٣١)هـ .

بالشهرة انتشار الصيت، وهو الجاه والمنزلة في القلوب، وحب الجاه هو منشأ كل فساد.

واعلم أن المذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم.

معنى الجاه وحقيقته:

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا. ومعنى المال: ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه: ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها.

وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير، فيتوصل بها إلى الأغراض والمقاصد وسائر حظوظ النفس. فكذلك ذو الجاه، هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على أن يتصرف فيها، ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه.

وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات، فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلَّا بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له، بحسب قوة اعتقاد القلب، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً، ويذعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده.

وكما أن صاحب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد، فطالب الجاه يطلب أن يسترقَّ الأحرار ويستعبدهم، ويملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم.

فإذن؛ معنى الجاه: قيام المنزلة في قلوب الناس.

وله ثمرات: كالمدح والإطراء، والخدمة والإعانة، والإيثار والتعظيم والتوقير.

وسببه اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم، أو عبادة، أو حسن خلق، أو نسب، أو ولاية، أو جمال في صورة..

سبب كون الجاه محبوباً بالطبع :

اعلم أن السبب الذي يقتضي كون المال محبوباً، هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً. وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه. فكذلك ملك القلوب من الأحرار يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض. فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة. ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التوصل بالجاه إلى المال؛ أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب، لو قصد اكتساب المال تيسَّر له. والرجل الخسيس لو وجد لديه مال وأراد التوصل به إلى الجاه، لم يتيسر له.

الثاني: هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق، ويطمع فيه الملوك والظلمة، أما القلوب إذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات.

الثالث: أن ملك القلوب يسري ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة. والمال لا يقدر على إنمائه إلَّا بتعب ومقاساة.

وفي الطباع أمر عجيب ــ وراء حب المال والجاه لقضاء الأغراض ــ وهو: حب جمع الأموال وكنز الكنوز واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً. وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد، التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها.

وهذا الحب لا تنفك عنه القلوب، وله سببان:

أحدهما: دفع ألم الخوف، فالإنسان مولع بسوء الظن، فإنه ــ وإن كان مكفياً في الحال ــ طويل الأمل، ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف في قلبه، ولا يدفع ألم الخوف إلَّا الأمن الحاصل بوجود مال آخر، يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة. فهو أبداً لشفقته على نفسه، وحبه للحياة، يقدر طول الحياة، ويقدر هجوم الحاجات، ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك، فيطلب

ما يدفع خوفه وهو كثرة المال.. وهذا الخوف لا يتوقف على مقدار مخصوص من المال...

ومثل هذه العلة تطّرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه..

الثاني: أن كل إنسان بطبعه يرغب بالكمال. ولما عجزت النفس عن ذلك لم تسقط شهوتها إليه، فهي محبة للكمال، ومشتهية له، وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراءه.

وبهذا المعنى يحب الإنسان بالطبع أن يستولي على الأشياء بالقدرة على التصرف فيها، ومن ذلك: الدراهم والدنانير والأمتعة.. وكذلك نفوس الآدميين وقلوبهم، وهي أنفس ما على وجه الأرض..

ما يُحمد من حب الجاه وما يُذمّ:

عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب. وهو عرض من أعراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت. والدنيا مزرعة الآخرة. وكما أنه لا بدّ من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، فهو بحاجة إلى خادم ورفيق وأستاذ.. فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم..

فالجاه وسيلة إلى الأعراض كالمال، فلا فرق بينهما، فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم، وحبهما لأعيانهما ـ فيما يجاوز ضرورة البدن ـ مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان، ما لم يحمله ذلك الحب على مباشرة معصية.

وخلاصة القول: يطلب الجاه على ثلاثة أوجه، وجهان مباحان، ووجه محظور.

أما الوجه المحظور: فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها، مثل العلم والورع والنسب، فيظهر لهم أنه عالم أو ورع.. وهو لا يكون كذلك، فهذا حرام، لأنه كذب وتلبيس.

وأما الوجهان المباحان:

فأحدهما: أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها، كقول يوسف عليه السلام فيما أخبر عنه الله تعالى:

﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾(١).

فإنه طلب المنزلة بكونه حفيظاً عليماً، وكان محتاجاً إليه، وكان صادقاً.

الثاني: أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه، ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به، فهذا مباح أيضاً، لأن الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح، وهذا ليس فيه تلبيس، بل هو حجب علم لا فائدة به، كالذي يخفي أنه يشرب الخمر، ولا يقول إنه ورع، فإن قوله: إني ورع تلبيس، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع، بل يمنع العلم بالشرب.

ومن جملة المحظورات: تحسين الصلاة بين يدي إنسان ليحسن فيه اعتقاده، فإن ذلك رياء، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله، وهو مراء بفعله، فكيف يكون مخلصاً. فطلب الجاه بهذا الطريق حرام، وكذا بكل معصية. وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق. وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره، فلا يجوز أن يتملك قلبه بتزوير وخداع، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال.

سبب حب المدح وبغض الذم:

إنما نذكر ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وخوف المذمة، فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض.

---

(١) سورة يوسف: الآية (٥٥).

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أسباب:

الأول: وهو الأقوى، شعور النفس بالكمال، وقد بيّنا أن الكمال محبوب، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة إذا صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول إلاَّ عن تحقيق، وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه، فإنه في غاية اللذة.

وبهذه العلة يبغض الذم أيضاً، ويعظم إذا صدر من بصير موثوق به.

الثاني: أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح، وأنه مريد له، وملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذ، وتعظم اللذة إذا صدر الثناء ممن تتسع قدرته، وتضعف إذا كان المادح لا يؤبه له.

وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب.

الثالث: أن ثناء المثني، ومدح المادح، سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه.

فهذه الأسباب قد تجتمع في مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ.

وتندفع اللذة الأولى ــ وهي استشعار الكمال ــ بأن يعلم الممدوح أنه ــ أي المادح ــ غير صادق في قوله، كما إذا مدح بأنه عالم، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك.

وتندفع الثانية ــ وهي استيلاؤه على قلب المادح ــ إذا علم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله. ويعلم خلوه عن هذه الصفة.. وهكذا تبطل اللذات كلها.

علاج حب الجاه:

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتودد إليهم، والمراءاة لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب.

وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم، وإلى التظاهر بخصال حميدة وهو خالٍ عنها، وذلك هو عين النفاق.

فحب الجاه إذن من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب، فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال. وعلاجه مركَّب من علم وعمل:

أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، وذلك إن صفا وسلم فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات. فلا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية.

ويعالج حب الجاه أيضاً، بالعلم بالآفات العاجلة للجاه، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا، فإن كل ذي جاه محسود، ومقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشد تغيراً من القدر في غليانها، وهي مترددة بين الإقبال والإعراض، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر، فإنه لا ثبات له. والاشتغال بمراعاة القلوب، وحفظ الجاه، ورفع كيد الحساد، ومنع أذى الأعداء، كل ذلك غموم عاجلة مكدرة للذة الجاه. فهذا هو العلاج من حيث العلم.

وأما العمل: أن يأنس بالخمول، ويقنع بالقبول من الخالق، وذلك بقطع الطمع عن الناس، فمن قنع استغنى عن الناس، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بهم، ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن. ولا يتم ترك الجاه إلَّا بالقناعة وقطع الطمع، ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول.

علاج حب المدح:

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاءً للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فيجب معالجته. وطريقة ذلك:

أن تقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها، أنت متصف بها أم لا؟

فإن كنت متصفاً بها، فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية.

فإن كانت من الأعراض الدنيوية، فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل، بل العاقل يقول كما قال المتنبي:

أشد الغم عندي في سرور تيقَّن عنه صاحبه انتقالا

وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع، فينبغي أن لا يفرح بها، لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى، وخطر الخاتمة باقٍ. وفي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا.

وإن كانت الصفة التي مدحت بها، أنت خال عنها، ففرحك بالمدح غاية الجنون.

فإذن: المادح إن كان صادقاً، فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك. وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به.

علاج كراهة الذمّ:

قد سبق أن العلة في كراهة الذم، هو ضد العلة في حب المدح، فعلاجه أيضاً يفهم منه، والقول فيه: أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال:

- إما أن يكون قد صدق فيما قال، وقصد به النصح والشفقة.
- وإما أن يكون صادقاً، ولكن قصده الإيذاء والتعنت.
- وإما أن يكون كاذباً.

الأولى: فإن كان صادقاً، وقصده النصح، فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه، وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منته، فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به، وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك

إن قدرت عليها، فأما اغتمامك بسببه، وكراهتك له، وذمك إياه، فإنه في غاية الجهل.

الثانية: وإن كان قصده التعنت، فأنت قد انتفعت بقوله، إذا أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، وأذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته، إن كنت قد استحسنته، وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه، فاشتغل بطلب السعادة، فقد أتيح لك أسبابها، بسبب ما سمعته من المذمة.

فلو قصدت الدخول على ملك، وثوبك ملوث، وأنت لا تدري، وقال لك قائل: أيها الملوث طهر نفسك، فينبغي أن تفرح به.

الثالثة: أن يفتري عليك بما أنت منه بريء، عند الله تعالى، فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

ـ أحدها: أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك، ودفعه عنك بذكر ما أنت منه بريء.

ـ الثاني: أن ذلك كفارات لبقية مساويك، فكأنه رماك بعيب أنت منه بريء، وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته. فمالك تحزن لهدايا تقربك إلى الله تعالى؟

ـ الثالث: فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللّهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللّهم تب عليه.

فقد دعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة، فقيل له في ذلك؟! فقال: علمت أني مأجور بسببه، وما نالني منه إلاَّ خير، فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي.

اختلاف أحوال الناس في المدح والذم:

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح:

الأولى: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم، ويحقد على الذام، ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق، وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الثانية: أن يمتعض في الباطن على الذام، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته. وأن يفرح باطنه ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور. وهذا من النقصان، إلاَّ أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال.

الثالثة: وهي أول درجات الكمال، أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فلا تغمه المذمة، ولا تسره المدحة. وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه، ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته. وهي أن يكون الذام والمادح عنده سواء من كل وجه، وما أبعد ذلك، وما أشده على القلوب.

الرابعة: وهي الصدق في العبادة، أن يكره المدح ويمقت المادح، إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر، مضرة له في الدين، ويحب الذام، إذ يعلم أنه مهدٍ إليه عيبه، ومرشد له إلى ما يهمه، ومهدٍ إليه حسناته.

وغاية أمثالنا: الطمع في الحالة الثانية.

⁂

الفصل الثاني

في الرياء

ذمّ الرياء:

الرياء: طلب الجاه والمنزلة بالعبادات.

وهو حرام. والمرائي عند الله ممقوت. وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار:

أما الآيات: فقوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾[١].

وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[٢].

قال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال تعالى:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[٣].

فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله، والرياء ضده.

---

(١) سورة الماعون: الآيات (٤ ــ ٦).

(٢) سورة فاطر: (١٠).

(٣) سورة الإنسان: الآية (٩).

وقال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(١).

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ: «من سمع سمع الله به، ومن راءى راءى الله به»(٢).

وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله عزَّ وجلّ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»(٣).

وقال ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله، وأنا منه بريء، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك»(٤).

وقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله»، وذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»(٥).

وأما الآثار: فقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يطأطىء رقبته، فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب.

ورأى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت، لو كان هذا في بيتك.

وقال الفضيل بن عياض: كانوا يراؤون بما يعملون، وصاروا اليوم يراؤون بما لا يعملون.

---

(١) سورة الكهف: (١١٠).

(٢) متفق عليه (خ ٦٤٩٩، م ٢٩٨٦) أثبتُّ نص مسلم، وقد قدم المصنف وأخر.

(٣) أخرجه أحمد والبيهقي ورجاله ثقات. (ع).

(٤) أخرجه مالك واللفظ له دون قوله: «وأنا منه بريء»، ومسلم مع تقديم وتأخير [برقم ٢٩٨٥] دونها أيضاً. وهي عند ابن ماجه بسند صحيح. (ع).

(٥) متفق عليه (خ ٦٦٠، م ١٠٣١).

وقال عكرمة[1]: إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله، لأن النية لا رياء فيها.

حقيقة الرياء وما يراءى به:

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس، بإيرائهم خصال الخير، إلَّا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات، وتطلب بالعبادات.

واسم «الرياء» مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها.

فحد الرياء: هو إرادة العباد بطاعة الله.

والمرائي: هو العابد.

والمراءى: هو الناس المطلوب رؤيتهم، بطلب المنزلة في قلوبهم.

والمراءى به: هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها.

والرياء: هو قصده إظهار ذلك.

والمراءى به كثير، وتجمعه خمسة أقسام، وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس، وهي: البدن، والزي، والقول، والعمل. والأتباع والأشياء الخارجة.

وكذلك أهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة، إلَّا أن طلب الجاه، وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات، أهون من الرياء بالطاعات.

القسم الأول: الرياء في الدين بالبدن، وذلك بإظهار النحول والصفار، ليوهم بذلك شدة الاجتهاد، وعظم الحزن على أمر الدين، وغلبة خوف الآخرة. وليدل

---

(١) عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى ابن عباس (٢٥ ـ ١٠٥)هـ، تابعي من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. طاف البلدان، روى عنه أكثر من سبعين تابعياً. توفي بالمدينة.

بالنحول على قلة الأكل، وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد، وعظم الحزن على الدين.

الثاني: الرياء بالهيئة والزي: أما الهيئة، فبتشعيث شعر الرأس، ليدل على استغراق الهم بالدين، وعدم التفرغ لتسريح الشعر، وحلق الشارب، وإطراق الرأس في المشي، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، وتشميرها إلى قريب من الساق وتقصير الأكمام، وترك تنظيف الثوب. كل ذلك ليدل أنه متبع للسنّة ومقتدٍ فيه بعباد الله الصالحين.

والمراؤون بالزي على طبقات، كل منهم يرى منزلته في زي مخصوص، فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه وإلى ما فوقه وإن كان مباحاً، وذلك لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا.

الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير، والنطق بالحكمة، وحفظ الأخبار والآثار، إظهاراً لغزارة العلم، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس.. وإظهار الغضب للمنكرات، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي.. والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر.

الرابع: الرياء بالعمل: كمراءاة المصلي بطول القيام، ومد الظهر، وطول السجود والركوع، وإطراق الرأس، وإظهار الهدوء.. وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة، والإخبات في المشي عند اللقاء، والوقار في الكلام، ومنهم من يكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة، حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير، وقد تضاعف بذلك رياؤه، فإنه صار في خلوته أيضاً مرائياً.

الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، أو عابداً من العباد، ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته، وكالذي يكثر ذكر الشيوخ، ليري أنه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم. فيباهي بهم.

[حكـم الريـاء]:

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح، أو فيه تفصيل؟

فـأقـول:

ـ إن كان بغير العبادات، فهو كـطلب المال، فـلا يحرم من حيث إنـه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات، فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال وهـو ما يحتـاج إليه الإنسـان محمود، فكسب قليل من الجاه، وهو ما يسلم به عن الآفات أيضاً محمود. وهـو الذي طلبـه يوسف عليه السلام حيث قال:

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فعلى هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة، وهو ليس بحرام، لأنه ليس ريـاءً بالعبـادة بل بـالدنيـا، وقس على هذا كـل تجمل للناس وتزين لهم. ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسـه في أعينهم حذراً من ذمهم ولومهم، واستروا حاً إلى توقيرهم واحترامهم، كـان قد قصـد أمراً مبـاحاً، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الأنس بالإخوان.

فإذن: المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة، وقد تكون طاعة، وقـد تكون مذمومة، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها، ولذلك نقول: إذا أنفق الرجـل ماله على جماعة من الأغنياء، لا في معرض العبادة والصدقـة، ولكن ليعتقد النـاس أنه سخي، فهذا مراءاة وليس بحرام، وكذلك أمثاله.

ـ أما إن كان الرياء بالعبادات كالصدقة والصلاة والصيام والحج، فللمـرائي فيه حالتان:

إحداهما: أن لا يكـون له قصـد إلاَّ الريـاء المحض دون الأجر، وهـذا يبطل عبادته لأن الأعمال بالنيات، وليس هذا بقصد العبادة، ولا يقتصر على إحباط عبادته

---

(١) سورة يوسف: الآية (٥٥)، والآية: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾.

حتى نقول: صار كما كان قبل العبادة، بل يعصي ويأثم، كما دلت عليه الأخبار والآيات. والمعنى فيه أمران:

(الأول): يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر، لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله، وأنه من أهل الدين، وليس كذلك، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضاً.

(الثاني): يتعلق بالله، وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله، فهو مستهزىء بالله.

ومثاله: أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار ــ كما جرت عادة الخدم ــ وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك، فإن هذا استهزاء بالملك، إذ لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمته، بل قصد بذلك عبداً من عبيده، فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضراً ولا نفعاً؟ وهل ذلك إلاَّ لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته؟ وهذا من كبائر المهلكات. ولهذا سماه الرسول ﷺ: الشرك الأصغر.

[الثانية[1]]: أنه إن لم يقصد التقرب إلى الله، فقد قصد غير الله، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفراً جلياً.

والرياء هو الكفر الخفي، لأن المرائي عظم في قلبه الناس، فكأن الناس هم المعظمون بالسجود من وجه، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود، وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشرك.

وذلك غاية الجهل، ولا يقدم عليه إلاَّ من خدعه الشيطان، وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله أكثر مما يملكه الله تعالى.

---

(١) ذكر المصنف الحالة الأولى وفصل الأمر فيها، ولكنه لم يذكر (لفظ الثانية) ومن دراسة النص يغلب على ظني أن ما ذكره في هذه الفقرة التي أثبتها بعد (الثانية) هو ما أراده من الحالة الثانية. ولم يشِر الشارح إلى شيء من ذلك.

درجات الرياء:

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض، واختلافه باختلاف أركانه، وتفاوت الدرجات فيه، وأركانه ثلاثة: المراءى به، والمراءى لأجله، ونفس قصد الرياء.

الركن الأول: قصد الرياء

نفس قصد الرياء وهو أربع درجات:

الأولى ــ وهي أغلظها ــ: أن لا يكون مراده الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي، بل ربما صلّى من غير طهارة مع الناس.

فهذا جرَّد قصده إلى الرياء، وهو الممقوت عند الله تعالى، وهذه هي الدرجة العليا من الرياء.

الثانية: أن يكون له قصد الثواب أيضاً، ولكن قصداً ضعيفاً، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصد على العمل، فهذا قريب مما قبله. ولا ينفي قصد الثواب عنه المقت والإثم.

الثالثة: أن يكون له قصد الثواب، وقصد الرياء، متساويين، بحيث لو كان كل واحد منهما خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل، فإذا اجتمعا انبعثت الرغبة، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل.

فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، فنرجو أن يسلم رأساً برأس، لا له ولا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب. وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم.

الرابعة: أن يكون اطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه، ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه.

فالذي نظنه ــ والعلم عند الله ــ أنه لا يحبط أصل الثواب، ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء، ويثاب على مقدار قصد الثواب، وأما قوله ﷺ:

«يقول الله تعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»[1] فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان، أو كان قصد الرياء أرجح.

الركن الثاني: المراءى به

وهو الطاعات، وذلك ينقسم إلى:

- الرياء بأصول العبادات.
- والرياء بأوصافها.

القسم الأول: ـ وهو الأغلظ ـ الرياء بالأصول، وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الرياء بأصل الإيمان، وهذا أغلظ أبواب الرياء، وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة، وباطنه مشحون بالتكذيب، ولكنه يرائي بظاهر الإسلام، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى، كقوله عزّ وجلّ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[2].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾[3].

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[4].

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[5].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٥).
(٢) سورة المنافقون: الآية (١).
(٣) سورة البقرة: الآيتان (٢٠٤ ـ ٢٠٥).
(٤) سورة آل عمران: الآية (١١٩).
(٥) سورة النساء: الآيتان (١٤٢ ـ ١٤٣).

وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام، ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداءً لغرض. وذلك مما يقل في زماننا.

ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطناً، فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة، ميلاً إلى قول الملاحدة. أو يعتقد طي بساط الشرع والأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة، أو يعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين في النار وليس وراء هذا الرياء رياء. وحال هؤلاء أشد حالاً من الكفار المجاهرين، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر.

الثانية: الرياء بأصول العبادات، مع التصديق بأصل الدين، وهذا أيضاً عظيم عند الله، ولكنه دون الأول بكثير. ومثاله: أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفاً من ذمِّه، والله يعلم منه أن لو كان في يده لما أخرجها.

فهذا مُراءٍ، معه أصل الإيمان بالله، يعتقد أنه لا معبود سواه، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل، وينشط عند اطلاع الناس، فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق.

وهذا غاية الجهل، وما أجدر صاحبه بالمقت، وإن كان غير منسلٍ عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الثالثة: أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي، ولكنه يكسل عنها في الخلوة، ثم يبعثه الرياء على فعلها.. ويعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه ما زاد على أداء الفرائض.

فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله. وكأنه على شطر من الذي قبله، وعقابه نصف عقابه.

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، وهو أيضاً على ثلاث درجات:

الأولى: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة، فإذا رآه الناس: أحسن الركوع والسجود وتمم القعود بين السجدتين.

فهـذا أيضاً من الـرياء المحـظور، لأن فيه تقـديماً للمخلوقين على الخـالق، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات.

الثانية: أن يرائي بفعل مـا لا نقصان في تـركه، ولكن فعله في حكم التكملة والتتمـة لعبادتـه، كالتـطويل في الـركوع والسجـود وتحسين الاعتدال، والـزيادة في القراءة.

الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً، كحضـور الجماعـة قبل القوم، وقصده للصف الأول، وتوجهه إلى يمين الإمام.

فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يراءى به وبعضه أشد من بعض، والكـل مذموم.

الركن الثالث: المراءى لأجله

إن للمرائي مقصوداً لا محالة، وإنمـا يرائي لإدراك مـال أو جاه أو غـرض من الأغراض لا محالة، وله أيضاً ثلاث درجات:

الأولى ــ وهي أشدها وأعـظمها ــ : أن يكـون مقصوده التمكن من معصيـة، كـالذي يـرائي بعبادتـه، ويظهـر التقوى والـورع بكثرة النـوافل، والامتنـاع عن أكل الشبهات، وغرضه أن يعرف بالأمانة. فيُوَلَّى القضاء أو الأوقاف، أو الوصايا، أو مال الأيتام، أو يودع الودائع.. فيأخذها ويجحدها.

وقد يظهـر بعضهم زي التصوف وهيئـة الخشوع.. وإنمـا قصده التحبب إلى امرأة..

وهؤلاء أبغض المـرائين إلى الله تعالى، لأنهم جعلوا طـاعـة ربهم سلمـاً إلى معصيته. واتخذوها آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم.

الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مبـاح من حظوظ الـدنيا، من مـال أو نكاح، كالذي يظهر الحزن ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأمـوال، ويرغب في نكـاحه النسـاء. فهذا ريـاء محظور، لأنـه طلب بطاعـة الله متاع الحيـاة الدنيـا، ولكنه دون الأول.

الثالث: أن لا يقصد نيل حظ، وإدراك مال، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص، ولا يعد من الخاصة والزهاد. كالذي يمشي مستعجلاً، فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة، كيلا يقال إنه ليس من أهل الوقار. أو كالذي يرى جماعة يصلون التراويح، أو يتهجدون، فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام.

فهذا من آفات الرياء، أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه.

فهذه درجات الرياء، ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات، وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل.

* * *

الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل:

اعلم أن الرياء جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث على العمل، ويحمل عليه، ولو قصد الثواب، وهو أجلاه.

وأخفى منه قليلاً، هو ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلاَّ أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخفَّ عليه، وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان.

وأخفى من ذلك: ما لا يؤثر في العمل، ولا بالتخفيف أيضاً، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلاَّ بالعلامات، وأجلى علاماته أن يسرَّ باطلاع الناس على طاعته، فرب عبدٍ يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه. ولكن إذا اطلع عليه الناس سرَّه ذلك وارتاح له، وهذا السرور يدل على رياء خفي، منه يرشح السرور. ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاعهم.

ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع، ولم يقابل ذلك بكراهية، فيصير ذلك

قوتاً وغذاء للعرق الخفي من الرياء، حتى يتحرك على نفسه حركة خفيـة، فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض، وإن كان لا يدعو إلى التصريح.

وقـد يخفى، فـلا يـدعـو إلى الإظهـار بـالنـطق تعـريضـاً وتصـريحـاً، ولكن بالشمائل، كإظهار النحول والصفار، وخفض الصوت، وآثار الدمـوع وغلبة النعـاس الدال على طول التهجد.

وأخفى من ذلك: أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع، ولا يسرُّ بظهور طاعتـه، ولكنـه ــ مع ذلـك ــ إذا رأى الناس أحب أن يبـدؤوه بالسـلام ويقـابلوه بـالبشـاشـة والتوقير. . فإن قصر مقصر ثقل على قلبه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لمـا كان يستبعد تقصير الناس في حقه.

وإذا لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بـالخلق، لم يكن قد قنـع بعلم الله، ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء، أخفى من دبيب النمل.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في مخادعة النـاس عن أعمالهم الصالحـة، يحرصـون على إخفائهـا، أعظم ممـا يحرص النـاس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجـاء أن تخلص أعمالهم الصـالحة. فيجـازيهم الله في القيـامة بـإخلاصهم على مـلأ من الخلق، إذ علموا أن الله لا يقبـل في القيـامـة إلا الخالص. يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا يجزي والد عن ولده، ويشتغل الصديقـون بأنفسهم فيقول كل واحد: نفسي نفسي.

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر. .

[حكم السرور بذيوع خبر الطاعة]:

فـإن قلت: فما نـرى أحداً ينفـك عن السرور إذا عـرفت طاعـاته، فـالسـرور مذموم كله أو بعضه؟

فنقول: السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم، فالمحمود أربعة أقسام:

الأول: أن يكـون قصده إخفـاء الطاعـة والإخـلاص لله، ولكن لمـا أطلع الله عليـه الخلق، علم أن الله أطلعهم، وأظهر الجميـل من أحـوالـه، فيستـدل بـه على

حسن صنع الله به ونظره إليه، فإنه يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة، فيكون فرحه بجميل نظر الله له، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم.

الثاني: أن يستدل بإظهار الله الجميل، وستره القبيح عليه في الدنيا، أنه كذلك يفعل به في الآخرة، إذ قال رسول الله ﷺ: «ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا، إلَّا ستره عليه في الآخرة»[1] فيكون فرحه بذلك.

الثالث: أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة، فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً، وأجر السر بما قصده أولاً. وتوقع ذلك جدير بالسرور.

الرابع: أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبحبهم للمطيع، وبميل قلوبهم إلى الطاعة. وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيرَه مثل فرحه بحمدهم إياه.

وأما المذموم: فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام.. فهذا مكروه والله تعالى أعلم.

ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط:

إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص، ثم ورد عليه وارد الرياء، فلا يخلو: إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل، أو قبل الفراغ.

فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور، من غير إظهار، فهذا لا يفسد العمل، إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص، سالماً عن الرياء، فما يطرأ بعده فيرجو أن لا ينعطف عليه أثر، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره، والتحدث عنه. ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله تعالى، ولم يكن منه إلَّا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٠).

نعم، لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء، ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره، فهذا مخوف.

وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً، وكان قد عقد على الإخلاص، ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء، فلا يخلو:

- إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل.

- وإما أن يكون رياءً باعثاً على العمل، فإن كان باعثاً على العمل، وختم العبادة به حبط أجره.

- وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب، فهذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل، بل بقي العمل صادراً عن باعث الدين، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع، فلا يفسد العمل، لأنه لم ينعدم به أصل نيته، وبقيت تلك النية باعثة على العمل، وحاملة على الإتمام.

دواء الرياء وطريق معالجة القلب به:

قد عرفت مما سبق، أن الرياء محبط للأعمال، وسبب للمقت عند الله تعالى، وأنه من المهلكات، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته، ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق، فلا شفاء إلَّا في شرب الأدوية المرة، وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم. فلا ينفك أحد عن الحاجة إليها، ولكنها تشق أولاً وتخف آخراً. وفي علاجه مقامان:

أحدهما: قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: في قلع عروقه واستئصال أصوله، وأصله: حب المنزلة والجاه، وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهي:

- لذة المحمدة.
- والفرار من ألم الذم.
- والطمع فيما في أيدي الناس.

ويشهد للرياء بهذه الأسباب، وأنها الباعثة للمرائي، ما روى أبو موسى: (أن أعرابياً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية ـ ومعناه: أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب ـ والرجل يقاتل ليرى مكانه ـ وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب ـ والرجل يقاتل للذكر ـ وهذا هو الحمد باللسان ـ أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء. وعلاجه ما ذكرناه في الفصل الأول من الكتاب[2].

ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء. وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ، فإن علم أنه لذيذ في الحال، ولكنه ضار في المآل، سهل عليه قطع الرغبة عنه.

فإذا عرف العبد مضرة الرياء، وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم منه في الحال من التوفيق، وفي الآخرة من المنزلة عند الله، وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد، والخزي الظاهر..

فمهما تفكر العبد في هذا الخزي، وقابل ما يحصل له من العباد بما يفوته في الآخرة، وبما يحبط من ثواب الأعمال، مع أن العمل الواحد ربما يترجح به ميزان حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حوِّل إلى كفة السيئات، فلو لم يكن في الرياء إلَّا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره. وإن كانت حسناته راجحة، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله تعالى.

ثم أي غرض له في مدحهم، وإيثار ذم الله لأجل حمدهم؟ ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة.

وأما الطمع فيما في أيديهم، فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب

---

(١) متفق عليه (خ ١٢٣، م ١٩٠٤).

(٢) ما سبق وذكره المصنف في أول هذا الكتاب من بحث الجاه.

بالمنع والإعطاء وأن الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلاَّ الله، ومن طمع في الخلق لم يخلُ من الذل والخيبة، فكيف يترك ما عند الله بوهم كاذب ورجاء فاسد؟

وأما ذمهم، فلم يحذر منه؟ ولا يزيده ذمهم شيئاً ما لم يكتبه عليه الله، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه..

فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته، وأقبل على الله بقلبه فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره، ويقل نفعه.

فهذا وما قدمنا في أول الكتاب[1] هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي: فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما نغلق الأبواب دون الفواحش، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء.

المقام الثاني: في دفع العارض منه في أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه، وقلع مغارس الرياء من قلبه، بالقناعة، وقطع الطمع، وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم، فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزغاته، وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية.

فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء. وخواطر الرياء ثلاثة، قد تخطر دفعة واحدة، وقد تترادف على الترتيب:

فالأول: العلم باطلاع الخلق، ورجاء اطلاعهم.

ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم، وحصول المنزلة عندهم.

ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه، وعقد الضمير على تحقيقه.

فالأول: معرفة، والثاني: حالة تسمى الشهوة والرغبة، والثالث: فعل يسمى العزم وتصميم العقد.

---

(١) المقصود: كتاب ذم الجاه والرياء، الذي نحن بصدده.

وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأول، وردِّه قبل أن يتلوه الثاني. فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم، دفع ذلك بأن قال: ما لكَ وللخلق علموا أو لم يعلموا، والله عالم بحالك، فأي فائدة من علم غيره؟

فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد، يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء، وتعرضه للمقت عند الله في القيامة.

ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة، فالشهوة تدعوه إلى القبول، والكراهة تدعوه إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما.

فإذن: لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة، والكراهة، والإباء، فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة.

فإن قلت: فمن صادف من نفسه الكراهة والإباء، ولكنه ــ مع ذلك ــ غير خالٍ عن ميل الطبع إليه، وحبه له ومنازعته إياه، إلاَّ أنه كاره لحبه وميله، فهل يكون في زمرة المرائين؟

فاعلم: أن الله لم يكلف العبد إلاَّ ما يطيق، وليس من طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته، ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة، فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به.

ويدل على ذلك من الأخبار: ما روي أن أصحاب رسول الله ﷺ شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشياء، لأن نخرّ من السماء أحب إلينا من أن نتكلم بها، فقال ﷺ: «أو قد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان»[1].

ولم يجدوا إلاَّ الوسواس والكراهة له. ولا يمكن أن يقال: أراد بصريح الإيمان الوسوسة، فلم يبقَ إلاَّ حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٣٢) ونصه: (جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»). وفي رواية: (سئل عن الوسوسة، قال: «تلك محض الإيمان»).

والرياء ــ وإن كان عظيماً ــ فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة، فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى.

[الحذر من الشيطان]:

فإن قلت: إن الشيطان لا تؤمن نزغاته،

فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه؟

أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له؟

أم يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟

قلنا: اختلف الناس في ذلك على ثلاثة أوجه:

فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان، لأنهم انقطعوا لله واشتغلوا بحبه، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم.

وذهبت فرقة من أهل الشام: إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قلَّ يقينه، ونقص توكله، فمن أيقن أن لا شريك لله في تدبيره، فلا يحذر غيره فهو النافع والضار، والشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر. فالعارف يستحي أن يحذر غيره سبحانه وتعالى.

وقالت فرقة من أهل العلم: لا بد من الحذر من الشيطان، وما ذكره البصريون يكاد يكون من تغرير الشيطان، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته، فكيف يتخلص غيرهم؟

وليس كل وساوس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا، بل في صفات الله وأسمائه، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك، ولا ينجو أحد من الخطر فيه، ولذلك قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1].

---

(١) سورة الحج: الآية (٥٢).

وقال ﷺ: «إنه ليغان[1] على قلبي»[2] مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلّا بخير.

فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور. ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان، ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة، التي هي دار الأمن والسرور. وقال موسى فيما أخبر الله تعالى:

﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[3].

ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[4].

والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان، فكيف يُدعَى الأمن منه؟

وأخذ الحذر لا ينافي الاشتغال بحب الله. ومن الحب امتثال أمره تعالى بالحذر من الكفار ومن الشيطان، كما لا ينافي التوكل.

فأخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ، فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به؟

هذا ما اختاره الحارث المحاسبي ـ رحمه الله ـ وهو الصحيح، الذي يشهد له نور العلم وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم.

---

(١) ليغان: الغين والغيم بمعنى واحد. والمراد هنا: ما يتغشى القلب، قال القاضي: قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان من شأنه الدوام عليه، فإذا غفل عد ذلك ذنباً واستغفر منه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢) وتتمته: «وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

(٣) سورة القصص: الآية (١٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

الرخصة في قصد إظهار الطاعات:

اعلم أن في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء. ولذلك أثنى الله تعالى على السرِّ والعلانية فقال:

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1].

والإظهار قسمان: أحدهما: في نفس العمل، والآخر: التحدث بما عمل.

القسم الأول: إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ، ليرغب الناس فيها، كما روي عن الأنصاري الذي جاء بالصرة، فتتابع الناس بالعطية لما رأوه، فقال ﷺ: «من سنَّ سنَّة حسنة فعمل بها، كان له أجرها وأجر من اتبعه»[2] وتجري سائر الأعمال هذا المجرى.

وعلى من يظهر العمل وظيفتان:

إحداهما: أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به، أو يظن ظناً، وربَّ رجل يقتدي به أهله دون جيرانه وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق..

وإنما يصح الإظهار بنية القدوة، ممن هو في محل القدوة، على من هو في محل الاقتداء به.

الثانية: أن يراقب قلبه، فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي، فيدعوه الإظهار بعذر الاقتداء، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به. وهذا حال كل من يظهر أعماله إلاَّ الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٧١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠١٧) حيث روى القصة كاملة ونصه: «من سنَّ في الإسلام سنَّة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء».

القسم الثاني: أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه، والخطر في هذا أشد، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة مبالغة، وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة، إلَّا أنه لو تطرق إليه الرياء،لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها. فهو من هذا الوجه أهون.

والحكم فيه: أن من قوي قلبه، وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به، والرغبة في الخير بسببه، فهو جائز، بل هو مندوب إليه، إن صفت النية، وسلمت عن جميع الآفات.

وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء:

قال عمر رضي الله عنه: ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر، لأني لا أدري أيهما خير لي؟

وقال ابن مسعود: ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها.

وقال أبو سفيان بن الحارث[1] لأهله حين حضره الموت: لا تبكوا علي، فإني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت.

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة، وفيها غاية المراءاة إذا صدرت ممن يرائي بها، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به، فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال، والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء.

بل إظهار المرائي للعبادة ــ إذا لم يعلم الناس أنه رياء ــ فيه خير كثير للناس، ولكنه شر للمرائي، فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله؟

وقد روي أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت، فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء، فتركوا ذلك، وترك الناس الرغبة فيه، فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنف.

---

(١) أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، صحابي كريم.

فإظهار المرائي قد يكون فيه خير كثير لغيره ـ إذا لم يعرف رياؤه ـ «وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1] و«بأقوام لا خلاق لهم»[2].

كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها:

لا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه، وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها، وربما يظن أن إخفاءها رياء محظور، وليس كذلك. والمحظور أن يسترها ليرى الناس أنه ورع، فهذا ستر المرائي.

وللإنسان ستر المعاصي ويصح قصده لذلك، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه، وذلك لوجوه:

الأول: أن يفرح بستر الله عليه لحديث: «إن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً، ستره الله عليه في الآخرة»[3]، وهذا ينشأ من قوة الإيمان.

الثاني: أنه قد علم أن الله يكره ظهور المعاصي، ويحب سترها، فهو وإن عصى لم يخلُ قلبه عن محبة ما أحبه الله. وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً.

الثالث: الحياء خلق كريم ووصف محمود، قال ﷺ: «الحياء خير كله»[4] فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس، جمع إلى الفسق الوقاحة وفقد الحياء، وهو أشد حالاً ممن يستتر ويستحيي.

الرابع: أن يخاف من ظهور ذنبه، أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به.

خطأ ترك الطاعات خوفاً من الرياء:

من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به، وذلك غلط، وموافقة للشيطان. فترك العمل خوفاً من قولهم: إنه مراء، هو عين الرياء، فلولا حبه

---

(١) متفق عليه (خ ٣٠٦٢، م ١١١).
(٢) أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح. (ع).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٠).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٣٧).

لمحمدتهم، وخوفه من ذمهم فما لـه ولقولهم؟! قالوا: إنه مراء أو قالـوا: إنـه مخلص؟

وأي فـرق بين أن يترك العمـل خوفـاً من أن يقال إنـه مـراء، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال إنه غافل مقصر؟ بل ترك العمل أشد من ذلك.

فهذه كلها من مكايد الشيطان على العباد الجهال.

واعلم أن الرجل قد يبيت مع القـوم في موضـع، فيقومـون للتهجد، أو يقـوم بعضهم، وهو ممن يقوم في بيته، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يـزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلاً. فهذا ربما يظن أنه رياء، وأن الواجب ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق.

لأن كـل مؤمن راغب في عبادة الله تعـالى، وفي قيـام الليـل وصيـام النهـار، ولكن قد تعوقه العوائق، ويمنعه الاشتغال، أو تستهويه الغفلة، فربما تكون مشاهـدة الغير سبب زوال الغفلة، أو تندفع العوائق والأشغـال في بعض المواضـع فينبعث له النشاط.

واجب المريد قبل العمل وبعده وفيه:

اعلم أن أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القنـاعة بعلم الله في جميـع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله إلاَّ من لا يخاف إلاَّ الله، ولا يرجو إلاَّ الله، فأما من خاف غيره وارتجاه، اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله.

فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقـل والإيمان، لمـا فيه من خطر التعرض للمقت.

وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقـة، التي لا يقدر عليهـا غيره، فـإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء. ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابل عظيم عمله عظيم ملك الآخـرة، ونعيم الجنة، ودوامـه أبد الآباد، وعظيم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده.

ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ، حتى لا يظهره ولا يتحدث به.

وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجـلاً من عمله خائفـاً أنه ربمـا داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه.

الكِتَابُ التَّاسِعُ

ذَمُّ الكِبْرِ والعُجْب

رُبعُ المُهلِكات

الفصل الأول

في الكبر

بيان ذم الكبر:

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه، وذم كل جبار متكبر.

فقال تعالى:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾(٣).

وقال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾(٤).

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٦).

(٢) سورة غافر: الآية (٣٥).

(٣) سورة إبراهيم: الآية (١٥).

(٤) سورة النحل: الآية (٢٣).

(٥) سورة غافر: الآية (٦٠).

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[1].

وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»[2].

وقال ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها»[3].

وقال ﷺ: «أهل النار، كل عتل جوَّاظ مستكبر، وأهل الجنة كل ضعيف متضعف»[4].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير.

ذم الاختيال وفضيلة التواضع:

قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً»[5].

وقال ﷺ: «بينما رجل يتبختر في بردته إذ أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[6].

وقال ﷺ: «لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء»[7].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩١).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٠).
(٣) متفق عليه (خ ٤٨٥٠، م ٢٨٤٦).
(٤) متفق عليه (خ ٤٩١٨، م ٢٨٥٣). والعتل: الشديد الخصومة، الجواظ: الجموع المنوع.
(٥) متفق عليه (خ ٥٧٨٨، م ٢٠٨٧).
(٦) متفق عليه (خ ٥٧٨٩، م ٢٠٨٨).
(٧) متفق عليه (خ ٥٧٨٣، م ٢٠٨٦).

وقال ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»(١).

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي.

وقال الفضيل ـ وقد سئل عن التواضع ما هو؟ ـ: أن تخضع للحق، وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته.

وقال الحسن البصري: أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك، ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً.

ورأى محمد بن واسع ولده يختال، فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله.

وكان إبراهيم النخعي يقول: إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء.

ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه، فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة، فأين المعرفة؟

حقيقة الكبر وآفته:

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح.

واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق.

والكبر يستدعي متكبراً عليه، ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب، كما سيأتي. ولا يتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبراً.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٨).

بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة، ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر.

فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضاً: عزة وتعظماً. ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى:

﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾[1].

قال: عظمة لم يبلغوها. ففسر الكبر بتلك العظمة.

ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات، ويسمى ذلك: تكبراً وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة.

فهذا هو الكبر، وآفته عظيمة، وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العبَّاد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق.

وكيف لا تعظم آفته، وقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[2]، وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة.

وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين، قال تعالى:

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[3].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[4].

﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[5].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[6].

---

(١) سورة غافر: الآية (٥٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٩١).
(٣) سورة غافر: الآية (٧٦).
(٤) سورة غافر: الآية (٦٠).
(٥) سورة النحل: الآية (٢٢).
(٦) سورة الأعراف: الآية (١٤٦).

درجات التكبر باعتبار المتكبر عليه:

اعلم أن الإنسان خلق ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فالتكبر باعتبار المتكبَّر عليه ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله، وهو أفحش أنواع التكبر، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان، مثل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبره قال: أنا ربكم الأعلى، إذ استنكف أن يكون عبداً لله، ولذلك قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1].

الثاني: التكبر على الرسل، من حيث تعزز النفس، وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس، كما حكى الله قولهم:

﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[2].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[3].

وقال تعالى عن فرعون:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[4].

فتكبر على الله وعلى رسله.

وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[5].

---

(١) سورة غافر: الآية (٦٠).

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٤٧).

(٣) سورة إبراهيم: الآية (١٠).

(٤) سورة القصص: الآية (٣٩).

(٥) سورة الزخرف: الآية (٣١).

قال قتادة: طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي ﷺ إذ قالوا: غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟

وقال تعالى:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1].

وهذا الكبر قريب من الأول، وإن كان دونه، وهو تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

الثالث: التكبر على العباد: وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم، ويأنف عن مساواتهم.

هذا ـ وإن كان دون الأول والثاني ـ فهو أيضاً عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد الضعيف المملوك العاجز، الذي لا يقدر على شيء، فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته»[2].

الوجه الثاني: أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عباد الله استنكف عن قبوله، وتشمر لجحده، وذلك يحمله على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[3].

---

(١) سورة النمل: الآية (١٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٠).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٠٦).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بالرجل إثماً، إذا قيل له: اتق الله، قال: عليك نفسك.

وقال ﷺ لرجل: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع، فقال النبي ﷺ: «لا استطعت»، فما منعه إلا كبره، قال: فما رفعها بعد ذلك[1].

فالتكبر على الخلق عظيم، لأنه يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى.

وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا، وما حكاه الله من أحواله إلا ليعتبر به فإنه قال: أنا خير منه، وهذا الكبر بالنسب لأنه قال:

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2].

فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود، الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجرَّه ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد.

ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر بهاتين الآفتين ــ إذ سأله ثابت بن قيس فقال: يا رسول الله، إني امرؤ قد حبب إليَّ الجمال، ما ترى أفمن الكبر هو؟ ــ فقال ﷺ: «لا، ولكن الكبر بطر الحق وغمص الناس»[3] وقوله «غمص الناس» أي ازدراهم واحتقرهم، وهم عباد الله مثله أو خير منه. وهذه الآفة الأولى، ورد الحق هو الآفة الثانية.

فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقره، ونظر إليه بعين الاستصغار، أو ردّ الحق وهو يعرفه، فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٠٢١).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٩١) بلفظ: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس» وغمط بمعنى غمص.

بيان ما به التكبر:

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني: وهو العلم والعمل، وكمال دينوي وهو: النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب:

الأول: العلم، وما أسرع الكبر إلى العلماء، فلا يلبث العالم أن يتعزز بالعلم، ويستشعر في نفسه جماله، حتى يستعظم نفسه، ويستحقر الناس، وينظر إليهم نظره إلى البهائم، ويستجهلهم، ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقوموا له ويخدموه.. والغالب أنهم يزورونه ولا يزورهم، ويعودونه ولا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم.. كأنهم عبيده، أو أجراؤه، وكأن تعلمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم. هذا فيما يتعلق بالدنيا.

أما في أمر الآخرة: فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم.

وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً، فالعلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه، وخطر الخاتمة.. وهذا العلم يزيده خوفاً وتواضعاً.

وسبب الكبر بالعلم أمران:

ـ الأمر الأول: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً، وليس علماً حقيقياً، فالعلم الحقيقي ما يعرف به ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله تعالى والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع. قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(١).

وأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة.. فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلأ كبراً، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً.

---

(١) سورة فاطر: الآية (٢٨).

ـ الأمر الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخيلة رديء النفس، سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه، وتزكية قلبه، فبقي خبيث الجوهر.

وقد ضرب وهب بن منبه[1] لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء، حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة.

فكذلك العلم، يزيد المتكبر كبراً، والمتواضع تواضعاً. فالعلم من أعظم ما يتكبر به، ولذلك قال تعالى لنبيه:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[3].

الثاني: العمل والعبادة: فليس يخلو الزهاد والعباد عن رذيلة العز والكبر، ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

أما في الدنيا: فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم.. كأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

وأما في الدين: فهو أن يرى الناس هالكين، ويرى نفسه ناجياً، وهو الهالك تحقيقاً ــ مهما رأى ذلك ــ قال ﷺ: «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»[4]. وإنما قال ذلك، لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله..

---

(١) وهب بن منبه (٣٤ ــ ١١٤)هـ عالم بالأخبار، قيل: إنه صحب ابن عباس، ويعد من التابعين.

(٢) سورة الشعراء: الآية (٢١٥).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٣).

ومن اعتقد جزماً، أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله، فإن الجهل أفحش المعاصي، وأعظم شيء يبعد العبد عن الله. وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض، وأمن من مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس موال وعبيد، ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم، وثمرته التفاخر عليهم فيقول: يا نبطي، يا هندي، ومن أنت؟ ومن أبوك؟ وما يجري مجراه.

وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب، وإن كان صالحاً وعاقلاً، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضب ترشح منه.

روي عن أبي ذر أنه قال: قاولت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء، فقال النبي ﷺ: «يا أبا ذر طفَّ الصاع، طفَّ الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل»[1]. فقال أبو ذر فاضطجعت وقلت للرجل: قم فطأ على خدي.

فانظر كيف نبهه رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل، وانظر كيف تاب، وقلع من نفسه شجرة الكبر، إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل.

الرابع: التفاخر بالجمال، وذلك أكثر ما يجري بين النساء، ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة، وذكر عيوب الناس.

الخامس: الكبر بالمال، وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم، وبين المتجملين في لباسهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر

---

(١) أخرجه ابن المبارك في البر والصلة، وأحمد (ع) والقصة في الصحيحين بلفظ: «إني سببت رجلاً فعيرته بأمه، فقال النبي: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية» (خ ٣٠، م ١٦٦١).

عليه. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[1].

وكان ذلك منه تكبراً بالمال والولد، ثم بين الله عاقبة أمره بقوله:

﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[2].

ومن ذلك تكبر قارون.

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار، وبالعشيرة والأقارب والبنين، ويجري بين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة: فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً، وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين.. فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض. نسأل الله العون بلطفه ورحمته.

أخلاق المتواضعين ومظاهره التكبر:

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه[3]، ونظره شزراً، وإطراقه رأسه، وجلوسه متربعاً أو متكئاً، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته، وتبختره، وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض.

فمنها: **التكبر** بأن يحب قيام الناس له، أو بين يديه. قال علي رضي الله

---

(١) سورة الكهف: الآية (٣٤).

(٢) سورة الكهف: الآية (٤٢).

(٣) صعر الوجه: أي ازوراره، والمقصود: الإعراض به تكبراً.

عنه: (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى رجل قاعد، وبين يديه قوم قيام)[1].

ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه. وكان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرَف من عبيده، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة.

ومنها: أن لا يزور غيره، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين، وهو التواضع.

ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه، إلا أن يجلس بين يديه، والتواضع خلافه.

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، والتواضع خلافه.

ومنها: أن لا يأخذ متاعه، ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين. قال ثعلبة بن أبي مالك القرظي[2]: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة لمروان، فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك.

ومنها اللباس، إذ يظهر به التكبر والتواضع، على أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد، في كل حال، وهو الذي أشار به ﷺ في حديث ثابت بن قيس: إني امرؤ حبب إليَّ الجمال. . فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب، لا ليتكبر على غيره، كما مر، وقد يكون ذلك من الكبر.

ومنها: أن يتواضع بالاحتمال، إذا سب وأوذي وأُخِذَ حقُّه، فذلك هو الأصل.

وبالجملة: فمجامع حسن الأخلاق والتواضع في سيرة النبي ﷺ، فينبغي أن يقتدي به، ومنه ينبغي أن يتعلم.

---

(١) معناه في المرفوع: «من أحب أن يتمثل له الرجال بين يديه قياماً، فليتبوأ مقعده من النار» رواه الطبراني وأحمد وأبو داود والترمذي وحسنه (ش).

(٢) في الأصل: ثابت بن أبي مالك، والتصحيح من الشرح.

معالجة الكبر واكتساب التواضع :

اعلم أن الكبر من المهلكات، ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة، واستعمال الأدوية القامعة له، وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

المقام الأول: في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلاّ بمجموعهما.

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه، ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر. فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلاّ التواضع والذلة والمهانة.

وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلاّ بالله، ومعرفته ربه وعظمته ومجده، فالقول فيه يطول.

وأما معرفته نفسه، فهو أيضاً يطول، ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله، فقد قال تعالى:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾(١).

فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان، وإلى آخر أمره، وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية:

أما أول الإنسان، فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، وكان في حيز العدم دهوراً،

---

(١) سورة عبس: الآيات (١٧ ــ ٢٢).

ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها، إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظماً، ثم كسا العظم لحماً.

فقد كان هذا بداية وجوده، حيث كان شيئاً مذكوراً، فما صار شيئاً مذكوراً إلَّا وهو على أخس الأوصاف والنعوت. إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر.. فهذا معنى قوله:

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾.

ثم امتنَّ عليه فقال:

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠﴾.

وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت.

وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام، والنطفة القذرة بعد العدم المحض ليعرِّفه خسَّة ذاته، فيعرف نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه، ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلَّا به جلَّ وعلا.

فمن هذا بدؤه وهذه أحواله، فمن أين له الكبرياء والفخر، وهو على التحقيق أخس الأخسَّاء وأضعف الضعفاء؟!

وأما آخره ومورده فهو الموت، المشار إليه بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ۝٢٢﴾.

ومعناه: أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته.. فيعود جماداً كما كان أول مرة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة، ثم رميماً.. وصار كأن لم يغن بالأمس. وليته بقي كذلك، فما أحسنه لو ترك تراباً، لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء.

فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله تعالى:

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ۝٢٢﴾.

فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ما له وللفرح في لحظة واحدة، فضلاً عن البطر والأشر؟

وأما العلاج العملي: فهو التواضع لله بالفعل، ولسائر الخلق، بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة.

السبب الأول: النسب، فمن كان يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوِ قلبه بمعرفة أمرين:

ـ أحدهما: أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيساً في صفاته، فكيف يجبر خسته بكمال غيره؟

ـ الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي فيعرف أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وجده البعيد تراب ذليل.. فمن كان كذلك فكيف يتكبر؟!

السبب الثاني: التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم. فإذا فعل ذلك رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال، فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه. ولو ترك نفسه في حياته يوماً واحداً لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار، وصار أنتن من الدواب المهملة.

كما أنه لم يكن قبح القبيح إليه حتى ينفيه عن نفسه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟!

فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن تأملها.

السبب الثالث: التكبر بالقوة، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه، وأن نملة لو دخلت أنفه أو أذنه لقتلته.. ثم إن

قـويَ الإنسان فـلا يكون أقـوى من حمار أو بقـرة أو جمـل، وأي افتخـار في صفـة يسبقك فيها البهائم؟!

السبب الـرابـع والخـامس: الغنى وكثـرة المـال، وفي معنـاه كثـرة الأتبـاع والأنصار. وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كـالجمال والقـوة والعلم، وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسـه وداره، ولو مـات فرسـه وانهدمت داره لعاد ذليلاً. وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته، فهو ظاهر الجهل.

كيف والمتكبـر بالغنى، لـو تأمـل لرأى في اليهـود من يـزيـد عليـه في الغنى والثروة والتجمل، فأفٍ لشرف يسبقك به اليهودي، وأفٍ لشرف يـأخذه السـارق في لحظة واحدة، فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً؟!

السبب الســادس: الكبر بـالعلم، وهـو أعـظم الآفـات، وأبعـدهـا عن قبـول العـلاج، إلاَّ بشدة شـديدة، وجهـد جهيد، وذلـك لأن قدر العلم عـظيم عنـد الله، عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما.

ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلاَّ بمعرفة أمرين:

ـ أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على العالم آكد، فإن من عصى الله تعالى عن معـرفة وعلم فجنـايته أفحش، قـال ﷺ: «يؤتى بالعـالم يوم القيـامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه[1]، فيدور بها كما يدور الحمار بالـرحا، فيـطيف به أهـل النار، فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشر وآتيـه»[2]. وقد مثل الله سبحانه من يعلم ولا يعمل بالحمار، فقال عزَّ وجلّ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[3].

أراد به علماء اليهود.

---

(١) الأقتاب: الأمعاء.

(٢) متفق عليه (خ ٣٢٦٧، م ٢٩٨٩).

(٣) سورة الجمعة: الآية (٥).

فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده. فهذا الخطر يمنع من التكبر.

ـ الثاني: أن يعرف العالم أن الكبر لا يليق إلاَّ بالله عزَّ وجلّ وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، وقد أحب الله منه أن يتواضع، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه. وهذا يزيل التكبر عن قلبه.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد. وسبيله: أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد. وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي [له] أن يتكبر عليه كيفما كان. وقد قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وغير العالم لا ينبغي أن تتكبر عليه، إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء.. ربما جرى عليك في باطنك ما صرت به عند الله ممقوتاً.

[اختبارات على التواضع]:

تلك معارف، يزال بها داء الكبر عن القلب لا غير، إلاَّ أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع، وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة، بل ينبغي أن تكمل بالعمل، وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس.

وبيانه أن يمتحن النفس بامتحانات تستخرج ما في باطنه منها:

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له.. فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً، فليتقِ الله ويشتغل بعلاجه.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل، ويقدمهم على

(١) سورة الزمر: الآية (٩).

نفسه، ويمشي خلفهم، فإن ثقل عليه ذلـك فهو متكبـر، فليواظب عليـه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الـرفقاء والأقارب، فإن ثقل عليه ذلك، فهو كبر. . فليشتغل بإزالته. .

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسـه وحاجـة أهله من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء.

الامتحان الخامس: أن يلبس ثياباً بذلة، فـإن نفور النفس عن ذلـك في الملأ رياء، وفي الخلوة كبر.

فاعرف، فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

غاية الرياضة في خلق التواضع:

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق، له طرفـان وواسطة، فـطرفه الـذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبـراً، وطرفـه الذي يميـل إلى النقصان يسمى مـذلة، والـوسط يسمى تواضعاً.

والمحمود: أن يتواضع في غير مذلة. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع، أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه.

***

الفصل الثاني

في العُجْب

ذم العجب وآفته:

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى، وسنّة رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾(١).

ذكر ذلك في معرض الإنكار.

وقال تعالى:

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾(٢).

فردَّ على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم.

وقال تعالى:

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(٣).

وهذا يرجع إلى العجب بالعمل.

وقال ﷺ لأبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك»(٤).

---

(١) سورة التوبة: الآية (٢٥).

(٢) سورة الحشر: الآية (٢).

(٣) سورة الكهف: الآية (١٠٤).

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه (ع).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب»، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلاَّ بالسعي والطلب، والقانط لا يسعى، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وظفر بمراده فلا يسعى.

وقال تعالى:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[1].

قال زيد بن أسلم: لا تبروها، أي لا تعتقدوا أنها بارَّة، وهو معنى العجب.

واعلم أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه. فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع العباد، أما مع الله تعالى، فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعضها لا يذكرها وينساها لعدم تفقده لها، ويتذكر بعضها فيستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تلافيه، ويظن أنه يغفر له.

وأما العبادات: فإنه يستعظمها ويتبجح بها، ويمنّ على الله بفعلها، وينسى نعمته بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً. فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلَّما تنفع.

حقيقة العجب:

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه ــ في علم وعمل ومال وغيره ــ حالات:

الأولى: أن يكون خائفاً على زواله، ومشفقاً على تكدُّره، أو سلبه من أصله، فهذا ليس بمعجب.

الثانية: أن لا يكون خائفاً من زواله، لكن يكون فرحاً به، من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه، لا من حيث إضافته إلى نفسه. وهذا أيضاً ليس بمعجب.

---

(١) سورة النجم: الآية (٣٢).

الثالثة: هي العجب، وهي أن يكون غير خائف عليه، بل يكون فرحاً به، مطمئناً إليه، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير، لا من حيث إنه عطية من الله تعالى. فيكون فرحه من حيث أنه صفته، ومنسوب إليه بأنه له. فإذا غلب على قلبه إنه نعمة من الله، إذا شاء سلبها عنه، زال العجب بذلك عن نفسه.

فالعجب: هو استعظام النعمة، والركون إليها، مع نسيان إضافتها إلى المنعم.

علاج العجب على الجملة:

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل.

فالورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب، إنما يعجب به من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته، وأعضائه، وسائر الأسباب التي بها يتم عمله، من أين كانت له؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه، من غير حق سبق له، ومن غير وسيلة يدلي بها، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه ما لا يستحق، وآثره به على غيره.

فإذن: لا معنى لعجب العابد بعبادته، وعجب العالم بعلمه، وعجب الجميل بجماله، وعجب الغني بغناه، لأن كل ذلك من فضل الله.

أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

وهو ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته، وصحته وقوته، وحسن صورته.

وعلاجه: ما ذكرناه في الكبر بالجمال.

الثاني: البطش والقوة.. وعلاجه ما ذكرناه، وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة سلطها عليه.

الثالث: العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور في مصالح الدين

والدنيا. وثمرته: الاستبداد بالرأي، وترك المشورة، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه.

فليعلم: أنه ما أوتي من العلم إلاَّ قليلاً، وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه. فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى؟ وأن يتهم عقله، وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم، ويضحك الناس منهم؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري، فإن القاصر العقل لا يعرف قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه.

الرابع: العجب بالنسب الشريف، كعجب الهاشمية، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موالٍ وعبيد.

وعلاجه: أن يعلم أنه إذا خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم، وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف، واستعظام الخلق، ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، فكانوا عند الله شراً من البهائم.

ولذلك قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

أي: لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكر فائدة النسب فقال:

﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ﴾.

ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[1].

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

ولما نزل قوله تعالى:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1].

ناداهم بطناً بطناً، حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمة رسول الله ﷺ، اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً»[2]. فمن عرف هذه الأمور علم أن شرفه بقدر تقواه.

الخامس: العجب بنسب السلاطين والظلمة دون نسب الدين والعلم، وهذا غاية الجهل.

وعلاجه: أن يتفكر في مخازيهم، وأنهم ممقوتون عند الله. فحق أولاد الظلمة ــ إن عصمهم الله من الظلم ــ أن يشكروا الله على سلامة دينهم.

السادس: العجب بكثرة الأولاد والخدم والأقارب والأنصار.

وعلاجه: أن يتفكر في ضعفه وضعفهم، وأنهم كلهم عبيد عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً.

السابع: العجب بالمال، كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال:

﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[3].

وذلك العجب بالغنى.

وعلاجه: أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه، وعظيم غوائله، وينظر إلى الفقراء، وسبقهم إلى الجنة يوم القيامة.

وفي حديث الذي تبختر بحلته وأعجبته نفسه، وأمر الله الأرض فأخذته: عظة لمن اتعظ، وقد سبق ذكره.

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٢١٤).

(٢) رواه الشيخان: (خ ٢٧٥٣، م ٢٠٥).

(٣) سورة الكهف: الآية (٣٤).

الثامن: العجب بالرأي الخطأ، قال تعالى:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم، والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى.

وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره، لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه. ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جداً.

***

---

(١) سورة فاطر: الآية (٨).

(٢) سورة الكهف: الآية (١٠٤).

الكِتَابُ ٱلعَاشِرُ

ذَمُّ ٱلغُرُور

رُبعُ المهلكات

ذم الغرور وحقيقته:

اعلم أن قوله تعالى:

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾[2] الآية.

كافٍ في ذم الغرور.

وقال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»[3].

والغرور: هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع، عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير، إما في العاجل أو في الآجل، عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير، وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذن مغرورون، وإن اختلفت أصناف غرورهم، وإن اختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض.

---

(١) سورة لقمان: الآية (٣٣).

(٢) سورة الحديد: الآية (١٤).

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن (ع).

[أشد أنواع الغرور]:

وأظهر درجات الغرور وأشدها غرور الكفار، وغرور العصاة والفساق.

أما غرور الكفار، فقد أشار إليه قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾[1].

وعلاج هذا الغرور: الإيمان، إما بالتصديق، وإما بالبرهان.

وأما غرور العصاة من المؤمنين، فهو بقولهم: إن الله كريم وإنا نرجو عفوه. واتكالهم على ذلك، وإهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاءً، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، وأن نعمة الله واسعة، ورحمته شاملة، وكرمه عميم، وأين معاصي العباد من بحار رحمته، وإنا موحدون ومؤمنون؟! وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبهم.

وينسى المغرور أن نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة، فلم يردْ فكان من المغرقين:

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾.

فقال تعالى:

﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[2].

واستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه فلم ينفعه.

فمن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه، ويروى بشرب أبيه، ويصير عالماً بتعلم أبيه. فالتقوى فرض عين، فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئاً، وكذا العكس.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٨٦).

(٢) سورة هود: الآية (٤٦).

[بين الغرور والرجاء]:

فإن قلت: فأين الغلط في قول العصاة: إن الله كريم وإنا نرجو رحمته ومغفرته، وقد قال: «أنا عند ظن عبدي بي»[1]؟

فاعلم: أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر، مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب. ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»[2] وهذا هو التمني على الله تعالى غيَّر الشيطان اسمه فسماه: «رجاء» حتى خدع به الجهال.

وقد شرح الله الرجاء فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[3].

يعني: أن الرجاء بهم أليق.

قيل للحسن البصري: قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل؟

فقال: هيهات هيهات!! تلك أمانيهم يترجّون بها، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه.

وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو ـ بعد ـ لم يتزوج، فهو معتوه، فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يعمل ولم يترك المعاصي، فهو مغرور.

---

(١) متفق عليه (خ ٢٥٩٩، م ٢٦٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن (ع).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢١٨).

[موضع الرجاء]:

فإن قلت: فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود؟

فاعلم: أنه محمود في موضعين.

أحدهما: في حق العاصي المنهمك، إذا خطرت له التوبة، فقال له الشيطان: وأنى تقبل توبتك؟ فيقنطه من رحمة الله تعالى..

فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[1]. وأن الله كريم، يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب. قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾[2].

أمرهم بالإنابة.

وقال تعالى:

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[3].

فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهومغرور.

الثاني: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال، ويقتصر على الفرائض، فيرجي نفسه نعيم الله تعالى، وما وعد به الصالحين، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة، فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[4] الآيات.

---

(١) سورة الزمر: الآية (٥٣).

(٢) سورة الزمر: الآيتان (٥٣ ــ ٥٤).

(٣) سورة طٰه: الآية (٨٢).

(٤) سورة المؤمنون: الآيتان (١ ــ ٢).

فالرجاء الأول: يقمع القنوط المانع من التوبة.

والرجاء الثاني: يقمع الفتور المانع من النشاط.

فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء، وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرة.

بيان أصناف المغترين

فرق المغترين كثيرة، ولكن يجمعهم أربعة أصناف:

الأول: العلماء.

الثاني: العبَّاد.

الثالث: المتصوفة.

الرابع: أرباب الأموال.

الصنف الأول: أهل العلم:

[والمغترون منهم نوعان، وكل نوع فيه فرق؛ **والنوع الأول**]:

● فرقة: أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وتعمقوا فيها. وأهملوا تفقد الجوارح، وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات. واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم لكرامتهم على الله.

وهم مغرورون: فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان: علم معاملة، وعلم مكاشفة، المسمى بالعادة: علم المعرفة.

فأما العلم بالمعاملة: كمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة. وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل.

فمثال هذا: كمريض به علة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء، فسعى حتى عثر على طبيب حاذق، فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط.. فتعلم ذلك وكتب منه

نسخة، ورجع إلى بيته يكررها، ويعلمها المرضى، ولم يشتغل بشربها واستعمالها، أفترى أن ذلك يغني عن مرضه شيئاً؟

وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق وما زكى نفسه بها، فهو مغرور، إذ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1].

ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها، وكتبَ ذلك وعلمه الناس.

وأما الذي يدعي علم «المعرفة» كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه، وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده، فغروره أشد.

ومثاله: مثال من أراد خدمة ملك، فعرفه وعرف صفاته وأخلاقه. ولم يتعرف على ما يحبه وما يغضبه وما يرضيه، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لكل ما يغضبه، وعاطل عن جميع ما يحبه؛ فهذا مغرور جداً.. ولو ترك جميع ما عرف واكتفى بمعرفته ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب إلى نيل المراد. بل تقصيره في التقوى دليل على أنه لم يعرف إلا الأسامي دون المعاني. إذ لو عرف الله لخشيه واتقاه. ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً.

● وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم لمحو الصفات المذمومة منها كالكبر والرياء والحسد.. وطلب الشهرة..

فهؤلاء: زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر

---

(١) سورة الشمس: الآية (٩).

(٢) سورة فاطر: الآية (٢٨).

إلى صـوركم ولا إلى أمـوالكم، وإنمـا ينـظر إلى قلوبكم وأعمـالكم»[1] فتعهـدوا الأعمال، وما تعهدوا القلوب، والقلب هو الأصـل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. ولا يخفى أن ذلك غرور.

● وفرقة أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشـرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بـذلك، وإنمـا يبتلي به العـوام، ثم إذا ظهر عليهم الكبـر والريـاسة وطلب الشـرف قالوا: ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم. .

ونسي المغرور: أن عدوه ـ الذي حذره الله منـه ـ هو الشيـطان، وأنه يفـرح بما يفعله ويسخر به، ونسي ما روي عن الصحـابة من التـواضع، حتى عـوتب عمر رضي الله عنـه في بذاذة زيـه عنـد قـدومـه إلى الشـام، فقـال: إنـا قـوم أعـزنـا الله بالإسلام، فلا نطلب العزَّ في غيره.

● وفـرقة أخـرى: أحكموا العلم والعمـل، وجاهـدوا أنفسهم في التبري من الرياء والكبر. . ، ولكنهم بعد مغرورون، إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكـايد الشيطان ما دق وغمض مدركه، فلم يفطنوا لها وأهملوها.

وإنما مثاله: من أراد تنقية الزرع من الحشيش، ففعل، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض، وظن أن الكل قد ظهر.

فكذلك العالم، قد يفعل جميع ذلك، وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله، ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت.

وعساه يصنف ظاناً أنه يجمع العلم لينتفع بـه، وإنما يـريد بـه استطارة اسمـه بحسن التصنيف، ولعله في تصنيفـه لا يخلو من الثنـاء على نفسـه، ولعله يحكي ما يستحسنه ولا يعزيه إلى قـائله، فينقله كالسـارق له، أو يغيـره أدنى تغيير، كـالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤/٣٤).

فهذا وأمثاله، من خفايا القلوب، التي لا يفطن له إلا الأكياس، ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء.

وأقل الدرجات: أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويسوؤه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه. فإذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، ومن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مرجوّ الحال. فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار.

هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكنهم قصروا في العمل بالعلم.

[النوع الثاني]:

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم، وتركوا المهم. وهم به مغترون، إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه.

● فمنهم فرقة: اقتصروا على علم الفتاوى في المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد. وسموه الفقه وعلم المذاهب، وربما ضيعوا ــ مع ذلك ــ الأعمال الظاهرة، ولم يحرسوا قلوبهم عن المهلكات، وهؤلاء مغرورون من وجهين: من حيث العمل والعلم.

أما العمل: فقد ذكرنا وجه الغرور فيه، ومثلنا له بالمريض الذي تعلم الدواء.. فكذلك المتفقه المسكين، قد يسلط عليه الكبر والحسد وسائر المهلكات.. فترك ذلك واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار والحيض، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه.. فيظن أنه مشغول بفرض دينه، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية؛ هذا لو كانت نيته صحيحة.

وأما غروره من حيث العلم، فحيث اقتصر على علم الفتاوى، وظنه أنه الدين، وترك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وربما طعن في المحدثين أنهم نقلة أخبار، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق.

وسبب غروره: ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه، ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله، ليستشعر القلب الخوف، إذ قال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1].

والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم.

ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات. ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة وإفحام الخصوم، فغرور هؤلاء أقبح من غرور من قبلهم.

● وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم الكلام، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان، ولا يصح إيمان إلا بتعلم جدلهم، وهم فرقتان: ضالة ومحقة.

والمحقة إنما اغترارها أنها ظنت الجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن، أو ليس كامل الإيمان؟!

ولم يلتفتوا إلى القرن الأول، وهم خير القرون، وأنهم لم يشتغلوا بذلك، وأن الرسول ﷺ ما جادلهم إلا بتلاوة القرآن.

● وفرقة أخرى: اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء..

وغرور هؤلاء أشد، لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية العجب، ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة، إلا وهم محبون لله، وما وقعوا على خفايا عيوب الناس إلا وهم منزهون عنها.

فالمسكين، بهذه الظنون يرى أنه من المتوكلين على الله، وهو من المتكلمين على العزّ والجاه والمال، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين. فهو يخوف بالله تعالى وهو منه آمن، ويذكر بالله تعالى، وهو له ناس، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص.

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٢).

وهو يدعي حب الله، فما الذي تركه من محاب نفسه لأجله؟ ويدعي الزهد، فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى؟

وإنما وقع الغرور لهؤلاء، من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني، وهو حب الله والخوف منه، ثم قدروا ـ مع ذلك ـ على وصف المنازل العالية في هذه المعاني، فظنوا أنهم ما قدروا على وصف ذلك إلا لاتصافهم بها.

ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور.

● وفرقة أخرى: عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ، واشتغلوا بالطامات والشطح، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل، طلباً للإغراب.

فهؤلاء شياطين الإنس، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

ومنهم من قنع بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا، ويظن أن حفظه ذلك يكفيه.

● وفرقة أخرى: استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه، وجمع الروايات الكثيرة، وطلب الأسانيد الغريبة العالية، فهمّ أحدهم أن يدور في البلاد، ويرى الشيوخ، ليقول: رأيتَ فلاناً، ورويت عن فلان.

وغرورهم: أنهم كحملة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة، فعلمهم قاصر، وليس معهم إلا النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم.

والذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة، وسالك طريق الآخرة ربما يكفيه الحديث الواحد ليعمل به طول عمره.

● وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم النحو واللغة وغريب اللغة، واغتروا به، وزعموا أنهم قد غفر لهم، وأنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وقوامهما بعلم اللغة. فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو، وفي صناعة الشعر.

ومثالهم: كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف. ويزعم

أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة، فلا بد من تعلمها، ولو عقل لعلم: أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ. والباقي زيادة على الكفاية.

فأما التعمق في اللغة إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه، ثم لو اقتصر عليه، وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها، فهذا أيضاً مغرور.

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل:

والمغرورون منهم فرق كثيرة، فمنهم من غروره في الصلاة، ومنهم من غروره في تلاوة القرآن، ومنهم في الحج، ومنهم في الغزو، ومنهم في الزهد. ولم يخل إلا الأكياس وقليل ما هم.

● فمنهم فرقة: أهملوا الفرائض، واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى السرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء.. ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة.

ومنهم من غلب عليه الوسوسة في نية الصلاة.

ومنهم من تغلب عليه الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة.

● وفرقة أخرى: اغتروا بقراءة القرآن، وربما يختمونه في اليوم والليل مرة، ولسان أحدهم يجري به، وقلبه يتردد في أودية الأماني، فلا يتفكر في معاني القرآن، ولا يتعظ بمواعظه.

فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه.

ومثاله: مثال عبد كتب إليه مالكه ومولاه كتاباً، وأشار به عليه بالأوامر والنواهي. فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على حفظه وتكريرة. فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه.

نعم، تلاوته إنما تراد لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه.

● وفرقة أخرى: اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء.. ومع ذلك يظنون بأنفسهم الخير.

● وفرقة أخرى: اغتروا بالحج، فيخرجون إليه، من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون، وطلب الزاد الحلال.. ومع ذلك يظنون أنهم على خير.

● وفرقة أخرى: أخذت في طريق الحسبة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ينكر على الناس ويأمرهم بالخير، وينسى نفسه.

● وفرقة أخرى: جاوروا بمكة أو المدينة، واغتروا ولم يراقبوا قلوبهم، ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم، فقلوبهم معلقة ببلادهم، ملتفتة إلى قول من يعرفه: إن فلاناً مجاور..

● وفرقة أخرى: زهدت في المال، وقنعت من اللباس والطعام بالدون، ومن المسكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، ومع ذلك هو راغب في الرياسة والجاه.

فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين. فهذا مغرور، إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا، وهو لم يفهم معنى الدنيا، ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة..

● وفرقة أخرى: حرصت على النوافل، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى، وبصلاة الليل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يبادر في أول الوقت، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربّه: «ما تقرب المتقربون إلي بمثل أداء ما افترضت عليهم»[1].

الصنف الثالث: المتصوفة:

وما أغلب الغرور عليهم، والمغترون منهم فرق كثيرة.

● ففرقة منهم: وهم متصوفة أهل الزمان ـ إلا من عصمه الله ـ اغتروا بالزي والهيئة والمنطق فشاركوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم.. وفي الصلاة، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس. فلما تشبهوا بهم ظنوا أنهم أيضاً صوفية، ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٠٢).

● وفرقة أخرى: ادعت علم المعرفة.. ولا تعرف إلا الطامات.. وهي تنظر إلى الفقهاء والمفسرين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام.. وتقول عن العباد إنهم أجراء متعبون، وعن العلماء إنهم بالحديث محجوبون عن الله، وتدعي لنفسها الوصول..

وهؤلاء عند الله من الفجار المنافقين.

● وفرقة أخرى: وقعت في الإباحة، وطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام، فبعضهم يقول: إن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي؟! وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا واصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية..؟!

وكل ذلك أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم. ومن غير اقتداء بمن يقتدي به من أهل الدين والعلم.

● وفرقة أخرى: جاوزت حد هؤلاء، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل.. من غير وقوف على شروطها وعلاماتها وآفاتها، فمنهم من يدعي الوجد.. وبعضهم يدعي التوكل، فيخوض البوادي من غير زاد، ليصحح دعوى التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة، وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، وقد كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون.

● وفرقة أخرى: ادعوا حسن الخلق والتواضع، وإنما غرضهم التكبر وباعثهم الرياء والسمعة..

● وفرقة أخرى: اشتغلوا بتهذيب الأخلاق، وتطهير النفس من عيوبها، وصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علماً وحرفة. ومن أضاع عمره في التفتيش عن عيوب النفس، كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج، ولم يسلك طريقه، فذلك لا يغنيه.

وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله لا تحصى في مجلدات.

الصنف الرابع: أرباب الأموال:

● ففرقة منهم، يحرصون على بناء المساجد والمدارس.. وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها، ليخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك، وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم يبنونها من أموال ربما اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها. فالواجب عليهم التوبة، وردها إلى ملاكها.

الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص، ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً، ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه، لشق عليه ذلك، ولم تسمح به نفسه.

● وفرقة منهم: ربما اكتسبت المال من الحلال، وأنفقت على المساجد، وهي مغرورة أيضاً من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب الثناء، فإنه ربما يكون في جواره فقراء، وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى، وإنما يخف عليهم الصرف في المساجد ليظهر ذلك بين الناس.

الثاني: أنه يصرف إلى زخرفة المسجد، وهي شاغلة قلوب المصلين، والمقصود من الصلاة الخشوع ووبال ذلك كله يرجع إليه.

● وفرقة أخرى: ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء، ويطلبون المحافل الجامعة، ويكرهون التصدق في السر، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعاً.

جاء رجل يودع بشر بن الحارث (الحافي) وقال: قد عزمت على الحج، فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك؟ تزهداً أو اشتياقاً إلى البيت، أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله، قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك، وتنفق ألفي

درهم، وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى، أتفعل؟ قال: نعم، قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديون يقضي دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك أن تعطيها واحداً فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم، وإغاثة اللهفان، وكشف الضر، وإعانة الضعيف، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقوى في قلبي. فتبسم بشر رحمه الله، وأقبل عليه وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات، اقتضت النفس أن تقضي به وطراً، فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

● وفرقة أخرى: من أرباب الأموال، يمسكونها بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية، التي لا تحتاج إلى النفقة، كصيام النهار، وقيام الليل، وختم القرآن.

وهم مغرورون، لأن البخل قد استولى على بواطنهم، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال، وقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها.

ولذلك قيل لبشر: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين، ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا بإطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل من تجويعه نفسه، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا، ومنعه للفقراء.

● وفرقة أخرى: غلبهم البخل، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يطلبون من الفقراء من يخدمهم، ويتردد عليهم. وكل ذلك مفسدات للنية محبطات للعمل، وصاحبه مغرور.

[الغرور بالسماع بغير عمل]:

وهناك قوم من عوام الخلق، وأرباب الأموال والفقراء، اغتروا بحضور مجالس الذكر، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادة، ويظنون أن

لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل، ودون الاتعاظ أجراً.

وهم مغرورون، لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير، فإذا لم يهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل، فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها. .

وربما تدخله من الوعظ رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم، أو نعوذ بالله، أو: سبحان الله. ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور.

وإنما مثاله: مثال الجائع الذي يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة ثم ينصرف، وذلك لا يغني عن جوعه شيئاً.

فكل وعظ لم يغير منك صفة. . فذلك الوعظ زيادة حجة عليك. فإذا رأيته وسيلة كنت مغروراً.

[سبيل التخلص من الغرور]:

فإن قلت: ما ذكرته من مداخل الغرور، أمر لا يتخلص منه أحد، وهذا يوجب اليأس، إذ لا يقوى أحد على الحذر من خفايا هذه الآفات.

فأقول: إن الإنسان إذا افترقت همته في شيء أظهر اليأس منه، واستعظم الأمر، واستوعر الطريق.

وإذا صح منه الهوى، اهتدى إلى الحيل، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء، مع بعده منه، استنزله، وإذا أراد أن يستخرج الذهب والفضة من تحت الجبال استخرجه. . وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها، استخرجها بدقيق الهندسة، وهو مستقر على الأرض. كل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات.

كل ذلك لأن همه أمر دنياه، فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد، وهو تقويم قلبه. وليس ذلك بمحال، فلم يعجز عنه السلف الصالحون، ومن اتبعهم بإحسان. فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته وقويت همته.

[النجاة من الغرور]:

فإن قلت: فبم ينجو العبد من الغرور.

فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالعقل والعلم والمعرفة؟

ـ أما العقل: فأعني به الفطرة الغريزية، والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء. فأساس السعادات كلها العقل.

ـ وأما المعرفة: فأعني بها أربعة أمور: أن يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا، ويعرف الآخرة.

فيعرف نفسه بالعبودية والذل، وبكونه غريباً في هذا العالم.

وما لم يعرف ربه فليستعن على ذلك بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب التفكر، وكتاب الشكر، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله تعالى.

وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة.

فإذا عرف ذلك: ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى، وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة عليه صحت نيته في الأمور كلها.

ـ وأما العلم، وأعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه، والعلم بآفات الطريق، وجميع ذلك أودعناه كتاب إحياء علوم الدين.

فيعرف من ربع العبادات، شروطها وآفاتها. ومن ربع العادات أسرار المعايش. ومن ربع المهلكات العقبات المانعة في طريق الله، ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة.. فإذا أحاط بجميع ذلك، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور.

[قاعدة في الأولويات]:

الترتيب بين الأعمال الخيرة واجب، وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، فقد يتعين على الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته، والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب كان مغروراً. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى.

فإن المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره. وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت.

وهذا، كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أبر يا رسول الله؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أباك» قال: ثم من؟ قال: «أدناك فأدناك»[1].

فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج...

وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج، وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج. وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه.

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة تفوت، والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة في نفسه.

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه.

وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلـك، فـالنجاسـة محذورة وإيـذاؤهمـا محـذور، والحـذر من الإيـذاء أهم من الحـذر من النجاسة.

ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور، وهذا غرور في غاية الغموض. لأن المغرور فيه في طاعة، إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية، حيث تـرك بها طاعة واجبة هي أهم منها[1].

***

---

(١) أورد المصنف هذه القاعـدة عند التعليق على فـرقة من فـرق المغترين (٣/٤٠٣) وقـد ألح على المعنى الوارد فيها إلحاحاً كبيـراً خلال كتـاب الغرور، وهي من القـواعد المهمـة التي ينبغي مراعاتها.

ربع المنجيات

الكِتَابُ ٱلأَوَّلُ

التَّوْبَة

رُبعُ المنجيات

التوبة عن الذنوب، بالرجوع إلى ستار العيوب، وعلام الغيوب، مبدأ طريق السالكين، وأول أقدام المريدين.

والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين، فالمتجرد للخير مقرب عند الملك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان.

ولما كانت التوبة لها من الدين هذا الموقع، وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات، ويتم بحثها في أربعة أركان:

الركن الأول: في نفس التوبة.

الركن الثاني: فيما عنه التوبة، وهو الذنوب.

الركن الثالث: في بيان شروطها.

الركن الرابع: في السبب الباعث على التوبة.

الركن الأول

في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة:

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى، ينتظم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل. وكل واحد يقتضي الذي يليه، اطراد سنَّة الله في ملكه.

أما العلم، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه، ثار من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب.

فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه ــ بسبب فعله المفوت لمحبوبه ــ ندماً.

فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى: إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق: بالحال والماضي وبالاستقبال:

ــ أما تعلقه بالحال، فبالترك للذنب الذي كان ملابساً.

ــ وأما بالاستقبال، فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر.

ــ وأما بالماضي، فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر.

فالعلم والندم والقصد ــ المتعلق بالترك في الحال والاستقبال، والتلافي للماضي ــ ثلاثة معانٍ مرتبة في الحصول. فيطلق اسم التوبة على مجموعها.

وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، وبهذا الاعتبار قال ﷺ:

«الندم توبة»[1].

بيان وجوب التوبة وفضلها:

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار[2] والآيات.

وهو واضح بنور البصيرة عند من شرح الله بنور الإيمان صدره، وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلاَّ في لقاء الله تعالى. وعلم أن لا مبعد عن لقاء الله إلاَّ اتباع الشهوات، والأنس بهذا العالم الفاني، وعلم أن الذنوب ـ التي هي إعراض عن الله ـ سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى، فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب.

وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، وما لم يعلم أن الذنوب سبب البعد لم يندم ولم يتوجع، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فهذه المعاني ضرورية في الوصول إلى المحبوب.

قال الله تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

وهذا أمر على العموم.

وقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[4].

ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى، خالياً عن الشوائب، مأخوذ من النصح.

---

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس، وقال صحيح على شرط الشيخين (ع).

(٢) من الأخبار الدالة على وجوب التوبة ما أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢) من قوله ﷺ: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة» (ع).

(٣) سورة النور: الآية (٣١).

(٤) سورة التحريم: الآية (٨).

ويدل على فضل التوبة قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1].

وقال ﷺ: «لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دَوِّيَّة[2] مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده، عليها زاده وشرابه، فالله تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»[3].

والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى. وهذا داخل في وجوب الإيمان.

وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام:

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه، إذ كون معرفة المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور، فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[4].

وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى صفات الله ووحدانيته.. فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي، وإنما أراد نفي الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجباً للمقت.

كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله، فإذا تناوله، يقال: تناول وهو غير مؤمن، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب، وكونه طبيباً، وغير مصدق به، بل

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٢٢).

(٢) هي الأرض القفر والفلاة الخالية، وهي بفتح الدال وتشديد الواو والياء جميعاً.

(٣) متفق عليه (خ ٦٣٠٨، م ٢٧٤٤).

(٤) متفق عليه (خ ٥٥٧٨، م ٥٧).

المراد: أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك، فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان.

وليس الإيمان باباً واحداً، بل هو نيف وسبعون باباً، أعلاها شهادة أن لا إلّه إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق[1].

فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للبدن، لا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير المزاج، وهو لا يشعر بها، إلى أن يفسد فيمرض دفعة، ثم يموت دفعة. فكذلك المعاصي وسوء الخاتمة.

واعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال، إذ قال تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

فعمم الخطاب.

ونور البصيرة يرشد إليه أيضاً، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان، وكمال العقل يقتضي ذلك.

وبيان وجوب التوبة على الدوام وفي كل حال، هو أن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه، إذ لم يخلُ عنه الأنبياء، كما ورد في القرآن والأخبار، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح، فلا يخلو عن الهمّ بالذنوب بالقلب، فإن خلا في بعض الأحوال عن الهمّ، فلا يخلو عن وسواس الشيطان، بإيراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله.. وكل ذلك نقص وله أسباب.

ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بد منه، ولهذا قال ﷺ: «إنه ليغان[3] على قلبي حتى

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٥)، بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إلّه إلّا الله..».

(٢) سورة النور: الآية (٣١).

(٣) الغين والغيم بمعنى واحد، قال القاضي: قيل المراد: الفترات عن الذكر.

أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»(١) ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال:

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾(٢).

وإذا كان هذا حاله، فكيف حال غيره؟

واعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلاً، وليس معنى التوبة تركها فقط، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى.

وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه، كما يرتفع عن نَفَس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار ريناً، كما يصير بخار النَفَس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً. كما قال تعالى:

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٣).

فلا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»(٤).

فإذن لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات.

وذلك واجب على الفور، حتى لا يكون في معنى قوله تعالى:

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾(٥).

وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ ﴾(٦).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢).

(٢) سورة الفتح: الآية (٢).

(٣) سورة المطففين: الآية (١٤).

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (ع).

(٥) سورة سبأ: الآية (٥٤).

(٦) سورة المنافقون: الآية (١١).

قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾(١).

والقرب المذكور في الآية معناه: قرب عهد بالخطيئة..

بيان أن التوبة الصحيحة مقبولة:

إن كل توبة استجمعت شرائطها فهي مقبولة، ذلك أن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما أنه لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار.

وإنما عليك التزكية والتطهير، وأما القبول فمبذول، قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مردَّ له، وهو المسمى فلاحاً في قوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾(٢).

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول.

فهذا البيان كافٍ عند ذوي البصائر في قبول التوبة، ولكنّا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار، فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنَّة لا يوثق به. وقد قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾(٣).

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾(٤).

---

(١) سورة النساء: الآيتان (١٧ ـ ١٨).

(٢) سورة الشمس: الآية (٩).

(٣) سورة الشورى: الآية (٢٥).

(٤) سورة غافر: الآية (٣).

إلى غير ذلك من الآيات.

وقال ﷺ: «لله أفرح بتوبة أحدكم..» الحديث[1] والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة.

وقال ﷺ: «إن الله عزَّ وجلّ يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[2]، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة، والطالب وراء القابل.

وقال سعيد بن المسيب: أنزل قوله تعالى:

﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾[3].

في الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

***

(١) متفق عليه (خ ٦٣٠٨، م ٢٧٤٤) وقد سبق بتمامه قريباً.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٩)، وذكره المصنف بلفظ قريب وأثبتُّ لفظ مسلم.

(٣) سورة الإسراء: الآية (٢٥).

الركن الثاني

في الذنوب

اعلم أن التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلاَّ بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة، فمعرفة الذنوب إذن واجبة.

والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى، من ترك أو فعل.

أقسام الذنوب بالنسبة إلى العبد:

اعلم أن الذنوب تقسم إلى:

- ما بين العبد وبين الله تعالى.
- ما يتعلق بحقوق العباد.

أما ما يتعلق بالعبد بينه وبين الله تعالى خاصة، كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به، وكل ما لم يكن شركاً، فالعفو فيه أرجى وأقرب.

وما يتعلق بحقوق العباد ـ كتركه الزكاة، وقتله النفس، وغصبه الأموال، وشتمه الأعراض، وكل متناول من حق الغير، من نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه، والدعاء إلى البدعة، والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى، كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف، فالأمر فيه أغلظ.

انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر:

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها، فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة، وهذا ضعيف.

إذ قال تعالى:

﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾[2].

وقال ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر»[3].

وقال ﷺ: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[4].

واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر، فقال ابن مسعود: هن أربع، وقال ابن عمر: هن سبع، وقال ابن عباس ــ وقد بلغه قول ابن عمر ــ: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

وقال بعض السلف: كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة.

وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر وغيرهم:

أربع في القلب وهي: الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره.

وأربع في اللسان وهي: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس

(١) سورة النساء: الآية (٣١).
(٢) سورة النجم: الآية (٣٢).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٣٣).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٨٧).

ـ وهي التي يحق بها باطلاً، أو يبطل بها حقاً، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلاً، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار ـ والسحر.

وثلاث في البطن وهي: شرب الخمر والمسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا وهو يعلم.

واثنتان في الفرج، وهما: الزنا واللواط.

واثنتان في اليدين، وهما: القتل والسرقة.

وواحدة في الرجلين وهي: الفرار من الزحف، الواحد من اثنين.

وواحدة في جميع الجسد وهي: عقوق الوالدين.

هذا ما قاله أبو طالب المكي، وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه. قال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر»[1].

وكشف الغطاء عن هذا: أن الكبيرة من حيث اللفظ «مبهم» ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات، وما من ذنب إلاّ وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه.

والحق أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يشك فيه، فلا يدرى حكمه؟

والطمع في حد حاصر، أو عدد جامع مانع، طلب لما لا يمكن، فإن ذلك لا يمكن إلاّ بالسماع من رسول الله ﷺ، فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع؟

وربما قصد الشرع إبهامه، ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر، ليعظم جد الناس في طلبها.

---

(١) أخرجه أحمد والبزار بسند صحيح وقال: «من الموبقات» بدل الكبائر، ورواه البخاري من حديث أنس، وأحمد والحاكم من حديث عبادة وقال: صحيح الإسناد (ع).

الدرجات والدركات في الآخرة:

إن توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا، لا يمكن أن يفهم إلاَّ بمثال، فلنفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته. فنقول:

الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً، وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر، كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها، ولا تفارق الآخرة الدنيا في هذا المعنى أصلاً، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له، وسنته الأزلية مطردة، إلاَّ أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات، فلا نعجز عن إحصاء الأجناس. فنقول:

الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين.

ومثاله في الدنيا: أن يستولي ملك من الملوك على إقليم، فيقتل بعضهم فهم الهالكون، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويخلي عن بعضهم فهم الناجون، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون. فإن كان الملك عادلاً، لم يقسمهم كذلك إلاَّ باستحقاق، فلا يقتل إلاَّ جاحداً معانداً له في أصل الدولة، ولا يعذب إلاَّ من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلوّ درجته، ولا يخلي إلاَّ معترفاً له برتبة الملك ولم يقصر، ولا يخلع إلاَّ على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة.

ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بحز الرقبة، أو تنكيلاً بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة، وتعذيب المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها بحسب درجات تقصيرهم. فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر.

فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون:

الرتبة الأولى: وهي رتبة الهالكين، ونعني بهم: الآيسين من رحمة الله

تعالى، وهذه الدرجة لا تكون إلَّا للجاحدين والمعرضين، المتجردين للدنيا، المكذبين بالله ورسله وكتبه.

والسعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه، وذلك لا ينال أصلاً إلَّا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق، والجاحدون هم المنكرون، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد، إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون لا محالة. وكل محجوب محول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة، فهو لا محالة يكون مخترقاً نار جهنم.

فرتبة الهلاك هذه ليست إلَّا للجهال المكذبين، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر، فلذلك لم نوردها.

الرتبة الثانية: وهي رتبة المعذبين، وهي رتبة من تحلّى بأصل الإيمان، ولكن قصر بالوفاء بمقتضاه، فإن رأس الإيمان هو التوحيد، وهو أن لا يعبد إلَّا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلّهه هواه، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة، بل معنى قولك: «لا إلّه إلَّا الله»، معنى قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[1].

ولما كان التوحيد لا يكمل إلَّا بالاستقامة على الصراط، وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى. وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم. فذلك يقتضي نقصاناً في درجات القرب. ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن.

فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذباً مرتين من وجهين، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته، وتفاوته بحسب طول المدة، إنما يكون بسبب أمرين: أحدهما: قوة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتباع الهوى وقلته.

---

(١) سورة فصلت: الآية (٣٠).

ولذلك قال الخائفون من السلف: إنما خوفنا لأنّا تيقنّا أنّا على النار واردون، وشككنا في النجاة.

قال تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(١).

وأما اختلاف العذاب بالشدة، فلا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، وهذه الاختلافات ثابتة دلت عليها قواطع الشرع، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه، وجانب العفو والرحمة أرجح، إذ قال ﷺ فيما أخبر عن الله تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»(٢).

فإذن: هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواعد الشرع. فأما التفصيل فلا يعرف إلَّا ظناً ومستنده ظواهر الأخبار.

وفي الحديث: «آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف»(٣). ولا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام؛ كأن يقابل فرسخ بفرسخين، فإن هذا جهل لطريق ضرب الأمثال. بل هذا كقول القائل: أخدمته جملاً وأعطاه عشرة أمثاله. وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار، فإن لم يفهم من المثل إلَّا المثل بالوزن فلا تكون مائة دينار عشر عشير الجمل. بل المقصود موازنة معاني الأجسام..

فهذا حكم من يخرج من النار، ولا يخرج من النار إلَّا موحد.

وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد.

الرتبة الثالثة: رتبة الناجين، وأعني بالنجاة السلامة فقط، دون السعادة

---

(١) سورة مريم: الأيتان (٧١ ــ ٧٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥١).

(٣) متفق عليه (خ ٦٥٧١، م ١٨٦).

والفوز. وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين، والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد.. فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون منزلة بين المنزلتين، عبَّر الشرع عنها بالأعراف. وحلول طائفة من الخلق فيها معلوم يقيناً من الآيات[1]. فأما الحكم على العين، كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم، فهذا مظنون وليس بمستيقن.

الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين، وهم العارفون دون المقلدين، وهم المقربون والسابقون، وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان، والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن، فليس بعد بيان الله بيان. وهو الذي أجمله قوله تعالى:

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾[2].

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب:

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب:

منها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. فكبيرة واحدة تنصرم، ولا يتبعها مثلها، يكون العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها.

ومثال ذلك: قطرات من الماء تقع على الحجر على توالٍ فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[3]، فالنافع من العمل هو الدائم وإن قلَّ، والكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب.

---

(١) ورد ذلك في سورة الأعراف في الآيتين (٤٦ و٤٨)، ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال..﴾ ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾.

(٢) سورة السجدة: الآية (١٧).

(٣) متفق عليه (خ ٤٣، م ٧٨٢).

ومنها: أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه، صغر عند الله تعالى، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به.

واستصغاره يصدر عن الإلف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب.

وقد جاء في الخبر: «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرَّ على أنفه فأطاره»(١).

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصاه، رأى الصغيرة كبيرة. وفي حديث أنس «إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»(٢). إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر.

وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف.

ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد، كبر أثرها في تسويد قلبه، حتى إن بعض المذنبين يمتدح بذنبه، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه، وإمهاله إياه، ولا يدري أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به، ويكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله. كما قال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾(٣).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٨).

(٢) أخرجه أحمد والبزار بسند صحيح، ورواه البخاري من حديث أنس (ع).

(٣) سورة المجادلة: الآية (٨).

ومنها: أن يأتي الذنب ويظهره، بأن يذكره بعد إتيانه، أو يأتيه في مشهد غيره، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه. وفي الخبر: «كل الناس معافى إلَّا المجاهرين، يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه، فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه»[1].

ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه، كلبس الحرير، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله عليهم.. فقد يموت ويبقى شره مستطيراً، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه.

وفي الخبر: «من سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيء»[2].

قال تعالى:

﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾[3].

والآثار، ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل.

فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر، فعليهم وظيفتان: ترك الذنب، وإخفاؤه.

***

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٦٩، م ٢٩٩٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠١٧).

(٣) سورة يس: الآية (١٢).

الركن الثالث

في تمام التوبة وشروطها ودوامها

تمام التوبة وشروطها:

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم أورثه العلم.

ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام. ولتمامها علامة، ولدوامها شرط فلا بد من بيانها[1].

أما العلم، فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي.

وأما الندم: فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته: طول الحسرة والحزن، وانسكاب الدمع، وطول البكاء والفكر. وألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى.

ومن علامته: أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه، بدلاً من حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة.

فهذا شرط تمام الندم، وينبغي أن يدوم إلى الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل.

وأما القصد: الذي ينبعث منه، وهو إرادة التدارك:

ـ فله تعلق بالحال: وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال.

---

(١) سبق للمصنف أن بيَّن أن أركان التوبة أربعة هي: العلم، والندم، والعزم، والقصد.

ـ وله تعلق بالماضي: وهو تدارك ما فرط.

ـ وبالمستقبل، وهو دوام الطاعة، ودوام ترك المعصية إلى الموت.

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي: أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً، وينظر إلى الطاعات: ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى المعاصي: ما الذي قارفه منها؟ فيتدارك ما فاته من الطاعات، ويقابل المعاصي بالحسنات.

وأما العزم المرتبط بالاستقبال، فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً، ويعاهده عهداً وثيقاً، أن لا يعود إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها.

أقسام العباد في دوام التوبة:

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات:

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي، ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدِّث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلاَّ الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات.

فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبها هو السابق في الخيرات، المستبدل بالسيئات حسنات. واسم هذه التوبة: التوبة النصوح، واسم هذه النفس الساكنة: «النفس المطمئنة»، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية.

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات، وترك كبائر الفواحش كلها، إلاَّ أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد وقصد، ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه، وندم وتأسف، وجدد عزمه على الاحتراز عن أسبابها التي تعرضه لها.

وهذه النفس جديرة بأن تكون هي «النفس اللوامة»، إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وقصد.

وهذه أيضاً رتبة عالية، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال

التائبين، فالغاية أن يغلب خيره شره، حتى ترجح كفة الحسنات، أما أن تخلو كفة السيئات بالكلية فذلك في غاية البعد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى، إذ قال:

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾(٢).

فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه.

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة، ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين.

الطبقة الثالثة: أن يتوب، ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب، فيقدم عليها عن قصد، لعجزه عن قهر شهوته، إلاَّ أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتارك جملة من الذنوب، مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يودُّ لو أقدره الله على قمعها، وكفاه شرها.

هذه أمنيته في حال قضاء الشهوة، وعند الفراغ يتندم، ويقول: ليتني لم أفعله، وسأتوب عنه وأجاهد نفسي، لكنه يسوف توبته مرة بعد أخرى..

فهذه النفس، هي التي تسمى: «النفس المسوّلة» وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾(٣).

---

(١) سورة النجم: الآية (٣٢).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٣٥).

(٣) سورة التوبة: الآية (١٠٢).

فأمره من حيث مواظبته على الطاعات، وكراهته لما تعاطاه مرجوّ، فعسى الله أن يتوب عليه.

وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة، فيخشى عليه في الخاتمة.

الطبقة الرابعة: أن يتوب، ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب، من غير أن يحدِّث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، فهذا من جملة المصرّين، وهذه النفس هي: «النفس الأمّارة بالسوء» الفرارة من الخير، ويخاف على هذا سوء الخاتمة، وأمره في مشيئة الله، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتى مات مات على التوحيد، فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين.

ما يفعله التائب بعد الذنب:

ينبغي على المذنب أن يبادر بالتوبة والندم، والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها، فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

فالحسنات المكفرة للسيئات، إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة، وفيما يتعلق بأسبابها.

فأما بالقلب: فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو.

وأما باللسان: فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول: رب ظلمت نفسي، وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي.

وأما بالجوارح: فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات.

والمقصود أن للتوبة ثمرتين:

إحداهما: تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

الثانية: نيل الدرجات.

وللتكفير أيضاً درجات: فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية، وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة.

والاستغفار بالقلب ليس يخلو عن الفائدة أصلاً، فلا ينبغي أن تظن أن وجوده كعدمه، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[1]:

صدق، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات، وذلك بالضرورة محال.

فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وذرات المعاصي فلا تتقيها.

فإذن: التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً، بل أقول: الاستغفار باللسان أيضاً حسنة، إذ حركة اللسان بها عن غفلة، خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت.

قال بعض الصحابة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

قال: كان لنا أمانان، ذهب أحدهما، وهو كون الرسول فينا، وبقي الاستغفار معنا، فإن ذهب هلكنا[3].

***

(١) سورة الزلزلة: الآية (٧).
(٢) سورة الأنفال: الآية (٣٣).
(٣) أخرجه أحمد من قول أبي موسى الأشعري، ورفعه الترمذي من حديثه (ع).

الركن الرابع

دواء التوبة وعلاج الإصرار

[وصف المرض على الجملة]:

اعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلاَّ بالدواء، ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلاَّ مناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلاَّ بضده.

ولا سبب للإصرار إلاَّ الغفلة والشهوة، ولا يضاد الغفلة إلاَّ العلم، ولا يضاد الشهوة إلاَّ الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة.

فهذا الدواء له أصلان: العلم والصبر ولا بد من بيانهما[1].

والعلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب، ولكن لكل مرض علم يخصه، وكذلك دواء الإصرار.

[الطبيب وكيفية المعالجة]:

والعلماء هم الأطباء، وإذا كان الطبيب جاهلاً أو خائباً أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه، فالرجاء والخوف دواءان، ولكن لشخصين متضادي العلة.

أما الذي غلب عليه الخوف، حتى هجر الدنيا بالكلية، وكلف نفسه ما لا تطيق، وضيق العيش على نفسه بالكلية، فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال، وكذلك المصر على الذنوب المشتهي للتوبة

---

(١) اقتصر المصنف في هذا الركن على بحث جانب العلم، وأحال في موضوع الصبر إلى الكتاب الذي يلي هذا الكتاب.

الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاماً لذنوبه التي سبقت، يعالج أيضاً بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب.

فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء، فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء، وذلك دأب الجهال والأغبياء، فإن فساد الأطباء هي المعضلة التي لا تقبل الدواء أصلاً.

والأنواع النافعة في حل عقد الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب أربعة:

الأول: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين، وهي كثيرة لا تحصى.

الثاني: حكايات الأنبياء والسلف الصالح، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع، ظاهر النفع في قلوب الخلق، مثل عصيان آدم عليه السلام، وما لقيه من الإخراج من الجنة..

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر، ولم يرِدْ بها القرآن للسمر، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار، لتعلم أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم يتجاوَزْ عنهم في الذنوب الصغار، فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار؟

الثالث: أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته، فربَّ عبدٍ يتساهل في أمر الآخرة، ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوف به، فإن الذنوب يتعجل شؤمها في الدنيا في غالب الأمر.

الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب، كالخمر، والزنا، والسرقة، والكبر والحسد..

وينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق، فذكر الأمر في غير أهله، وضع للدواء في غير موضعه، فيستدل أولاً بالنبض والسحنة، ووجود الحركات على العلل الباطنة، ويشتغل بعلاجها، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات.

وليقتد برسول الله ﷺ حيث قال له رجل: أوصني يا رسول الله ولا تكثر، فقال له: «لا تغضب»[1]، وقال له آخر: أوصني، فقال له: «عليك باليأس مما في أيدي الناس، فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصل صلاة مودع، وإياك وما يعتذر منه»[2]، فكأنه ﷺ توسم في السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل.

فإذاً: على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية، وتوسم الأحوال اللائقة، ليكون اشتغاله بالمهم، فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة، والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان.

[كثرة مرضى القلوب]:

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

الأولى: أن المريض به لا يدري أنه مريض.

الثانية: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن، فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت غير مشاهد، وعاقبة الذنوب موت القلب، وهو غير مشاهد في هذا العالم، فقلَّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها. فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب، ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال.

الثالثة: وهي الداء العضال، وهي فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً، عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١١٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه والحاكم (ع).

الأطباء، فلم يقدروا على تحذير الخلق، خوفاً من أن يقال لهم: ما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟

بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا، وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا، وليتهم سكتوا وما نطقوا.

فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم إلَّا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم، وذلك بتغليب الرجاء وذكر دلائل الرحمة، فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ، وقد استفادوا جراءة على المعاصي، ومزيد ثقة بفضل الله تعالى؟!

[أسباب الإصرار على الذنب وعلاجه]:

اعلم أن الوقوع في الذنب لا يكون لفقد الإيمان، بل يكون لضعف الإيمان، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى، وسبب العقاب في الآخرة، ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور:

الأول: أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

الثاني: أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة، وهي في الحال آخذة بالمخنق، وقد قوي ذلك، واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف. وترك العاجل لخوف الآجل شديد على النفس. ولذلك قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾[1].

وقد عبَّر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[2].

فإذاً: كون الشهوة مرهقة في الحال، وكون العقاب متأخراً إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان.

---

(١) سورة القيامة: الآية (٢٠).

(٢) متفق عليه (خ ٦٤٨٧، م ٢٨٢٢).

فليس كـل من يشرب المـاء المثلج في مرضـه لشدة عـطشه مكـذبـاً بـأصـل الطب، ولا مكذبـاً بأن ذلـك مضر في حقـه، ولكن الشهوة تغلبـه، وألم الصبر عنـه ناجز، فيهون عليه الألم المنتظر.

الثالث: أنه ما من مذنب مؤمن، إلاَّ ــ وهو في الغالب ــ عـازم على التوبـة، وتكفير السيئات بـالحسنات، وقـد وُعِدَ بـأن ذلك يجبـره، إلاَّ أن طول الأمـل غالب على الطباع، فلا يزال يسوِّف التوبة والتكفير.

الرابع: أنه ما من مؤمن إلاَّ وهو معتقد أن الـذنوب لا تـوجب العقوبـة إيجابـاً لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب، وينتظر العفو اتكالاً على فضل الله تعالى.

فهذه أربعة أسباب موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان.

فإن قلت: فما العلاج؟

فأقول: هو الفكر. وذلك بأن يقرر على نفسه:

ــ في السبب الأول ــ وهو تأخر العقاب ــ أن كـل ما هـو آتٍ آت، وأن غداً للناظرين قـريب، وأن الموت أقـرب إلى كل أحـد من شراك نعله، فمـا يدريـه لعل الساعة قـريب؟! ويذكـر نفسه: أنـه دائماً في دنيـاه يتعب في الحال لخـوف أمر في الاستقبال. فيركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح، الـذي يظن أنـه قد يحتـاج إليه في ثاني الحال..

ــ وبهذا التفكير يعالج اللذة الغالبة عليـه، ويكلف نفسه تـركها ويقـول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمـر، وهي أيام قـلائل، فكيف أقـدر عليه أبـد الآباد؟!

ــ وأمـا تسويف التـوبة فيعـالجه بـالفكـر في أن أكثـر صيـاح أهـل النـار من التسويف.

ــ وأمـا المعنى الرابـع، وهو انتـظار عفو الله تعـالى، فهـو كمن ينفق جميـع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يـرزقه العثـور على كنز في أرض خربة، فمنتظر هذا منتظر لأمر ممكن، ولكنه في غاية الحماقة والجهل.

***

الكِتَابُ الثَّانِي

الصَّبْرُ وَالشُّكْر

رُبْعُ المُنْجِيَات

الفصل الأول

في الصبر

فضيلة الصبر:

وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له.

فقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾[3].

وقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4].

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من

(١) سورة السجدة: الآية (٢٤).
(٢) سورة النحل: الآية (٩٦).
(٣) سورة القصص: الآية (٥٤).
(٤) سورة الزمر: الآية (١٠).

الصبر، قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به»[1] فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات، ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى:

﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[3].

حقيقة الصبر ومعناه:

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السالكين.

والصبر خاصية الإنس، ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة، أما الملائكة فلكمالها، وأما البهائم فلنقصانها.

فالصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر، قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما.

فلنسمِّ هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها: باعثاً دينياً.

ولنسمِّ مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوى.

وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد، ومدد باعث الدين الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين..

فالصبر: عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة. فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة، فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها، التحق بأتباع الشياطين.

---

(١) متفق عليه (خ ٧٤٩٢، م ١٦٤ من كتاب الصيام).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٤٦).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٥٧).

فترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى: الصبر. وهو ثبات الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة.

وثبات باعث الدين، حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة.

أسماء الصبر بحسب متعلقاتها:

اعلم أن الصبر ضربان:

الأول: ضرب بدني، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها وهو:

- إما بالفعل: كتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات ومن غيرها.
- وإما بالاحتمال: كالصبر على الضرب الشديد، والمرض العظيم..

الثاني: نفسي، وهو المحمود، وهو الصبر عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم ـ هذا الضرب النفسي ـ إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان في مصيبة اقتصر على اسم «الصبر»..

وإن كان في احتمال الغنى، سمي ضبط النفس، ويضاده البطر.

وإن كان في حرب سمي: شجاعة، ويضاده الجبن.

وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي: حلماً، ويضاده: التذمر.

فهذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها.

أقسام الصبر:

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن يقهر داعي الهوى، فلا تبقى له قوة المنازعة. ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعندها يقال: من صبر ظفر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون، فلا جرم هم المقربون:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾(١).

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى، وتسقط منازعة باعث الدين بالكلية، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون، وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم، وغلبت عليهم شقوتهم..

وهذه الحالة علامتها: اليأس والقنوط والغرور بالأماني، وهو غاية الحمق.

الحالة الثالثة: أن تكون الحرب سجالاً بين الجندين، فتارة له اليد عليها، وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين، لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين:

﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

هذا التقسيم باعتبار القوة والضعف.

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى:

ـ ما يشق على النفس، فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد، وتعب شديد، ويسمى ذلك «تصبراً».

ـ وما يكون من غير شدة تعب، بل يحصل بأدنى تحامل على النفس، ويخص ذلك باسم «الصبر».

ومثاله: قدرة المصارع على غيره، فإن القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى جهد وأيسره، ولا يقوى أن يصرع القوي إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين.

واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى: فرض ونفل ومكروه ومحرم. فالصبر عن المحظورات فرض، وعلى المكاره نفل، والصبر على الأذى المحظور محظور، كمن يقصد حريمه بسوء، فإن لم تهج غيرته وسكت، فهذا الصبر محرم.

---

(١) سورة فصلت: الآية (٣٠).

(٢) سورة التوبة: الآية (١٠٢).

بيان مظان الحاجة إلى الصبر:

اعلم أن جميع ما يلقاه العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين:

أحدهما: هو الذي يوافق هواه.

الثاني: هو الذي لا يوافقه بل يكرهه.

وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما. فهو إذن لا يستغني عن الصبر قط.

النوع الأول: ما يوافق الهوى، وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة، واتساع الأسباب، وكثرة الأنصار، وجميع ملاذ الدنيا.

وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها، والانهماك في ملاذها المباحة، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان. فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق.

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها: أن لا يركن إليها، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده، وعسى أن يسترجع على القرب، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب، ويرعى حقوق الله في سائر ما أنعم به عليه..

وإنما كان الصبر في السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة، فالجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء.

النوع الثاني: ما لا يوافق الهوى والطبع، وهو ثلاثة أقسام:

● القسم الأول: ما يرتبط باختيار العبد من الطاعات والمعاصي.

أما الصبر على الطاعات فإنه شديد، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية، وهي شاقة عليها، ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره

بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد. فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

وأما المعاصي، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى:

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾(1).

والصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة هو أشد أنواع الصبر.

فالعادة والشهوة جندان من جنود الشيطان قد لا يقوى باعث الدين على قمعهما، ثم إن كان ذلك الفعل مما يسهل فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء، وأنواع المزاح المؤذي للقلوب.

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها، وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة، ولا يمكن الصبر عليه أصلاً إلا أن يغلب على القلب همٌّ آخر.

● القسم الثاني: ما لا يرتبط هجومه باختيار العبد، وله اختيار في دفعه، كما لو أوذي بفعل أو قول، أو جني عليه في نفسه أو ماله.

فالصبر على ذلك بترك المكافأة، تارة يكون واجباً، وتارة يكون فضيلة.

قال تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾(2).

---

(1) سورة النحل: الآية (٩٠).

(2) سورة المزمل: الآية (١٠).

وقال تعالى:

﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(١).

أي تصبروا عن المكافأة.

ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾(٢).

وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنه يتعاون فيه باعث الشهوة والغضب جميعاً.

● القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار، كالمصائب، مثل موت الأعزة، وهلاك الأموال، وزوال الصحة بالمرض، وفساد الأعضاء، وبالجملة سائر أنواع البلاء.

فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر. قال ابن عباس: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض، وصبر عن محارم الله تعالى، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى.

وإنما تنال درجة الصبر في المصائب، إذا لم يخرج عن مقام الصابرين بالجزع، وشق الجيوب، وضرب الخدود، والمبالغة في إظهار الشكوى والكآبة، وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره، فينبغي أن يجتنبها، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨٦).

(٢) سورة النحل: الآية (١٢٦).

روي عن الرميصاء أم سليم[1] رحمها الله أنها قالت: توفي لي ابن، وزوجي أبو طلحة غائب، فقمت فسجيته في ناحية البيت، فقدم أبو طلحة، فقمت فهيأت له إفطاره، فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ قلت بأحسن حال بحمد الله ومنّه، فإنه منذ اشتكى لم يكن بأسكن منه الليلة. ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك، حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا؟ قال: ما لهم؟ قلت: أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا. فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالى، وإن الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع، ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «اللهم بارك لهما في ليلتهما»[2]. قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأ القرآن.

ولا يخرجه عن حد الصابرين: توجع القلب، ولا فيضان العين بالدمع، فإن ذلك مقتضى البشرية، ولا يفارق الإنسان إلى الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه، فقيل له في ذلك، فقال: «هذه رحمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[3].

فقد ظهر لك بهذه التقسيمات: أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، حتى إن الذي كفي الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهراً وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطناً.

دواء الصبر وما يستعان به عليه:

قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر، فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن

---

(١) أم سليم بنت ملحان الأنصارية، تزوجت مالك بن النضر في الجاهلية، فولدت أنس بن مالك الذي خدم النبي ﷺ، أسلمت مع السابقين، فغضب زوجها وفارقها إلى الشام ومات فيها، ثم تزوجت أبا طلحة.

(٢) القصة بطولها أخرجها الشيخان (خ ٥٤٧٠، م ٢١٤٤).

(٣) متفق عليه (خ ١٣٠٣، م ٩٢٦).

تكون له اليد العليا، وتضعيف الآخر. فلزمنا هاهنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة.

فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: الأغذية التي هي مادة قوة الشهوة، فلا بد من قطعها بالصوم، مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه.

الثاني: قطع الأسباب المهيجة للشهوة في الحال. وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن الشهوات والفرار منها بالكلية.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه. فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر.

وأما تقوية باعث الدين، فإنما تكون بطريقين:

أحدهما: إطماعه في فوائد المجاهدة، وثمراتها في الدين والدنيا.

الثاني: أن يعوِّد باعث الدين مصارعة باعث الهوى تدريجياً قليلاً قليلاً.. فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر.

***

الفصل الثاني

في الشكر

وله ثلاثة أركان:

الأول: في الشكر وحقيقته.

الثاني: في النعمة وأقسامها.

الثالث: في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

الركن الأول: في نفس الشكر

فضيلة الشكر:

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه فقال تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٥٢).

(٢) سورة النساء: الآية (١٤٧).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤٥).

وقال تعالى:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1].

وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر فقال:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2].

ولعلو رتبة الشكر طعن إبليس في الخلق فقال:

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[3].

وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[4].

حقيقة الشكر:

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو ينتظم من: علم، وحال، وعمل.

فأما العلم: فهو معرفة النعمة من المنعِم.

والحال: هو الفرح الحاصل بإنعامه.

والعمل: هو القيام بما هو مقصود المنعم، وهو العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح. ولا بد من جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر.

ـ أما بالقلب: فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق.

ـ وأما باللسان: فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه.

---

(١) سورة سبأ: الآية (١٣).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٧).

(٤) سورة الزمر: الآية (٧٤).

ـ وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى إن شكر العينين: أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين: أن تستر كل عيب تسمعه فيه.

والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى من جملة الشكر.

وكل عبد سئل عن حاله، فهو بين أن يشكر، أو يشكو، أو يسكت، فالشكر طاعة، والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء؟ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء، وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو القادر على إزالة البلاء، وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل.

بيان الشكر في حق الله تعالى:

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلَّا بمعرفة ما يحبه الله تعالى وما يكرهه، إذ معنى الشكر: استعمال نعمه تعالى في محابّه، ومعنى الكفر: نقيض ذلك، إما بترك الاستعمال، أو باستعمالها في مكارهه. ولتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان:

أحدهما: السمع، ومستنده الآيات والأخبار. ولذلك أرسل الله تعالى الرسل، وسهل بهم الطريق على الخلق، ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد. فمن لم يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

والثاني: بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار. وهو مدرك عسير، وهو لأجل ذلك عزيز.

وهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق شيئاً في العالم إلَّا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب.

وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية:

أما الجلية: فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس، أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً، فتتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس، لا كل الحكم فيها، بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة.

وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحتملها أفهام الخلق، دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه، إذ قال تعالى:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾(١).

وأما الخفية: فكالحكمة في سائر الكواكب السيارة والثابتة، فهذه لا يطلع عليها كافة الخلق. والقدر الذي يحتمله فهمهم أنها زينة للسماء، لتستلذ بالنظر إليها، وأشار إليه قوله تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾(٢).

فجميع أجزاء العالم، سماؤه وكواكبه، وبحاره وجباله، ومعادنه ونباته، وحيواناته وأعضاء حيواناته، لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة..

وكذلك أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمتها كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش.. وأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والكبد.. فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس، والذين يعرفونها لا يعرفون إلَّا قدراً يسيراً بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى.

فإذن: كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها، أو على غير الوجه الذي أريد به، فقد كفر فيه نعمة الله تعالى.

فمن ضرب غيره بيده، فقد كفر نعمة اليد، إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه، ويأخذ ما ينفعه، لا ليهلك بها غيره.

---

(١) سورة عبس: الآيات (٢٥ ــ ٢٨).
(٢) سورة الصافات: الآية (٦).

ومن نظر إلى وجه غير المَحْرم، فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس، إذ بهما يتم الإبصار. وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بهما ما يضره فيهما. فقد استعملهما في غير ما أريدتا به.

ولو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين، إذ خلق الله لك اليدين، وجعل عمل اليمنى شريفاً كأخذ المصحف، وعمل اليسرى خسيساً كإزالة النجاسة، فإذا أزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فظلمته وعدلت عن العدل..

وحاصل الكلام: أن لله تعالى حكمة في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها، وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر، وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران.

وبالجملة، فمن فهم حكمة الله تعالى في الأشياء قدر على القيام بوظيفة الشكر.

الركن الثاني: ما عليه الشكر
(وهو النعمة)

حقيقة النعمة:

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة. ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية.

وتسمية ما سواها نعمة وسعادة، إما غلط وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة، فإن ذلك غلط محض.

وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها، إما بواسطة

واحدة، أو بوسائط فإن تسميته نعمة صدق، لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية.

ونشرح اللذات المسماة نعمة، فنقول:

● إن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى:

– ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً: كالعلم وحسن الخلق، وهو نعمة تحقيقاً.

– وما هو ضار فيهما جميعاً كالجهل وسوء الخلق، وهو بلاء تحقيقاً.

– وما ينفع في الحال ويضر في المآل، كالتلذذ باتباع الشهوات، وهو بلاء محض.

– وما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل، كقمع الشهوات ومخالفة النفس وهو نعمة عند ذوي الألباب.

● وفي قسمة أخرى نقول: النعمة يعبر بها عن كل لذيذ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها، أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع:

– عقلية.

– وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات.

– وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات.

أما العقلية، فكلذة العلم والحكمة، إذ ليس يستلذها السمع والبصر، وإنما يستلذها القلب، وهذه أقل اللذات وجوداً، وهي أشرفها. وأما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلاَّ العالم، والحكمة لا يستلذها إلاَّ الحكيم. وأما شرفها، فلأنها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا، ولا في الآخرة. ودائمة لا تمل.

وما يشارك فيها الإنسان بعض الحيوانات، كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر.

وما يشارك فيها سائر الحيوانات، كلذة البطن والفرج. وهذه أكثرها وجوداً، وهي أخسها.

السبب الصارف للخلق عن الشكر :

اعلم أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلاَّ بالجهل والغفلة، فإنهم منعوا بهما عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلاَّ بعد معرفتها.

ثم إنهم إن عرفوا نعمة، ظنوا أن الشكر عليها، أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر: أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله عزَّ وجلّ.

فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين ــ معرفة النعمة، ومعرفة معنى الشكر عليها ــ إلاَّ غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها: أن الناس ــ بجهلهم ــ لا يعدون ما يعم الخلق في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة من النعم لأنها عامة مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منها اختصاصاً فلا يعدها نعمة.

فتراهم لا يشكرون الله على الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنه ماتوا، ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار، أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء، ماتوا غماً، فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك، ثم نجا، ربما قدّر ذلك نعمة وشكر الله عليها.

وهذا غاية الجهل، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها. فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلاَّ عند فقده لو أعيد عليه بصره. .

ولما كانت رحمة الله واسعة، عمم الخلق، وبذل لهم النعم في جميع الأحوال. . فلم يعدَّه الجاهل نعمة، وصار الناس لا يشكرون إلاَّ المال الذي يتطرق الاختصاص إليه، من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله عليهم.

شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر، وأظهر شدة اغتمامه بفقره، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك

أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أما تستحي أن تشكو مولاك، وله عندك عروض بخمسين ألفاً؟!

وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول:

ما من عبد إلاَّ لو أمعن النظر في أحواله رأى من الله نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة، بل يشاركه عدد يسير، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور: في العقل، والخلق، والعلم.

أما العقل: فما من عبد لله تعالى إلاَّ وهو راضٍ عن الله في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلَّ من يسأل الله العقل، وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه، كما يفرح به المتصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه. وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه.

وأما الخلق، فما من عبد إلاَّ ويرى من غيره عيوباً يكرهها، وأخلاقاً يذمها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه، وابتلى غيره بالخلق السيء.

وأما العلم، فما من أحد إلاَّ ويعرف بواطن أمور نفسه، وخفايا أفكاره، وما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة؟ فلمَ لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساوئه، فأظهر الجميل، وستر القبيح، وأخفى ذلك عن أعين الناس، وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد.

فهذه ثلاث من النعم خاصة، يعترف بها كل عبد.

وإذن: إنما انسدّ طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة.

فإن قلت: فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر؟

فأقول: أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة.

وأما القلوب البليدة، التي لا تعد النعمة نعمة إلاَّ إذا خصت بها، أو شعرت بالبلاء معها، فسبيله أن ينظر أبداً إلى من دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان كل يوم يحضر دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود. فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم، ثم يتأمل في صحته وسلامته، فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض، ويشكر الله تعالى، ويشاهد الجناة يعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات.. ويحضر المقابر، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً، أما من عصى الله تعالى فليتدارك، وأما من أطاع فليزد في طاعته.. فإذا شاهد ذلك فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله.. وإذا عرف تلك النعمة شكر.

فهذا علاج هذه القلوب الغافلة فعساها تشكر.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر: أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد. ولذلك كان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ يقول: عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

وقال بعض السلف: النعم وحشية، فقيدوها بالشكر.

الركـن الثالـث
فيما يشترك فيه الصبر والشكر

اجتماع الصبر والشكر:

لعلك تقول: قد ذكرت أن لله تعالى في كل موجود نعمة، وهـذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنى الصبر؟ وإن كان البلاء موجوداً، فما معنى الشكر على البـلاء؟ وكيف يجتمع الصبـر والشكـر، فـإن الصبـر يستـدعي ألمـاً، والشكـر يستدعي فرحاً، وهما متضادان.

فاعلم: أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة.

وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه، فالكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعصية، بل حق الكافر أن يترك كفره، وعلى العاصي أن يترك معصيته.

وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه، فلا يؤمـر بالصبـر عليه، فلو تـرك الإنسان الماء مع طـول العطش، حتى عـظم تألمـه فلا يؤمـر بالصبـر عليه، بـل يؤمر بـإزالة الألم.

وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته.

فإذاً: يرجـع الصبر في الـدنيا إلى مـا ليس ببلاء مـطلق، بل يجـوز أن يكون نعمـة من وجه، فلذلـك يتصور أن يجتمـع عليه وظيفـة الصبر والشكـر، فإن الغنى ـ مثلاً ـ يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان، حتى يُقصد بسبب مالـه فيقتل ويقتـل أولاده. والصحة أيضاً كذلك، فما من نعمة من هـذه النعم الدنيـوية إلاَّ ويجـوز أن تصير بلاء، ولكن بـالإضافـة إليه، وكـذلك مـا من بلاء إلاَّ ويجـوز أن يصير نعمـة، ولكن بالإضافة إلى حاله. فرب عبد تكون الخيـرة له في الفقـر والمرض، ولـو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى.

ومثـال ذلك: أن الجهـل بلاء ولكنـه قد يكـون على العبـد في بعض الأمـور نعمة. فجهل الإنسان بأجله نعمة عليه، إذ لو عرفه ربما تنغص عليـه العيش، وطال

بذلك غمه، وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه، إذ لو رفع الستر واطلع عليه، لطال ألمه وحقده وحسده.

ومن ذلك: إبهام الله تعالى أمر القيامة، وليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، وإبهامه بعض الكبائر، فكل ذلك نعمة، لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد.

فهذه وجوه نعم الله في الجهل، فكيف بالعلم؟!

وحيث قلنا: إن لله سبحانه في كل موجود نعمة، فهو حق، حتى إن الآلام قد تكون نعمة في حق المتألم، وقد تكون نعمة في حق غيره، كألم الكفار في النار في الآخرة، فإنه نعمة في حق أهل الجنة، إذ لو لم يعذب قوم، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار. ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس، مع شدة حاجتهم إليها، من جهة أنها عامة مبذولة، ولا بالنظر إلى زينة السماء، لأنها عامة، فلذلك لم يشعروا بها، ولم يغرموا بسببها.

فإذن: قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلَّا وفيه حكمة ونعمة، إما على جميع عباده، أو على بعضهم، ففي خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً، إما على المبتلى، أو على غير المبتلى، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر ووظيفة الصبر، في كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق، ولا نعمة مطلقة.

* * *

واعلم أن في كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح بها العاقل، ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرض، فيتصور أن يكون أكبر منها، فإن مقدورات الله لا تتناهى، فلو زادها الله ماذا كان يرده؟ فليشكر إذ لم تكن أعظم منها.

الثاني: أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه. قال عمر بن الخطاب

رضي الله عنه: ما ابتليت ببلاء إلاَّ كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه.

الثالث: أنه ما من عقوبة إلاَّ كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف. ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها. ومن عجلت عقوبته في الدنيا، لم يعاقب ثانياً.

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، وكان لا بد من وصولها إليه. وقد وصلت، ووقع الفراغ منها واستراح فهذه نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة، وكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله مثال الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر، لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة. ومن لم يؤمن أن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة، لم يتصور منه الشكر على المصيبة، والأخبار الواردة في ثواب الصبر على المصائب كثيرة، ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

فضل النعمة على البلاء:

لعلك تقول: هذا يدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم فيها، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟

فأقول: لا وجه لذلك، لما روي أنه ﷺ: كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة[٢].

وكان ﷺ يقول: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة»[٣].

(١) سورة الزمر: الآية (١٠).
(٢) رواه أحمد بلفظ: «أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»، وإسناده جيد (ع).
(٣) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس (ع).

فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا، ودفع ما فوقه من البلاء.

أما ما نقل عن بعضهم من سؤالهم للبلاء، فما سمعته من هذا الفن، فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه.

بيان الأفضل من الصبر والشكر:

اختلف الناس، هل الصبر أفضل من الشكر، أو بالعكس؟ واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب، بعيد عن التحصيل، فنقول في بيان ذلك مقامان:

المقام الأول: وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر، ولا يطلب التفتيش عن حقيقته، وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق، لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة، وهذا الفن من الكلام ينبغي أن يعتمده الوعاظ.

ومقتضى هذا المقام، النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع، وذلك يقتضي تفضيل الصبر، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله، فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر. بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل. كقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1].

وقوله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[2].

فالحديث دليل على أن الفضيلة في الصبر، إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر، فألحقه بالصبر، فكان هذا منتهى درجته، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر.

المقام الثاني: ونقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار.

السابق إلى أفهام الناس، أن النعمة هي الأموال والغنى بها. فإذا أضيف الصبر إلى الشكر ــ الذي هو صرف المال إلى الطاعة ــ فالشكر أفضل، لأنه تضمن

---

(١) سورة الزمر: الآية (١٠).

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه (ع).

الصبر أيضاً. وفيه فرح بنعمة الله تعالى. وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء، وترك صرفه إلى التنعم المباح، والشيئان أفضل من شيء واحد، والجملة أعلى رتبة من البعض، فالشكر أفضل من الصبر بهذا الاعتبار.

وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية، بل يصرفه إلى التنعم المباح، فالصبر ها هنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله، الصارف إياه إلى المباحات، لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات.

وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص، لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة الغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر، أن يقول الإنسان: الحمد لله، ولا يستعين بالنعمة على المعصية، لا أن يصرفها إلى الطاعة، فإذن الصبر أفضل من الشكر. أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة.

وإذا لاحظت المعاني التي ذكرناها، علمت أن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال. فربّ فقير صابر أفضل من غني شاكر، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر.

وللصبر درجات، أقلها: ترك الشكوى مع الكراهية، ووراءها الرضا، وهو مقام وراء الصبر، ووراءه الشكر على البلاء، وهو وراء الرضا.

وكذلك فالشكر درجات كثيرة، من جملتها: أن حياء العبد مع تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والاعتذار من قلة الشكر شكر، والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من النعم وموهبة من الله تعالى شكر.

***

الكِتَابُ الثَّالِثُ

الرَّجَاءُ وَالخَوْفُ

رُبعُ المُنجِيَات

الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود. ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشمل على فصلين:

الفصل الأول: في الرجاء.

الفصل الثاني: في الخوف.

الفصل الأول

في الرجاء

[تمهيد في بيان المصطلحات]:

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين.

وإنما يسمى الوصف **«مقاماً»** إذا ثبت وأقام.

وإنما يسمى **«حالاً»** إذا كان عارضاً سريع الزوال.

وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة الزوال، كصفرة الوجل، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى «حالاً» لأنه يحول على القرب. .

وكل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب، فينقسم إلى موجود في الحال، وإلى موجود فيما مضى، وإلى منتظر في الاستقبال:

فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي **«ذكراً»** و **«تذكراً»**.

وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال، سمي: **«وجداً»** و **«ذوقاً»** و **«إدراكاً»** وإنما سمي وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك.

وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال، وغلب ذلك على قلبك، سمي **«انتظاراً»** و **«توقعاً»**:

فإن كان المنتظر مكروهاً، حصل منه ألم في القلب سمي **«خوفاً»** و **«إشفاقاً»**.

وإن كان محبوباً، حصل من انتظاره وتعلق القلب به، لذة في القلب وارتياح، سمي ذلك الارتياح **«رجاء»**.

فالرجاء: هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده. ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بدَّ وأن يكون له سبب.

فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم **«الرجاء»** صادق عليه.

وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه فاسم **«الغرور»** و **«الحمق»** عليه أصدق من اسم الرجاء.

وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود، ولا معلومة الانتفاء، فاسم **«التمني»** أصدق على انتظاره، لأنه انتظار من غير سبب.

وعلى كل حال، فلا يطلق اسم «الرجاء» و «الخوف» إلا على ما يتردد فيه، أما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع، وأخاف غروبها وقت الغروب، لأن ذلك مقطوع به. نعم يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

حقيقة الرجاء:

الرجاء يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال، والحال يقتضي العمل، والرجاء اسم لجملة الثلاثة.

وقد علم أرباب القلوب، أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها.

والقلب المستهتر المستغرق بالدنيا، كالأرض السبخة، التي لا ينمو فيها البذر.

ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرةَ برجاء صاحب الزرع.

فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً جيداً، غير عفن ولا مسوّس، ثم أمده بما يحتاج إليه، وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نفى الشوك عن الأرض والحشيش، وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق، والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سمي انتظاره رجاءً.

وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة، لا ينصب إليها الماء، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه، سمي انتظاره: حمقاً وغروراً، لا رجاءً.

وإن بث البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع، سمي انتظاره تمنياً، لا رجاءً.

فاسم «الرجاء»، إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات.

فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر قلبه عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاءً حقيقياً، محموداً في نفسه، باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت.

وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، وترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور، قال ﷺ: «الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»(١).

وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾(٢).

معناه: أولئك يستحقون أن يكونوا من أصحاب الرجاء، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم قد يرجو، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء.

والرجاء محمود لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم ــ وهو ضده ــ لأنه صارف عن العمل.

والخوف ليس بضدّ للرجاء، بل هو رفيق له، وهو باعث على العمل بطريق الرهبة، كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة.

قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو، من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عزَّ وجلّ مع الإفراط.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

فضيلة الرجاء:

ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب، لا سيما في وقت الموت. قال الله تعالى:

﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه (ع) وكذا أخرجه أحمد (ش).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢١٨).

(٣) سورة الزمر: الآية (٥٣).

فحرم أصل اليأس.

وقال ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزَّ وجلّ»(١).

وقال ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: أنا عند ظن عبدي بـي»(٢).

وقـال علي رضي الله عنه لـرجل أخـرجه الخـوف إلى القنوط لكثـرة ذنـوبـه: يا هذا، يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك.

سبيل الوصول إلى حال الرجاء:

اعلم أن دواء الرجاء يحتاج إليه أحد رجلين:

إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة.

وإما رجل غلب عليـه الخوف فـأسرف في المـواظبة على العبـادة، حتى أضر بنفسه.

وهذان رجلان مائلان عن الاعتـدال إلى طرفي الإفـراط والتفريط، فيحتـاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال.

فأما العاصي المغرور، المتمني على الله، مع الإعراض عن العبادة، واقتحام المعاصي، فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقـه. ولا ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، والأسباب المهيجة له.

ولهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً، ناظراً إلى مواقـع العلل، معالجـاً كل علة بما يضادها، لا بما يزيد فيها. وهـذا الزمـان زمان لا ينبغي أن يستعمـل فيه مـع الخلق أسباب الـرجاء، بـل المبالغـة في التخويف، فـإن ذكر أسبـاب الـرجـاء يهلكهم ويرديهم.

وأسبـاب الرجـاء نوعـان: منها مـا هو بـطريق الاعتبار، ومنهـا ما هـو بـطريق استقراء الآيات والأخبار.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧٧).

(٢) متفق عليه (خ ٧٤٠٥، م ٢٦٧٥).

أما الاعتبار: فهو أن يتأمل ما ذكرناه من أصناف النعم في كتاب الشكـر، فإذا علم لـطائف الله تعالى في الـدنيا بعبـاده، وعجائب حكمتـه التي راعاهـا في فـطرة الإنسـان، وأن لطفـه الإلهي لم يقصر عن عبـاده في دقائق مصـالحهم في الـدنيـا، فكيف يـرضى سياقتهم إلى الهـلاك المؤبـد، فـإن من لـطف في الـدنيـا يلطف في الآخرة، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد، وهو غفور رحيم.

وأما استقراء الآيات والأخبار، فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر.

قال تعالى:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(2).

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه، وإنما خوف بها أولياءه فقال:

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾(3).

وقال تعالى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾(4).

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾(5).

---

(1) سورة الزمر: الآية (٥٣).

(2) سورة الشورى: الآية (٣).

(3) سورة الزمر: الآية (١٦).

(4) سورة آل عمران: الآية (١٣١).

(5) سورة الرعد: الآية (٦).

وقال ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة»[1].

وقال ﷺ فيما يحكيه عن ربه عزَّ وجلّ قال: «أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرت لك»[2].

وقال ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار»[3].

وقال ﷺ: «إن الله كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي»[4].

وقال ﷺ: «لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»[5].

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم»[6].

وقال ﷺ: «إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»[7].

فهذه هي الأسباب التي يجلب بها الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئاً من ذلك. بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف، فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٨٧).
(٢) متفق عليه (خ ٧٥٠٧، م ٢٧٥٨) واللفظ لمسلم وقد أورده المصنف بلفظ قريب.
(٣) متفق عليه (خ ١٢٣٨، م ٩٣).
(٤) متفق عليه (خ ٧٤٠٤، م ٢٧٥١).
(٥) متفق عليه (خ ٦٤٦٩، م ٢٧٥٥) واللفظ لمسلم.
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٧٤٩).
(٧) متفق عليه (خ ٦٤٦٩، م ٢٧٥٢).

الفَصل الثاني

في الخَوْف

حقيقـة الخـوف:

الخوف: عبارة عن تألم القلب بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

والباعث على الخوف، هو العلم بالسبب المفضي إلى المكـروه، كمن جنى على ملك ثم وقـع في يده، فيخـاف القتل مثـلاً، ويجوِّز العفـو والإفلات، ويكـون تـألم قلبه بـالخوف بحسب قـوة علمه بـالأسباب المفضيـة إلى قتله، وهـو تفـاحش جنايته.

والخوف من الله تعالى، تـارة يكون لمعـرفة الله تعـالى ومعرفـة صفاتـه، وأنه لـو أهلك العالمين لم يمنعـه مانـع، وتارة يكـون لكثرة الجنـاية من العبـد بمقـارفـة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً.

وبحسب معرفته بعيوب نفسه، ومعرفته بجـلال الله تعالى، تكـون قوة خـوفه، فأخوف النـاس لربـه أعرفهم بنفسـه وبربـه ولذلـك قال ﷺ: «أنـا أخوفكم لله»[1]، وكذلك قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2].

وللخوف أثر يفيض من القلب على البدن والجوارح والصفات.

أما في البدن: فبالنحول والصفار والبكاء، وقد يفسد العقل، أو يقوى فيـورث القنوط واليأس.

---

(١) متفق عليه بلفظ: «إني لأتقاكم لله وأخشاكم له» (خ ٥٠٦٣، م ١١٠٨).

(٢) سورة فاطر: الآية (٢٨).

وأما في الجوارح: فبكفها عن المعاصي، وتقييدها بالطاعات، تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل.

وأما في الصفات: فبأن يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة.

وعندها تحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ويكون شغله المراقبة والمحاسبة والمجاهدة.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال: أن يمتنع عن المحظورات، ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعاً. فإن زادت قوة الكف، فكف عما لا يتيقن تحريمه. ويسمى ذلك: تقوى. وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس. وهو الصدق في التقوى.

درجات الخوف:

الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

وهو أمر محمود، وله قصور، وله إفراط، وله اعتدال، والمحمود هو الاعتدال.

فأما القاصر منه: فهو الذي يجري مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن، فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة.

فهذا خوف قاصر، قليل الجدوى، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف، الذي تضرب به دابة قوية، فلا يؤلمها ولا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها.

وهـذا خوف النـاس كلهم، إلاَّ العـارفين والعلمـاء، ولست أعني بـالعلمـاء: المترسمين برسوم العلماء، والمتسمين بأسمائهم، فـإنهم أبعد النـاس عن الخوف، بل أعني العلماء بالله، وذلك مما قد عزَّ وجوده الآن.

ولذلك قال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك: هل تخاف الله؟ فاسكت، فإنك إن قلت: «لا»، كفرت، وإن قلت: «نعم»، كذبت.

وأشار به إلى أن الخوف، هو الـذي يكف الجوارح عن المعـاصي، ويقيدهـا بالطاعات، وما لم يؤثر في الجوارح، فهو حديث نفس، وحـركة خـاطر، لا يستحق أن يسمى: خوفاً.

وأمـا المفرط: فهـو الذي يقـوى، ويتجاوز حـدَّ الاعتدال، حتى يخـرج إلى اليأس والقنوط، وهو ــ أيضاً ــ مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخـرج أيضاً إلى المرض والضعف، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل.

وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرجاء وأكثر منها، ليعالج بها صدمـة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط، أو أحد هذه الأمور.

فكـل ما يـراد لأمر، فـالمحمود منـه، مـا يفضي إلى المـراد المقصـود منـه، وما يقصر عنه، أو يجاوزه، فهو مذموم.

وفائدة الخوف: الحذر والـورع والتقوى والمجـاهدة والفكـر والذكـر، وسائـر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى. وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل، وكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم.

فإذن: إن لم يؤثر الخوف في العمل، فوجوده كعدمه، وإن لم يحمل إلاَّ على العفة ــ وهي الكف عن مقتضى الشهوات ــ فله درجة، فإذا أثمر الورع فهو أعلى، وأقصى درجاته أن يثمر درجة الصديقين، وهذا أقصى ما يحمد منه، وذلك مـع بقاء الصحـة والعقل، فـإن جاوز هـذا إلى الإضرار بـالعقل والصحـة فهـو مـرض يجب علاجه.

ولذلك كان سهل التستري ــ رحمه الله ــ يقول للمريدين الملازمين للجوع أياماً كثيرة: احفظوا عقولكم، فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل.

أقسام الخوف:

المكروه ــ الذي يكون سبباً للخوف ــ إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار، وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي إلى المكروه، كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة.

فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروهاً من أحد القسمين.

ومقام الخائفين يختلف بحسب ما يغلب على قلوبهم من المكروهات.

ــ **فمنهم من يخاف معصيته** وجنايته، وهم الذين يغلب على قلوبهم خوف ما ليس مكروهاً لذاته، بل لغيره، كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة، أو خوف الميل عن الاستقامة، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والغش.. أو خوف سكرات الموت.. فهذه كلها مخاوف، ولكل واحد خصوص فائدة، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف.

وأغلب هذه المخاوف على المتقين: خوف الخاتمة، فإن الأمر فيه مخطر، وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة، لأن الخاتمة تتبع السابقة، فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب.

ــ **ومنهم من يخاف الله تعالى** نفسه، لصفته وجلاله وأوصافه، التي تقتضي الهيبة لا محالة. فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى (يستمر) خوفه وإن كان في طاعة الصديقين. وأما الآخر ــ وهو الذي يخاف معصيته ــ فهو في ساحة الغرور والأمن إن واظب على الطاعات.

فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين.

فضيلة الخوف:

فضل الخوف يعرف تارة بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار.

أما الاعتبار، فسبيله أن الشهوة لا تنقمع بشيء كما تنقمع بنار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي، ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة، وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة، التي تقرب إلى الله زلفى.

وأما الآيات والأخبار، فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر. وناهيك دلالة على فضيلته أن الله تعالى جمع للخائفين: الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان:

فقال تعالى:

﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2].

وصفهم بالعلم لخشيتهم.

وقال عزَّ وجلّ:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[3].

وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأن الخوف ثمرة العلم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٤).

(٢) سورة فاطر: الآية (٢٨).

(٣) سورة البينة: الآية (٨).

وقال تعالى:

﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

فأمر بالخوف وأوجبه، وشرطه في الإيمان، فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه.

وقال تعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[2].

قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد، كيف نصنع، نجالس أقواماً يخوفوننا، حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن؛ خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف.

وكل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف، لأنهما متلازمان، فإن كل من رجا محبوباً، فلا بد وأن يخاف فوته، فلا ينفك أحدهما عن الآخر. قال تعالى:

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[3].

وقال تعالى:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[4].

الأفضل من الخوف والرجاء:

الأخبار في فضل الخوف والرجاء كثيرة، وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد، يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٧٥).

(٢) سورة الرحمن: الآية (٤٦).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٩٠).

(٤) سورة السجدة: الآية (١٦).

والخوف والرجاء دواءان، يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى، والاغترار به، فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله، فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل.

وعلى الجملة: فما يراد لغيره، ينبغي أن يستعمل فيه لفظ «الأصلح» لا لفظ «الأفضل»، فنقول: أكثر الخلق، الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي، وأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه.

ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لو نودي: ليدخل النار كل الناس إلَّا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودي: ليدخل الجنة كل الناس إلَّا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل.

وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما. فمثل عمر ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه، فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثني من الذين أمروا بدخول النار، كان ذلك دليلاً على اغتراره.

الدواء الذي يستجلب به الخوف:

الخوف يحصل بطريقين مختلفين، أحدهما أعلى من الآخر.

ومثاله: أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف، وربما مد اليد إلى الحية ليلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه، فخاف من الحية وهرب منها، فإذا نظر الصبي إلى أبيه، قام معه وغلب عليه الخوف، ووافقه في الهرب. فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها، وأما خوف الابن فبمجرد التقليد، لأنه يحسن الظن بأبيه، ويعلم أنه لا يخاف إلَّا من سبب مخوف في نفسه.

وإذا عرفت هذا المثال، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

ـ أحدهما: الخوف من عذابه.

ـ الثاني: الخوف منه.

فأما الخوف منه، فهو خوف العلماء وأرباب القلوب، العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة، والخوف والحذر، المطلعين على سر قوله تعالى:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[1].

وقوله عزَّ وجلّ:

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[2].

وأن يكون الله هو المخوف، فهذا هو الخوف الأعلى، وهو أن يخاف العبد الحجاب منه، ويرجو القرب منه.

ومن ارتقى إلى هذه الذروة من المعرفة، وعرف الله تعالى، خافه بالضرورة، فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف. كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعاً في مخالبه خاف بالضرورة شاء أم أبى، ولا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف.

وأما الخوف من عذابه فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، وضعفه بسبب الغفلة، وسبب ضعف الإيمان.

وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ، وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة، وأصناف العذاب في الآخرة.

وتزول الغفلة أيضاً بالنظر إلى الخائفين، ومجالستهم، ومشاهدة أحوالهم، فإن فاتت المشاهدة، فالسماع لا يخلو عن تأثير.

عن عائشة أم المؤمنين قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه قال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٣٠).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).

وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[1].

والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف، لمن قرأه بتدبر، ولو لم يكن فيه إلاَّ قوله تعالى:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[2].

لكان كافياً، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها.

وأشد منه قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾[3].

وكذلك في سورة العصر أربعة شروط للخلاص من الخسران.

قال سهل التستري رحمه الله: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

فإذا كان خوف العارفين، مع رسوخ أقدامهم، وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة، فكيف لا يخافه الضعفاء؟

معنى سوء الخاتمة:

فإن قلت: إن أكثر خوف هؤلاء يرجع إلى سوء الخاتمة، فما معنى سوء الخاتمة؟

فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين، إحداهما أعظم من الأخرى.

ـ أما الرتبة العظيمة الهائلة: فهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: شك أو جحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك،

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٢).
(٢) سورة طه: الآية (٨٢).
(٣) سورة القصص: الآية (٦٧).

فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

ـ والثانية ـ وهي دونها ـ : أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا، وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه، حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحال، فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا، وصارفاً وجهه إليها. وإذا انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلَّا المحجوبين عنه، فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا، المصروف همه إلى الله تعالى، فتقول له النار: جُز يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي.

فإن قلت: فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها:

أما الخاتمة الأولى، والتي هي الختم على الشك أو الجحود، فينحصر سببها في شيئين:

أحدهما: يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال. كالمبتدع الزاهد، فإن عاقبته مخطرة جداً، وإن كانت أعماله صالحة. وأعني بالبدعة: أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق.

فإذا قرب الموت، وظهرت له ناصية الملك، واضطرب القلب بما فيه، ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً؛ إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادىء سكراته منه، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته، أو لشكه فيها، فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان، فقد ختم له بالسوء، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[1].

الثاني: هو ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب، ومهما ضعف الإيمان، ضعف حب الله تعالى، وقوي حب الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى، إلاَّ من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس، والعدول عن طريق الشيطان.

فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد حب الله ضعفاً، لما يبدو من استشعار فراق الدنيا، وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب لفراق الدنيا، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة، ختم له بالسوء، وهلك هلاكاً مؤبداً.

والسبب المفضي إلى مثل هذه الخاتمة، هو غلبة حب الدنيا، والركون إليها.

وأما الخاتمة الثانية، التي هي دون الأولى، وليست مفضية للخلود في النار، فلها أيضاً سببان:

أحدهما: كثرة المعاصي، وإن قوي الإيمان.

الثاني: ضعف الإيمان، وإن قلت المعاصي.

وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوة ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره، يعود ذكره إلى قلبه عند موته، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات، كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت، فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من الشهوات، ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قلبه، ويصير محجوباً عن الله تعالى.

فالذي لا يقارف الذنب إلاَّ الفينة بعد الفينة، هو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو بعيد جداً عن هذا الخطر. والذي غلبت عليه المعاصي، وكانت أكثر من طاعاته، وقلبه بها أفرح منه بالطاعات، فهذا الخطر عظيم في حقه.

---

(١) سورة الزمر: الآية (٤٧).

ولا طريق للانتقال عن المعاصي والشهوات إلاَّ المجاهـدة طول العمـر، في فطامه نفسه عنها، وفي قمع الشهوات عن القلب، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار. ويكون طول المواظبة على الخير، وتخلية الفكر عن الشـر، عدَّة وذخيـرة لحالة سكرات الموت. فإنه يموت المرء على ما عاش عليـه، ويحشر على مـا مات عليه.

فإذاً: رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب، واختلاج الخواطر.

ومقلب القلوب هو الله، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطـر غير داخلة تحت الاختيار دخولاً كلياً، وإن كان لطول الإلف فيه تأثير. فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة.

ولـذلـك كـان مـطرف بن عبـد الله[1] يقـول: إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا!!

[نصيحة]:

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمـة، وما هـو مخوف فيهـا، فاشتغـل بالاستعـداد لها، فواظب على ذكر الله تعالى، وأخرج من قلبك حب الـدنيا، واحـرس عن فعل المعـاصي جـوارحـك، وعن الفكـر فيهـا قلبـك، واحتـرز عن مشـاهـدة المعـاصي ومشـاهدة أهلهـا جهـدك. فـإن ذلـك أيضـاً يؤثـر في قلبـك، ويصـرف إليـه فكـرك وخواطرك.

وإياك أن تسوِّف وتقول: سأستعد لها إذا جـاءت الخاتمـة، فإن كـل نَفَس من أنفاسك خاتمتك، إذ يمكن أن تخطف فيه روحك.

فـراقب قلبك في كـل تطريفـة، وإياك أن تهمـل لحظة، فلعـل تلك اللحـظة خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك، هذا ما دمت في يقظتك.

---

(١) مطرف بن عبد الله الشخير العامـري، زاهد من كبـار التابعين، محـدث ثقة، ولـد في حياة الرسول ﷺ، وتوفي في البصرة عام (٨٧)هـ.

وأما إذا نمت، فإياك أن تنام إلَّا على طهارة الظاهر والباطن، وأن يغلبك النوم إلَّا بعد غلبة ذكر الله على قلبك، لست أقول على لسانك، فإن حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر.

وراقب أنفاسك ولحظاتك، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين، فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم. فكيف إذا لم تفعل؟! فالناس كلهم هلكى إلَّا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلَّا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلَّا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك. وضرورتك: مطعم وملبس ومسكن، والباقي كله فضول.

فاقبل هذه النصيحة، ممن هو أحوج إلى النصيحة منك، واعلم أن متسع التدبير والتزوُّد والاحتياط هذا العمر القصير، فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويفك، أو غفلتك، اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك، ولم تفارقك حسرتك وندامتك.

[الشهادة وحسن الخاتمة]:

ولأجل هذا الخطر العظيم، في سوء الخاتمة، كانت الشهادة مغبوطاً عليها، وكان موت الفجأة مكروهاً.

أما الموت فجأة، فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء، واستيلائه على القلب.

وأما الشهادة، فلأنها عبارة عن قبض الروح، في حالة لم يبقَ في القلب سوى حب الله تعالى، وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد، وجميع الشهوات عن القلب، إذ لا يهجم على صف القتال ـ موطناً نفسه على الموت ـ إلَّا حباً لله، وطلباً لمرضاته، وبائعاً دنياه بآخرته، وراضياً بالبيع الذي بايعه الله به، إذ قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآية (١١١).

والبائع راغب عن المبيع لا محالة، ومخرج حبه عن القلب، ومجرد[1] حب العوض المطلوب في قلبه ـ وهو الجنة ـ .

ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال، ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها، فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة. هذا فيمن ليس يقصد الغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة. فإن من هذا حاله، وإن قتل في المعركة، فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة، كما دلت عليه الأخبار.

ذكر أمثلة من خوف السلف الصالح:

روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر: ليتني مثلك يا طائر، ولم أخلق بشراً.

وقال أبو ذر رضي الله عنه: وددت أني شجرة تعضد.

وقال عثمان رضي الله عنه: وددت أني إذا مت لم أبعث.

وقالت عائشة رضي الله عنها: وددت أني كنت نسياً منسياً.

ومرَّ عمر رضي الله عنه يوماً بدار إنسان، وهو يصلي ويقرأ سورة (والطور) فوقف يستمع، فلما بلغ قوله تعالى:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[2].

نزل عن حماره، واستند إلى حائط، ومكث زماناً، ورجع إلى منزله فمرض شهراً، يعوده الناس، ولا يدرون ما مرضه.

وقال علي رضي الله عنه، وقد سلم من صلاة الفجر، وقد علاه كآبة، وهو يقلب يده: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فلم أرَ اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى[3]، قد باتوا لله سجداً

---

(١) أي أفرد.

(٢) سورة الطور: الآيتان (٧ ــ ٨).

(٣) أي من أثر السجود.

وقياماً، يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما تميد الشجر في يوم الريح. وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله فكأني بالقوم باتوا غافلين. ثم قام، فما رؤي بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم.

وكان علي بن الحسين رحمه الله إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وروي أن الفضيل رؤي يوم عرفة، والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، حتى إذا كادت الشمس تغرب، قبض على لحيته، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك وإن غفرت. ثم انقلب مع الناس.

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة، فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم، فإن بلعام[1] كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي، ولا تغتر برؤية الصالحين، فلا شخص أكبر منزلة من المصطفى ﷺ عند الله، ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه.

وقال الفضيل: إني لا أغبط نبياً مرسلاً، ولا ملكاً مقرباً، ولا عبداً صالحاً، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة؟ إنما أغبط من لم يخلق.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه.

وقال الحسن البصري رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، يا ليتني كنت ذلك الرجل. وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة.

فهذه مخاوف السلف الصالح، ونحن أجدر بالخوف منهم.

---

(١) بلعام بن باعوراء من علماء بني إسرائيل، كان علمه سبب هلاكه، كما قال تعالى: ﴿آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾، سورة الأعراف: الآية (١٧٥).

ومن العجائب: أنّا إذا أردنا المال في الدنيا، زرعنا وغرسنا واتجرنا، وركبنا البحار، وخاطرنا، وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره، ونجتهد في طلب أرزاقنا، ولا نثق بضمان الله لنا، ولا نجلس في بيوتنا فنقول: اللَّهم ارزقنا.

ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم، قنعنا بأن نقول بألسنتنا: اللَّهم اغفر لنا وارحمنا، والذي إليه رجاؤنا، وبه اعتزازنا ينادينا ويقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(1).

ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا. فما هذه إلاَّ محنة هائلة، إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح، فنسأل الله أن يتوب علينا.

***

---

(1) سورة النجم: الآية (٣٩).

الكتاب الرابع

الفقر والزهد

ربع المنجيات

سبق ذم الدنيا في ربع المهلكات، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والـزهد فيها، فإنه أم الطاعات، ورأس القربـات، ورأس المنجيات، ولا مـطمع في النجـاة إلا بالانقطاع عن الدنيا.

ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد، ويسمى ذلك «فقراً»، وإما بانزواء العبـد عنهـا، ويسمى ذلـك «زهـداً». ونحن نـذكـر كـلاً منهمـا في فصـل من هـذا الكتاب.

الفصل الأول

في الفقر

حقيقة الفقر:

الفقر: عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقراً.

وكل موجود ــ سوى الله تعالى ــ فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الوجود، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى. وهذا معنى الفقر المطلق، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾(١).

ولسنا نقصد بيان الفقر المطلق، بل الفقر من المال على الخصوص.

فكل فاقد للمال فإنا نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده، وللفقير خمسة أحوال بحسب فقره ونحن نميزها ونخص كل حال باسم.

الأولى: وهي العليا، أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه، وتأذى به، وهرب من أخذه، مبغضاً له، ومحترزاً من شره. وهو: الزهد، واسم صاحبه: الزاهد.

---

(١) سورة فاطر: الآية (١٥).

الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه. وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه، لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه. فإن أتاه أخذه وفرح به، وإلا لم يشتغل بطلبه. وصاحب هذه الحالة نسميه قانعاً، إذ قنع بالموجود.

الرابعة: أن يكون تركه الطلب لعجزه. وإلا فهو راغب فيه لو وجد سبيلاً إلى طلبه. وصاحب هذه الحالة يسمى بالحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه، كالجائع الفاقد للخبز. ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً، كيفما كانت رغبته في الطلب، ضعيفة أو قوية، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة.

وأعلى هذه الخمسة الحالة الأولى. ووراءها حالة أخرى، هي أعلى منها، وهي: أن يستوي عنده وجود المال وفقده. فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذّ، وإن فقده فكذلك. وذلك كما كان حال عائشة رضي الله عنها، إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء، فأخذتها وفرقتها من يومها. فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو ذكرتيني لفعلت.

فمن كانت هذه حاله، لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده لم تضره. وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة: «المستغني» لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً.

وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم «الغني» المطلق على الله تعالى.

وعلى كلٍّ: كلُّ من كثر ماله من العباد، وهو يفرح به، فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو غني عن دخول المال في يده، لا عن بقائه. فهو إذن فقير من وجه. أما المستغني فهو غني عن دخوله وعن بقائه.

فضيلة الفقر:

قال الله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[2].

ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر.

وفي الخبر قوله ﷺ: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام»[3].

وقال ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»[4] أي أربعين سنة.

والاختلاف بين الخبرين يرجع إلى الاختلاف في درجات الفقر.

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره»[5].

---

(١) سورة الحشر: الآية (٨).
(٢) سورة البقرة: الآية (٢٧٣).
(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح (ع).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٩٧٩).
(٥) متفق عليه (خ ٤٩١٨، م ٢٨٥٣).

وقال ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»[1].

وقال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً[2]»[3].

قال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل، فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبداً.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما من أحد إلا وفي عقله نقص. وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة، ظل فرحاً مسروراً، والليل والنهار دائبان في هدم عمره، ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم، ما ينفع مال يزيد، وعمر ينقص.

ومر رجل بعامر بن عبد القيس، وهو يأكل ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبد الله، أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى، قال: من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة.

وقال رجل لبشر الحافي رحمه الله: ادع الله لي فقد أضرَّ بي العيال، فقال: إذا قال لك عيالك: ليس عندنا دقيق ولا خبز، فادع الله لي في ذلك الوقت، فإن دعاءك أفضل من دعائي.

وقال سفيان رحمه الله: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء؛ اختار الفقراء: راحة النفس، وفراغ القلب، وخفة الحساب، واختار الأغنياء: تعب النفس، وشغل القلب، وشدة الحساب.

وأما التفضيل بين الغني والفقير، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير. ولكن

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٥٤).

(٢) قال أهل اللغة: القوت: ما يسد الرمق.

(٣) متفق عليه (خ ٦٤٦٠، م ١٠٥٥) وأورده المصنف بلفظ «كفافاً» وما ذكرته في الصحيحين.

يحسن التفصيل: إنما يتصور الخلاف في فقير صابر ليس بحريص، بالإضافة إلى غني شاكر ينفق ماله في الخيرات. أو فقير حريص مع غني حريص.

ولا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص، فإن كان الغني متمتعاً بالمباحات فالفقير القنوع أفضل منه.

وخلاصة القول: أن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فإن تساويا فيه تساوت درجتهما.

آداب الفقير في فقره:

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره، ومخالطته وأفعاله، ينبغي أن يراعيها:

أما أدب باطنه: فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله، وإن كان كارهاً للفقر.

كالمحجوم: يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها، ولا يكون كارهاً فعل الحجام ولا كارهاً للحجام، بل ربما يتقلد منه منة.

فهذا أقل درجاته، وهو واجب، ونقيضه حرام، ومحبط ثواب الفقر.

وأرفع من هذا: أن لا يكون كارهاً للفقر، بل يكون راضياً به.

وهذا يدل على أنَّ كل فقير ليس محموداً، بل المحمود: الذي لا يتسخط، ويرضى أو يفرح لعلمه بثمرته.

وأما أدب ظاهره: فأن يظهر التعفف والتجمل، ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره، قال تعالى:

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[1].

وقال سفيان: أفضل الأعمال التجمل عند المحنة.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٧٣).

وأما في الأعمال، فأدبه أن لا يتواضع لغني لأجل غناه. وأقل منها: أن لا يخالط الأغنياء، ولا يرغب في مجالستهم، لأن ذلك من مبادئ الطمع.

وأما أدبه في أفعاله: فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإن ذلك جهد المقل. وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى.

آداب الفقير في قبول العطاء:

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

أما نفس المال: فينبغي أن يكون حلالاً، خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه.

وأما غرض المعطي؛ فلا يخلو: إما أن يكون غرضه تطييب قلبه، وطلب محبته، وهو الهدية، أو الثواب: وهو الصدقة والزكاة، أو الذكر والرياء والسمعة.

- أما الهدية، فلا بأس بقبولها، فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة. فإن كان فيها منة فالأولى تركها.

- وأما ما كان للثواب المجرد وهو الصدقة والزكاة: فعليه أن ينظر في صفات نفسه، هل هو مستحق للزكاة؟ فإن اشتبه عليه، فهو محل شبهة.

- فإن كان غرضه السمعة والرياء والشهرة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله، حتى لا يكون معيناً على غرضه الفاسد.

وأما غرضه في الأخذ: فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بد منه، أو هو مستغن عنه؟ فإن كان محتاجاً إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي، فالأفضل له الأخذ. وقال ﷺ: «إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا، فلا تتبعه نفسك»[1].

(١) متفق عليه (خ ١٤٧٣، م ١٠٤٥).

وقد كان سري السقطي[1] يوصل إلى أحمد بن حنبل ـ رحمهما الله ـ شيئاً، فرده مرة، فقال له السري: يا أحمد، احذر آفة الرد، فإنها أشد من آفة الأخذ، فقال له أحمد: أعد علي ما قلت، فأعاده، فقال أحمد: ما رددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر، فاحبسه لي عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلي.

وأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته، فلا يخلو: إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه، أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم، لما في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه، وإن كان متكفلاً بحقوق الفقراء، فليأخذ ما زاد على حاجته، فإنه غير زائد عن حاجة الفقراء، وليبادر بصرفه إليهم.

والمقصود من هذا: أن الزيادة على قدر الحاجة، إنما تأتيك ابتلاءً وفتنة، لينظر الله إليك ماذا تعمل به، وقدر الحاجة يأتيك رفقاً بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء. قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2].

تحريم السؤال من غير ضرورة:

اعلم أنه قد وردت مناهٍ كثيرة في السؤال وتشديدات، ففي الحديث قوله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه»[3].

وقال ﷺ: «من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم»[4].

وسمع عمر رضي الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب، فقال لواحد من قومه:

---

(١) السري بن المغلس السقطي، أبو الحسن، خال الجنيد، ومربيه، وصاحب معروف الكرخي وتلميذه، كان شديد الورع، وكانت له صلة بالإمام أحمد، وهو من أوائل الذين تكلموا في محبة الله تعالى، توفي سنة (٢٥٧)هـ.

(٢) سورة الكهف: الآية (٧).

(٣) رواه أصحاب السنن (ع).

(٤) رواه أبو داود وابن حبان. ولمسلم: «من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً» (ع).

عشّ الرجل، فعشاه، ثم سمعه ثانياً يسأل، فقال: ألم أقل لك عشّ الرجل؟ قال: قد عشيته، فنظر عمر، فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً، فقال: لستَ سائلاً، ولكنك تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة، وضربه بالدرة وقال: لا تعد.

فالسؤال حرام في الأصل، وإنما يباح لضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بدّ فهو حرام. وإنما قلنا: إن الأصل فيه التحريم، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة:

الأول: إظهار الشكوى من الله تعالى. إذ السؤال إظهار للفقر، وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه، وهو عين الشكوى.

الثاني: أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، فسائر الخلق إنما هم عباد مثله.

الثالث: أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً، لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل، فإن بذل حياءً من السائل أو رياءً، فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى، إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله، وفي المنع نقصان جاهه، والسائل هو السبب في هذا الإيذاء.

وإنما يباح السؤال في حال الضرورة والحاجة القريبة منها.

أما المضطر، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً، والعاري الذي ليس له ما يواريه.

وأما المحتاج حاجة مهمة، فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء، وكمن له جبة ولا قميص له تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذياً ينتهي إلى حد الضرورة.

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه، أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقص بذلك في عينه، أو السخي الذي أعد ماله للمكارم، حتى يخرج بذلك عن الذل.

ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه، من بيت يسكنه، وثوب يستره، وطعام يقيمه.

***

الفَصْلُ الثاني

في الزُّهْد

حقيقة الزهد:

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين.

والزهد: عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه.

فحال الزاهد يستدعي: مرغوباً عنه، ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه.

وشرط المرغوب عنه: أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه، لا يسمى زاهداً. إذ تارك الحجر والتراب لا يسمى زاهداً، وإنما يسمى زاهداً من ترك الدراهم والدنانير.

فمن باع الدنيا بالآخرة، فهو زاهد في الدنيا، ومن باع الآخرة بالدنيا، فهو زاهد أيضاً ولكن في الآخرة.

والزهد: اسم جرت العادة بتخصيصه بمن زهد في الدنيا.

والزاهد المطلق: هو الذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى، فلا يحب إلا الله تعالى.

والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس، أما تارك المحظورات فلا يسمى زاهداً. وأن تكون هذه المباحات مقدوراً عليها، فإن ترك ما لا يقدر عليه فلا يسمى زاهداً، ولذلك لما قيل لابن المبارك: يا زاهد، قال: الزاهد عمر بن عبد العزيز، إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، أما أنا ففيم زهدت؟!

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة، أو على سبيل استمالة القلوب، أو على سبيل الطمع.. فذلك كله من محاسن

العـادات، ولكن لا مدخـل لشيء منه في العبـادات، وإنما الـزهد أن تتـرك الـدنيـا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفـاسة الآخـرة. وترك التـزيين والتجمل بـزينة الـدنيا طمعاً في زينة الجنة، وترك المطاعم اللذيذة خوفاً أن يقال لك:

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[1].

فضيلة الزهد ودرجاته:

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[3].

وقال عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4].

قيل: معناه أيهم أزهد فيها، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال.

وقال تعالى:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[5].

---

(١) سورة الأحقاف: الآية (٢٠).
(٢) سورة طه: الآية (١٣١).
(٣) سورة الشورى: الآية (٢٠).
(٤) سورة الكهف: الآية (٧).
(٥) سورة النساء: الآية (٧٧).

واعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: وهي السفلى منها: أن يزهد في الدنيا، وهو مشتهٍ لها وقلبه مائل إليها، ونفسه ملتفتة إليها، ولكنه يجاهدها ويكفها. وهذا يسمى: المتزهد.

وهو مبدأ الزهد، في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد.

الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعاً، لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهماً لأجل درهمين. ولكن هذا الزاهد يرى زهده، ويكون معجباً بنفسه وبزهده. وهذا نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئاً، إذ عرف أن الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة. فهذا هو الكمال في الزهد، وسببه كمال المعرفة.

أقسام الزهد:

وأقسام الزهد بالإضافة إلى «المرغوب فيه» على ثلاث درجات:

الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار، ومن سائر الآلام، كعذاب القبر، ومناقشة الحساب..

فهذا هو زهد الخائفين، وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه، واللذات الموعودة في جنته..

وهذا زهد الراجين، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم، بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد.

الدرجة الثالثة: وهي العليا، ألا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهمِّ بالله تعالى، وهو الموحد الحقيقي. وهذا زهد المحبين العارفين.

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى «المرغوب عنه» فقد كثرت فيها الأقاويل.

والحاصل: أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها. وإذا رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا، فقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع، ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء، ولا معنى لحب الحياة إلا دوام ما هو موجود، فإذا رغب عنها لم يردها.

ولذلك لما كتب عليهم القتال:

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[1].

فقال تعالى:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[2].

أي: لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا. فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين.

أما الزاهدون المحبون لله تعالى، فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة، ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد، حرصاً على نصرة دين الله تعالى، أو نيل رتبة الشهادة، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة كخالد بن الوليد رضي الله عنه.

هكذا كان حال الصادقين في الإيمان، وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفاً من الموت فقيل لهم:

﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[3].

فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير. وأما المخلصون فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

* * *

---

(١) و (٢) سورة النساء: الآية (٧٧).

(٣) سورة الجمعة: الآية (٨).

إذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه، فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه، أو على من كان يخاطبه.

فقال بشر الحافي رحمه الله: (الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس)، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة.

وقال الفضيل رحمه الله: (الزهد في الدنيا هو القناعة)، وهذا إشارة إلى المال خاصة.

وقال الثوري: (الزهد هو قصر الأمل)، وهو جامع لجميع الشهوات.

علامات الزهد:

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فكم من تارك للمال مظهر للخشونة غايته أن يمدح بالزهد. فلا بد من الزهد في المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس في الدنيا.

وينبغي أن يعول على ثلاث علامات:

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1].

الثانية: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأول: علامة الزهد في المال، والثاني علامة الزهد في الجاه.

الثالثة: أن يكون أنسه بالله تعالى، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

فإذن: علامة الزهد: استواء الفقر والغنى، والعز والذل، والمدح والذم، وذلك لغلبة الأنس بالله.

قال الفضيل رحمه الله: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

---

(١) سورة الحديد: الآية (٢٣).

الكِتَابُ ٱلخَامِسُ

التَّوحِيدُ وَٱلتَّوكُّل

رُبعُ المنجيات

[تمهيد: مكانة التوكل]

التوكل منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هـو من معالي درجـات المقربين. وهـو في نفسه غـامض من حيث العلم، ثم هـو شـاق من حيث العمل.

ووجه غموضه من حيث الفهم، أن ملاحـظة الأسباب والاعتمـاد عليها شـرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنَّة وقدح في الشرع.

وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيـه مقتضى التوحيـد والنقل والشـرع، في غاية الغموض والعسر، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء، مع شـدة الخفاء، إلاَّ سمـاسرة العلمـاء الذين اكتحلوا من فضـل الله تعـالى بـأنـوار الحقـائق، فـأبصـروا وتحققوا، ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا.

فضيلـة التوكـل:

قال الله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: الآية (٢٣).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (١٢).

وقال تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾(1).

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(2).

وأعظم بمقام موسوم صاحبه بمحبة الله تعالى، ومن كان الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه، فقد فاز الفوز العظيم، فإن المحبوب لا يعذَّب ولا يبعَد ولا يحجَب.

وقال عزَّ وجلّ:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(3).

أي عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى حماه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره.

وقال عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾(4).

وقال عزَّ وجلّ:

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾(5).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب» قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يتطيرون

---

(1) سورة الطلاق: الآية (٣).

(2) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

(3) سورة الأنفال: الآية (٤٩).

(4) سورة العنكبوت: الآية (١٧).

(5) سورة المنافقون: الآية (٧).

ولا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «أنت منهم» ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة»[1].

وقال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[2].

وقرأ الخواص[3] قوله تعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[4].

فقال: ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى.

وقال هرم بن حيان[5] لأويس القرني[6]: أين تأمرني أن أكون؟ فأومأ إلى الشام، قال هرم: كيف المعيشة؟ قال أويس: أفٍّ لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٧٥٢، م ٢٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه (ع).

(٣) إبراهيم بن أحمد الخواص، كان أوحد المشايخ في عصره، وهو من أقران الجنيد، ولد في «سر من رأى»، ومات في جامع الري سنة (٢٩١)هـ. قال الخطيب البغدادي: له كتب مصنفة.

(٤) سورة الفرقان: الآية (٥٨).

(٥) هرم بن حيان العبدي: قال ابن عبد البر: هو من صغار الصحابة، مات في خلافة عثمان. وعده ابن أبي حاتم في الزهاد الثمانية من كبار التابعين، قال ابن سعد: ثقة له فضل، وكان على عبد القيس في الفتوح.

(٦) أويس بن عامر القرني، أحد العباد والنساك المتقدمين، من سادات التابعين، أصله من اليمن، أدرك النبي ﷺ ولم يره، وفد على عمر، ثم سكن الكوفة، شهد وقعة صفين مع علي، ويرجح أنه قتل فيها سنة (٣٧)هـ.

حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل:

اعلم أن التوكل من باب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلاَّ بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من:

- علم: هو الأصل.
- وعمل: هو الثمرة.
- وحال: هو المراد باسم «التوكل».

فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل، وهو المسمى «إيماناً» في أصل اللسان، إذ الإيمان هو التصديق. وكل تصديق بالقلب فهو «علم» وإذا قوي سمي «يقيناً».

وأبواب اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل، وهو التوحيد الذي يترجمه قولك: «لا إلّه إلاَّ الله وحده لا شريك له» والإيمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك: «له الملك» والإيمان بالجود والحكمة التي يدل عليها قولك: «وله الحمد».

فمن قال: «لا إلّه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» تمَّ له الإيمان الذي هو أصل التوكل، أعني: أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه، غالباً عليه.

فأما التوحيد فهو الأصل، وله مراتب:

فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه «لا إلّه إلاَّ الله» وقلبه غافل عنه أو منكر له، كتوحيد المنافقين. وهو توحيد بمجرد اللسان، يعصم صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان.

والرتبة الثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كما صدق به عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام. وصاحبه موحد: بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه، وقلبه خالٍ عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه. وهذا التوحيد يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة، إن توفي عليه، ولم تضعف بالمعاصي عقدته.

والرتبة الثالثة: أن يشاهد ذلك ــ أي «لا إلّه إلاَّ الله» ــ .

وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهّار.

وهذا موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلاَّ فاعلاً واحداً، إذ انكشف له الحق كما هو عليه.

ومعنى بناء التوكل على التوحيد يرتبط بالرتبة الثالثة، وحاصله:

أن ينكشف لك أن لا فاعل إلاَّ الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق، وعطاء ومنع وحياة وموت، وغنى وفقر، إلى غير ذلك، فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عزَّ وجلّ، لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره، بل كان خوفك منه، وإليه رجاؤك، وبه ثقتك، وعليه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون، لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض، وإذا فهمت هذا اتضح لك ذلك اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر.

[الجمع بين التوحيد والشرع]:

فإن قلت: فكيف الجمع بين التوحيد والشرع؟

ومعنى التوحيد: أن لا فاعل إلاَّ الله تعالى.

ومعنى الشرع: إثبات الأفعال إلى العباد.

فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله تعالى فاعلاً؟ وإن كان الله تعالى فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم؟

فأقول: نعم، ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد.

وإن كان له معنيان، وكان الاسم مجملاً مردداً بينهما لم يتناقض. كما يقال: قتل الأمير فلاناً، ويقال: قتله الجلاد. فالأمير قاتل بمعنى، والجلاد قاتل بمعنى آخر.

فكذلك العبد فاعل بمعنى، والله عزَّ وجلّ فاعل بمعنى آخر. فمعنى كون الله تعالى فاعلاً: أنه المخترع الموجد، ومعنى كون العبد فاعلاً: أنه المحل الذي خلق فيه القدرة.

فكما يسمى الجلاد قاتلاً والأمير قاتلاً، لأن القتل ارتبط بقدرتهما، ولكن على وجهين مختلفين، فلذلك سمي فعلاً لهما، فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين. ولأجل توافق ذلك وتطابقه، نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه، فقال الله تعالى في الموت:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾(٣).

أضاف إلينا، ثم قال تعالى:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا﴾(٤).

وقال تعالى:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾(٥).

فأضاف القتل إليهم، والتعذيب إلى نفسه. والتعذيب هو عين القتل.

بل صرح وقال تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾(٦).

(١) سورة السجدة: الآية (١١).
(٢) سورة الزمر: الآية (٤٢).
(٣) سورة الواقعة: الآية (٦٣).
(٤) سورة عبس: الآيات (٢٥ ــ ٢٨).
(٥) سورة التوبة: الآية (١٤).
(٦) سورة الأنفال: الآية (١٧).

وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهراً. ولكن معناه: وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به رامياً، إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به رامياً، إذ هما معنيان مختلفان.

فإذن: يستعمل الفعل على وجوه مختلفة، فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت، فمن أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة، ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوِّز والمستعير في كلامه، وللتجوز وجه، كما أن للحقيقة وجهاً.

واسم الفاعل، وضعه واضع اللغة للمخترع، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلاً بحركته وظن أنه تحقيق، وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز، مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد. فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس. وقالوا: إن «الفاعل» قد وضعته أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل إلَّا الله، فالاسم له بالحقيقة، ولغيره بالمجاز.

بيان حال التوكل:

ثم ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من: علم، وحال، وعمل، وقد ذكرنا العلم.

وأما الحال: فالتوكل ــ بالتحقيق ــ عبارة عنه، وإنما العلم أصله، والعمل ثمرته.

والتوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكل أمره إلى فلان، أي: فوَّضه إليه واعتمد عليه فيه. ويسمى الموكول إليه وكيلاً، ويسمى المفوَّض إليه متكلاً عليه، ومتوكلاً عليه، إذا اطمأنت إليه نفسه، ووثق به، ولم يتهمه بتقصير، ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً.

فالتوكل: عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده.

ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول: من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس، فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس، لم يكن متوكلاً عليه، ولا واثقاً

به، ولا مطمئن النفس بتوكيله إلاَّ إذا اعتقد فيه أربعة أمور: منتهى الهداية، ومنتهى القوة، ومنتهى الفصاحة، ومنتهى الشفقة.

أما الهداية، فليعرف بها مواقع التلبيس، حتى لا يخفى عليه غوامض الحيل أصلاً، وأما القدرة والقوة، فليستجرىء على التصريح بالحق، فلا يداهن ولا يخاف ولا يجبن، وأما الفصاحة فللقدرة على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه، فليس كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس. وأما الشفقة، لتكون باعثاً له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود.

فإن شك في الأربعة، أو في واحدة منها، أو جوَّز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكمل منه، لم تطمئن نفسه إلى وكيله.

إذا عرفت التوكل في هذا المثال، فقس عليه التوكل على الله تعالى.

فإن ثبت في نفسك أنه لا فاعل إلاَّ الله تعالى ــ كما سبق ــ واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكل ــ لا محالة ــ قلبك عليه وحده، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، ولا إلى نفسه وحوله وقوته، فإنه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، كما سبق في التوحيد.

فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين:

ــ إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة.

ــ وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن وغلبة الأوهام عليه، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم، وطاعة له، من غير نقصان في اليقين.

فلو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقناً بكونه ميتاً، وأنه جماد في الحال، وأن سنَّة الله مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه، وإن كان قادراً عليه. ومع هذا اليقين فإن طبعه ينفر من ذلك، ولا ينفر من سائر الجمادات. وذلك جبن في القلب، وهو نوع ضعف، قلَّما

يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قلَّ، وقد يقوى فيصير مرضاً، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده، مع إغلاق الباب وإحكامه.

فإذن: لا يتم التوكل إلَّا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعاً. وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم أن تلك الحالة لها من القوة والضعف ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته، كحالة الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية: وهي أقوى، أن يكون حاله مع الله تعالى، كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى أحد سواها، ولا يعتمد إلَّا إياها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها، وإن نابه أمر في غيبتها، كان أول سابق إلى لسانه: يا أماه، وأول خاطر يخطر في قلبه هو أمه، فهي مفزعه، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية من نوع إدراك بالتمييز الذي له.

والفرق بين هذه وبين الأولى: أن هذا متوكل، وقد فني في توكله عن توكله، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته، بل إلى المتوكل عليه فقط، ولا مجال في قلبه لغيره.

وأما الأول: فيتوكل بالتكلف والكسب، وليس فانياً عن توكله، لأن له التفاتاً إليه، وشعوراً به.

الدرجة الثالثة: وهي أعلاها، أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يختلف عنه إلَّا في أنه يرى نفسه ميتاً، تحركه القدرة الأزلية، كما تحرك يد الغاسل الميت.

ومثل هذا مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه، فالأم تطلبه، وإن لم يسألها اللبن فالأم تسقيه.

وليس من شرط التوكل، ترك كل تدبير وعمل، وسيأتي تفصيل ذلك.

بيان أعمال المتوكلين:

اعلم أن العلم يورث الحال، والحال يثمر الأعمال، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وهذا ظن الجهال.

وذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين؟

ونكشف الغطاء عنه ونقول: إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده وسعي العبد باختياره:

- إما أن يكون لأجل جلب نافع، هو مفقود عنده، كالكسب.
- أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار.
- أو لدفع ضار لم ينزل به كسارق وصائل.
- أو لإزالة ضار قد نزل كالتداوي من المرض.

ومقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة، فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها.

الفن الأول: في جلب النافع

الأسباب التي يجلب بها النافع على ثلاث درجات: مقطوع به، ومظنون، وموهوم.

الدرجة الأولى: المقطوع به، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله ومشيئته، ارتباطاً مطرداً لا يختلف، كما إذا كان الطعام موضوعاً بين يديك، وأنت جائع، ولكنك لست تمد يدك إليه وتقول: أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعي، ومد اليد إليه سعي.. فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء.

فإنك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز، أو يخلق في الخبز حركة إليك، فقد جهلت سنّة الله تعالى. وكذلك لو لم تزرع الأرض، وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر؛ فكل هذا جنون.

فالتوكل علم وحال، أما العلم فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد.. وأما الحال: فهو أن يكون سكون قلبك واعتماده على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام.

وإذا كان هذا حاله فليمد يده فإنه متوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها. مثاله: من يفارق الأمصار ويخرج مسافراً إلى البوادي دون استصحاب الزاد. فهذا ليس شرطاً في التوكل. واستصحاب الزاد سنّة الأولين.

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات، من غير ثقة ظاهرة، كالذي يتكسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح، فهذا يخرج عن درجات التوكل. أما الاكتساب بطريق فيه شبهة فإنه يبطل التوكل.

فإن قلت: فهل من دواء ينفع في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة، وحسن الظن بالله في تيسير الأسباب الخفية؟

فأقول: نعم، هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان، وحسن الظن تلقين الله تعالى. قال تعالى:

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ ﴾(١).

فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان. وإذا انضم إلى ذلك الجبن وضعف القلب، ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة، غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية..

قال إمام لمسجد لبعض المصلين: من أين تأكل؟ فقال: يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٨).

الفن الثاني: التعرض لأسباب الادخار

من حصل له مال بإرث أو كسب أو سبب من الأسباب، فله في الادخار ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يأخذ قدر حاجته في الوقت، فيأكل إن كان جائعاً، ويلبس إن كان عارياً، ويشتري مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً، ويفرق الباقي في الحال، ولا يأخذه ولا يدخره إلَّا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه، فيدخره على هذه النية. فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقاً، وهي الدرجة العليا.

الثانية: المقابلة لهذه، المخرجة له عن حدود التوكل، أن يدخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكلين أصلاً.

الثالثة: أن يدخر لأربعين يوماً فما دونها، وقد اختلف في حكمه بالنسبة للتوكل.

وهذا كله حكم المنفرد، فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم، وتسكيناً لقلوبهم. وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل، لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين، فادخاره على ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه. وذلك يناقض قوة التوكل. وقد ادخر رسول الله ﷺ لعياله قوت سنة[1].

فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى، واثق بتدبيره.

الفن الثالث: مباشرة الأسباب الدافعة للضرر

اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال. وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر.

وذلك كالنوم في الأرض المسبعة[2]، أو في مجاري السيل من الوادي،

---

(١) متفق عليه. (ع)، ففي الصحيحين: «كان يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم» (خ ٣٠٩٤).

(٢) أي: الأرض ذات السباع والوحوش.

أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر. فكل ذلك منهي عنه، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة.

وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال، فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير، لأن هذه أسباب عرفت بسنّة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً.

ولذلك قال تعالى:

﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾[1].

وقال في صلاة الخوف:

﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[3].

واختفى ﷺ في الغار عن أعين الأعداء دفعاً للضرر[4].

الفن الرابع: السعي في إزالة الضرر

وذلك كمداواة المرض وأمثاله.

اعلم أن الأسباب المزيلة للمرض أيضاً تنقسم:

– إلى مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع.

– وإلى مظنون: كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل.

(١) سورة النساء: الآية (٧١).

(٢) سورة النساء: الآية (١٠٢).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٦٠).

(٤) وهذا أثناء هجرته ﷺ إلى المدينة، وقد ذكر القرآن ذلك.

- وإلى موهوم: كالكي والرقية.

أما المقطوع فليس من التوكل تركه، بل تركه حرام عند خوف الموت.

وأما الموهوم، فشرط التوكل تركه، إذ به وصف رسول الله ﷺ المتوكلين، وأقواها الكي ويليه الرقية، والطيرة آخر درجاتها.

وأما الدرجة المتوسطة، وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء، ففعله ليس مناقضاً للتوكل بخلاف الموهوم، وتركه ليس محظوراً بخلاف المقطوع.

ويدل على أن التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله ﷺ، وقوله، وأمره به. فقد قال ﷺ: «تداووا عباد الله، فإن الله خلق الداء وخلق الدواء»[1].

وقد تداوى من السلف كثيرون، وترك بعضهم التداوي:

فقد روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له: لو دعونا لك طبيباً؟ فقال: الطبيب قد نظر إلي وقال: إني فعال لما أريد.

وقيل لأبي الدرداء في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي؟ قال: مغفرة ربي، قالوا: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني.

إظهار المرض وكتمانه:

واعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر، وهو من أعلى المقامات، لأن الرضا بحكم الله، والصبر على بلائه، معاملة بين العبد وبين الله عزَّ وجلّ، فكتمانه أسلم عن الآفات.

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد:

كأن يكون غرضه التداوي فيحتاج إلى ذكره للطبيب، فيذكره لا في معرض الشكاية، بل في معرض الحكاية.

---

(١) رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه (ع).

أو أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى . .

فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض. وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية، والشكوى من الله حرام، ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهية لفعل الله تعالى. فإن خلا عن قرينة السخط، وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم، ولكن يحكم فيه بأن تركه أولى، لأنه ربما يوهم الشكاية.

ومن ترك التداوي توكلاً، فلا وجه في حقه للإظهار، لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء.

وقد قال بعضهم: من بث لم يصبر، وقيل في معنى قوله تعالى:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[1].

لا شكوى فيه.

***

(١) سورة يوسف: الآية (١٨).

الكِتَابُ ٱلسَّادِسُ

المحبّةُ وَٱلأُنْسُ وَٱلرِّضا

رُبع المنجيات

[تمهيد: مكانة المحبة]

المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضا، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة والصبر والزهد.

وأما محبة الله تعالى، فقد عز الإيمان بها، حتى أنكر بعض العلماء إمكانها، وقال: لا معنى لها إلاَّ المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال، ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة.. ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر.

شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى:

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له، وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تبع للحب وثمرة له؟ فلا بد وأن يتقدم الحبُّ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب.

ويدل على إثبات الحب لله تعالى، قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾(1).

وقوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(2).

---

(1) سورة المائدة: الآية (٥٤).

(2) سورة البقرة: الآية (١٦٥).

وهو دليل على إثبات الحب، وإثبات التفاوت فيه.

وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة، ففي الحديث قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما»(١) وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين»(٢).

وكيف وقد قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٣).

وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار.

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها؟» فقال: ما أعددت لها كثير صلاة وصيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له ﷺ: «المرء مع من أحب» قال أنس: (فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك)(٤).

حقيقة المحبة وأسبابها:

لا بد لمعرفة حقيقة المحبة من معرفة الأصول التالية:

الأصل الأول: لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا

---

(١) متفق عليه (خ ١٦، م ٤٣) بلفظ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

(٢) متفق عليه (خ ١٥، م ٤٤).

(٣) سورة التوبة: الآية (٢٤).

(٤) متفق عليه (خ ٦١٧١، م ٢٦٣٩).

ما يعرفه، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد، بل هو من خاصية الحي المدرك.

والمدركات تنقسم إلى ما يوافق الطبع، وإلى ما ينافيه، فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض.

فإذن: كل لذيذ محبوب عند الملتذ به، ومعنى كونه محبوباً أن في الطبع ميلاً إليه، ومعنى كونه مبغوضاً أن في الطبع نفرة عنه، وإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي «عشقاً»، وإن قوي ذلك الكره سمي «مقتاً» وهذا أصل في حقيقة معنى الحب.

الأصل الثاني: أن الحب لما كان تابعاً للإدراك والمعرفة، انقسم بحسب المدركات والحواس، فكل حاسة لها إدراك، فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة.. وكذا الأذن..

والطبع السليم له ميل إلى مدركات الحواس المحبوبة، قال ﷺ: «حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1]، فسمى الطيب محبوباً، وهو للشم فقط، وسمى النساء محبوبات، وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس، بل حس سادس مظنته القلب، لا يدركه إلا من كان له قلب.

الأصل الثالث: لا يخفى أن الإنسان إنما يحب نفسه، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه، وهل يتصور أن يحب غيره لذاته، لا لأجل نفسه؟ هذا مما يشكل على الضعفاء، حتى يظنون أنه لا يتصور ذلك. والحق أن ذلك متصور وموجود لأسباب:

الأول: أنّ المحبوب الأول عند كل حي ذاته، وكمال ذاته، ودوام ذلك كله، والمكروه عنده ضد ذلك.

الثاني: الإحسان، فإن الإنسان عبد الإحسان، وجبلت القلوب على حب من

(١) أخرجه الترمذي (ع) وكذا الإمام أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط والبيهقي في السنن (ش).

أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة. وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة مما يتهيأ به حصول الحظوظ.

الثالث: أن يحب الشيء لذاته، لا لحظ ينال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه، وذلك كحب الجمال والحسن.

فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال، وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها.

والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان، الحسنة الشكل، المتناسبة الشكل، حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الهموم بالنظر إليها، لا لطلب حظ وراء النظر.

الأصل الرابع: في بيان الحسن والجمال:

اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات، ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال، إلا تناسب الخلقة والشكل، وحسن اللون. . فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى الصور، وهذا خطأ ظاهر، فإن الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر، ولا على تناسب الخلقة، فإنا نقول: هذا خط حسن، وهذا صوت حسن، وهذا إناء حسن، فأي معنى لحسن الصوت والخط، إن لم يكن الحسن إلا في الصور؟!

ونقول: كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كانت جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر. فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الخط، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب.

واعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة.. وهذه الصفات لا تدرك بالحواس بل بنور البصيرة الباطنة، وآية ذلك وأن الأمر كذلك: أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وعلى حب الصحابة مع أنهم لم يشاهدوا.

وإذن: ترجع أقسام الحب إلى الأسباب الآتية:

ـ حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقاءه.

ـ وحبه من أحسن إليه.

ـ وحبه من كان محسناً في نفسه إلى الناس.

ـ وحبه لكل ما هو جميل في ذاته.

وإذا اجتمعت هذه الأسباب في شخص تضاعف الحب لا محالة.

المستحق للمحبة هو الله وحده:

إن الأسباب ـ السابقة ـ لا يتصور كمالها واجتماعها إلَّا في حق الله تعالى. فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى.

وإن من أحب غير الله ـ لا من حيث نسبته إلى الله ـ فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى، وحب الرسول ﷺ محمود لأنه عين حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب. وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز إلى غيره.

وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب التي ذكرناها، ونبين أنها مجتمعة في حقه سبحانه وتعالى بجملتها، ولا يوجد في غيره إلا آحادها، وأنها حقيقة في حقه تعالى، ومجاز ووهم في حق غيره.

أما السبب الأول: وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه، وهو جبلة كل حي، فيقتضي غاية المحبة لله تعالى. فإن من عرف نفسه، وعرف ربه، عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته، وإنما كمال وجوده من الله، فهو المخترع الموجد له، وهو المبقي له.

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟!

وأما السبب الثاني: وهو حبه من أحسن إليه وواساه، ولاطفه بكلامه، وأمده بمعونته، وقمع أعداءه، ودفع شر الأشرار عنه.. فهذا يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى، لأنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط، فأنواع إحسانه إلى عبيده ليس يحيط بها حصر، كما قال تعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(1).

وأما السبب الثالث: وهو حب المحسن لذاته، وإن لم يصل إليك إحسانه، فإذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم، رفيق بالناس متلطف بهم، متواضع لهم.. فإنك تجد في قلبك ميلاً إليه، مع أنك آيس من خيره..

وهذا المعنى يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي أن لا يحب غيره أصلاً، إلا من تعلق منه بسبب، فإن الله هو المحسن إلى الكافة، والمتفضل على جميع أصناف الخلائق.

وأما السبب الرابع: وهو حب كل جميل لذات الجمال، لا لحظ يدرك من وراء إدراك الجمال، فقد بينا أن الطباع مجبولة على ذلك.

وكل جمال محبوب، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب بالقلب، كحب الأنبياء، فإنه إدراك بالقلب لحسن الصورة الباطنة، من العدل والكرم.. فانسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى.

أما العلم، فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال تعالى:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(2).

---

(1) سورة إبراهيم: الآية (34).

(2) سورة الإسراء: الآية (85).

وأما صفة القدرة، فهي كمال، والعجز نقص، وإن الإنسان ليسمع شجاعة علي وخالد رضي الله عنهما فيهتز قلبه فرحاً بمجرد السماع فضلاً عن المشاهدة، وذلك يورث في القلب حباً ضرورياً للمتصف به فإنه نوع كمال. فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى. .؟! فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته، فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء، فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته، فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلاً سبحانه وتعالى.

وأما صفة التنزه عن العيوب. . فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق، الملك القدوس، ذي الجلال والإكرام.

فإذن: الجميل محبوب، والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ندَّ له، الفرد الذي لا ضدَّ له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل مايشاء، ويحكم ما يريد، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض.

معرفة الله تعالى:

وبيان أن أجل اللذات معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة.

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذتها، كالسمع والبصر والشم. .

وكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي قال تعالى:
﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(1).

وقد تسمى العقل، وقد تسمى البصيرة الباطنة، وقد تسمى نور الإيمان واليقين.

---

(1) سورة الزمر: الآية (٢٢).

وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها، فمقتضى طبعها المعرفة والعلم، وذلك لذتها، وهي الصفة التي فارق الإنسان بها البهائم، وبها يدرك معرفة الله تعالى.

وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة، حتى إن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به، والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به.

وليست لذة العلم بالخياطة.. كالعلم بالله وملائكته.. بل لذة العلم بقدر شرف العلم. وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، وبهذا تبين أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها.

وليت شعري، هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل من خالق الأشياء كلها، ومكملها ومزينها، ومبدئها ومعيدها، ومديرها ومرتبها؟ وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال، والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية، التي لا يحيط بمبادىء جلالها وصف الواصفين؟

فإن كنت لا تشك في ذلك، فينبغي أن لا تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية، والعلم بترتيب الأمور الإلهية بكل الموجودات، هو أعلى أنواع المعارف وألذها، وبهذا يتبين أن العلم لذيذ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وتدبيره في ملكه.

وينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من لذة سائر الحواس الخمس، فالمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة. وأعلى اللذات الباطنة هي لذة الرياسة، ولذة معرفة الله تعالى ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق.

ثم هذه المعرفة أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى. ومحلها الروح، الذي هو أمر رباني سماوي.

فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف، يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض، وكل عارف فله مثلها، من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند الله، ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم. وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال: من ذاق عرف.

ولعمري، إن طلاب العلوم ــ وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية ــ قد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها، فإنها ــ أيضاً ــ معارف وعلوم، وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية. فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه، وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به. وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق، والحكاية فيه قليلة الجدوى.

فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها.

لذة الرؤية ولذة المعرفة:

اعلم أن المدركات تنقسم:

ــ إلى ما يدخل في الخيال: كالصور المتخيلة والأجسام الملونة، والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات.

ــ وإلى ما لا يدخل في الخيال، كذات الله تعالى، وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها.

ومن رأى إنساناً، ثم غض بصره، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر، أدرك تفرقة بينهما.

إذن: فالخيال أول الإدراك، والرؤية هي الاستكمال لإدراك الخيال، وهو غاية الكشف، وسمي ذلك «رؤية» لأنه غاية الكشف، لا لأنه في العين.

وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية، ويكون حجاباً بين البصر والمرئي، ولا بد من ارتفاعها لحصول الرؤية. وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد تخيل، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات، وما غلب عليها من الصفات البشرية، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال.

بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار، والقول في سبب كونها حجاباً يطول. ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام:

﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[1].

وقال تعالى:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[2].

أي: في الدنيا، والصحيح أن الرسول ﷺ ما رأى الله تعالى ليلة المعراج[3].

فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة.

فمن لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، كان التجلي أيضاً على درجات متفاوتة.

فلذة النظر في الآخرة تزيد على لذة المعرفة في الدنيا، وهي أضعافها.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٣).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٠٣).

(٣) حديث أنه ﷺ ما رأى ربه ليلة المعراج في الصحيح، وفي الصحيحين من قول عائشة أنها قالت: (من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب) ولمسلم من حديث أبي ذر: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه» (ع).

وسائر الخلق نظرهم مقصور على شهوات الدنيا، إذا اتسعت أحبوا البقاء، وإن ضاقت تمنوا الموت، وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة، وهما مغرس كل شقاوة. والعلم والمعرفة أساس كل سعادة.

فقد عرفت بما ذكرناه: معنى المحبة، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال.

الأسباب المقوية لحب الله تعالى:

اعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها: القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقائه، وهذا النعيم على قدر قوة الحب، فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة.

وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا، وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وإنما يحصل ذلك بسببين:

الأول: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فإن القلب مثل الإناء، لا يتسع للخل ــ مثلاً ــ ما لم يخرج منه الماء. وكمال الحب: في أن يحب الله عزَّ وجلّ بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، فبقدر ما يشغل بغير الله، ينقص منه حب الله.

فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب، قوة حب الدنيا، ومنه: حب الأهل والمال، والولد والأقارب، والعقار والبساتين، وبقدر ما يأنس بالدنيا، ينقص أنسه بالله، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً، إلاَّ وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة.

وسبيل قلع حب الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء، وكل ذلك مقدمات تطهير القلب، وهو أحد ركني المحبة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»[1].

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣).

الثاني: قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب، وذلك ـ بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها ـ يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش، وهو الشطر الثاني.

ثم يتولد من ذلك البذر شجرة المحبة والمعرفة، وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

ومهما حصلت هذه المعرفة، تبعتها المحبة بالضرورة، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه، ومهما أحبه حصلت اللذة، فاللذة تبع المحبة بالضرورة، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة ـ بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب ـ إلاَّ بالفكر الصافي، والذكر الدائم، والجد البالغ في الطلب والنظر الدائم في ملكوت السماوات وسائر المخلوقات.

ويتفاوت المؤمنون في الحب، وإن كانوا مشتركين في أصله، وسبب ذلك تفاوتهم في المعرفة، وفي حب الدنيا. وأكثر الناس ليس لهم من [معرفة] الله تعالى إلاَّ الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم، فآمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين.

ونضرب مثالاً لتفاوت الحب فنقول: أصحاب الشافعي مثلاً يشتركون في حبه، منهم الفقهاء ومنهم العوام، لأنهم مشتركون في معرفة فضله وعلمه، ولكن العامي يعرف علمه مجملاً، والفقيه يعرفه مفصلاً، فتكون معرفة الفقيه به أتم، وإعجابه به وحبه له أشد.

والعالَم بجملته صنع الله تعالى، والعامي يعتقد ذلك، وأما البصير فإنه يطالع

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٢٤).

تفصيل صنع الله تعالى فيه، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعاً استدل بذلك على عظمة الصانع وجلاله، وبحر هذه المعرفة لا ساحل له، فلا جرم يتفاوت أهل المعرفة في الحب.

ومن أحب الله تعالى لكونه محسناً إليه ومنعماً إليه، كان حبه أضعف من حب من أحبه لذاته، ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته. والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة. قال تعالى:
﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1].

سبب قصور الأفهام عن معرفته تعالى:

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى. وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول، وترى الأمر بالضد من ذلك، فلا بد من بيان السبب.

وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات، لمعنى نوضحه بالمثال التالي: وهو أنّا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخيط مثلاً، كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات فحياته وعلمه وإرادته للخياطة أو الكتابة أمر جلي عندنا من غير أن يتعلق حسّ البصر بهذه الصفات، لأنها لا تدرك بشيء من الحواس الخمس، ولم تعرف حياته وقدرته وإرادته إلاّ بخياطته أو كتابته وحركته.

وهذا دليل واحد على وجود الخياط وحياته وعلمه وقدرته، وهو مع ذلك جلي واضح.

ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه، وسائر صفاته، يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة، من حجر ومدر، ونجوم وكواكب، وشجر وحيوان، وسماء وأرض، وجوهر وعرض. بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا..

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٢١).

فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا، وليس لها إلاَّ شاهد واحد، وهو ما أحسسنا به من حركة يده، فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور شيء في الوجود، داخل نفوسنا وخارجها إلاَّ وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله؟ إن كل ذرة تنادي بلسان حالها أن ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها، وإنما تحتاج إلى موجد ومحرك لها.

وتقصر العقول عن الفهم في حالتين:

إحداهما: خفاء الشيء في نفسه وغموضه، وهذا لا يحتاج إلى مثال.

الثانية: ما تناهى وضوحه. ومثاله الخفاش الذي يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، ولكن لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش الذي يبهره نور الشمس إذا أشرقت. فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئاً إلاَّ إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره.

وكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلٓهية في نهاية الإشراق والاستنارة، وفي غاية الشمول، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره.

ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإنّا لا نشاهد في الأسود إلاَّ السواد وفي الأبيض إلاَّ البياض. فأما الضوء فلا ندركه وحده، فإذا غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه. وما كنا نطلع عليه ــ لولا عدمه ــ إلاَّ بعسر شديد.

هذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات، وهو ظاهر في نفسه ومظهر لغيره. انظر كيف تتصور استبهام أمره بسبب ظهوره، لولا طريان ضده؟

فالله تعالى هو أظهر الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلها. فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاءً، فهذا هو السبب في قصور الأفهام.

محبة الله للعبد ومعناها:

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله يحب عبده. قال الله تعالى:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3].

ورد الله على من ادعى أنه حبيب الله فقال:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[4].

وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[5].

وقال ﷺ: «قال الله تعالى: لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» الحديث[6].

والمحبة في وضع اللسان، عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق. وحب الله للعبد لا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً، بل الأسامي كلها إذا أطلقت على الله تعالى، وعلى غيره، لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً. وواضع اللغة

(١) سورة المائدة: الآية (٥٤).
(٢) سورة الصف: الآية (٤).
(٣) سورة البقرة: الآية (٢٢٢).
(٤) سورة المائدة: الآية (١٨).
(٥) سورة آل عمران: الآية (٣١).
(٦) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).

إنما وضع هذه الأسامي للخلق، فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل.

فإذن محبة الله للعبد: هي تقريبه إليه، بدفع الشواغل والمعاصي عنه، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه، حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه.

علامات محبة العبد لله تعالى:

اعلم أن المحبة يدَّعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى، وما أعز المعنى. فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ولم يطالبها بالبراهين والأدلة.

والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، وتدل الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة، دلالة الدخان على النار، ودلالة الثمار على الأشجار. وهي كثيرة:

● **منها**: حب لقاء الحبيب، وإذا علم أنه لا وصول إلاَّ بالارتحال عن الدنيا ومفارقتها بالموت، فينبغي أن يكون محباً للموت، غير فارٍّ منه، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه، ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء، وباب الدخول إلى المشاهدة. قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»[(١)].

وفي وصية أبي بكر الصديق لعمر رضي الله عنهما: «إن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا.. فإذا حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه»[(٢)].

---

(١) متفق عليه(خ ٦٥٠٧، م ٢٦٨٣).

(٢) ذكر المصنف آخر الوصية وذكرت أولها من الشرح للزبيدي (٦١٦/٨)، وقال: أخرجها أبو نعيم في الحلية.

وكان الثوري وبشر الحافي يقولان: لا يكره الموت إلَّا مريب، لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه.

وأما من كره الموت، فقد يكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد. وهذا ينافي كمال حب الله تعالى، ولا يبعد أن يكون له مع حب الأهل شائبة من حب الله ضعيفة فإن الناس متفاوتون في الحب.

وقد يكون العبد في ابتداء مقام المحبة، وليس يكره الموت، وإنما يكره عجلته، قبل أن يستعد للقاء الله، فذلك لا يدل على ضعف الحب. وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره، ويعد له أسبابه، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل. فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلاً، وعلامته الدأب في العمل، واستغراق الهمّ في الاستعداد.

● ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله ومتقرباً إليه بالنوافل، وطالباً عنده مزايا الدرجات.

وبالجملة فإن في دعوى المحبة خطراً، ولذلك قال الفضيل: إذا قيل لك: أتحب الله تعالى؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين، فاحذر المقت.

● ومنها: أن يكون مولعاً بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره، وذكر ما يتعلق به، فعلامة حب الله حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله ﷺ، وحب كل من ينسب إليه. وذلك ليس شركة في الحب، فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله، وكلامه لأنه كلامه، لم يتجاوز حبه إلى غيره، بل هو دليل على كمال حبه.

● ومنها: أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاته لله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدأة الليل، وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله، كيف تصح محبته؟

قيل لإبراهيم بن أدهم، وقد نزل من الجبل: من أين أقبلت؟ قال: من الأنس بالله.

وقال قتادة في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[1].

قال: هشّت إليه واستأنست به.

● **ومنها:** أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عزَّ وجلّ، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والتوبة.

● **ومنها:** أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها. كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة.

● **ومنها:** أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على جميع أعداء الله، وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه، كما قال الله تعالى:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[2].

ولا تأخذه لومة لائم، ولا يصرفه على الغضب لله صارف.

فهذه علامات المحبة، فمن تمت فيه فقد تمت محبته، وخلص حبه، فصفا في الآخرة شرابه، ومن امتزج بحبه حب غير الله، تنعم في الآخرة بقدر حبه. كما قال تعالى:

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[3].

أي: وافق الجزاء أعمالهم.

---

(١) سورة الرعد: الآية (٢٨).

(٢) سورة الفتح: الآية (٢٩).

(٣) سورة النبأ: الآية (٢٦).

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1].

● **ومنها**: أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم.

وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة، كما أن إدراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد. وهذا المعنى في سورة هود، هو الذي شيَّب سيد المحبين[2] إذ سمع قوله تعالى:

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾[3].

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[4].

وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب، وذاقه وتنعم به، فحديث البعد في حق المبعدين، يشيب سماعه أهل القرب في القرب، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد.

● **ومنها**: كتمان الحب، واجتناب الدعوى، والتوقي من إظهار المحبة تعظيماً للمحبوب، وإجلالاً له، وهيبة منه، لأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حدَّ المعنى ويزيد عليه، فيكون ذلك من الافتراء، فتعظم عليه العقوبة في العقبى، وتتعجل عليه البلوى في الدنيا.

فإن قلت: المحبة منتهى المقامات، وإظهارها إظهار للخير، فلماذا يستنكر؟

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان (٧ ــ ٨).

(٢) حديث: «شيبتني هود وأخواتها» أخرجه الترمذي من حديث أبي جحيفة، وله وللحاكم من حديث ابن عباس نحوه. قال الترمذي: حسن، وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري (ع).

(٣) سورة هود: الآية (٦٨).

(٤) سورة هود: الآية (٩٥).

فاعلم: أن المحبة محمودة، وظهورها محمود أيضاً، وإنما المذموم التظاهر بها، لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار، وحق المحب أن ينمَّ عن حبه الخفي أفعالُه وأحواله دون أقواله، وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب، ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب، بل ينبغي أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط، فأما إرادته اطلاع غيره فشرك في الحب، وقادح فيه.

فإذن: من عرف نفسه وعرف ربه، واستحيا منه حق الحياء، خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى.

دخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ـ ممن كان يذكر المحبة ـ فرآه مبتلى ببلاء فقال: لا يحبه من وجد ألم ضره، فقال الرجل: لكني أقول: لا يحبه من لم يتنعم بضره، فقال ذو النون: ولكني أقول: لا يحبه من شهر نفسه بحبه، فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه.

● **ومنها**: الأنس والرضا، كما سيأتي.

معنى الأنس بالله تعالى وآثاره

قد ذكرنا أن الأنس والخوف من آثار المحبة، إلَّا أن هذه الآثار مختلفة، تختلف على المحب بحسب نظره، وما يغلب عليه في وقته.

والأنس معناه: استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال.

ومن غلب عليه حال الأنس، لم تكن شهوته إلَّا في الانفراد والخلوة. كما حكي عن إبراهيم بن أدهم أنه نزل من الجبل فقيل له: من أين أقبلت؟ فقال: «من الأنس بالله». فالأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله. بل كل ما يعوق عن الخلوة يكون من أثقل الأشياء على القلب.

وعلامة الأنس، ضيق الصدر من معاشرة الخلق، والتبرم بهم، والولع بعذوبة الذكر، فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة، ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر، وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، مخالط بالبدن منفرد بالقلب، مستغرق بعذوبة الذكر.

وذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والحب، لظنه أن ذلك يدل على التشبيه، وذلك جهل منه: بأن جمال المدركات بالبصائر، أكمل من جمال المبصرات، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب.

ومن آثار الأنس: أنه إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق ولم ينغصه خوف، فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى. وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن أقيم مقام الأنس. ومن تشبه بأهل ذاك المقام في الفعل والقول، هلك به وأشرف على الكفر.

ومن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾[1].

وعندما قيل له:

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[2].

قال في الاعتذار:

﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾[3].

وقال:

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾[4].

وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب، ولكنه أقيم في مقام الأنس فيلاطف ويحتمل.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٥).

(٢) سورة طه: الآية (٢٤). كان الأولى ذكر الآيتين اللتين في الشعراء وهما: ﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون﴾. الآيتان: [١٠ ـ ١١]. وذلك لتكون الآيات في هذا الموضوع من سورة واحدة.

(٣) سورة الشعراء: الآية (١٣).

(٤) سورة الشعراء: الآية (١٤).

ولم يحتمل يونس عليه السلام فيما دون ذلك، لما أقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت ــ في ظلمات ثلاث ــ وقيل في حقه:

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾(١).

ونهى نبينا ﷺ أن يقتدي به وقيل له:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾(٢).

وهذه الاختلافات، بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد. وقد قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٣).

وقال تعالى:

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾(٤).

مقام الرضا

اعلم أن الرضا بقضاء الله تعالى ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين، وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإبهام غير منكشف إلّا لمن علمه الله تعالى التأويل، وفهمه وفقهه في الدين.

وقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى، ثم قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي. وانخدع بذلك قوم، فرأوا الرضا بالفجور والفسوق، وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى. ولنبدأ ببيان فضيلة الرضا.

---

(١) سورة القلم: الآية (٤٩).

(٢) سورة القلم: الآية (٤٨).

(٣) سورة الإسراء: الآية (٥٥).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٥٣).

فضيلة الرضا:

قال تعالى:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾(٢).

ومنتهى الإحسان رضا الله من عبده.

وقال تعالى:

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾(٣).

فقد رفع الله تعالى الرضا فوق جنات عدن.

وقال ﷺ: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً ورضي به»(٤).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لأن ألحس جمرة، أحرقت ما أحرقت، وأبقت ما أبقت أحب إليَّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن ليته كان.

ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع فقال: إني لأرحمك من هذه القرحة، فقال: إني لأشكرها منذ خرجت، إذ لم تخرج في عيني.

وقال ميمون بن مهران: من لم يرضَ بالقضاء، فليس لحمقه دواء.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلاَّ في مواقع القدر.

وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت، من شدة أو رخاء.

---

(١) سورة المائدة: الآية (١١٩)، وسورة المجادلة: الآية (٢٢)، وسورة البينة: الآية (٨).

(٢) سورة الرحمن: الآية (٦٠).

(٣) سورة التوبة: الآية (٧٢).

(٤) أخرجه مسلم بلفظ «وقنع به» برقم (١٠٥٤).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر.

حقيقة الرضا:

إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهمِّ به، فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين:

الأول: أن يبطل الإحساس بالألم، حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس به، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها، ومثاله: الرجل المحارب، فإنه في حال غضبه، أو في حال خوفه، قد تصيبه جراحة وهو لا يحسُّ بألم ذلك لشغل قلبه.

وكذلك المحب المستغرق الهم بمشاهدة محبوبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا حبه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه.

هذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه؟

الثاني: أن يحسَّ به، ويدرك ألمه، ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه مريداً له، أعني بعقله، وإن كان كارهاً بطبعه. كالذي يلتمس من الفَصّاد الفصد والحجامة، فإنه يدرك ألم ذلك، إلاَّ أنه راضٍ به وراغب فيه.

وكذلك من يسافر في طلب الربح، فإنه يدرك مشقة السفر، ولكن حبه لثمرة سفره طيَّبَ عنده مشقة السفر، وجعله راضياً بها.

ومن أصابه بلية من الله تعالى، وكان على يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه، هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه.

قال شقيق البلخي[1]: من يرى ثواب الشدة، لا يشتهي المخرج منها.

فالرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين.

---

(١) شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي، صوفي زاهد، من مشاهير المشايخ في خراسان. من أول من تكلم بالأحوال الصوفية فيها. كان من كبار المجاهدين، استشهد في غزوة كولان بما وراء النهر سنة (١٩٤)هـ.

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا:

اعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا، ولا يخرج صاحبه عن مقامه، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها، ومقت أسبابها، والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد غلط في ذلك بعض البطالين المفترين، وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عزَّ وجلّ، فيجب الرضا به، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع.

فأما الدعاء، فقد تعبدنا به، وكثرة دعوات الرسول ﷺ تدل عليه. وقد كان ﷺ في أعلى مقامات الرضا، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله:

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾(١).

وأما إنكار المعاصي وكراهتها، وعدم الرضا بها، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال:

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾(٢).

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم، فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾(٤).

فإن قلت: فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى. فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال، وهو قادح في التوحيد، وإن كانت

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٩٠).

(٢) سورة التوبة: الآية (٩٣).

(٣) سورة آل عمران: الآية (٢٨).

(٤) سورة الأنعام: الآية (١٢٩).

بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى. وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض؟

فاعلم: أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاماً من مقامات الرضا، وسموه حسن الخلق. وهو جهل محض.

بل نقول: الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد، من جهة واحدة، على وجه واحد. فليس من التضاد في شيء واحد: أن يكرهه من وجه، ويرضى به من وجه، إذ قد يموت عدوك، الذي هو ـ أيضاً ـ عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه مات عدوك.

وكذلك المعصية لها وجهان: وجه إلى الله تعالى من حيث إنها فعله واختياره وإرادته، فيرضى به من هذا الوجه، تسليماً للملك في ملكه ورضا بما يفعله فيه. ووجه إلى العبد، من حيث إنه كسبه ووصفه، وعلامة كونه ممقوتاً عند الله، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم.

بهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله، والحب في الله، والتشديد على الكفار، والتغليظ عليهم، والمبالغة في مقتهم، مع الرضا بقضاء الله تعالى، من حيث إنه قضاء الله عزَّ وجلّ.

وبهذا يعرف أيضاً: أن الدعاء بالمغفرة، والعصمة من المعاصي، وسائر الأسباب المعينة على الدين، غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج منهم الدعاء صفاء الذكر، وخشوع القلب، ورقة التضرع، كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش، وشرب الماء طلباً لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب. فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به.

وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جرياً على سنَّة الله تعالى لا يناقض التوكل، فهو أيضاً لا يناقض الرضا، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل.

الكِتَابُ ٱلسَّابِعُ

النيـة والاخلاص والصدق

ربع المنجيات

الـوظيفة الأولى على كـل عبد أراد طـاعة الله تعـالى أن يتعلم النيـة أولاً، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخـلاص. ونحن نذكـر معاني الصـدق والإخلاص في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في حقيقة النية ومعناها.

الباب الثاني: في الإخلاص وحقائقه.

الباب الثالث: في الصدق وحقيقته.

البَابُ الأَوَّل
فِي ٱلنِّيَّة

فضيلة النية:

قال تعالى:

﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾(١).

فجعل النية سبب التوفيق.

وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(٢).

وقال ﷺ: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٣). وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية.

وفي حديث أنس بن مالك: (إن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك، فدنا من

---

(١) سورة النساء: الآية (٣٥).

(٢) متفق عليه (خ ٦٦٨٩، م ١٩٠٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤، م ٣٤).

المدينة فقال: «إن بالمدينة أقواماً، ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلَّا كانوا معكم»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[1]، فشركوا بحسن النية.

وورد في أخبار كثيرة قوله ﷺ: «من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة»[2].

وفي حديث أم سلمة: أن النبي ﷺ ذكر جيشاً يخسف بهم ببيداء، فقلت: يا رسول الله، يكون فيهم المكره والأجير، فقال: «يحشرون على نياتهم»[3].

وقال ﷺ: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[4].

وقال ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لأنه أراد قتل صاحبه»[5].

وقال عمر رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى.

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل، كما تتعلمون العمل.

وروي أن رجلاً من بني إسرائيل، مرَّ بكثبان رمل في مجاعة، فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: أن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٢٣) واللفظ له، ومسلم برقم (١٩١١)، ولم يذكر غزوة تبوك.
(٢) متفق عليه (خ ٦٤٩١، م ١٣٠).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٨٨٢) وكذا أبو داود.
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧٨).
(٥) متفق عليه (خ ٣١، م ٢٨٨٨).

قـل له: إن الله تعـالى قد قبـل صـدقتـك وقـد شكـر حسن نيتـك، وأعـطاك ثـواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به.

حقيقـة النيـة:

اعلم أن «النية» و«الإرادة» و«القصد» عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة للقلب يكتنفها أمران: علم، وعمل يتبع العلم لأنه ثمرته وفرعه.

وذلك لأن كل عمل ــ أعني: كل حـركة وسكـون اختياري ــ فـإنه لا يتم إلاَّ بثلاثة أمور: علم، وإرادة، وقدرة.

لأن الإنسان لا يريد ما لا يعلمه، فلا بد وأن يعلم.

ولا يعمل ما لم يرد، فلا بد من إرادة.

ومعنى الإرادة: انبعـاث القلب إلى ما يـراه موافقـاً للغرض، إمـا في الحال، أو في المآل.

فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمـور ويلائم غـرضه، ويخـالفه بعض الأمـور، فيحتاج إلى جلب المـلائم الموافق إلى نفسـه، ودفع الضـار المنـافي عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع، حتى يجلب هذا، ويهرب من هذا.

فالنية: عبارة عن الإرادة وانبعاث النفس ــ بحكم الرغبة والميل ــ إلى ما هـو موافق للغرض، إما في الحال، وإما في المآل.

فالمحرك الأول: هو الغرض المطلوب، وهو الباعث.

والغرض الباعث: هو المقصد المنوي.

والانبعاث: هو القصد، والنية.

وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل.

وانتهاض القدرة قد يكون بباعث واحد، وقـد يكون ببـاعثين اجتمعا في فعـل

واحد، وعندها نكون أمام واحد من أربعة أقسام:

الأول: أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد، كما إذا هجم على الإنسان سبع، فلا مزعج له إلاَّ غرض الهرب منه، فيقال: نيته الفرار من السبع، لا نية له في القيام غيره. وهذه النية تسمى خالصة، ويسمى العمل بموجبها «إخلاصاً» بالإضافة إلى الغرض الباعث. ومعناه: أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته.

الثاني: أن يجتمع باعثان. كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد، ومثاله أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها له: لفقره ولقرابته. وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها لمجرد القرابة، وأنه لولا قرابته لكان يقضيها لمجرد الفقر. وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره القريب الغني فيقضي حاجته، ويحضره الأجنبي الفقير فيقضي حاجته أيضاً.

فقد اجتمع باعثان على الفعل وكان الثاني رفيق الأول. فلنسمِّ هذا: «مرافقة البواعث».

الثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي مجموعهما على إنهاض القدرة. ومثاله: أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهماً فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث القدرة بباعثين. ولنسمِّ هذا الجنس «مشاركة».

الرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه، والثاني لا يستقل، ولكن لما انضاف إليه، لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله: أن يكون للإنسان عادة في الصدقات. فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس. فصار الفعل أخف بسبب مشاهدتهم. وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً، لم يفتر عن عمله، فهو شوب تطرق إلى النية. ولنسمِّ هذا الجنس «المعاونة».

فالباعث الثاني: إما أن يكون «رفيقاً» أو «شريكاً» أو «معيناً» وسنذكر حكمها في باب الإخلاص.

تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية:

اعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: معاصٍ، وطاعات، ومباحات.

القسم الأول: المعاصي، وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي للجاهل أن يفهم ذلك من عموم قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مسجداً أو مدرسة بمال حرام، وقصده الخير. فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية.

بل قصد الخير بالشر ـ على خلاف مقتضى الشرع ـ شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاصٍ بجهله.

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار، والمشغولين بالفسق والفجور، القاصرين هممهم على مماراة العلماء، ومباراة السفهاء، واستمالة وجوه الناس، وجمع حطام الدنيا، وأخذ أموال السلاطين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا، ويتبع الهوى، ويتباعد عن التقوى.

ولذلك كان علماء السلف ـ رحمهم الله ـ يتفقدون أحوال من يتردد إليهم، فإذا رأوا منه تقصيراً في النوافل أنكروه وتركوه..

فإذن: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» يختص من الأقسام الثلاثة: بالطاعات والمباحات، دون المعاصي.

إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد.

والمباح ينقلب معصية، وطاعة، بالقصد.

فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً، نعم للنية دخل فيها، وهو: أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها.

ـ أما الأصل: فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية.

ـ وأما تضاعف الفضل: فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تتضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثاله: القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي به نيات كثيرة:

منها: أن يعتقد أنه بيت الله، وأن داخله زائر لله.

ومنها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في صلاة.

ومنها: التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره والتذكر به.

ومنها: أن يقصد إفادة العلم، بأمر بمعروف أو نهي عن منكر، إذ المساجد لا تخلو عمن يسيء في صلاته، أو يتعاطى ما لا يحل له.

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد، رزقه الله إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستطرفاً، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياءً.

فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات.

القسم الثالث: المباحات، وما من شيء من المباحات إلاَّ ويحتمل نية أو نيات، يصير بها من محاسن القربات، وينال بها معالي الدرجات. فما أعظم خسران من يغفل عنها، ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة، عن سهو وغفلة.

ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات والخطوات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة.

فالطيب مثلاً في يوم الجمعة وفي سائر الأوقات، وهو حظ من حظوظ النفس، يمكن أن يقصد به التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو يقصد به التودد إلى قلوب النساء الأجنبيات.. وكل هذا يجعل التطيب معصية إلاَّ القصد الأول وهو التلذذ والتنعم فإن ذلك ليس بمعصية إلاَّ أنه يسأل عنه.

وأما النية الحسنة، فإنه ينوي به اتباع سنَّة رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وينوي بذلك أيضاً تعظيم المسجد واحترام بيت الله، فلا يرى أن يدخله زائراً الله إلاَّ طيب الرائحة، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه، وأن يقصد دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه..

فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها، إذا كانت تجارة الآخرة غالبة على قلبه.

وبالجملة: فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك، فلا تحترز من غرورها وشرورها، ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب، فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١).

النية غير داخلة تحت الاختيار:

اعلم أن الجاهل إذا سمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها، مع قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو أكله: نويت أن أدرس لله، أو آكل لله، ويظن ذلك نية، وهيهات!!

فالنية بمعزل عن ذلك، وإنما النية: انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً.

---

(١) سورة ق: الآية (١٨).

والميل إذا لم يكن[1]، لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أشتهي الطعام.

وإنما تنبعث النفس إلى الفعل، إجابة للغرض الباعث، الموافق للنفس الملائم لها. وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحو قصده. وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين.

ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال.

فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً، ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولا دنيا، لا يمكنه أن يواقع على نية الولد، بل لا يمكن إلاَّ على نية قضاء الشهوة، إذ النية هي إجابة الباعث، ولا باعث إلاَّ الشهوة، فكيف ينوي الولد؟

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية. وذلك لعلمهم بأن النية روح العمل، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف، وهو سبب مقت لا سبب قرب. وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه «نويت»، بل هي انبعاث القلب.

ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير، فينبعث إلى التفاصيل غالباً. ومن مال قلبه إلى الدنيا، وغلبت عليه، لم يتيسر له ذلك، بل لا يتيسر له في الفرائض إلاَّ بجهد جهيد.

***

(١) أي لم يكن موجوداً.

الباب الثاني

في الإخلاص

فضيلة الإخلاص:

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾(2).

وقال تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾(3).

وقال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾(4).

نزلت فيمن يعمل لله، ويحب أن يحمد عليه.

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: ظن أبي أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «إنما نصر الله عزَّ وجلَّ هذه الأمة

---

(1) سورة البينة: الآية (٥).

(2) سورة الزمر: الآية (٣).

(3) سورة النساء: الآية (١٤٦).

(4) سورة الكهف: الآية (١١٠).

بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم»[1].

وقال يحيى بن معاذ: الإخلاص يميز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من الفرث والدم.

حقيقة الإخلاص:

اعلم أن كل شيء يتصوَّر أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصفى المخلص: «إخلاصاً» والإخلاص يضادّه الإشراك.

فمن ليس مخلصاً فهو مشرك. إلَّا أن الشرك درجات.. فالإخلاص في التوحيد يضاده الإشراك في الإلّهية. والشرك منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص.

والإخلاص وضدُّه يتواردان على القلب، فمحله القلب، وإنما يكون ذلك في القصود والنيات.

وقد ذكر في حقيقة النية، أنها ترجع إلى إجابة البواعث، وإذا كان الباعث واحداً على التجرد، سمي الفعل الصادر عنه «إخلاصاً» بالإضافة إلى ذلك المنوي، فمن تصدق وغرضه محض الرياء، فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى، فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص على تجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب.

وإنما نتكلم الآن، فيمن انبعث لقصد التقرب، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء، أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك: أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر.

ومهما كان الباعث هو التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضافت إليه خطرة من

---

(١) رواه النسائي، وهو عند البخاري برقم (٢٨٩٦)، بلفظ: «هل تنصرون وترزقون إلَّا بضعفائكم».

هذه الخطرات ـ حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ـ فقد خرج عمله عن حد الإخلاص.

وبالجملة: كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب ـ قلَّ أم كثر ـ إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه.

ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة المرافقة، أو في رتبة المشاركة، أو في رتبة المعاونة، كما سبق في النية.

وإنما الإخلاص: تخليص العمل عن الشوائب كلها ـ قليلها وكثيرها ـ حتى يتجرد فيه قصد التقرب، فلا يكون فيه باعث سواه. وهذا لا يتصور إلَّا من محب مستغرق الهمّ بالآخرة، بحيث لم يبقَ لحب الدنيا في قلبه قرار.

وعلاج الوصول إلى الإخلاص، هو كسر حظوظ النفس، وقطع الطمع عن الدنيا، والتجرد للآخرة، بحيث يغلب ذلك على القلب.

والبيان الشافي في الإخلاص هو بيان سيد الأولين والآخرين ﷺ إذ قال: «قل: آمنت بالله، فاستقم»[1]، أي: لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلَّا ربك، وتستقيم في عبادته، وهذا إشارة إلى قطع مجرى النظر عما سوى الله، وهو الإخلاص حقاً.

حكم العمل المشوب:

إن العمل الذي لا يريد به صاحبه إلَّا الرياء، فهو عليه قطعاً، وهو سبب المقت والعقاب. وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب، وإنما النظر في المشوب.

وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه، والذي ينقدح لنا فيه ـ والعلم عند الله ـ أن ينظر إلى قدر قوة الباعث:

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٨)، وذكرت لفظه وذكر المصنف لفظاً آخر وهو: «أن تقول ربي الله، ثم تستقيم كما أُمرت». قال العراقي فيه: لم أره بهذا اللفظ.

ـ فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي، تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه.

ـ وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى، فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب. نعم، العقاب فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء، ولم يمتزج به شائبة التقرب.

ـ وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني.

وهذا لقوله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

ولقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾[2].

فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء، هبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد.

ويشهد لهذا إجماع الأمة: على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه، وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس. ومهما كان الحج هو المحرك الأصلي، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع، فلا ينفك السفر عن ثواب.

وكذلك الغزاة إذا كان الباعث الأصلي المزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى، وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب. ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً.

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان (٧ ـ ٨).

(٢) سورة النساء: الآية (٤٠).

ومع هذا: فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، وإذا ترك العمل، فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً.

حكي أن أحدهم كان يخدم أبا سعيد الخراز[1]، فتكلم أبو سعيد يوماً في الإخلاص، فأخذ الرجل يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص، فتعذر عليه قضاء حوائج الشيخ، واستضر بذلك، فسأله عن أمره، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها، فقال أبو سعيد: إن الإخلاص لا يقطع المعاملة، فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك: اترك العمل، وإنما قلت لك أخلص العمل.

قال الفضيل: ترك العمل من أجل الخلق رياء، والعمل لأجل الخلق شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

*
**

(١) أحمد بن عيسى الخراز البغدادي، صحب ذا النون وغيره، وكان من جملة مشايخ القوم. مات سنة (٢٧٧)هـ.

الباب الثالث
في الصدق

فضيلة الصدق:

قال الله تعالى:

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾(1).

وقال ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»(2).

ويكفي في فضيلة الصدق، أن الصدّيق مشتق منه، وقد وصف الله تعالى الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(3).

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(4).

حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه:

اعلم أن لفظ «الصدق» يستعمل على ستة معانٍ: فمن اتصف بالصدق في جميعها فهو «صدّيق»، لأنه مبالغة في الصدق، وهذه المعاني هي:

---

(1) سورة الأحزاب: الآية (٣٣).
(2) متفق عليه (خ ٦٠٩٤، م ٢٦٠٧).
(3) سورة مريم: الآية (٤١).
(4) سورة مريم: الآية (٥٦).

الصدق الأول: صدق اللسان، وذلك لا يكون إلاَّ في الإخبار، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه: يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه.

وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلاَّ بالصدق. وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. ولهذا الصدق كمالان:

ـ الأول: الاحتراز عن المعاريض، فقد قيل: «في المعاريض مندوحة عن الكذب»، وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب: تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه.

ولكن ذلك مما تمسّ الحاجة إليه، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان والنساء، وفي الحذر من الظلمة، وفي قتال الأعداء..

فمن اضطر إلى شيء من ذلك، فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق، وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه، لأن الصدق ما أريد لذاته، بل للدلالة على الحق، والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه.

نعم، في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً.

كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى السفر ورَّى بغيره[1]، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء، وليس هذا من الكذب في شيء، قال ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو أنمى خيراً»[2]. ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان، وما كان في مصالح الحرب.

والصدق هنا يتحول إلى النية، فلا يراعى فيه إلاَّ صدق النية وإرادة الخير.

---

(١) متفق عليه من حديث كعب (خ ٢٩٤٧، م ٢٧٦٩).

(٢) متفق عليه (خ ٢٦٩٢، م ٢٦٠٥).

ومثاله: ما حكي عن بعضهم أنه طلبه بعض الظلمة وهو في داره، فقال لزوجته: خطي بإصبعك دائرة، وضعي الإصبع على الدائرة وقولي: ليس هو ها هنا.

فكان قوله صدقاً، وأفهم الظالم أنه ليس في الدار.

فالكمال الأول في اللفظ: أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضاً إلّا عند الضرورة.

ـ الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1].

فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كذاب.

وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية، وكان له مطلب سوى الله تعالى لم يكن كلامه صادقاً، إذ العبد الحق، هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه، وهذه هي درجة الصديقين.

فهذا هو معنى الصدق في القول.

الصدق الثاني: في النية والإرادة، ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلّا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، ويجوز أن يسمى صاحبه كذاباً.

قال تعالى في حق المنافقين:

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[2].

وقد قالوا: (إنك لرسول الله)، وهذا صدق. ولكن كذّبهم لا من حيث نطق

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٧٩).

(٢) سورة المنافقون: الآية (١).

اللسان، بل من حيث ضمير القلب، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية، وهو الإخلاص.

الصدق الثالث: صدق العزم. فإن الإنسان قد يقدِّم العزم على العمل، فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدقت بشطره.. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه: وهي عزيمة صادقة جازمة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد يضاد الصدق في العزيمة.

فالصدق ها هنا، عبارة عن التمام والقوة.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم، والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق، وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة، وغلبت الشهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم.

وهذا يضاد الصدق فيه.

قال تعالى:

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1].

فقد روى أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ، فشق ذلك على قلبه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع! قال: فشهد أحداً في العام القابل، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة، إني أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون، ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلاَّ ببنانه. فنزلت هذه الآية:

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى، وهو عند البخاري مختصراً: =

وقال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[1].

فجعل العزم عهداً، وجعل الخلف فيه كذباً، والوفاء به صدقاً.

وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث.

الصدق الخامس: في الأعمال، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به. لا بأن يترك الأعمال، ولكن بأن يستجرَّ الباطن إلى تصديق الظاهر.

فرب واقفٍ على هيئة الخشوع في صلاته ــ ولا يقصد به مشاهدة غيره ــ وقلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته.

وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار، وباطنه ليس موصوفاً بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله. وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق، ولا مرائياً إياهم.

ولا ينجو من هذا إلَّا باستواء السريرة والعلانية، بأن يكون باطنه مثل ظاهره، أو خيراً من ظاهره.

إذن: مخالفة الظاهر للباطن:

ــ إن كانت عن قصد، سميت رياء، ويفوت بها الإخلاص.

ــ وإن كانت عن غير قصد، فيفوت بها الصدق.

= أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر (ع).

(١) سورة التوبة: الآيات (٧٥ ــ ٧٧).

فمساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها: الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور.

فإن هذه الأمور لها بدايات ينطلق الاسم بظهورها، ولها غايات وحقائق، والصادق المحق من نال حقيقتها فيقال: هذا هو الخوف الصادق.

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلَّا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه غير بالغ درجة الحقيقة. أما تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر لونه، وترتعد فرائصه، ويتنغص عليه عيشه، ويتعذر عليه أكله ونومه، كل ذلك خوفاً من درك المحذور.

ثم إنه يخاف النار، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه، فالصادق في جميع هذه المقامات عزيز.

***

الكِتَابُ ٱلثَّامِنُ

المراقبة والمحاسبة

ربع المنجيات

[بيان لزوم محاسبة النفس]:

قال الله تعالى:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٤٧).

(٢) سورة الكهف: الآية (٤٩).

(٣) سورة المجادلة: الآية (٦).

(٤) سورة الزلزلة: الآيتان (٦ ـ ٧).

وقال تعالى:

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[3].

عرف أرباب البصائر ـ من جملة العباد ـ أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفَّ في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته.

فلما انكشف لهم ذلك، علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله تعالى، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عزَّ من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾[4].

فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم بذلك ست مقامات.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٨١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٠).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٣٥).

(٤) سورة آل عمران: الآية (٢٠٠).

وأصل ذلك المحاسبة، ويكون الحساب بعد المشارطة والمراقبة، ويتبعه عند الخسران: المعاتبة والمعاقبة. فلنذكر هذه المقامات:

المقام الأول: المشارطة

كما أن التاجر يستعين بشريكه في التجارة طلباً للربح، ويشارطه ويحاسبه، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس.

والعقل يستعين بالنفس، في تجارة طريق الآخرة، فيحتاج إلى أن يشارطها أولاً، ويراقبها ثانياً، ويحاسبها ثالثاً، ويعاقبها أو يعاتبها رابعاً.

وفي المشارطة: يوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطريق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنها لو أهملها لحظة، لم ير منها إلا الخيانة، وتضييع رأس المال. ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بالشروط. فتدقيق الحساب مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا التي هي محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى.

فحتم على كل ذي حزم، آمن بالله واليوم الآخر، أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، في حركاتها وسكناتها، فإن كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، لا عوض لها، يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد.

فإذا أصبح العبد، وفرغ من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرِّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس، فيقول لها: ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال، ووقع اليأس من التجارة وطلب الربح. وهذا اليوم الجديد، قد أمهلني الله فيه، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً، حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك توفيت، ثم قد رددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم.

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه، فيوصيها بحفظها عن معاصيها:

أما العين: فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه. ثم ليشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو، لا سيما اللسان والبطن.

أما اللسان: فلأنه منطلق بالطبع، ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنايته عظيمة بالغيبة والنميمة، وتزكية النفس ومذمة الخلق.. وغير ذلك، مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، وسائر خيراته.

فليشترط على نفسه أن لا يحركه طول النهار إلا في الذكر، فنطق المؤمن ذكر، ونظره عبرة وصمته فكرة.

وأما البطن: فيكلفه ترك الشره، وتقليل الأكل من الحلال، واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة...

وهكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء، وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم، ولكن إذا تعوّد الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً، وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي.

ولكن لا يخلو كل يوم عن مهمّ جديد، وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه في ذلك حق، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من تجارة وتدريس، إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها.

المقام الثاني: المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال، وملاحظتها بالعين الكالئة، فإنها إن تركت طغت.

فضيلة المراقبة:

سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

وقد قال تعالى:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾(٣).

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٤).

وقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾(٥).

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة.

وقال عبد الله بن دينار(٦): خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة (خ ٥٠، م ٩) وعند مسلم من حديث عمر برقم (٨).
(٢) سورة الرعد: الآية (٣٣).
(٣) سورة العلق: الآية (١٤).
(٤) سورة النساء: الآية (١).
(٥) سورة المعارج: الآيتان (٣٢ ـ ٣٣).
(٦) عبد الله بن دينار العدوي، مولى ابن عمر، مات سنة (١٢٧)هـ روى له الجماعة.

مكة، فعرسنا في بعض الطريق، فانحدر عليه راع من الجبل، فقال له: يا راعي، بعني شاة من هذه الغنم، فقال: إني مملوك، فقال: قل لسيدك أكلها الذئب؟ قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه فأعتقه، وقال: أعتقك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

وقال حميد الطويل[1] لسليمان بن علي[2]: عظني، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك، لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فقد كفرت.

وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل: علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب ... وأن غداً للناظرين قريب

حقيقة المراقبة ودرجاتها:

اعلم أن حقيقة المراقبة، هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهمّ إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقب فلاناً ويراعي جانبه.

ويُعنى بهذه المراقبة: حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب.

أما الحالة فهي: مراعاة القلب للرقيب، واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إياه، وانصرافه إليه.

وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة، فهي العلم بأن الله مطلع على الضمائر،

---

(١) حميد بن أبي حميد الطويل، أبو عبيدة البصري، تابعي ثقة، روى له الجماعة، مات سنة (١٤٣)هـ وهو قائم يصلي، وله خمس وسبعون سنة.

(٢) سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، أحد الأشراف، وعم الخليفتين السفاح والمنصور، روى له النسائي وابن ماجه. مات سنة (١٤٢)هـ وله تسع وخمسون سنة.

عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً، أعني أنها خلت عن الشك، ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته ـ ورب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب، كالعلم بالموت ـ فإذا استولت على القلب استجرته إلى مراعاة جانب الرقيب. وصرفت همه إليه. والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون: وهم ينقسمون إلى الصديقين، وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين:

الدرجة الأولى: مراقبة المقربين من الصديقين، وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال، ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً، وهذه مراقبة مقصورة على القلب.

أما الجوارح، فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات، فضلاً عن المحظورات.

وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم. وفي مثله قيل: عليك بصحبة من تذكرك بالله رؤيته، وتقع هيبته على قلبك، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة «الجلال» بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال، متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، ومع الأعمال لا تخلو عن المراقبة. غلب عليهم الحياء من الله، يمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

ومن كان في هذه الدرجة، فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل:

ـ أما النظر قبل العمل: فلينظر أن ما ظهر له، وتحرك بفعله خاطره، أهو لله

خاصة، أو هو هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف ويتثبت فيه، حتى ينكشف له ذلك، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله، استحيا من الله، وانكفَّ عنه، ثم لام نفسه على رغبته فيه، وهمه به، وميله إليه، وعرَّفها سوء فعلها، وسعيها في فضيحتها، وأنها عدوة نفسها، إن لم يتداركها الله بعصمته.

وهذا التوقف في بداية الأمور، إلى حد البيان، واجب محتوم لا محيص لأحد عنه.

ولا تخلص هذه المراقبة إلا بالعلم المتين، والمعرفة الحقيقة بأسرار الأعمال، وأغوار النفس ومكايد الشيطان، فمن لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس، ولم يعرف ما يوافق هواه، ولم يميز بين ما يحبه الله ويرضاه. . فلا يسلم في هذه المراقبة.

فإذن: النظر الأول للمراقب، هو نظره في الهمّ والحركة، أهي لله أم للهوى؟

ــ والنظر الثاني للمراقبة، عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل، ليقضي حق الله فيه، ويحسن النية في إتمامه، ويكمل صورته، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه. فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك، قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية، وحسن الفعل، ومراعاة الأدب.

والعبد لا يخلو، إما أن يكون في طاعة، أو في معصية، أو في مباح.

فمراقبته في الطاعة: بالإخلاص، والإكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات.

وإن كان في معصية، فمراقبته: بالتوبة والندم، والإقلاع، والحياء.

وإن كان في مباح، فمراقبته: بمراعاة الأدب، ثم بشهود المنعم في النعمة، والشكر عليها.

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد من الصبر عليها، ونعمة لا بد من الشكر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

وعلى العاقل، أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة

يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب.

المقام الثالث: المحاسبة بعد العمل

فضيلة محاسبة النفس بعد العمل:

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1].

وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا.

وقال تعالى:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه، بالندم عليه.

وقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[3].

وعن عمر رضي الله عنه، أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟

وقال الحسن البصري: المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

---

(١) سورة الحشر: الآية (١٨).

(٢) سورة النور: الآية (٣١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٠١).

حقيقة المحاسبة بعد العمل:

اعلم أن العبد كما يكون له وقت أول النهار يشارط فيه نفسه، على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها.

ومعنى المحاسبة: أن ينظر في رأس المال، وفي الربح والخسران، ليتبين له الزيادة من النقصان.

ورأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء.

فيحاسبها على الفرائض أولاً، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه، ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة، كلفها الجبران بالنوافل. وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها، ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط.

فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل خواطره وأفكاره، وقيامه وقعوده، وأكله ونومه.

المقام الرابع: معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب الإنسان نفسه فلن تسلم عن مقارفة معصية، وارتكاب تقصير في حق الله تعالى، فلا ينبغي أن يهملها، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنست نفسه بها وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها.

بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس، فينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محْرم، فينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر. وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته.

والعجب أنك تعاقب أهلك وولدك على ما يصدر منهم، من سوء خلق، وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار، وبغوا

عليك. ثم تمهل نفسك، وهي أعظم عدو لك، وأشد طغياناً عليك، وضـررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك.

المقام الخامس: المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضـائل، أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها، ويلزمها فنوناً من الوظـائف جبراً لمـا فات منـه، وتداركـاً لما فرط. فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى.

فقد عاقب عمـر بن الخطاب نفسـه حين فاتتـه صلاة العصـر في جماعـة بأن تصدق بأرض كانت له.

وكان ابن عمر إذا فـاتته صـلاة في جماعـة أحيا تلك الليلة، وأخـر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين.

فإن قلت: إن نفسي لا تطاوعني على المجاهدة، فما سبيل معالجتها؟

فأقول: من أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عبـاد الله مجتهد في العبادة، إلّا أن هذا العلاج قد تعذر. فينبغي أن يعدل من المشـاهدة إلى السمـاع، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم.

وإياك أن تنظر إلى أهـل عصرك، فـإنك إن تـطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله.

المقام السادس: توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك، نفسـك التي بين جنبيك، وقـد خلقت أمارة بـالسوء، ميالة إلى الشر، فرارة من الخير، وأمرت بتزكيتها، وتقويمها، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها، وفطامها عن لذاتها.

فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتـوبيخ والمعاتبة والعذل والملامـة، كانت نفسـك هي النفس اللوامة، التي أقسم الله بهـا،

ورجوت أن تصير النفس المطمئنة، المدعوة أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية.

فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك، ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك.

وسبيلك أن تقبل عليها فتقول لها: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدَّعين الحكمة والذكاء والفطنة، وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً، أما تتدبرين قوله تعالى:

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾(١).

ويحك يا نفس، إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك، فما أعظم كفرك، وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك.

ويحك يا نفس، لو كان الإيمان باللسان، فلمَ كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟ ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت، وهيهات!

ويحك يا نفس، لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا، ولا يغرك بالله الغرور، فانظري لنفسك، فما أمرك بمهم لغيرك، ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة، فإذا مضى عنك نَفَس فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها.

ويحك يا نفس، أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا، ثم ذهبوا وخلوا، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم، أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون، ويبنون ما لا يسكنون، ويؤملون ما لا يدركون، يبني كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض، فهل في الدنيا حمق

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان (١ ــ ٣).

وانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد منهم دنياه، وهو مرتحل عنها يقيناً، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً. أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم؟!

اعملي يا نفس بقية عمرك، في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال، لدار مقامة، وفي دار حزن ونصب، لدار نعيم وخلود. اعملي قبل أن لا تعملي، اخرجي من الدنيا اختياراً خروج الأحرار، قبل أن تخرجي منها على الاضطرار.

هكذا كانت طريق القوم في معاتبة نفوسهم.

[مناجاة][1]:

روي عن حبيبة العدوية[2] أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي، قد غارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك. ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهي، هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ، أم رددتها علي فأعزى؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت، لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

ويروى عن عجرة[3] أنها كانت تحيي الليل، فإذا كان السحر، نادت بصوت محزون: إليك قطع العابدون دجى الليالي، يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك، فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك، أن تجعلني في أول زمرة السابقين، وأن ترفعني لديك في عليين، في درجة المقربين، وأن تلحقني بعبادك الصالحين، فأنت أرحم الرحماء، وأعظم العظماء، وأكرم الكرماء يا كريم..

وكانت شعوانة[4] تقول في دعائها: إلهي، ما أشوقني إلى لقائك، وأعظم

(١) أورد المصنف هذه الأدعية، ضمن حديثه عن المجاهدة في المقام الخامس.
(٢) هي إحدى متعبدات البصرة.
(٣) هي إحدى متعبدات البصرة.
(٤) كانت من المتعبدات العارفات، المعاصرات للفضيل بن عياض.

رجائي لجزائك، وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين. .

إلهي، إن كان دنا أجلي ولم يقربني منك عمل، فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك.

إلهي، قد جرت على نفسي في النظر لها، وبقي لها حسن نظرك، فالويل لها إن لم تسعدها.

إلهي، إنك لم تزل بي براً أيام حياتي، فلا تقطع عني برك بعد مماتي، ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه، أن يسعفني عند مماتي بغفرانه.

إلهي، كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي، ولم تولني إلا الجميل في حياتي.

إلهي، إن كانت ذنوبي قد أخافتني، فإن محبتي لك قد أجارتني، فتولَّ من أمري ما أنت أهله، وعد بفضلك على من غره جهله.

إلهي، لو أردت إهانتي لما هديتني، ولو أردت فضيحتي لم تسترني، فمتعني بما له هديتني، وأدم لي ما به سترتني.

إلهي، ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري.

إلهي، لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك.

***

الكِتَابُ التَّاسِعُ

التَّفَكُّر

رُبْعُ المُنجِيَات

فضيلة التفكر:

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز، في مواضع لا تحصى، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾(١).

وقال تعالى:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢).

وعن محمد بن واسع، أن رجلاً من أهل البصرة، ركب إلى أم ذر ـ بعد موت أبي ذر ـ فسألها عن عبادته، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر.

وقال الحسن البصري: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال أيضاً: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو.

وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله، ما عصوا الله عزَّ وجلّ.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٩١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٩٠).

وقال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر.

حقيقة الفكر وثمرته:

اعلم أن معنى الفكر: هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة.

ومثاله: أن من مال إلى العاجلة، وآثر الحياة الدنيا، وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة، فعليه:

- أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار.
- ثم يعرف أن الآخرة أبقى.

فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة، هي: أن الآخرة أولى بالإيثار.

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة، يسمى: «تفكراً» و«اعتباراً» و«تذكراً» و«نظراً» و«تأملاً» و«تدبراً».

أما «التدبر» و«التأمل» و«التفكر» فعبارات مترادفة على معنى واحد، وليس تحتها معان مختلفة.

وأما اسم «التذكر» و«الاعتبار» و«النظر» فهي مختلفة المعاني. وإن كان أصل المسمى واحداً، كما أن اسم: الصارم، والمهند، والسيف، يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة.

فـ«الاعتبار»: يطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة.

فإن لم يقع العبور، ولم يمكن إلَّا الوقوف على المعرفتين، فيطلق عليه اسم «التذكر» لا اسم: الاعتبار.

وأما «النظر والتفكر» فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة.

فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً. فكل متفكر فهو متذكر، وليس كل متذكر متفكراً.

وفائدة التذكار: تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب.

وفائدة التفكر: تكثير العلم، واستجلاب معرفة ليست حاصلة.

فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر.

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة، فإذا حصلت معرفة أخرى، وازدوجت مع معرفة أخرى، حصل من ذلك نتاج آخر..

وقد منع أكثر الناس الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً. فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم، ولكنه لا يحسن استعمالها وتأليفها، وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها.

فحقيقة التفكر، هي: إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة.

وأما ثمرة الفكر: فهي العلم لا غير، وإذا حصل العلم في القلب تغير حاله، وإذا تغير حاله، تغيرت أعمال الجوارح.

فالعمل تابع للعلم، والعلم تابع للفكر.

فالفكر إذن: هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها. وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكر، وأنه خير من الذكر والتذكر، لأن الفكر ذكر وزيادة.

وإذا أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر، فنقول: ها هنا خمس درجات:

الأولى: التذكر، وهو إحضار المعرفتين في القلب.

الثانية: التفكر، وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

الثالثة: حصول المعرفة واستنارة القلب بها.

الرابعة: تغير حال القلب عما كان، بسبب حصول نور المعرفة.

الخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدّد له من الحال.

بيان مجاري الفكر:

جميع أفكار العبد ـ فيما يتعلق بالدين ـ إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله، ولا يمكن أن تخرج عن هذين القسمين.

القسم الأول: وهو تفكر الإنسان في صفات نفسه وأفعاله ليميز المحبوب منها عن المكروه، ونحن هنا أمام أربعة أقسام: المعاصي، والطاعات، والصفات المهلكة، والصفات المنجية:

أما المعاصي: فينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلاً، ثم بدنه على الجملة، هل هو ملابس لمعصية فيتركها؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم؟ أو هو متعرّض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها.

فينظر في اللسان، ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب، وتزكية النفس.. فيقرر أنها مكروهة عند الله، ثم يتفكر في شدة العذاب عليها، ثم يتفكر في أحواله، أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر في كيفية الاحتراز منها.

ويتفكر في سمعه، كيف يصغي به إلى الغيبة وفضول الكلام.. وأنه ينبغي أن يحترز منه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر..

وكذلك يتفكر في بطنه، وأنه إنما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب، إما بكثرة الأكل من الحلال، فإن ذلك مكروه، وإما بأكل الحرام أو الشبهة.. فيتفكر بطريق الحلال ومداخله، ثم يتفكر في الاحتراز من الحرام.

وهكذا يتفكر في أعضائه، حتى يحفظها.

وأما الطاعات: فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه، كيف يؤديها، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل؟

ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله فيقول مثلاً: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة الله تعالى، وتنظر في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ.

وكذلك يقول في سمعه: أنا قادر على استماع كلامِ ملهوفٍ أو استماع حكمة، أو قراءة، فما لي أعطله.. وأكفر نعمة الله فيه..؟

وكذلك يتفكر في ماله، فيقول: أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني، فإني مستغنٍ عنه، وإذا احتجت إليه رزقني الله مثله.

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه، وجملة بدنه، وأمواله.. فيتفكر في إخلاص النية فيها، ويتفكر فيما يرغبه بالبدار إلى تلك الطاعات.

وأما الصفات المهلكة: فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات، ويكفيه منها النظر في عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

وأما الصفات المنجية: فهي التوبة والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص، والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه، والرضا بأفعاله، والشوق إليه والخشوع والتواضع له، وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع، وذكرنا أسبابه وعلاماته.

فليتفكر العبد كل يوم في قلبه، ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى؟

فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم، فليفتش ذنوبه أولاً، وليتفكر فيها، وليجمعها على نفسه، وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى، حتى تنبعث له حال الندم..

فهكذا طريق الفكر.

وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية، فينبغي أن يكون تفقُّدهم لها وتفكرهم فيها، لا في معاصٍ هم بمعزل عنها.

مثاله: العالم الورع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم،

وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس وإما بالوعظ، ومن فعل ذلك تصدّى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلَّا الصديقون.. فمن أحسَّ في نفسه بهذه الصفات، فالواجب عليه العزلة والانفراد، وطلب الخمول..

القسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه، وذلك عن طريق النظر في أفعاله ــ سبحانه ــ ومجاري قدره، وعجائب صنعه، وبدائع أمره في خلقه، فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه. وتدل على كمال علمه وحكمته، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته، فينظر إلى صفاته من آثار صفاته، فإنّا لا نطيق النظر إلى صفاته، والنظر في الآثار يدل على المؤثر.

كيفية التفكر في خلق الله تعالى:

اعلم أن كل ما في الوجود ــ مما سوى الله تعالى ــ هو من فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات، وكل جوهر وعرض، وصفة وموصوف، ففيها عجائب وغرائب تظهر فيها حكمة الله وقدرته، وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن.

والمخلوقات منها ما لا نعلمه، قال تعالى:

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

ومنها ما يُعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها، فيمكننا أن نفكر في تفصيلها.

ومن هذه المخلوقات ما لا ندركه بالبصر، كالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك، ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض.

فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام، وهي المدركات بحس البصر.

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٢).

---

(١) سورة النحل: الآية (٨). (٢) سورة آل عمران: الآية (١٩٠).

وفي القرآن من أوله إلى آخره قوله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1].

فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات:

● **فمن آياته**: الإنسان، المخلوق من النطفة، وأقرب شيء إليك نفسك، وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار دون الوقوف على عشره، فيا من هو غافل عن نفسه، وجاهل بها، كيف تطمع في معرفة غيرك؟

وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك فقال:

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[4].

وتكرر ذكر النطفة في الكتاب العزيز، ليس ليسمع لفظه ويترك التفكير في معناه.

فانظر الآن إلى النطفة ــ وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة لفسدت ــ كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى، وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى

---

(١) سورة الروم: الآية (٢٠)، وقد وردت في غير هذه الآية عشر مرات في القرآن بهذه الصيغة.

(٢) سورة الذاريات: الآية (٢١).

(٣) سورة الروم: الآية (٢٠).

(٤) سورة يس: الآية (٧٧).

الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم؟

ثم كيف خلق المولود من النطفة.. حتى نما وكبر، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء، علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة، إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق: الأعضاء الظاهرة، فدوَّر الرأس، وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مد اليد والرجل، وقسم رؤوسها بالأصابع، والأصابع بالأنامل؟

ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة، من القلب والمعدة والكبد والطحال والرحم والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص، لعمل مخصوص.. ثم ركب العين طبقات..

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس، وكيف جمعها وركبها.. ثم جعل الرقبة مركباً للرأس، ثم ركب الرقبة على الظهر. ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر..

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام، وهي العضلات في بدن الإنسان، ولكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص..

ثم العروق والأوردة والشرايين.. وانشعاباتها.. وشرح ذلك يطول.

فارجع الآن إلى النطفة، وتأمل حالها أولاً، وما صارت إليه ثانياً، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً، أو بصراً، أو عقلاً، أو قدرة، أو علماً، أو روحاً، أو يخلقوا فيها عظماً، أو عرقاً، أو عصباً، أو جلداً، أو شعراً، هل يقدرون على ذلك؟

والعجب منك، لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط، تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان، وقال الناظر إليها: كأنه إنسان، عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه، وخفة يده، وتمام فطنته، وعظم في قلبك محله، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة

وبـالعلم وبالإرادة، وشيء من ذلـك ليس من فعل النقـاش، ولا خلقه، بـل هـو من خَلْق غيره، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحـائط على ترتيب مخصـوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه.

ثم انظر إلى رحمته ـ تعـالى ـ كيف أخر خلق الأسنـان إلى تمام الحـولين، لأنه في الحولين لا يتغذّى إلاَّ باللبن فيستغني عن السن..

ثم انـظر كيف رزقه القـدرة والتمييز والعقـل والهـدايـة تـدريجـاً.. حتى بلغ وتكامل..

فهـذه نبذة من عجـائب بدنـك التي لا يمكن استقصاؤهـا، فهو أقـرب مجال لفكرك، وأجلى شاهد على عظمة خالقـك، وأنت غافـل عن ذلك مشغـول ببطنـك وفرجك، ولا تعرف من نفسك إلاَّ أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل، والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التي حجبت عن البهـائم، معرفـة الله تعالى، بـالنـظر في ملكـوت السمـاوات والأرض، وعجائب الآفاق والأنفس.

● **ومن آياته الأرض التي هي مقرك**، فتفكر في أنهارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السماوات.

فانظر إلى الأرض وهي ميتة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت، وأنبتت عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات.

ثم انـظر كيف أحكم جـوانب الأرض بـالجبـال الـراسيـات الشـوامـخ الصم الصـلاب، وكيف أودع المياه تحتهـا، ففجـر العيـون، وأسـال الأنهـار تجـري على وجههـا.. وأخرج فنـون الأشجار والنبـات من حب وعنب وزيتـون ونخـل ورمـان، وفواكه كثيرة لا تحصى، مختلفة الأشكال والطعـوم، تسقى بماء واحـد، وتخرج من أرض واحدة.

● **ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال**، والمعادن الحاصلة من الأرض، من ذهب وفضة ونحاس ورصـاص وحديـد، وكيف هدى الله النـاس لاستخراجهـا،

وتنقيتها، واتخاذ الأواني والآلات، والنقود والحلي منها، ثم انظر إلى معادن النفط والكبريت وغيرها، وأقلها الملح الذي يحتاج إليه لتطييب الطعام. . ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً. .

● **ومن آياته أصناف الحيوانات**، وانقسامها إلى ما يطير، وإلى ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين، وإلى ما يمشي على أربع، وعلى عشر، وعلى مائة. . . كما يشاهد في بعض الحشرات.

ثم انقسامها في المنافع والصور، والأشكال والأخلاق والطباع، فانظر إلى طيور الجو، وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية، ترى فيها العجائب، مما لا تشك معه في عظمة خالقها ومقدرها وحكمة مصورها.

بل لو أردنا أن نذكر عجائب العنكبوت في بنائها بيتها، وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها، وفي حذقها في هندسة بيتها، وفي هدايتها إلى حاجاتها، لم نقدر على ذلك.

وما من حيوان صغير ولا كبير إلاَّ وفيه من العجائب ما لا يحصى.

أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه، أو تكوَّن بنفسه، أو كونه آدمي، أو علمه، أو لا هادي ولا معلم؟!

فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكماله وقدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول، فضلاً عن سائر الحيوانات.

وهذا الباب أيضاً لا حصر له، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة.

● **ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض**، وفيها من عجائب الحيوان والجواهر أضعاف ما نشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض. وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان، إلاَّ وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ في صدفه تحت الماء، وانظر كيف أنبت

المرجان من صم الصخور تحت الماء، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر..

ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيَّر فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن، ثم عرف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها..

وأعجب من ذلك، كله، ما هو أظهر من كل ظاهر، وهو كيفية قطرة الماء، وهو جسم رقيق لطيف، سيال مشف، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد، لطيف التركيب، سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات.

فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها، لبذل جميع خزائن الأرض في تحصيلها لو ملك ذلك، وكذا لو منع خروجها.

فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر، ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء؟!

كل ذلك شواهد متظاهرة، وآيات ناطقة بلسان حالها، عن جلال بارئها. معربة عن كمال حكمته.

● ومن آياته الهواء اللطيف، وجملته مثل البحر، والطيور سابحة فيه بأجنحتها، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر، جعله الله نشراً بين يدي رحمته:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ ﴾(1).

وإن شاء جعله عذاباً على العصاة:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾(2).

---

(١) سورة الحجر: الآية (٢٢).

(٢) سورة القمر: الآيتان (١٩ ــ ٢٠).

ثم انظر إلى لطف الهواء، ثم شدته وقوته، مهما ضغط في الماء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه.. وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء.

ثم انظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق، والأمطار والثلوج، والشهب والصواعق.. فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾(١).

● ومن آياته ملكوت السماوات، وما فيها من الكواكب، والأرض والبحار والهواء.. وكل ذلك بالإضافة إلى السماوات قطرة في بحر أو أصغر.

ثم انظر كيف عظم الله أمر السماوات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلّا وتشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها، كقوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾(٢).

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾(٣).

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾(٤).

وقوله تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾(٥).

فارفع الآن رأسك إلى السماء، وانظر فيها، وفي كواكبها، وفي دوراتها، وطلوعها وغروبها، وشمسها وقمرها، واختلاف مشارقها ومغاربها، ودؤوبها في

---

(١) سورة الدخان: الآية (٣٨).
(٢) سورة البروج: الآية (١).
(٣) سورة الطارق: الآية (١).
(٤) سورة الشمس: الآية (٥).
(٥) سورة الواقعة: الآيتان (٧٥ ـ ٧٦).

الحركة على الدوام، من غير فتور في حركتها ومن غير تغيُّر في سيرها، بل تجري جميعاً في منازل مرتبة بحساب مقدر، لا يزيد ولا ينقص، إلى أن يطويها الله تعالى كطي السجل للكتاب.

وتدبر عدد كواكبها وكثرتها، واختلاف ألوانها. .

وقد أثنى الله تعالى على المفكرين فقال:

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(١).

وذم المعرضين عنها فقال:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾(٢).

وقال سبحانه:

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾(٣).

فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت.

فسبحان من عرف عباده ما عرف، ثم خاطب جميعهم فقال:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٤).

فهذه معاقد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى، وليس فيها فكر في ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق ــ لا محالة ــ معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته.

***

(١) سورة آل عمران: الآية (١٩١).
(٢) سورة الأنبياء: الآية (٣٢).
(٣) سورة النبأ: الآية (١٢).
(٤) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

الكتاب العاشر

ذكر الموت وما بعده

ربع المنجيات

جدير بمن الموت مصرعـه، والتراب مضجعـه، والدود أنيســه، ومنكر ونكيـر جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيـه، ولا تطلع إلا إليـه، ولا تعريـج إلا عليه، ولا اهتمـام إلا به، ولا حـول إلا حـوله ولا انتـظار وتـربص إلا لـه، وحقيق أن يعـد نفسـه من المـوتى، ويـراهـا في أصحاب القبور فإن كل ما هو آت قريب.

ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين:

الأول: في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور، وفيه أبواب.

الثـاني: في أحـوال الميت من وقت نفخـة الصـور، إلى آخـر الاستقـرار في الجنة أو في النار وتفصيل ذلك.

*
**

الشطر الأول

مُقدِّماتُ الموْتِ وتوابِعُهُ إلى نفخةِ الصُّور

الباب الأول

في ذكر الموت

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وقال ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[2] ومعناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها، فتقبلوا على الله تعالى.

قال الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فرحاً.

وقال مطرف بن عبد الله: إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه.

واعلم أن الناس في ذكر الموت: إما منهمك، وإما تائب مبتدىء، وإما عارف منته. .

أما المنهمك في الدنيا، المكب على غرورها، المحب لشهواتها، فإن قلبه

---

(١) سورة الجمعة: الآية (٨).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي وابن ماجه (ع).

ـ لا محالة ـ يغفل عن ذكر الموت، وإذا ذكّر به كرهه، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً.

وأما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت، لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة، وربما كره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمام التوبة، وقبل صلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه. وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لا شغل له سواه.

وأما العارف: فإنه يذكر الموت دائماً، لأنه موعد لقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت، ويحب مجيئه، ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين.

فالتائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منها رتبة، من فوض أمره إلى الله تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه، أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى إلى مقام التسليم والرضا، وهو الغاية والمنتهى.

وعلى كل حال، ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك أيضاً يستفيد بذكره التجافي عن الدنيا، إذ ينغص عليه نعيمه، ويكدر عليه صفو لذته، وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة.

واعلم أن الموت هائل، وخطره عظيم، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه، وذكرهم له، ومن يذكره فإنما يذكره بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجح ذكر الموت في قلبه، والطريق فيه أن يفرغ قلبه عن كل شيء، إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة، فإنه لا يتفكر إلا فيها.

وأنجح طريق فيه، أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم ومناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب حسن صورهم، وكيف خلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم.. فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم، وأن عاقبته كعاقبتهم.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرت الموتى فعدَّ نفسك كأحدهم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عزَّ وجلّ، تضعونه في صدع الأرض، قد توسد التراب، وخلف الأحباب، وقطع الأسباب؟

فملازمة هذه الأفكار، مع دخول المقابر، ومشاهدة المرضى، هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه، فعند ذلك يتجافى عن دار الغرور.

نظر ابن مطيع[1] ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها، ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسروراً، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرَّت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاء شديداً، حتى ارتفع صوته.

وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة[2]: أكثر ذكر الموت، فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك.

***

---

(١) عبد الله بن مطيع بن الأسود، القرشي العدوي، ولد في حياة النبي ﷺ، ولأبيه صحبة، كان من رجال قريش، جلداً شجاعاً، كان على قريش يوم الحرة، وقتل مع ابن الزبير بمكة، وكان قد استعمله على الكوفة، روى له مسلم حديثاً واحداً.

(٢) عنبسة بن سعيد بن العاص الأموي، ثقة، روى له البخاري ومسلم وأبو داود. مات بالكوفة على رأس المائة.

الباب الثاني

في طول الأمل وقصره

فضيلة قصر الأمل:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك»[1].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»[2].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً، وخط وسطه خطاً، وخط خطوطاً إلى جنب الخط، وخط خطاً خارجاً، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا الإنسان ـ للخط الذي في الوسط ـ، وهذا الأجل محيط به، وهذه الأعراض ـ للخطوط التي حوله ـ تنهشه،

---

(١) اقتصر المؤلف على ذكر قول ابن عمر وجعله مرفوعاً. ولم يذكر الشطر الأول وهو المرفوع. وذكرت النص بكامله كما هو في البخاري برقم (٦٤١٦).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً توطئة للحديث ذي الرقم (٦٤١٧). وذكره المصنف ضمن نص بصيغة الرفع.

إن أخطأ هذا نهشه هذا، وذاك الأمل، يعني: الخط الخارج»(١).

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم، وتشبّ منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»(٢).

قال مطرف بن عبد الله: لو علمت متى أجلي لخشيت على ذهاب عقلي، ولكن الله منَّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما تهنأوا بعيش، ولا قامت بينهم الأسواق.

وقال الحسن البصري: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم، ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق.

وقال الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة.

وقال الحسن البصري: الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم.

وقال داود الطائي: لو أملت أن أعيش شهراً، لرأيتني قد أتيت عظيماً، وكيف أؤمل ذلك، وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار؟

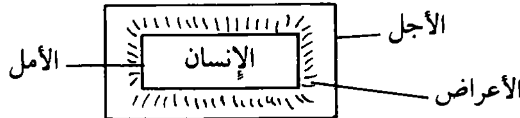
وكتب رجل إلى أخيه: أما بعد، فإن الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام والسلام.

سبب طول الأمل وعلاجه:

اعلم أن طول الأمل له سببان: أحدهما: حب الدنيا، والآخر: الجهل.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٧). ويمكن تصور الخطوط بالشكل التالي:



(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٤٧).

أما حب الدنيا: فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه عن الفكر في الموت، الذي هو سبب مفارقتها.

وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه، ويقدر البقاء، وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء، وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه. فيلهو عن ذكر الموت. فلا يقدر قربه.

فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت، والحاجة إلى الاستعداد له، سوَّف ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر وتتوب، وإذا كبر فيقول: إلى أن تصير شيخاً، فإذا صار شيخاً قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار.. فلا يزال يسوّف ويؤخر، وهكذا على التدريج، يوماً بعد يوم، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب. وليس يتفكر ــ المسكين ــ أن مشايخ بلده لوعدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد، وإنما قلّوا لأن الموت في الشباب أكثر، فإلى أن يموت شيخ يموت ألفا صبي وشاب.

وقد يستبعد الموت لصحته، ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أن ذلك غير بعيد، وإن كان ذلك بعيد فالمرض فجأة غير بعيد..

وهو أبداً يظن أنه يشيع الجنائز، ولا يقدّر أن تشيع جنازته، لأن هذا قد تكرر عليه، وألفه، وهو مشاهدة موت غيره، فأما موت نفسه فلم يألفه، ولم يتصور أن يألفه، فإنه لم يقع، وإذا وقع فهو الأول وهو الآخر.

وسبيله، أن يقيس نفسه بغيره، ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته، ويدفن في قبره، ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه، وهو لا يدري، فتسويفه جهل محض.

وإذا عرفت السبب فالعلاج دفع السبب.

أما الجهل: فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حب الدنيا: فالعلاج في إخراجه من القلب شديد، وهو الداء العضال، أعيا الأولين والآخرين علاجه، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب، ومهما حصل له اليقين بذلك، ارتحل عن قلبه حب الدنيا.

ولا علاج في تقرير الموت في القلب، مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال، وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا، أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً، وأما من كان مغروراً بطول الأمل، فقد خسر خسراناً مبيناً.

المبادرة إلى العمل:

قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»(١) أي: أنه لا يغتنمهما، ثم يعرف قدرهما عند زوالهما.

وقال ابن عباس قال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»(٢).

وقال ﷺ: «من خاف أدلج(٣)، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٢).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن (ع) قلت: ورواه الحاكم في الرقاق والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس، وقال الحاكم: على شرطهما، وأقره الذهبي في التلخيص، ورواه أحمد في الزهد والنسائي (ش).

(٣) أدلج: أي سار في أول الليل.

(٤) أخرجه الترمذي، وقال: حسن (ع) وقال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبي (ش).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف، وما له عاريَّة، والضيف مرتحل، والعاريَّة مؤداة.

وكان الحسن البصري يقول في موعظته: المبادرة المبادرة، فإنما هي الأنفاس، لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عزَّ وجلّ، رحم الله امرأ نظر إلى نفسه، وبكى على عدد ذنوبه.

وقال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير، إلا في أعمال الآخرة.

*
**

البَابُ الثَالِثُ

فِي سَكَرَاتِ المَوْتِ وَشِدَّتِهِ

سكـرات المـوت:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عـذاب سوى سكـرات الموت بمجـردها، لكـان جديـراً بأن يتنغص عليـه عيشـه، ويتكـدر عليـه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن يطول فيـه فكره، ويعـظم له استعـداده، لا سيمـا وهو في كـل نفس بصدده، كمـا قال بعض الحكمـاء: كرب بيـد سـواك، لا تدري متى يغشاك.

والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، وأطيب مجالس اللهو، فانتظر أن يدخل عليه جندي، فيضربه خمس خشبـات، لتكدرت عليـه لذتـه، وفسد عليـه عيشه، وهو في كل نَفَس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور.

واعلم أن شـدة الألم في سكرات المـوت لا يعرفهـا بالحقيقـة إلا من ذاقهـا، ومن لم يذقها فإنما يعرفها بالقياس، فإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوتـه في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شـدة ألمه، لأن الكـرب قد بالغ فيه، وتصاعد على قلبه، وبلغ كل موضع منه..

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقـه، ولو كـان المجذوب عـرقاً واحـداً لكان ألمـه عظيمـاً، فكيف والمجـذوب نفس الـروح المتـألم؟ لا من عـرق واحد، بل من جميع العروق. ثم يموت كل عضو من أعضائـه تدريجيـاً، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة، حتى

يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة. قال ﷺ: «تقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1].

وقال مجاهد في قوله تعالى:

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾[2].

قال: إذا عاين الرسل، فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت، فلا تسأل عن طعم مرارة الموت، وكربه عند ترادف سكراته.

وروي عن النبي ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده في الماء، ثم يمسح بها وجهه ويقول: «اللهم هوّن علي سكرات الموت»[3].

فهذه سكرات الموت.. وتتوالى بقية الدواهي، فإن دواهي الموت ثلاث:

الأولى: شدة النزع كما ذكرناه.

الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت، ودخول الروع والخوف منه على القلب، والمطيع يراه في أحسن صورة وأجملها.

الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم في النار.

عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت عائشة، أو بعض أزواجه: إنا نكره الموت، قال: «ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه (ع).

(٢) سورة النساء: الآية (١٨).

(٣) لفظ الترمذي: «اللهم أعني...» وعند البخاري برقم (٦٥١٠): «لا إله إلا الله إن للموت سكرات».

لقاء الله، وكره الله لقاءه»[1].

ما يستحب من أحوال المحتضر:

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر الهدوء والسكون، ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى.

أما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهو علامة الخير. قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله»[2]، وقال عثمان: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[3].

وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ولكن يتلطف، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك، ويؤدي إلى استثقاله التلقين، وكراهيته للكلمة، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة.

وإنما معنى هذه الكلمة: أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق، كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه. وإن كان القلب شغوفاً بالدنيا متأسفاً على لذاتها، وكانت الكلمة على رأس اللسان، ولم ينطبق القلب على تحقيقها، وقع الأمر في خطر المشيئة، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى، إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول.

وأما حسن الظن، فهو مستحب في هذا الوقت، قال ﷺ: «يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي»[4].

***

(١) متفق عليه (خ ٦٥٠٧، م ٢٦٨٤).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٩١٦).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦).
(٤) متفق عليه (خ ٧٤٠٥، م ٢٦٧٥).

الباب الرابع

وفاة النبي ﷺ وصاحبيه

وفاة رسول الله ﷺ:

اعلم أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، حياً وميتاً، وجميع أحواله عبرة للناظرين، وتبصرة للمتبصرين، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه، إذ كان خليل الله، وحبيبه، وكان صفيه ورسوله ونبيه، فانظر: هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته، وهل أخره لحظة بعد حضور منيته؟

فهل رأيت منصب النبوة دافعاً عنه مقدوراً؟ وهل راقب الملك فيه أهلاً وعشيراً؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيراً وللخلق بشيراً ونذيراً؟

فالعجب أنا لا نعتبر، فما بالنا لا نتعظ بموت محمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وحبيب رب العاملين، لعلنا نظن أنا مخلدون.. هيهات! هيهات!

قالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس وخطبهم[١].

وعن أبي سعيد الخدري قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله». قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه، أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خير، فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا، وقال: «لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٤٢) دون ذكر سبعة آبار.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٦٥٤) ومسلم برقم (٢٣٨٢).

وقالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وإن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل عبد الرحمن وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فتناولته فاشتد عليه، وقلت: أليّنه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليّنته فأمرّه، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات» ثم نصب يده، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده»[1] فقلت: إذن لا يختارنا[2].

وعن عبد الله بن زمعة قال: أذن بلال بالصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «مروا أبا بكر يصلي بالناس، فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر، فقلت: قم يا عمر فصل بالناس، فقام عمر، فلما كبر ــ وكان رجلاً صيّتاً ــ سمع رسول الله ﷺ صوته بالتكبير، فقال: «أين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون» قالها ثلاث مرات، فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس[3].

قالت عائشة: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين[4].

وبلغ أبا بكر الخبر، وهو في بني الحارث، (فأقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة، فتيمم رسول الله ﷺ، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي: والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها)[5].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٤٩).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤٣٧).
(٣) أخرجه أبو داود بإسناد جيد (ع) كتاب السنة باب ١١.
(٤) رواه ابن عبد البر (ع) قلت: وجزم موسى بن عقبة بأنه مات حين زاغت الشمس (ش).
(٥) أخرجه البخاري برقم (٤٤٥٣).

ثم خرج إلى الناس فقال: أيها الناس، من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[1].

فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ[2].

وفاة أبي بكر رضي الله عنه:

لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت[3] يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذا، ولكن قولي:
﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[4].

انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت.

واستخلف عمر رضي الله عنه، وأوصاه فقال: اعلم أن لله حقاً في النهار لا يقبله في الليل، وأن لله حقاً في الليل لا يقبله في النهار، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل، وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف.. فإذا حفظت وصيتي، فلا يكون غائب أحب

(١) سورة آل عمران: الآية (١٤٤).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤٥٤).
(٣) الحشرجة: الغرغرة عند الموت.
(٤) سورة ق: الآية (١٩).

إليك من الموت، ولا بدَّ لك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت، ولا بدَّ لك منه، ولست بمعجزه.

وفاة عمر رضي الله عنه:

لما طعن أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنه ونقل إلى منزله قال لابنه عبد الله: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام ـ ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ـ وقل: يستأذن أن يدفن مع صاحبيه. فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي. فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت قال: الحمد لله. ما كان من شيء أهم إلي من ذلك. فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين[1].

وعن ابن عباس قال: «وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع، وأنا فيهم فلم يرعني إلا رجل آخذ منكبي، فإذا علي بن أبي طالب، فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أني كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»[2].

***

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٦٨٥).

الباب الخامس

في الجنائز والمقابر

الاعتبـار بالجنائـز:

اعلم أن الجنـائز عبـرة للبصير، وفيهـا تنبيه وتـذكير إلَّا لأهـل الغفلة، فـإنهـا لا تزيدهم مشاهدتها إلَّا قساوة، لأنهم يظنون أنهم أبـداً إلى جنازة غيـرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم ـ لا محالة ـ عليها يحملون.

يروى عن أبـي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال: امضوا فإنّا على الأثر.

وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنّا رائحون، موعظة بليغة وغفلة سريعة، يذهب الأول، والآخر لا عقل له.

وقال الأعمش[1]: كنا نشهد الجنائز، فلا ندري من نعزي، لحزن الجميع.

وقال ثابت البناني: كنا نشهد الجنائز، فلا نرى إلَّا متقنعاً باكياً.

فهكذا كان خوفهم من الموت، والآن، لا ننـظر إلى جماعـة يحضرون جنـازة إلَّا وأكثـرهم يضحكون ويلهـون، ولا يتكلّمون إلَّا في ميـراثه، ومـا خلفه لـورثته.. وأحسن أحوال الحاضرين على الجنائـز بكاؤهم على الميت، ولـو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت.

ومن آداب حضور الجنائز: التفكر والتنبُّه، والاستعداد، والمشي أمـامها على

(١) الأعمش: هـو سليمان بن مهـران الأسدي، من التـابعين، كان عـالمـاً بـالقـرآن والحـديث والفـرائض. قـال الـذهبي: كـان رأسـاً في العلم النـافـع والعمـل الصـالـح، تـوفي عـام (١٤٨)هـ.

هيئة التواضع. ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح، فإن الخاتمة مخطرة لا يُدرَى حقيقتها.

زيارة القبور:

قال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظراً إلاَّ والقبر أفظع منه»(١).

وقال ﷺ: «القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد»(٢).

وقال حاتم الأصم: من مر بالمقابر، فلم يتفكر لنفسه، ولم يدعُ لهم، فقد خان نفسه وخانهم.

وكان الربيع بن خثيم(٣) قد حفر في داره قبراً، فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه، فاضطجع، ومكث ما شاء الله، ثم يقول:

﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾(٤).

يرددها. ثم يرد على نفسه: يا ربيع قد رجعتك فاعمل.

وزيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، قال ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»(٥).

وقال ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة»(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان، وقال: صحيح الإسناد. قال الترمذي: حسن غريب (ع).

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه، والحاكم وصحح إسناده (ع).

(٣) الربيع بن خثيم، الثوري، الكوفي العابد. قال أبو يعلى: كان في بني ثور ثلاثون رجلاً ما فيهم رجل دون الربيع بن خثيم.

(٤) سورة المؤمنون: الآية (٩٩).

(٥) أخرجه مسلم برقم (٩٧٧).

(٦) أخرجه أحمد، ولمسلم: «فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت» رقم (٩٧٦).

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبراً القبلة، مستقبلاً بوجهه الميت، وأن يسلم، ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله.

قال نافع: كان ابن عمر ـ رأيته مائة مرة أو أكثر ـ يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، وينصرف.

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه، فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه، ولا للميت.

ويستحب الثناء على الميت، وألا يذكر إلاَّ بالجميل، قالت عائشة: قال ﷺ: «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه»(١) وقال ﷺ: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»(٢).

قال أنس بن مالك: مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شراً فقال ﷺ: «وجبت» ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيراً، فقال ﷺ: «وجبت» فسأله عمر عن ذلك، فقال: «إن هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار. وأنتم شهداء الله في الأرض»(٣).

موت الولد:

حق على من مات ولده، أو قريب من أقاربه، أن ينزله منزلة ما لو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لأنه لاحق به على القرب، وليس بينهما إلاَّ تقدم وتأخر.

وهكذا الموت معناه السبق إلى الوطن، إلى أن يلحق المتأخر، وإذا اعتقد هذا قلَّ جزعه وحزنه، لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزّى به كل مصاب.

---

(١) أخرجه أبو داود بإسناد حسن (ع).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٩٣).

(٣) متفق عليه (خ ١٣٦٧، م ٩٤٩).

قال ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد، فيحتسبهم إلاَّ كانوا له جُنة من النار». فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ: أو اثنان؟ قال: «أو اثنان»[1].

وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت، فإنه أرجى دعاءً وأقربه إلى الإجابة.

لما مات ذرّ بن عمر بن ذر، قام أبوه عمر بن ذر[2] ــ بعدما وضعه في لحده ــ فقال: يا ذر، لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، فليت شعري ماذا قلت، وماذا قيل لك؟ ثم قال: اللَّهم إن هذا ذر متعتني به ما متعتني، ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه. اللَّهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي، اللَّهم ما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك، فهب لي عذابه ولا تعذبه ــ فأبكى الناس ــ ثم قال عند انصرافه: ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر، وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة، فلقد مضينا وتركناك، ولو أقمناك ما نفعناك.

***

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣٢) بلفظ: «لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبه..».
وفي المتفق عليه: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسَّه النار إلاَّ تحلة القسم».

(٢) عمر بن ذر بن عبد الله بن ذر الهمداني الكوفي، العابد.

البَابُ السَّادِسُ

فِي حَقِيقَةِ المَوْتِ وَعَذَابِ القَبْرِ

حقيقة الموت:

ظن بعضهم أن الموت هو العدم، وأنه لا حشر..

وقال آخرون: إن الروح باقية، والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد، التي لا تبعث..

وقال غيرهم غير ذلك.

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق.

والذي تشهد له طرق الاعتبار، وتنطق به الآيات والأخبار: أن الموت معناه تغير حال فقط، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد، إما معذبة، وإما منعمة.

ومعنى مفارقتها للجسد: انقطاع تصرفها عن الجسد، بخروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها، حتى إنها لتبطش باليد، وتسمع بالأذن.. والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم، ويتنعم بأنواع الفرح والسرور، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء.

فكل ما هو وصف للروح بنفسها، فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد.

ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث.

فالروح: المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم، ولذات الأفراح.

والموت: انقطاع تصرف الروح عن البدن، وخروج البدن عن أن يكون آلة له.

نعم؛ لا يمكن كشف الغطاء، عن كنه حقيقة الموت، إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح، ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها، ولا أن يزيد على أن يقول:

﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1].

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح، وانعدام إدراكها، آيات وأخبار كثيرة:

قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾[2].

ولما قتل صناديد قريش يوم بدر، ناداهم رسول الله ﷺ فقال: «يا فلان، يا فلان، يا فلان، قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً»؟ فقيل: يا رسول الله، أتناديهم وهم أموات، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلاَّ أنهم لا يقدرون على الجواب»[3].

فهذا نص في روح الشقي، وبقاء إدراكها ومعرفتها.

والآية نص في أرواح الشهداء. ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة.

وقال ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك، حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[4].

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٦٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧٣، ٢٨٧٤).

(٤) متفق عليه (خ ١٣٧٩، م ٢٨٦٦).

وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال.

ولهذا قال عبد الله بن عمرو: إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه، مثل رجل بات في سجن فأخرج منه، فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها.

عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه، ثم قال: «اللَّهم إني أعوذ بك من عذاب القبر» ثلاثاً، ثم قال: «إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة، بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس، معهم حنوطه وكفنه، فيجلسون مد بصره، فإذا خرجت روحه، صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت أبواب السماء، فليس منها باب إلاَّ يحب أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه، قيل: أي رب، عبدك فلان، فيقول: أرجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة، فإني وعدته:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1].

وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين. حتى يقال: يا هذا، من ربك، وما دينك وما نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، قال: فينتهرانه انتهاراً شديداً، وهي آخر فتنة تعرض على الميت، فإذا قال ذلك، نادى منادٍ: أن قد صدقت، وهي معنى قوله تعالى:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[2].

ثم يأتيه آتٍ حسن الوجه، طيب الريح، حسن الثياب، فيقول: أبشر برحمة ربك، وجنات فيها نعيم مقيم، فيقول: وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، والله ما علمت إن كنت لسريعاً إلى طاعة الله، بطيئاً عن

---

(١) سورة طه: الآية (٥٥).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٢٧).

معصية الله فجزاك الله خيراً، قال: ثم ينادي منادٍ أن افرشوا له من فرش الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيفرش له من فرش الجنة، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقول: اللّهم عجِّل قيام الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وأما الكافر، فإنه إذا كان في قبل من الآخرة، وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد، معهم ثياب من نار، وسرابيل من قطران، فيحتوشونه، فإذا خرجت نفسه، لعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وغلقت أبواب السماء، فليس منها باب إلاّ يكره أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه، نبذ وقيل: أي رب، عبدك فلان، لم تقبله سماء ولا أرض. فيقول الله عزَّ وجلّ: ارجعوه، فأروه ما أعددت له من الشر، إني وعدته ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، حتى يقال: يا هذا، من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فيقول: لا أدري، فيقال: لا دريت، ثم يأتيه آتٍ قبيح الوجه، منتن الريح، قبيح الثياب، فيقول: أبشر بسخط من الله، وبعذاب أليم مقيم، فيقول: بشرك الله شراً، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، والله إن كنت لسريعاً في معصية الله، بطيئاً عن طاعة الله، فجزاك الله شراً، ويقول: وأنت فجزاك الله شراً، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم معه مرزبة من حديد، لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا، لو ضرب بها جبل صار تراباً، يضربه بها ضربة فيصير تراباً، ثم تعود فيه الروح، فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين، ليس الثقلين، قال: ثم ينادي منادٍ: أن افرشوا له لوحين من نار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيفرش له لوحان من نار، ويفتح له باب إلى النار»(1).

وقال أبو هريرة: قال ﷺ: «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر، وللآخر نكير، فيقولان له: ما كنت تقول في النبي؟ فإن كان مؤمناً

---

(1) أخرجه أبو داود والحاكم بكماله، وقال: صحيح على شرط الشيخين. وضعفه ابن حبان. ورواه النسائي وابن ماجه مختصراً (ع). قلت: وكذا رواه أحمد وابن أبي شيبة في المصنف، والطيالسي وعبد بن حميد في مسنديهما، وهناد في الزهد، وابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، والبيهقي في عذاب القبر وغيرهم، من طرق صحيحة (ش).

قال: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إلّه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله، فيقولان: إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً، وينوَّر له في قبره، ثم يقال له: نم، فيقول: دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقال له: نم، فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلاَّ أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً قال: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون شيئاً وكنت أقوله فيقولان: إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك، ثم يقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، حتى تختلف فيها أضلاعه، فلا يزال معذباً، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[1].

وقالت عائشة رضي الله عنها: قال ﷺ: «إن للقبر ضغطة، لو سلم أو نجا منها أحد، لنجا سعد بن معاذ»[2].

[وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه ـ وإنه ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ. فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريتَ ولا تليتَ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»[3]][4].

***

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه (ع).

(٢) رواه أحمد بإسناد جيد (ع).

(٣) متفق عليه (خ ١٣٧٤، م ٢٨٧٠).

(٤) ما بين القوسين [ ] لم يذكره المصنف، وإنما ذكرته لأنه يغني عن أحاديث ذكرها ليست في الصحيحين.

الشطر الثاني

من كتاب ذكر الموت
في أحوال الميت حتى الاستقرار في الجنة أو النار

عرفت فيما سبق شدة سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة. . ثم منكراً ونكيراً وسؤالهما، ثم عذاب القبر إن كان مغضوباً عليه، وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه، من نفخ للصور، وبعث ليوم النشور والعرض على الجبار، والسؤال عن القليل والكثير. .

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم، ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء، وتهاونهم بحر جهنم، وزمهريرها، مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال.

بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم، ثم غفلت عنه قلوبهم. ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم، فقال للذي أخبره: صدقت، ثم مد يده لتناوله، كان مصدقاً بلسانه ومكذباً بعمله، وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان.

فإن كان في إيمانك ضعف، فقوِّه بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل، وإن كنت قوي الإيمان، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكير والاعتبار.

صفة نفخة الصور:

تفكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور، من شدة نفخ الصور، فإنها صيحة واحدة، تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى، فيثورون دفعة واحدة.

فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك، مغبراً بدنك من فرقك إلى قدمك، من تراب قبرك، مبهوتاً من شدة الصعقة، شاخص العين نحو النداء. وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم، وقد أزعجهم الفزع والرعب، مضافاً إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم، وشدة الانتظار لعاقبة الأمر.

قال تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾(2).

وقال تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾(3).

فلو لم يكن بين يدي الموت إلاَّ هول تلك النفخة لكان جديراً بأن يتقى، فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض ـ يعني يموتون بها ـ إلاَّ من شاء الله. وهو بعض الملائكة. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم؟ وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنى الجبهة، وأصغى بالأذن، ينتظر متى يؤمر فينفخ»(4).

(1) سورة الزمر: الآية (٦٨).
(2) سورة المدثر: الآية (٨).
(3) سورة يس: الآيات (٤٨ ـ ٥٢).
(4) أخرجه الترمذي وقال: حسن (ع). قلت: ورواه أحمد وأبو يعلى وابن خزيمة والحاكم وصححه وغيرهم. (ش).

قال مقاتل[1]: الصور هو القرن، وذلك أن إسرافيل عليه السلام، واضع فاه على القرن، كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السماوات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش، ينتظر متى يؤمر، فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صعق من في السماوات والأرض، أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلّا من شاء الله، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت فيموت. ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيي الله تعالى إسرافيل. فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[2].

فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم عند الانبعاث خوفاً من شدة هذه الصعقة، وانتظاراً لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم، متحير كتحيرهم، بل إن كنت في الدنيا من المترفهين والأغنياء، فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل الأرض، وأصغرهم وأحقرهم..

وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال، منكسة رؤوسها، مختلطة بالخلائق بعد توحشها، ذليلة ليوم النشور، من غير خطيئة، ولكن حشرتهم شدة النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم، وذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[3].

ثم أقبلت الشياطين والمردة بعد تمردها وعتوها، وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى، تصديقاً لقوله تعالى:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾[4].

---

(١) مقاتل بن سليمان الأزدي البلخي، أبو بسطام، صدوق فاضل. روى له أبو داود.

(٢) سورة الزمر: الآية (٦٨).

(٣) سورة التكوير: الآية (٥).

(٤) سورة مريم: الآية (٦٨).

فتفكَّر في حالك وحال قلبك هنالك.

صفة أرض المحشر:

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة إلى أرض المحشر، أرض بيضاء قاع صفصف، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا ترى عليها ربوة ولا وهدة، بل هو صعيد واحد بسيط، لا تفاوت فيه، يساقون إليه زمراً.

فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم بالراجفة تتبعها الرادفة، وحق لتلك القلوب أن تكون يومئذٍ واجفة، ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة، قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى، ليس فيها معلم لأحد»[1].

قال الراوي: والعفرة: بياض ليس بالناصع، والنقى: هو النقي عن القشر والنخالة، ومعلم: أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر.

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا، بل لا تساويها إلَّا في الاسم. قال تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[2].

قال ابن عباس: يزاد فيها وينقص، وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها.

فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدته، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء، وطمس الشمس والقمر، وانشقت فيه السماء مع شدتها، ثم صارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن، واشتبك الناس كالفراش المبثوث، وهم حفاة عراة مشاة.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٥٢١، م ٢٧٩٠).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٤٨).

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: ركباناً ومشاة وعلى وجوههم»، فقال رجل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»(١).

فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً متحيراً، منتظراً لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو الشقاوة، وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة.

صفة العرق:

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم، حتى ازدحم على الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع، من ملك وجن وإنس وشيطان، ووحش وسبع وطير، فأشرقت عليهم الشمس، وقد تضاعف حرّها، وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها.

ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين، فلم يبقَ على الأرض ظل إلاَّ ظل عرش ربِّ العالمين، ولا يمكن من الاستظلال به إلاَّ المقربون. فمن مستظل بالعرش، ومن مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها، واشتد كربه وغمه من وهجها.

ثم تدافعت الخلائق، ودفع بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح عند العرض على جبار السماء، فاجتمع وهج الشمس، وحرّ الأنفاس، واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف، ففاض العرق من أصل كل شعرة، حتى سال على صعيد القيامة. ثم ارتفعت على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، وبعضهم كاد يغيب فيه.

---

(١) رواه الترمذي وحسنه. وفي الصحيحين من حديث أنس، أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» (ع)، (خ ٤٧٦٠، م ٢٨٠٦).

قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «يوم يقوم الناس لرب العالمين، حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[1].

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يعرق الناس يوم القيامة، حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»[2].

فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر، وشدة كربهم، وفيهم من ينادي فيقول: ربِّ أرحني من هذا الكرب ولو إلى النار، وكل ذلك ولم يلقوا حساباً ولا عقاباً، فإنك واحد منهم، لا تدري أين يبلغ منك العرق؟

صفة يوم القيامة:

يوم تقف فيه الخلائق، شاخصة أبصارهم، منفطرة قلوبهم، لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم، حتى إذا بلغ الجهد منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم.

فاستعد يا مسكين، لهذا اليوم، العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كورت، والجبال قد سيرت، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مدت.

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذٍ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذٍ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية، يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية.

يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

---

(١) متفق عليه (خ ٤٩٣٨، م ٢٨٦٢).
(٢) متفق عليه (خ ٦٥٣٢، م ٢٨٦٣).

فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام، ولا يسأل فيه عن الإجرام، بل يؤخذ بالنواصي والأقدام، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت، وتشهد ما قدَّمت وأخَّرت، يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح.

يوم شيَّب ذكره سيد المرسلين إذ قال: «شيبتني هود وأخواتها»[1] وهي: الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت.

وقد وصف الله بعض دواهي القيامة، وأكثر من أساميها، لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها، فتحت كل اسم من أسماء القيامة نعت من نعوتها. ومن هذه الأسامي:

يوم القيامة، يوم الحسرة، يوم الندامة، يوم القارعة، يوم الراجفة، يوم الغاشية، يوم الآزفة، يوم الحاقَّة، يوم الطامَّة، يوم الصافَّة، يوم التناد، يوم الحساب، يوم الحشر، يوم الوعيد، يوم الجمع، يوم البعث، يوم الخزي، يوم الفزع، يوم السكرة، يوم التغابن، يوم الساعة، يوم تشخص فيه الأبصار، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً.

فيا أيها الإنسان، ما غرك بربك الكريم، حيث أغلقت الأبواب، وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق، فقارفت الفجور، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين.

صفة المساءلة:

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال، فيما يتوجه عليك من السؤال، شفاهاً من غير ترجمان، فتسأل عن القليل والكثير، والنقير والقطمير.

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه (ع).

قال تعالى :

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾(١) .

وقال تعالى :

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾(٣) .

فبالشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء، وتنمحي علومهم من شدة الهيبة، إذ يقال لهم: ما أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق؟ وكانوا قد علموا، فتدهش عقولهم، فلا يدرون بماذا يجيبون، فيقولون من شدة الهيبة: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب. وهم في ذلك الوقت صادقون، إذ طارت منهم العقول، وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى.

وقبل الابتداء بالسؤال، يظهر نور العرش:

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾(٤) .

وأيقن كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد. وجيء بجهنم، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره. فامتلأت القلوب فزعاً ورعباً، فتساقطوا جثياً على الركب:

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾(٥) .

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧).

(٢) سورة الحجر: الآية (٩٣).

(٣) سورة المائدة: الآية (١٠٩).

(٤) سورة الزمر: الآية (٦٩).

(٥) سورة الجاثية: الآية (٢٨).

وسقط بعضهم على الوجوه، وينادي العصاة والظالمون بالويل والثبور، وينادي الصديقون: نفسي نفسي.

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال: (ماذا أجبتم). فإذا رأى الناس ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء، اشتد الفزع على العصاة، ففر الوالد من ولده، والأخ من أخيه، والزوج من زوجته، وبقي كل واحد منتظراً لأمره، ثم يؤخذ واحد واحد، فيسأله الله تعالى شفاهاً عن قليل عمله وكثيره، وعن سره وعلانيته، وعن جميع جوارحه وأعضائه.

قال أبو هريرة: قالوا يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب»، قالوا: لا، قال: «فهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب» قالوا: لا، قال: «فوالذي نفسي بيده لا تضارّون في رؤية ربكم. فيلقى العبد فيقول له: ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول العبد: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقِيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فأنا أنساك كما نسيتني»[(١)].

وعن أنس قال: كنا عند رسول الله فضحك، فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه[(٢)]: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٦٨). ومعنى (تربع) من المرباع الذي كان يأخذه الرئيس من الغنيمة. والمعنى: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً.

(٢) أي جوارحه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٦٩).

فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه، ولا يطلع عليه غيره:

سأل رجل ابن عمر فقال له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «يُدْنَى المؤمن يوم القيامة من ربه عزَّ وجلّ، حتى يضع عليه كنفه[1]، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب، أعرف. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته..»[2].

فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم، واحتمل في حق نفسه تقصيرهم، ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم، ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون، فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة. ثم تفكر في عظيم حيائك، إذا ذكرك ذنوبك شفاهاً، إذ يقول: يا عبدي، أما استحييت مني فبارزتني بالقبيح، واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل، أكنت أهون عليك من سائر عبادي؟ استخففت بنظري إليك فلم تكترث، واستعظمت نظر غيري.

قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان»[3].

صفة الميزان:

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل، حيث تشخص الأبصار، وتطيش عقول الخلائق.

قالت عائشة رضي الله عنها: ذكرت الآخرة فبكيت، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، في ثلاث مواطن فإن أحداً لا يذكر إلا

(١) هو ستره وعفوه.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٦٨).
(٣) متفق عليه (خ ٧٤٤٣، م ١٠١٦/٦٧).

نفسه، إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال، حتى ينظر ابن آدم: أيخف ميزانه أم يثقل؟ وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله، وعند الصراط»[1].

صفة الخصماء ورد المظالم:

قد عرفت هول الميزان وخطره، وأن الأعين شاخصة إليه:

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾[2].

واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله، كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا.

وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحاً، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى، ويرد المظالم، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون من المفلس؟» قلنا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع، قال: «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضَى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[3].

وقال أبو هريرة في قوله عزَّ وجلّ:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[4].

---

(١) أخرجه أبو داود، وإسناده حسن (ع).

(٢) سورة القارعة: الآيات (٦ ـ ١١).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨١).

(٤) سورة الأنعام: الآية (٣٨).

(إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ــ البهائم والدواب والطير وكل شيء ــ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء[1] ثم يقول: كوني تراباً، فذلك حين يقول الكافر:

﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾[2])[3].

فتفكر الآن في نفسك، إن خلت صحيفتك عن المظالم، أو تلطف لك حتى عفا عنك، وأيقنت بسعادة الأبد، كيف يكون سرورك في منصرفك من فصل القضاء. وإن تكن الأخرى ــ والعياذ بالله ــ بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة، فمقتك الله تعالى لأجلها!! وعندها تنادي بالويل والثبور.

صفة الصراط:

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى:

﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾[5].

فالناس، من بعد هذه الأهوال، يساقون إلى الصراط، وهو جسر ممدود على متن النار، أحدّ من السيف وأدق من الشعر. فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خفَّ على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا، وأثقل ظهره بالأوزار، تعثر في أول قدم من الصراط وتردى.

---

(١) الجماء، هي الشاة التي لا قرن لها، والقرناء: هي التي لها قرون.

(٢) سورة النبأ: الآية (٤٠).

(٣) رواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي (ش).

(٤) سورة مريم: الآيتان (٨٥ ــ ٨٦).

(٥) سورة الصافات: الآية (٢٣).

قال ﷺ: «يضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز بأمته من الرسل، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم، اللهم سلم، وفي جهنم كلالبب مثل شوك السعدان[1]، هل رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل[2] ثم ينجو»[3].

وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «يمر الناس على جسر جهنم، وعليه حسك وكلاليب، وخطاطيف تخطف الناس يميناً وشمالاً، وعلى جنبتيه ملائكة يقولون: اللهم سلم، اللهم سلم، فمن الناس من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس المجرى، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم من يزحف زحفاً، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون، وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحماً، ثم يؤذن في الشفاعة»[4].

فهذه أهوال الصراط، فطوّل فيه فكرك، فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد. ولست أعني بالخوف أن تدمع عينك، ويرق قلبك، بل من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا شيئاً طلبه، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى، ويحثك على طاعته.

---

(١) الكلاليب: جمع كلوب وكلاب، وهي خشبة في رأسها عقافة حديد، والسعدان: نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب.

(٢) في اللغة: المخَرْدَل: المصروع [القاموس المحيط].

(٣) متفق عليه (خ ٨٠٦ و٧٤٣٧، م ١٨٢).

(٤) متفق عليه (خ ٧٤٣٩، م ١٨٣).

صفة الشفاعة:

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين، فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين.

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة:

قال الله تعالى:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ تلا قول الله عزَّ وجلَّ في إبراهيم:

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وقول عيسى عليه السلام:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3].

ثم رفع يديه وقال: «اللهم، أمتي أمتي» ثم بكى. فقال الله عزَّ وجلَّ: يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك، فأتاه جبريل فسأله فأخبره ـ والله أعلم به ـ فقال: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»[4].

وقال ﷺ: «لكل نبيّ دعوة مستجابة، وأردت أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[5].

---

(١) سورة الضحى: الآية (٥).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٣٦).

(٣) سورة المائدة: الآية (١١٨).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٠٢).

(٥) متفق عليه (خ ٣٦٠٥، م ١٩٨).

قال أبو هريرة: قال ﷺ: «أنا سيد المرسلين يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول الناس بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام. فيأتون آدم فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله تعالى بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي. نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله. فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام، فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى عليه السلام، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين، وغفر الله لك

ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعط، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي يا رب، فقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب» ثم قال: «والذي نفسي بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكه وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»[1].

صفة الحوض:

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا ﷺ، وقد اشتملت الأخبار على وصفه، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه، وفي الآخرة ذوقه، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبداً.

عن أنس قال: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه متبسماً، فقالوا له: يا رسول الله لم ضحكت؟ قال: «آية أنزلت علي آنفاً، وقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر﴾ حتى ختمها، ثم قال: هل تدرون ما الكوثر؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنه نهر وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ في الجنة عليه خير كثير، عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء»[2].

وقال أنس: كان رسول الله يقول: «ما بين لابتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة»[3].

وعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله، ما آنية الحوض؟ قال: والذي نفس محمد بيده، لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية، من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٠٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٣٠٣/٤١).

عـرضه مثـل طولـه، ما بين عمـان وأبلة، مـاؤه أشـد بيـاضـاً من اللبن، وأحلى من العسل»[1].

فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين، وليحذر أن يكـون متمنياً ومغتـراً وهـو يظن أنـه راج، فإن الـراجي للحصـاد من بث البـذر، ونقى الأرض، وسقـاهـا الماء، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات.

القول في صفة جهنم وأهوالها:

يا أيها الغافل عن نفسه، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا، المشرفة على الانقضـاء والزوال، دع التفكيـر فيما أنت مـرتحـل عنـه، واصـرف الفكـر إلى موردك، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع، إذ قال تعالى:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[2].

فأنت من الورود على يقين، ومن النجاة في شك، فـاستشعر في قلبـك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه.

قـال أبو هـريرة: كنـا مع رسـول الله ﷺ فسمعنا وجبـة فقال رسـول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قـال: «هذا حجـر أرسل في جهنم منـذ سبعين عاماً، الآن انتهى إلى قعرها»[3].

إن أقل الناس عذاباً، لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها، لافتدى بها من شـدة ما هو فيه. قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل النار عذابـاً يوم القيـامة ينتعـل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه»[4].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣٠٠).

(٢) سورة مريم: الآيتان (٧١ ـ ٧٢).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٨٤٤).

(٤) متفق عليه (خ ٦٥٦١، م ٢١٢) واللفظ لمسلم.

ومهما شككت في شدة عذاب النار، فقرب أصبعك من النار، وقس ذلك به، ثم اعلم أنك أخطأت في القياس، فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم. ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا هذه النار، عرف عذاب جهنم بها وهيهات[1].

وقال أبو هريرة: قال ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها في نفسين، نَفَس في الشتاء، ونَفَس في الصيف، فأشد ما تجدونه في الصيف من حرها، وأشد ما تجدونه في الشتاء من زمهريرها»[2].

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾[3].

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾[4].

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[5].

قال ابن عباس: قال ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، أفسدت على أهل الدنيا معايشهم»[6].

---

(١) جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرها» (خ ٣٢٦٥، م ٨٢٤٣).

(٢) متفق عليه (خ ٣٢٦٠، م ٦١٧).

(٣) سورة الواقعة: الآيات (٥١ ــ ٥٥).

(٤) سورة الصافات: الآيات (٦٤ ــ ٦٨).

(٥) سورة المزمل: الآيتان (١٢ ــ ١٣).

(٦) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح، وابن ماجه (ع) قلت: وأحمد والنسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي (ش).

ثم انظر بعد هذا، في تعظيم أجسام أهل النار، فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عذابهم بسببه، فيحسون بلفح النار، ولدغ العقارب والحيات دفعة واحدة. قال أبو هريرة: قال ﷺ: «ضرس الكافر في النار مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث»(١).

ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات، فتجدّد جلودهم ولحومهم. قال الحسن البصري في قوله تعالى:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾(٢).

قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فيعودون كما كانوا.

وقال ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت»(٣).

وعدد أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، الأعلى: جهنم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحطمة ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

ومن أعظم ما يلاقيه أهل جهنم من شدة العذاب: حسرة فوت نعيم الجنة، وفوت لقاء الله تعالى، وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا.

القول في صفة الجنة ونعيمها:

وتفكر في أهل الجنة، وفي وجوههم نضرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالحور العين، كأنهن الياقوت والمرجان، قاصرات الطرف عين، يطاف عليهم

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٥١).

(٢) سورة النساء: الآية (٥٦).

(٣) متفق عليه (خ ٦٥٤٨، م ٢٨٥٠).

بأكواب وأباريق، وكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاءً بما كانوا يعملون.

مقام أمين، في جنات وعيون، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، عباد مكرمون، فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يخافون فيها ولا يحزنون، ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً، أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان، ترابها مسك أذفر، ونباتها زعفران.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ينادي مناد: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1]»[2].

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة، فاقرأ القرآن، فليس وراء بيان الله تعالى بيان، واقرأ من قوله تعالى:

﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[3].

إلى آخر سورة الرحمن. واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور.

وتأمل عدد الجنان. قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى:

﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيها، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٤٣).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٨٣٧).
(٣) سورة الرحمن: الآية (٤٦).
(٤) متفق عليه (خ ٤٨٧٨، م ١٨٠).

ثم انـظر إلى أبـواب الجنـة، فـإنهـا كثيـرة بحسب أصـول الـطاعــات. قـال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين[1] من مالـه في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها، وللجنة ثمانية أبـواب. فمن كان من أهـل الصلاة دعي من بـاب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام، ومن كان من أهل الصدقة دعي من بـاب الصدقـة، ومن كـان من أهـل الجهـاد دعي من بـاب الجهـاد» فقـال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي، فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[2].

ثم تأمل الآن في غرف الجنة، واختلاف درجات العلو فيها، فإن الآخـرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً. وكما أن بين الناس في الطاعـات الظاهـرة والأخلاق البـاطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً، فكذلـك فيما يجـازون به تفـاوت ظاهـر. فإن كنت تـطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى، فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾[4].

قال أبو سعيـد الخدري: قـال رسول الله ﷺ: «إن أهـل الجنة ليتـراءون أهل الغـرف فوقهم، كمـا يتراءون الكـوكب العابـر في الأفق من المشرق إلى المغـرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسـول الله، تلك منازل الأنبيـاء لا يبلغها غيـرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[5].

---

(١) قال الهروي في تفسير هذا الحديث: قيل: مـا زوجان؟ فـرسان أو عبـدان أو بعيران، وقـال ابن عرفة: كل شيء قرن بصاحبه فهو زوج.

(٢) متفق عليه (خ ١٨٩٧، م ١٠٢٧).

(٣) سورة الحديد: الآية (٢١).

(٤) سورة المطففين: الآية (٢٦).

(٥) متفق عليه (خ ٣٢٥٦، م ٢٨٣١).

تأمل في صورة الجنة، وتفكر في غبطة سكانها، فقد قال ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم:

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾(١)»(٢).

وقال تعالى:

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(٣).

وقال ﷺ: «إن أول زمرة تلج الجنة، صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، ورشحهم المسك لكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً»(٤).

وطعام أهل الجنة مذكور في القرآن، من الفواكه والطيور، والمن والسلوى، والعسل واللبن، وأصناف كثيرة لا تحصى، قال الله تعالى:

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾(٥).

وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة.

[وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر

---

(١) سورة الواقعة: الآية (٣٠).

(٢) متفق عليه (خ ٣٢٥٢، م ٢٨٢٧).

(٣) سورة فاطر: الآية (٣٣).

(٤) متفق عليه (خ ٣٢٤٥، م ٢٨٣٤/١٧).

(٥) سورة البقرة: الآية (٢٥).

على قلب بشر»[1]][2].

صفة النظر إلى وجهه تبارك وتعالى:

قال الله تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3].

وهذه الزيادة، هي النظر إلى وجه الله تعالى.

قال جرير بن عبد الله البجلي: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[4]»[5].

وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾.

قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، قالوا: ما هذا الموعد؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عزَّ وجلّ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»[6].

وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى.

***

---

(١) متفق عليه (خ ٣٢٤٤، م ٢٨٢٤).
(٢) لم يذكر المصنف هذا الحديث، وهو أصل في الموضوع، ولذلك ذكرته في نهاية البحث.
(٣) سورة يونس: الآية (٢٦).
(٤) سورة طه: الآية (١٣٠).
(٥) متفق عليه (خ ٥٧٣، م ٦٣٣).
(٦) أخرجه مسلم برقم (١٨١).

الخاتمة

في سعة رحمة الله تعالى

نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك، فقد كان ﷺ يحب الفأل[1]، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة، فنقتدي برسول الله ﷺ في التفاؤل.

ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة، كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى. فقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[4].

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلَّت به القدم، أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره مما

---

(١) متفق عليه (خ ٥٧٥٥، م ٢٢٢٤).

(٢) سورة النساء: الآية (٤٨).

(٣) سورة الزمر: الآية (٥٣).

(٤) سورة النساء: الآية (١١٠).

ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بـدين الله تعالى مـع التقصير فيـه، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره.

ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفـره من كـل نعمة أنعم بهـا علينا فـاستعملناهـا في معصيته، ونستغفـره من كل تصـريح وتعـريض بنقصان نـاقص وتقصير مقصِّـر كنا متصفين بـه. ونستغفره من كـل خـطرة دعتنا إلى تصنُّع وتكلُّف تزيناً للناس في كتاب سطرناه أو كـلام نظمنـاه، ونرجـو بعد الاستغفار من جميع ذلـك كله لنا ولمن طـالع كتـابنا هـذا، أو كتبه، أو سمعـه، أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً، فـإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض.

ونحن خلق من خلق الله عـزَّ وجلّ، لا وسيلة لنـا إليه إلَّا فضله وكـرمه، فقـد قـال رسول الله ﷺ: «إن لله تعـالى مائـة رحمة، أنـزل منها رحمـة واحدة بين الجن والإنس والـطير والبهـائم والهوام، فيهـا يتعاطفـون، وبها يتـراحمـون. وأخـر تسعـاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[1].

ويروى أنه إذا كان يوم القيـامة أخـرج الله تعالى كتـاباً من تحت العـرش فيه: «إن رحمتي سبقت غضبـي»[2].

وقال ﷺ: «لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها»[3].

ويروى أن أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ:

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[4].

فقـال الأعرابـي: فـوالله ما أنقـذكم منها وهـو يريـد أن يـوقعكم فيهـا. فقـال ابن عباس: خذوها من غير فقيه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩/٢٧٥٢).

(٢) متفق عليه (خ ٧٤٠٤، م ٢٧٥١).

(٣) متفق عليه (خ ٥٩٩٩، م ٢٧٥٤).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٠٣).

قال الصنابحي: دخلت على عبادة بن الصامت، وهو في مرض الموت، فبكيت فقال: مهلاً. لمَ تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلاَّ حدثتكموه إلاَّ حديثاً واحداً، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إلَه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله حرَّم الله النار عليه»[1].

وقال ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط:

«إن الله يقول للملائكة: من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: يا ربنا، لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به» فكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

قال: «فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلاَّ أرحم الراحمين. فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل.. فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة يقولون: هؤلاء عتقاء الرحمن، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه..»[3].

فهذه أحاديث تبشِّر بسعة رحمة الله، فنرجو الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه، ويتفضل علينا بما هو أهله، بمنِّه وسعة جوده ورحمته.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩)، وهو متفق عليه من غير هذه الرواية.

(٢) سورة النساء: الآية (٤).

(٣) متفق عليه (خ ٧٤٣٩، م ١٨٣).

فهرس الأعلام

اقتصرت على ذكر الأعلام المترجم لها، وبيان موضع الترجمة ليرجع إليها عند الحاجة، ما كان منها في المجلد الأول اقتصرت على ذكر رقم الصفحة، وما كان في المجلد الثاني أشير إليه.

فهرس حرفي للموضوعات الواردة في الكتاب

ك: تعني أن الموضوع ورد خلال كتاب من كتب المهذب.
ف: تعني أن الموضوع ورد ضمن فصل من الفصول.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

﴿ربع المهلكات﴾

١ ــ كتاب شرح عجائب القلب

الموضوع	الصفحة

٢ ــ كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق

٣ ــ كتاب كسر الشهوتين

الموضوع	الصفحة

٤ ـ كتاب آفات اللسان

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٨ ـ كتاب ذم الجاه والرياء

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

١ ـ من معين السيرة.

٢ ـ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).

٣ ـ أضواء على دراسة السيرة.

٤ ـ هكذا فهم السلف.

٥ ـ تحقيق «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٤ مجلدات).

٦ ـ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

٧ ـ دراسة جمالية في ثلاثة أجزاء:

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام.

(٢) ميادين الجمال.

(٣) التربية الجمالية في الإسلام.

٨ ـ أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).

٩ ـ حجة الإسلام الإمام الغزالي.

١٠ـ تحقيق (شرح المعرفة) للإمام الحارث المحاسبي.

تحت الطبع:

١ ـ تقريب (طريق الهجرتين) للإمام ابن القيم.

٢ ـ جامع الصحيحين، للإمامين: البخاري ومسلم.

